الماويّة : نظريّة و ممارسة

عدد 28 / جويلية 2017

شادي الشماوي

ماتت الشيوعية الزائفة ...

عاشت الشيوعية الحقيقية !

تأليف بوب أفاكيان

(ملاحظة : هذه الترجمة ليست رسميّة / This is not an official translation)

مقدّمة المترجم للكتاب 28 :

عنوان كتاب بوب أفاكيان الذى ترجمنا إلى العربيّة وننشر هنا هو" ماتت الشيوعيّة الزائفة...عاشت الشيوعيّة الحقيقيّة **!"** وهو ذات عنوان بيان شهير للحركة الأمميّة الثوريّة بصدد ما جدّ في أواخر ثمانينات القرن العشرين و بدايات تسعيناته في الإتّحاد السوفياتي و البلدان التي كانت تمثّل كتلته من تفكّك و تداعى و إنهيار . و الحركة الأمميّة الثوريّة وليدة الصراع بين الخطّين صلب الحركة الشيوعيّة العالميّة الذى خاضه ورثة ما سمّي بداية " فكر ماو تسى تونغ " و تاليا الماويّة ضد كلّ من التحريفيّة المعاصرة السوفياتيّة و التحريفيّة الصينيّة و التحريفيّة الألبانيّة أو الخوجيّة ، تنظيم عالمي لمجموعة كبيرة من الأحزاب و المنظّمات الماويّة أو الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة نشأ على أساس **بيان الحركة الأممية الثوريّة** لسنة 1984 الذى أردف لاحقا ، سنة 1993 ، ببيان **" لتحي الماركسية - اللينينيّة - الماويّة "** . و ظلّ هذا التنظيم العالميّ ينشط موحّدا إلى 2006 حيث حصل داخله إنشقاق أساسيّ كبير لعدّة أسباب أبرزها الإنحراف اليمينيّ ، التحريفيّ الإصلاحيّ للحزب الشيوعيّ النيبالي (الماوي) الذى أوقف حرب الشعب الماوية التي قادها لسنوات عشر و بدلا من إنجاز الثورة الديمقراطية الجديدة و تعبيد الطريق للثورة الإشتراكية بقيادة البروليتاريا و بالتالى تحطيم الدولة القائمة للطبقات الرجعيّة ، إنخرط في العمل في إطار الدولة الرجعيّة لإصلاحها . و قد سبق لنا و أن وثّقنا هذا الصراع داخل الحركة الأممية الثوريّة في كتابين تجدونهما بمكتبة الحوار المتمدّن و هما **" الثورة الماويّة في النيبال و صراع الخطّين صلب الحركة الأمميّة الثوريّة "** و **" الماويّة تنقسم إلى إثنين "**.

و بوب أفاكيان هو رئيس الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الذى كان من أهمّ الفاعلين في تشكيل الحركة الأمميّة الثوريّة و في قيادتها لذلك لم يكن مفاجأ أن يحمل بيان تلك الحركة نفس عنوان كتاب أفاكيان كما لم يكن مفاجأ أن تروّج أحزاب و منظّمات تلك الحركة لهذا الكتاب عبر العالم قاطبة و كذلك لم يكن مفاجأ عدم نشر الجزء الثاني المعدّ في الأصل لهذا الكتاب مع الجزء الأوّل منه بل صدر في مجلّة الحركة الأمميّة الثوريّة ، **" عالم نربحه "** عدد 17 سنة 1992 ورابطه على الأنترنت هو : http://www.bannedthought.net/International/RIM/AWTW/1992-17/index.htm. و قد إنصبّ إهتمام المؤلّف في الجزء الذى نشر بالمجلّة إيّاها على نقد إنحراف يمينيّ ديمقراطيّ برجوازي ظهر صلب قيادة حزب من الأحزاب المنتمية إلى الحركة الأمميّة الثوريّة ونقصد الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي – اللينيني) لجنة إعادة التنظيم. و بعد بضعة سنوات ، في طبعة ثانية للكتاب ، وقع ضمّ الجزء المنشور بالمجلّة إلى بقيّة الكتاب . لذلك لم نترجم الكتاب كما صدر في طبعته الأولى فحسب بل أضفنا إليه النصّ الذى نشر في **" عالم نربحه "**.

و لئن إنكبّ بوب أفاكيان في الجزء المنشور في مجلّة الحركة الأمميّة الثوريّة بتسليط سياط النقد على ذلك التوجّه التحرفيّ الإصلاحي فإنّه في الجزء الذى صدر من البداية ككتاب قد إعتنى بالردّ على الهجوم الإيديولوجيّ على الشيوعيّة الحقيقيّة ، الشيوعيّة الثوريّة من قبل الممثّلين السياسيّين و الأدبيّين للبرجوازيّة الإمبرياليّة و بالأخصّ ما صرّح به جورج بوش و برجنسكي المستشار السامي في إدارته .

و ليست هذه هي المرّة الأولى التي ينبرى فيها بوب أفاكيان و حزبه للتصدّى للدفاع المستميت عن علم الشيوعية و التجارب الإشتراكيّة للبروليتاريا العالمية وتعرية التيّارات التحريفيّة و الإصلاحيّة فقد رأينا بوب أفاكيان يقارع التحريفيّة الصينيّة التي إستولت على السلطة في الصين إثر إنقلاب 1976 و حوّلت الصين الماويّة الإشتراكيّة إلى صين رأسماليّة ، في كتاب **" المساهامات الخالدة لماو تسى تونغ "** و رأينا الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة ، ينقد بصلابة الخوجيّة و يرفع راية الماويّة في كتابنا ، **" الماويّة تدحض الخوجيّة و منذ 1979 "** ، و رأينا هذا الحزب بقيادة بوب أفاكيان ، يفضح تحريفيّة و إصلاحيّة الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) في كتابنا **" الثورة الماويّة في النيبال وصراع الخطّين صلب الحركة الأمميّة الثوريّة "**) و ألفيناه أيضا يواجه دغمائيّة بعض الأحزاب و المنظّمات التي كانت منتمية إلى الحركة الأممية الثورية من أفغانستان و الهند و إيطاليا و غيرها و معارضتها التعاطى مع الشيوعيّة كعلم و تطوير الماويّة تطويرا ثوريّا في كتابينا **" الماويّة تنقسم إلى إثنين "** و **" آجيث صورة لبقايا الماضى "** . و لتكوين فكرة عن الخلاصة الجديدة للشيوعيّة أو الشيوعيّة الجديدة التي يعتبر بوب أفاكيان مهندسها و التي يمكن أن تعدّ مزيجا من الدفاع عن المبادئ الشيوعيّة الصحيحة و مكاسب التجارب الإشتراكية من ناحية و نقد لبعض الإنحرافات و الأخطاء و تطويرثوريّ للماويّة أو الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة لجعلها أرسخ علميّا و أقدر على قيادة المرحلة أو الموجة الجديدة للثورة الشيوعية العالميّة من ناحية ثانية ، نقترح على القرّاء الغوص في كتابنا – المتوفّر هو و بقيّة الكتب الآنف ذكرها بمكتبة الحوار المتمدّن – **" عن بوب أفاكيان و أهمّية الخلاصة الجديدة للشيوعية – تحدّث قادة من الحزب الشيوعيّ الثوريّ ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة "**.

و قد ينبرى أحدهم ليثير سؤال : ما علاقة كتاب **" ماتت الشيوعيّة الزائفة ... عاشت الشيوعيّة الحقيقيّة ! "** بمجريات أحداث الصراع الطبقيّ و الصراع الإيديولوجي تحديدا الآن و هنا ، بعد ما يناهز الثلاثة عقود من صدور ذلك الكتاب ؟
و الجواب في غاية البساطة : المسائل المطروحة و المناقشة مسائل ما إنفكّت تطرح على بساط البحث إلى اليوم في صفوف فرق اليسار عربيّا فضلا عن كون الهجوم الإيديولوجيّ على الشيوعيّة الحقيقيّة ، الشيوعيّة الثوريّة ما لقي تصدّيا كما يجب كمّا و نوعا من الشيوعيّين و الشيوعيّات في البلدان العربيّة و ما زلنا إلى اليوم نعانى أيّة معاناة من تبعات ذلك .
و حتّى عالميّا ، لا تزال أفكار هذا الكتاب ليس صالحة و حسب بل تنبض حياة و على سبيل المثال سيتفطّن دارس الخطّ التحريفيّ الإصلاحيّ للحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) منذ 2006 و دارس نقد أفاكيان للحزب الهنديّ في الجزء الثاني من هذا الكتاب تقاطعا إلى درجة كبيرة بين أطروحات الحزبين المنحرفين و بالتالى بالإمكان إستغلال حجج أفاكيان في هذا المصنّف للردّ عليهما معا و حتّى على أشباههما ممّن صاروا من أنصار الديمقراطيّة البرجوازيّة المغلّفة بغلاف شيوعيّ في الكثير من بلدان العالم و على النطاق العربيّ أيضا .

و وحده من يسلك سياسة النعامة و يدفن رأسه في الرمل بوسعه إنكار ضرورة الفرز اليوم بين الشيوعيّة الزائفة أي التحريفيّة و الإصلاحيّة السائدتين داخل الحركة الشيوعيّة العربيّة من جهة و الشيوعيّة الحقيقيّة ، الشيوعيّة الثوريّة من الجهة الأخرى سيما و انّ التحريفيّة و الإصلاحيّة قد نخرا و لا يزالان أجسام حتّى القلّة القليلة الباقية من المنظّمات الشيوعيّة الثوريّة أو التي تدّعى ذلك ، و قد سمّما أفكار الشيوعيّات و الشيوعيّين و حوّلا تلك المنظّمات و أولئك الأشخاص إلى ديمقراطيّين برجوازيّين أو قوميّين شوفينيّين لا غير .

و من هنا يندرج عملنا هذا ضمن توضيح و مزيد توضيح خطوط التمايز بين علم الشيوعيّة كسلاح جبّار من أجل الثورة الشيوعيّة العالميّة من ناحية و الصورة المحرّفة و المشوّهة له التي يقدّمها التحريفيّون و الإصلاحيّون من الناحية الأخرى.
غاية عملنا إذن هي مساهمة أخرى تنضاف إلى مساهماتنا السابقة في ممارسة الماركسيّة و نبذ التحريفيّة كما أوصانا ماو تسى تونغ . و يكفى إلقاء نظرة على مضامين هذا الكتاب الذى نضع بين أيديكم للتأكّد من مدى أهمّية و صحّة هذا و لا ظلّ للشكّ في أنّ دراسة القضايا المناقشة في هذا الكتاب ستساعف على كشف حقائق في منتهى الأهمّيّة و الدلالة و رفع الوعي الشيوعيّ الحقيقيّ و نشره في مجابهة أعداء الشيوعيّة و مزيّفيها . و بطبيعة الحال ، ينبغي عدم نسيان إعمال سلاح النقد و قراءة الكتاب قراءة نقديّة في علاقة بواقع أيّام كتابته و أيّامنا هذه و لما لا صياغة ملاحظات نقديّة تفيد في الجدالات و الصراعات في سبيل تطوير فهم علم الثورة البروليتاريّة العالميّة و تطبيقه من أجل تغيير العالم تغييرا شيوعيّا ثوريّا و تحرير الإنسانيّة من كافة أنواع الإستغلال و الإضطهاد.

و **محتويات** العدد 28 من **" الماويّة : نظريّة و ممارسة "** ، فضلا عن مقدّمة المترجم :

ماتت الشيوعية الزائفة ... عاشت الشيوعية الحقيقية !

الجزء الأوّل

الهجوم الراهن ضد الماركسيّة : المراوغات و الردود

الجزء الثاني

مرّة أخرى حول التجربة التاريخيّة للثورة البروليتاريّة – مرّة أخرى حول كسب العالم

القيام بالثورة و دفع الإنتاج

2/ المساواة و الوفرة العامة فى ظلّ الإشتراكيّة :

3/ ماذا يعنى أن تكون الجماهير سيّدة المجتمع ؟

4/ البناء الإشتراكيّ فى الإطار العالميّ :

خاتمة

1/ المواجهة الإيديولوجيّة :

2/ نظرتان إلى العالم ، رؤيتان متناقضتان للحرّية :

3/ أبعد من الحقّ البرجوازيّ :

4/ التكنولوجيا و الإيديولوجيا :

5/ تغيير المجتمع و تغيير " طبيعة الإنسان " :

6/ الماديّة التاريخيّة و تقدّم التاريخ :

الديمقراطية :

أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك

مقدّمة :

1 / بصدد الأحداث الأخيرة بالكتلة السوفياتية السابقة و بالصين

2/ أفق كمونة باريس : الثورتان البلشفيّة و الصينيّة كإمتداد و تعميق لها :

3 / ممارسة السلطة فى المجتمع الإشتراكيّ : القيادة و الجماهير و دكتاتوريّة البروليتاريا :

4/ الصراع الطبقيّ فى ظلّ الإشتراكيّة و أشكال الحكم الجماهيريّ :

5 / مشكلة البيروقراطيّة و دور الحزب و هياكل الدولة فى ظلّ الإشتراكيّة :

ملحق " الديمقراطية :

أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك " حول الديمقراطة البروليتارية

(اللجنة المركزية لإعادة تنظيم الحزب الشيوعي الهندي (الماركسيّ – اللينينيّ))

ملحق الكتاب

فهارس كتب شادى الشماوى

ماتت الشيوعية الزائفة ... عاشت الشيوعية الحقيقية !

مقدّمة الناشر :

يذود هذا الكتاب عن الثورة و عن الشيوعية . و هذا فى حدّ ذاته شأن يُكسبه أهمّية كبرى لأنّنا فى مرحلة تاريخية حرجة فحرس الوضع السائد عالميا يعلنون إنتصار الرأسمالية و ديمومتها . و يقولون : " إستفيقوا ، ألا ترون أنّه من غير المجدي النضال من أجل عالم مختلف ؟ من الأفضل التعوّد على الوضع السائد ." بألف صيغة و صيغة يقولون لنا إنّ التاريخ قد دلّل على أنّ الشيوعيّة شهدت " فشلا ذريعا " و إنّ الثورات تنتهى على الدوام إلى كابوس . و يمثّل هذا الهجوم الإيديولوجي إحتفالا وقحا بكلّ ما هو عفن فى الرأسمالية و بنظامها العالمي الجديد القذر . و مع ذلك ، فإنّ ذلك يؤثّر حتّى على العديد من الذين لا يريدون الحضور فى هذا الإحتفال : إنّه يحدّ من بُعد نظرهم و يُضيّق أفاقهم .

فى خضم هذه الهجمات و هذا التيه الذى سببته ، كتب بوب أفاكيان بيانا متحدّيا و شديدا . لا ، إنّنا لا نعيش فى أفضل عالم ممكن ، بل فى نظام عالمي قاس و هرم يطلب صارخا تحوّلا راديكاليا . نعم ، هنالك بديل تحرّري و عملي للنظام الإجتماعي الذى يقوم على المنافسة و الحقد و الإنقسامات الإجتماعية . و بعيدا عن أن يكون البديل الراديكالي ، فإنّ النظام الذى غرق فى الإتّحاد السوفياتي كان إشتراكيّة زائفة و كانت هياكله الإقتصاديّة و السياسيّة الإضطهاديّة رأسماليّة .

كثيرون هم الذين يعنيهم هذا الكتاب : يعنى جماهير مدن الصفيح و الأحياء اللاتينية ، الجماهير الواسعة و جماهير السجون التى ترنو إلى التحّرر من الإستغلال و الإنحطاط و الأهوال اليوميّة الأخرى للنظام القائم ، يعنى الذين يتطلّعون إلى مقاتلة كلّ المضطهِدين العالميين و يبحثون عن راية تقودهم ، يعنى الشباب الثائر الذى يفتّش عن فلسفات و إيديولوجيّات مغايرة ، يعنى المحاربين القدامى فى عديد النضالات و الحركات الثوريّة الذين يودّون إنجاز تقييم للتاريخ الحديث ، يهمّ الذين لم يتخلّوا عن أحلامهم فى التحرّر لكن الزلازل السياسية للسنوات الأخيرة أربكتهم ، يعنى الذين يفتحون أعينهم حديثا على الحياة السياسيّة و يريدون معرفة كيفيّة القضاء على الفقر و العنصريّة و الحرب و تحطيم الكوكب ، و يعنى الذين يسعون إلى معرفة حقيقة الشيوعيّة الثوريّة و إلى إدراك أهمّيتها .

طَرح إنهيار الكتلة السوفياتية تساؤلات كبرى على العديد من الذين يعملون فى سبيل التغيير الثوري و الإشتراكيّة . لماذا خسرنا الثورات الإشتراكية و لماذا باع كثير من القادة أنفسهم ؟ هل أن المبادئ النظريّة و التنظيميّة للإشتراكيّة التى تمت ممارستها طوال هذا القرن خاطئة ؟ أما تزال صالحة الأهداف و المناهج التاريخيّة للإشتراكية أم يتعيّن "إعادة إختراع " الإشتراكية ؟ تمثّل هذه التساؤلات و النقاشات جزءا من الشبكة الناسجة لهذا الكتاب و العمل النظريّ لبوب أفاكيان فى السنوات الأخيرة . و هذه ليست مواضيعا أكاديميّة ذلك أنّ النضال فى سبيل الدفاع عن نظرة ثوريّة و تحديدها و فى سبيل إنجاز تقييم صحيح للمكاسب و للتراجعات فى طريق تشييد مجتمع بلا طبقات و أنّها مرتبطة إرتباطا وثيقا بالنضال من أجل التقدّم فى الوضع الحالي .

هدف الكتاب مزدوج . أوّلا ، يردّ مباشرة على الهجمات الأكثر آنية و إلحاحا التى توجّه الآن ضد الشيوعية : تأكيدات بأنّ طبيعة الإنسان لا تتوافق مع القيم الإشتراكية و توصيف مزيّف لكيفيّة سير إقتصاد مخطّط و تُهَم بأنّ الشيوعية لون من الطغيان المعاصر . ثانيا ، يتصدّى لتساؤلات تاريخية عالميّة أعمّ أثارتها تجربة الثورة و الثورة المضادة فى هذا القرن وهي أسئلة صعبة و معقدة . مثلا : كيف يمكننا الدفاع عن الثورة البروليتاريّة و نشرها فى عالم تهيمن عليه الإمبريالية و كيف يمكن للنضال من أجل مجتمع جديد أن يغيّر الهياكل الإقتصاديّة و أن يُغيّر نظرة الجماهير إلى العالم و كيف يمكن للذين فى الأسفل أن يقودوا المجتمع . يطبّق أفاكيان ، هنا ، دروس الماضى للخروج بإستنتاجات حول الوضع العالمي الراهن و متطلّباته . هنا ، مثلما فى أعمال أخرى ، يبرز أفاكيان واضح الرؤية إذ يبيّن أنّ الثورة الشيوعيّة تحويل كليّ بالغ الجسامة لعلاقات الملكيّة و الأفكار المتّصلة بالمظاهر و النماذج الأكثر عمقا للوجود الإنساني .
مع هذا الكتاب يُنشر عدد خاص من مجلّة **"عالم نربحه "** يتضمّن بحثا للكاتب معنون " **الديمقراطية : أكثر من أي زمن مضى بوسعنا و علينا أن نصنع أفضل منها** " فيه يجيب أفاكيان على حجج لجنة إعادة التنظيم المركزي للحزب الشيوعي

الهندي (الماركسي - اللينيني) و يزيد التعمّق فى جملة من موضوعات الكتاب الحاليّ . بصورة خاصّة ، يتطرّق إلى التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا و الدور القيادي للحزب الشيوعي و يقيّمهما . و يطرح السؤال على النحو التالي : هل هما عائقان أمام التحرّر أم شيئا تحتاجه البروليتاريا و الإنسانية لتتحرّر ؟ و يؤكد أفاكيان أن تجربة الثورة البروليتارية منذ ماركس ، مع إسهامات لينين و ماو ، كانت على صواب جوهريّا في ما يتّصل بهذه النقاط .

ذلك البحث و هذا الكتاب يمثّلان عملا فى جزئين يذود بقوّة عن الثورة الشيوعيّة و يثبت أنّ الماركسيّة قادرة على مواجهة المشاكل الأكثر تعقيدا أو توهّجا التى تواجه الإنسانيّة على مشارف القرن الواحد و العشرين و يفسّر ضرورة و إمكانيةّ قيادة الإنسانيّة للقضاء على الإنتاج السلعي و الإستغلال و تقسيم المجتمع . إثر إنجاز تقييم للتجربة التاريخية للبروليتاريا فى بناء عالم جديد - مكتسبات و أخطاء- يُشير إلى الدروس الرئيسية المستخلصة من أجل الموجة القادمة من الثورات . فى نهاية المطاف ، المسألة هي معرفة العالم لأجل تغييره ، الآن أكثر من أيّ زمن مضى .

تمهيد :

حدثان هامان كان لهما صدى عالميّا هما إنتصار الإمبريالية الأمريكية و " حلفها " فى الحرب ضد العراق و الإنقلاب و الإنقلاب المضاد فى الإتحاد السوفياتي فى صيف 1991 و هو ما تسمّيه القوى العالمية و صحافتها ب"هزيمة الشيوعيّة " (هزيمة " نهائية " أو تقريبا نهائية).

بطبيعة الحال ، هذان الحدثان مترابطان . فالإنتصار الساحق للإمبرياليين الأمريكان و " حلفهم " فى حرب الخليج لم يكن ليحصل دون التغيّرات التى جدّت فى الإتّحاد السوفياتي و فى دوره العالمي ، حتّى قبل الإنقلاب المضاد . هذا من جهة و من جهة أخرى ، فاقم الإنتصار العسكري الساحق للإمبريالية الأمريكية من حدّة التناقضات داخل الدوائر المهيمنة فى الإتّحاد السوفياتي و ساهم فى تفجيرها.

لكن إضافة إلى ذلك ، إستغلّ الإمبرياليون (الأمريكان بالخصوص) مثل هذه النجاحات و أردفوها بهجوم دعائي ضد القوى المنافسة لهم و ضد الجماهير الشعبية فى العالم بُغية جعل الناس يعتقدون بأنّ لهم [الإمبرياليّون] قدرة لا حدود لها و أنّه من غير الممكن مواجهتهم و الإطاحة بهم عسكريّا و أنّه ، علاوة على ذلك ، لا وجود لبديل لنظامهم و أنّ نظامهم أفضل " شكل للعيش" أو الممكن الوحيد و أنّ محاولات تعويضه بشيء أفضل (خاصة الشيوعية) ستبوء بالفشل . و بالتالي لا يبقى سوى القبول بالعالم كما هو (و هم على رأسه) و فى أقصى الحالات الطموح إلى الصعود داخل حدود هذا النظام . هذه هي الرسالة التى تكرّرها دون كلل و بلهجة إنتصاريّة وسائل الإعلام و الناطقون بإسم الطبقات السائدة .

لا نملك أن نقول إنّه لم يكن لهذا تأثير . إنّه يؤثر على معنويّات ورؤية الكثير من الناس حتّى ضمن البروليتاريا والمضطَهَدين الآخرين . و من الجليّ أنّه لم يخنق الكره الذى يكنّونه لهذا النظام نظرا لشكل الحياة التى يملى عليهم عيشها ، نظرا للعوز و الألم و الإستغلال و الإضطهاد و الإنحطاط المفروضين عليهم يوميّا ، ساعة بعد ساعة . كذلك لا يمكنه أن يمنع إنفجار غضبهم بإستمرار فى مظاهرات و إنتفاضات من شتّى الأنواع . إلاّ أنّه يمارس تأثيرا على هذه النضالات العفوية للجماهير و أيضا على موقف القوى الأكثر تنظيما التى تشارك فيها . إنّه يؤثر على طريقة نضالها و (على ما هو جوهريّ) الأهداف التى من أجلها تناضل أي المطالب و التغييرات التى تبدو لها مرجوّة و ممكنة . إنّه يدفع نحو حصر الرؤية فى الحدود التى يفرضها النظام العالمي الجديد **القديم .**

و أيضا يؤثرهذا على القوى الثوريّة الواعية بما فى ذلك على قوى الحركة الشيوعيّة العالميّة التى دافعت عن خطّ ماوتسى تونغ و التى كانت تعرف ، منذ زمن ، أنّ الإتّحاد السوفياتي كفّ عن أن يكون إشتراكيّا منذ عقود خوالى و بات **إمبريالية إشتراكية** إي إشتراكيّا بالإسم و ظاهريّا لكن إمبرياليّاً فى الواقع و فى الممارسة .

إنّ الوضع الراهن يشبه ما وصفه لينين فى " **إفلاس الأممية الثانية** " و فى هذا سخريّة لأنّ لينين كتب ذلك فى خضم حرب عالميّة (الحرب العالميّة الأولى) ، بينما يعود الوضع الراهن فى جزء كبير منه ، إلى أنّه حاليّا تمّ تجنّب حرب عالميّة و ذلك ، فى جزء كبيرمنه ، بحكم التغيّرات المرتبطة بحكومة ميخائيل غورباتشوف (و الآن أكثر فأكثر بوريس يلتسين). و مع ذلك ، يظلّ الوضع الراهن وضع تقلّبات و تغيّرات دراميّة و فجئيّة و وضع أزمة فى الأساس لم يقع حلّها و ليست جوهريا " متحكّم فيها ".

حين كتب لينين عن إفلاس الأممية الثانية (الإشتراكية) و سقوطها فى الإنتهازيّة ، إثر إندلاع الحرب العالميّة الأولى، لاحظ : " إنّ تجربة الحرب ، مثلها مثل تجربة كلّ أزمة فى التاريخ ، و كلّ كارثة كبرى و كلّ إنقلاب فى حياة الإنسان، تجعل البعض بلداء و تحطّمهم ، **و تعلم بالعكس البعض الآخر و تشدّ مراسه** ". (لينين ،" **إفلاس الأممية الثانية** " ، صفحة 13 ، دار التقدّم موسكو ، الطبعة العربية) . و أشار كذلك إلى أنّ ميزة من ميزات الإشتراكيّين الذين جعلتهم الحرب بلداء و حكمتهم كانت أنّهم من قبل قد بدؤوا فى تبنّى توجّه تطوّريّ عوض التوجّه الثوريّ و لذلك لم يكونوا مستعدّين للتحوّلات الكبرى المفاجئة . فقال لينين إنّ ما يميّز هؤلاء هو خشيتهم الإنعطاف فى التاريخ و إنعدام ثقتهم فيه (المصدر السابق) .

أمام هذا الوضع ، لا بدّ من ردّ مختلف راديكاليّا إذ يجب تحويل الوضع الراهن بصيغة راديكاليّة . و هذه هي حقيقة أخرى من تلك الحقائق فى " **أكثر من أي زمن مضى** " [مقال لأفاكيان نشر قبل مدّة حينها فى مجلة " **الثورة** " ، مجلّة الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي توقّفت عن الصدور منذ التسعينات و صارت " **الثورة** " منذ سنوات عنوان جريدة الحزب ذاته و صدرت مجلّة جديدة منذ بضعة سنوات تحمل عنوان " **تمايزات** " متوفّرة على الأنترنت] : الشيوعيّون الثوريون هم الذين بوسعهم و من واجبهم قيادة المسار لإنجاز ذلك ، هم الذين يتّبعون بصلابة الماركسية - اللينينية - الماوية و يفهمون أنّ بتطبيق مبادئها فقط من الممكن تجنّب التيه و التقدّم فى الوضع العالمي الراهن . هذا هو واجبنا وهذا التحدّى الذى يواجهنا. و لكن لا يمكننا تحقيق ذلك إلاّ إذا عرفنا و واجهنا مباشرة و عالجنا بعمق المشاكل العميقة و الهامة التى طرحها الوضع الراهن . و يستدعى هذا تطبيق الماديّة الجدليّة : معرفة المظاهر الإيجابيّة و كذلك السلبيذة للوضع العالمي بصورة شاملة و إستراتيجيّا هو الآن أكثر مواتاة للثورة البروليتارية و إستغلال العوامل الإيجابيّة و عبر النضال تحويل السيىء إلى شيء جيّد كما كان يقول ماو ".

فى الأخير و فى نهاية التحليل ، على الردّ على الهجوم الإيديولوجيّ للطبقة السائدة و حلّ المشاكل التى تعترض الجماهير أن يكون فى العالم الماديّ ، أي ، فى مجال السياسة و فى النهاية فى الشكل الأرقى للسياسة : النضال المسلّح من أجل السلطة .

و بهذا المضمار ، يبرز مثال الثورة فى البيرو حيث تخاض حرب الشعب الثوريّة فى ظلّ قيادة الحزب الشيوعي البيروفي وهو حزب يتبنّى الماركسية – اللينينية - الماوية و يطبّقها بالملموس عمليّا فى النضال الثوري لتغيير المجتمع . و مثلما يقول الرفاق البيروفيّون ، خدمة للثورة العالميّة . هذا ما يجعل الثورة الماويّة تمتاز بما أسماه لينين ب " صفة الواقع المباشر" ، أي ، يبيّن عمليّا الحقيقة القويّة و قوّة الماركسية - اللينينية - الماوية (1) . إنّه عامل إيجابيّ للغاية يكتسى أهمّية أعظم فى الوضع العالمي الراهن .

و فى الوقت نفسه ، لا يمكن إنكار أنّه بالرغم من الإنتصار العسكري الساحق للإمبرياليّين فى حرب الخليج ، و بالرغم من الأحداث المؤثّرة عالميّا فى ما كان كتلة الإتّحاد السوفياتي و الهجوم السياسي - الإيديولوجي الذى يشنّه الإمبرياليون فى علاقة بذلك ، بالرغم من كلّ هذا و بالرغم من تصريحاتهم الإنتصاريّة ، فإنّهم لم يقدروا على تجاوز الأزمة التى يتخبّط فيها نظامهم .

قبل كلّ شيء ، فى الولايات المتّحدة الأمريكية ، ثمّة مشاكل إقتصادية خطيرة و إنقسامات إجتماعيّة عميقة و إستقطاب جليّ و إنتفاضات و إنفجارات إحتجاج و القوى الكامنة لكل هذا تظهر على مستوى أكبر بكثير (2) . هذه التناقضات ذاتها توجد عبر العالم الرأسمالي - الإمبريالي برمّته : ليس فى البلدان التى كانت تنتمى إلى الكتلة السوفياتيّة (حيث تنفجر جملة التناقضات الإجتماعية) فحسب بل أيضا فى البلدان الإمبريالية الغربية .

وعلاوة على ذلك ، هنالك بين الإمبرياليين تناقضات عدّة و لو أنّ التغيّرات فى الإتّحاد السوفياتي و فى دوره العالمي قد خففت من حدّة بعضها ، فإنّ تناقضات أخرى طفقت تحتدّ (مثلا التناقضات بين ألمانيا و القوى الأخرى للكتلة الغربية كالولايات المتّحدة و التناقضات بين اليابان و الولايات المتحدة و تناقضات أخرى) وهي مرشّحة للإحتداد أكثر فى السنوات المقبلة . هذا فضلا عن أنّ التناقضات بين الإتّحاد السوفياتي (و الدولة الجديدة التى تعوضه) و قوى إمبريالية أخرى لا تزال عاملا هاما فى العالم و لو أنّها تشهد تبدلات هامة إذ لم يعد خطر حرب عالميّة بالحدّة و الآنيّة التى كان عليها فى بدايات عقد الثمانينات ، لكن الصدامات بين الإمبرياليين جدّية للغاية و بالضرورة ستعبر عن ذاتها . ليس الإمبرياليون و لا يمكن أن يكونوا "عائلة كبيرة سعيدة " و لو أمكن أن نقارنهم بعائلة فتكون المقارنة ب"عائلة " مافيا .

و الوضع فى بلدان العالم الثالث هو وضع أزمة إقتصاديّة مستمرّة ، بديون خارجيّة تثقل الكاهل و فقر متنامى و بؤس الجماهير الفقيرة الدائم و قابليّة كبيرة للإنفجار فى عديد المناطق و عدم إستقرار حكومات عدّة إلخ.

عند النظر فى الوضع و سيرورة الأحداث فى الولايات المتحدة الأمريكية و بلدان رأسمالية - إمبريالية أخرى و أيضا فى الأمم المضطهَدة للعالم الثالث ، من الهام جدّا أن يكون حاضرا بذهننا التناقض بين ما يعد به هذا النظام و ما ينجزه . و هذا

متّصل بتصريح ماركس الشهير بأنّ المهمّ فى أيّة لحظة معيّنة ليس ما تدركه الجماهير أو ما هي بصدد القيام به ، بل هو ما سيضطرها النظام إلى القيام به . النظام سيبقى النظام و سيتعامل مع الجماهير كما تفرضه عليه ديناميّته و " منطقه " و سيبقى يستغلّ و يضطهد الشعب الذى يسوده [النظام] . و مثلما أعرب عن ذلك ماو تسى تونغ ، حيثما يوجد إضطهاد ، توجد مقاومة .

هذا من ناحية و من ناحية أخرى ، مع أنّه من الأكيد و من المهمّ ، بمعنى و فى آخر المطاف ، أن يتمّ الردّ على الهجوم الإيديولوجيّ المضاد للطبقة السائدة فى المجال الماديّ لا سيما فى هذه الأوقات ، من المهمّ غاية الأهمّية النضال ضدّها على المستوى الإيديولوجي . وأبعد من ذلك ، يمثّل هذا مفتاح تطوير النضال نحو الإنتصار عليها فى المجال الماديّ أي إفتكاك السلطة. فالأحداث الأخيرة التى إستعملها الإمبرياليّون ليعلنوا " موت الشيوعية " و توجيههم إنتباه الرأي العام على موضوع الشيوعيّة ، ترفع من أهمّية و إستعجاليّة هجومنا **نحن** المضاد إيديولوجيّا الذى علينا أن نقوم به فى ذات الوقت الذى نواصل فيه خوض المعركة فى المجال الماديّ ، المجال الأكثر حسما : النضال السياسيّ الذى سيُتوّج بشكله الأرقى ، النضال العسكريّ حين توجد و تنضج الظروف لخوضه .

يركّز هذا الكتاب على هذا النضال الإيديولوجيّ و بالخصوص على التساؤلات التى تثيرها الأحداث العالميّة الحديثة و بصورة خاصة فى الإتّحاد السوفياتي . لذلك ينبغى الردّ على الحجج التى يقدّمها ممثّلو النظام العالمي الجديد و ينبغى معالجة المسائل الأعمق ، المسائل التاريخية - العالمية حول الثورة البروليتارية و هدف الشيوعية . كلا المظهران متّصلان: يجب العودة إلى النظر و التفكير من زوايا مختلفة فى هذه المسائل التاريخية - العالمية فى علاقة بالأحداث العالمية الراهنة و فى علاقة بتصريحات الإمبرياليّين و مداوراتهم بشأن تلك المسائل و بشأن إنعكاساتها العامة .

فى جزء كبير منه يتمحور هذا العمل حول تجربة الإتّحاد السوفياتي منذ الثورة البروليتارية لأكتوبر 1917 التى قادها لينين و البلاشفة لكنّه ينطوى أيضا على تساؤلات أعمّ بصدد تجربة الثورات الإشتراكيّة لا سيما الثورة الصينيّة و تجربة الحركة الشيوعية العالمية .

و لو أنّ خطابي " **نهاية مرحلة - بداية مرحلة جديدة** " صيغ قبل الإنقلاب و الإنقلاب المضاد فى الإتّحاد السوفياتي ، فأنا أعتقد أنّ هذه الأحداث و التحوّلات المتّصلة بها أكّدت و شدّدت على التحليل الذى قمت به فى الخطاب . كلّ من تحليل طابع التحوّلات فى الإتّحاد السوفياتيّ فى هذه المرحلة و تحليل الدور الذى تحتلّه فى السيرورة العامّة للثورة البروليتارية و للثورة المضادة البرجوازية فى هذه الحقبة التاريخيّة . و بالتأكيد ، أبرزت الأحداث الأخيرة أهمّية توجّه خطاب " **ماو أكثر من أيّ زمن مضى**" مثلما يعبّر عن ذلك عنوانه و المنشور مع " " **نهاية مرحلة - بداية مرحلة جديدة** ". هكذا ، آخذا نقطة إنطلاق و نقطة مرجعيّة الخطابين إيّاهما ، أرغب فى التحدّث عن بعض التساؤلات التى وضعتها الأحداث العالمية الكبرى على جدول الأعمال منذ نشرهما ، قبل سنة و نيّف .

<u>هوامش التمهيد :</u>

1- فى " **فى الممارسة العملية** " يستشهد ماو تسى تونغ بلينين الذى قال إنّ " **الممارسة أعلى من المعرفة** (النظريّة) لأنّها لا تمتاز بصفة الشمول فحسب بل تمتاز كذلك بصفة الواقع المباشر " (**مؤلفات ماو تسى تونغ المختارة** ، بيكين ، منشورات باللغات الأجنبية ، المجلد 1 ، ص 434 ، الطبعة العربية) .

2- لن أعيد هنا تشخيص تناقضات الإمبريالية الأمريكية على أرضها فهذا ما فعلته فى الجزء الأوّل من " **نهاية مرحلة - بداية مرحلة جديدة** " مجلّة " **الثورة** " خريف 1990 ، و إنّما أحيلكم على ذلك العمل حيث أنّ التحليل ينطبق على الوضع الراهن .

موت الشيوعيّة و مستقبل الشيوعيّة

فى الواقع ، ما نحن بصدد رؤيته (ما حدث) فى الإتّحاد السوفياتي هو تفكّك جهاز الإمبريالية الإشتراكية و مؤسساتها و تعويضها بنظام برجوازي إمبريالي مفضوح أكثر فأكثر و من " النوع القديم " . الحقيقة هي أنّ المستجدّات الحديثة تبيّن بأكثر جلاء ما قلته فى " **نهاية / بداية** " :

" إسطوانة " موت الشيوعية " لا تعنى سوى أنّ التحريفية غدت أكثر برجوازيّة **مفضوحة** بالنسبة للشيوعيّة الحقيقيّة و هذا لا يمثل "أزمة " و ليس بالشيء السيء بالنسبة لنا نحن البروليتاريا العالميّة و الحركة الشيوعيّة العالميّة ممثّلة فى الحركة الأمميّة الثورية [ح أ ث] و الأحزاب و المنظّمات المنتمية إليها . فعلى المستوى الإستراتيجي ، هذا أمر جيّد بالنسبة لنا " (" **الثورة** " ، خريف 1990 ، صفحة 9) .

و رغم أن ذلك كذلك ، علينا أن نبحث المسألة بأكثر عمق و أن نردّ على الحجج الرئيسيّة القائلة بأنذ ذلك يمثّل موت الشيوعية و فشلها التاريخي . أكرّر أنّ كلا الخطابين " **نهاية / بداية** " و " **ماو أكثر من أيّ زمن مضى** " و بمعنى أوسع خطّ حزبنا و الماركسية – اللينينية – الماوية عموما قد سبق لهم بعدُ أن دحضوا هذه الحجج ، إلاّ أنّه من اللازم الردّ عليها ردّا مباشرا .

أوّلا ، نقطة عامة : من المهمّ للغاية إدراك أنّ ثمّة إختلاف جوهريّ بين **الفشل و الهزيمة** فى ما يتعلّق بتجربة الثورة البروليتارية إلى حدّ الآن و التأكيد عليه . من جديد ، نلفى أنفسنا فى وضع يتّسم بعدم وجود بلدان إشتراكية ، فى الوقت الحاضر ، لكن هذا أمر يجب النظر إليه فى إطار كامل السيرورة التاريخيّة للثورة البروليتاريّة و الإختلاف العميق بينها و بين كلّ الثورات السابقة تاريخيّا .

كما أشرت إلى ذلك فى " **نهاية / بداية** " و لو أن أعظم قادة البروليتاريا العالميّة مثل لينين و ماو قد إقترفوا أخطاء وهو أمر طبيعي ، فإنّ خسارة الصين مثلها مثل الخسارة السابقة للإتحاد السوفياتي لم يكن سببها الرئيسي أخطاء الثوريّين و أقلّ من ذلك أن يكون سببها ما إفتُرض من " نقائص" كامنة فى الشيوعيّة و الثورة العالميّة . إنّما هي رئيسيا هزيمة ألحقتها بهم البرجوازية العالميّة و هنا ، من المفيد التذكير بما قد قلت فى " **نهاية / بداية** " حول القرون الطويلة التى إستغرقتها البرجوازية كي ترسي سلطتها بصورة نهائيّة و كي تطبع المجتمع بطابعها و كي تعيد تشكيله على صورتها هي كمجتمع رأسمالي . فقد كانت مسيرة من التموّجات فيها مُنيت بعديد الهزائم . لذا لا يتعيّن علينا أن نتوقّع أن تكون الثورة البروليتارية أكثر يسرا أو أن لا تشهد منعرجات و تمرّدات و محنا و هزائما قبل أن تنتصر . فى نهاية المطاف ، مقارنة مع كافة الثورات التى سبقتها و التى فيها عوضت طبقة طبقة أخرى ، فإنّ الثورة البروليتاريّة تعهد إلى نفسها بتحقيق القطيعتين الراديكاليّتين اللتين تحدّث عنهما ماركس و إنجلز : القطيعة الراديكالية مع علاقات الملكيّة التقليديّة و مع الأفكار التقليديّة . إنّها لا تبحث عن تعويض شكل إستغلالي بشكل إستغلالي آخر ، بل تبحث عن القضاء على كلّ أشكال الإستغلال و فى النهاية ، على كلّ الإختلافات الطبقيّة . لكلّ هذه الأسباب ستكون الثورة البروليتارية بالضروة أكثر إلتواءات من الثورات السابقة و علينا أن نكون على إستعداد لمسألة أنّ الشيوعية قبل أن تبلغ غايتها الأسمى (الشيوعية العالمية) ستمرّ بسيرورة من الثورة و الثورة المضادة أطول و أكثر تعقيدا .

بهذا الأفق التاريخي و بتحليل صريح و علمي للواقع الراهن ، بإمكاننا أن نردّ على إدّعاءات أن الماركسيّة قد هُزمت و أن الشيوعيّة قد ماتت . إن الماركسيّة التى بيّنت إمكانيّة الثورة الشيوعية و ضرورتها بإستمرار يتطلّبها الواقع **بما فى ذلك الوقائع الحديثة** ، و الآن و قد تقدّمت الماركسيّة لتصير ماركسية ـ لينينية ـ ماوية فإنّها تمثل أكثر من أيّ زمن مضى تمثّل مستقبل الإنسانية .

القمم الثلاث

كيما نبيّن هذا على أوسع و أعمق مدى ، سيكون من المفيد الإستهلال بتلخيص لما نسمّيه القمم الثلاث للماركسية – اللينينية – الماوية و نعنى المساهمات (الخطوات التاريخيّة إلى الأمام) التى قام بها أوّلا ماركس ثم لينين فماو الذين يمثّلون قفزات نوعيّة فى تطوير تحليل شامل و علمي للواقع و لوسائل تغييره من خلال النضال الثوريّ .

1 / ماركس :

كان ماركس الأوّل فى بلورة هذا التحليل و تلخيصه فى مستوى جوهريّ ، منذ أكثر من مائة سنة . و مثّل الأساس النظري و المنهجي (النظرة إلى العالم و المنهج الذين لخّصهما ماركس ، أكثر من أيّ شخص آخر) التوجّه الفلسفيّ الأساسيّ للماركسيّة : الماديّة الجدليّة و الماديّة التاريخيّة (تطبيق الماديّة الجدليّة على المجتمع الإنسانيّ و تطوّره) . فى هذا الملخّص ، وهو بالضرورة مقتضب ، لتطوّر الماركسية إلى الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة لن أسعى على صياغة المبادئ الفلسفية – المنهجية للماديّة الجدليّة و إنّما سأسعى إلى الإشارة إلى كيفيّة تطبيقها على المجتمع الإنسانيّ و على تطوّره و على النضال الثوريّ و الإستراتيجيا الثوريّة .

إلى حد بعيد ، يمكننا إعتبار الماديّة التاريخية الجانب الجوهريّ فى الماركسيّة . لماذا ذلك كذلك ؟ و ما هي أهمّية الماديّة التاريخية ؟

1- المادية التاريخية هي الجانب الجوهريّ فى الماركسية :

فى كلمات قليلة ، حدّد ماركس ، فى خضم كلّ التداخل الذى كان إلى حينذاك قد حال دون فهم التاريخ ، حدّد الواقع الحيوي و الجوهري لوجود الإنسان : حتى يعيش الناس و يستمرّون فى الحياة من جيل إلى جيل ، ينبغى عليهم إنتاج و إعادة إنتاج ما هو ضروريّ للحياة . فى مستوى معيّن ، يبدو هذا بديهيا و ماركس ، بطبيعة الحال لم يكن الأوّل فى أساس و نقطة إنطلاق فهم المجتمع الإنساني و تطوّره التاريخي . لكن المسألة لا تقف عند هذا الحدّ : كذلك له أهمّية جوهريّة أنّ لأجل إنتاج وإعادة إنتاج الضروريّ للحياة (لأجل إنتاج و تبادل ما يحتاجونه) يدخل الناس فى نوع من العلاقات الإجتماعيّة الملموسة للغاية ، رئيسيّا علاقات إنتاج .

و الإنتاج لا يقع بصفة مجرّدة كما لا يقع صدفة على نحو غير محدّد ، إنّ الناس لا يدخلون فى علاقات مجّردة يمكنهم إنشاءها و تغييرها كما يحلو لهم . فذلك يتمّ بالضرورة من خلال علاقات محدّدة و بدورها تتحدّد علاقات الإنتاج بمستوى و طابع قوى الإنتاج المتوفرة فى المجتمع ، فى زمن معيّن . و قوى الإنتاج ، لنقول ذلك ببساطة ، هي وسائل الإنتاج (الأدوات و الآلات التى تستعمل فى الإنتاج و الأرض والمواد الأوّلية) و الناس بمعارفهم و قدراتهم على إستعمال وسائل الإنتاج تلك .

أن يُحدد طابع قوى الإنتاج طابعَ علاقات الإنتاج شأن مؤكّد بغضّ النظر عن أن تكون الأدوات و الآلات المتوفّرة هي الأدوات البدائيّة الأولى للبشريّة أم الآلات و التكنولوجيا الأكثر حداثة حاليّا . مثلا ، لنتصوّر كيف سيكون تطبيق علاقات إنتاج نظام المصنع الرأسمالي على مجموعة فلاحيّة بسيطة لا تملك الآلات الحديثة و لا الوسائل الحديثة للنقل و الإتصال! و فى المستقبل ، حين تكون التكنولوجيا قد تقدّمت أكثر منها الآن (أو أكثر ممّا نستطيع تصوّره) و من ثمّ ستكون علاقات الإنتاج مختلفة راديكاليا ، فإنّ هذا المبدأ ذاته سيُطبّق : سترتكز علاقات الإنتاج و العلاقات الإجتماعية للمجتمع على طابع و مستوى تطور علاقات الإنتاج و ستتوافق معها ، فى خطوطها العامة .

لقد أثبت ماركس أنّ علاقات إنتاج المجتمع (التى تقوم على قوى الإنتاج) هي القاعدة الإقتصاديّة للمجتمع . كذلك أثبت ماركس أنّ على هذه القاعدة الإقتصاديّة تنشأ أنواع من المؤسسات السياسيّة و القوانين و العادات و أيضا أشكال من التفكير

و الثقافات إلخ تمثّل البناء الفوقي السياسي / الإيديولوجي للمجتمع و التي تتناسب و طابع القاعدة الإقتصادية أي تتناسب و شكل علاقات الناس لأجل إنتاج و إعادة إنتاج ما يحتاجونه للحياة .
وعادة لمّا يناقش الإنتاج أو الإقتصاد أوّل ما يجب التساؤل بصدده و تحديده هو : ما هي **علاقات الإنتاج** الجوهرية (و تعنى فى المجتمع الطبقي **العلاقات الطبقية**) التى من خلالها تتم عمليّة الإنتاج ؟ و ما هي طبيعة البناء الفوقي المتوافق مع هذه العلاقات الإقتصادية ...؟ و كلّ مقاربة أخرى خاطئة و مبهمة .

إضافة إلى ذلك ، منطلقا من معرفة أنّ قوى الإنتاج غير ساكنة بل ديناميكية(من معرفة أنّه نظرا لطبيعة الناس و مجتمعهم، يطوّر البشر بإستمرار قوى الإنتاج و يخلقون قوى إنتاج جديدة) بيّن ماركس أنّ فى مرحلة معيّنة من تطوّرها ستدخل قوى الإنتاج فى صراع مع علاقات الإنتاج القائمة التى ترتكز على قوى إنتاج سابقة . حينئذ ، يتّضح أنّ علاقات الإنتاج القائمة لم تعد أفضل شكل لمواصلة تطوير قوى الإنتاج و تحوّلت إلى **عراقيل** لها بالذات . عندئذ تصير ثورة إجتماعية ضروريّة لتحرير قوى الإنتاج و تحقيق تغيير ثوري لعلاقات الإنتاج حتّى تتوافق مع قوى الإنتاج الجديدة .

و مثل هذه الثورة الإجتماعيّة تحصل و يُمكن أن تحصل فقط فى البناء الفوقي للمجتمع ، لا سيما فى المجال السياسي و تتركّز فى صراع عسكريّ من أجل السلطة . و منذ أن إنقسم المجتمع إلى طبقات منفصلة و متعارضة (منذ أن قسّمت علاقات الإنتاج الناس إلى مجموعات مختلفة البعض منها يستغلّ البقيّة) تميّز المجتمع الإنساني بالصراع الطبقي و لذلك تتطلب الثورة الإجتماعيّة أن تلحق طبقة الهزيمة بطبقة أخرى . و الطبقة التى تقدر على تنظيم أفضل للمجتمع بصيغة تستعمل فيها قوى الإنتاج و تكون أقدر على تطويرها ستكون الطبقة التى تمسك بعنان المجتمع . و مع ذلك ، لا يحدث هذا إلاّ من خلال سيرورة عميقة من الصراع الطبقي .

و تبيّن الماركسية كيف أنّ ما وُصف ينطبق على كامل تاريخ المجتمع الطبقي غير أنّها توضّح أيضا أنّ المجتمع لم يكن دائما و لن يكون دائما منقسما إلى طبقات و تبيّن لماذا (نتيجة أيّة أحداث و تغيّرات) إنقسم المجتمع إلى طبقات متناحرة .
فقد كانت المجتمعات الإنسانيّة الأولى مشاعيّة و كان الإنتاج يجرى بصفة مشتركة و لم يكن تقسيم العمل يتطلب إضطهاد قطاع من المجتمع لقطاع آخر . بيد أنّه ، بتطور قوى الإنتاج ، لما نتج فائض ، إستولى عليه قطاع من المجتمع (بينما بالكاد كان للغالبيّة ما يكفيها للبقاء قيد الحياة) فتحوّلت العلاقات بين الناس فى الإنتاج إلى علاقات بين طبقات إجتماعية مختلفة أي مجموعات إجتماعيّة مختلفة محدّدة بعلاقتها بوسائل الإنتاج (البعض مالكون للأرض أو الآلات أو غيرها من وسائل الإنتاج الإجتماعي (دورها فى تقسيم العمل فى المجتمع) و بحصّتها من توزيع الثروة الإجتماعية .

و منذ أن إنقسم المجتمع إلى طبقات ، أجبرت الطبقة التى تهيمن على سيرورة الإنتاج فى وقت معيّن (التى تحتكر ملكيّة وسائل الإنتاج) بقيّة المجتمع على العمل تحت إمرتها و تبعا لمصالحها . فقد تحكّمت فى الفائض و قرّرت ما الذى يُصنع به: على أيّ مدى يتمّ إستهلاكه شخصيّا و تتمّ المحافظة على المؤسسات الإجتماعية و تعزيزها أو إعادة إستثماره لتطوير الإقتصاد . و الطبقة التى تسيطر بهكذا طريقة على الحياة الإقتصادية للمجتمع تسيطر أيضا على المظاهر الإجتماعية الأخرى . و قد تحكّمت فى البنية الفوقيّة (بالخصوص أجهزة السلطة السياسيّة مثل البيروقراطية و الإدارة الحكومية و لا سيما القوى المسلّحة التى تستطيع إعالتها بالفائض المراكم) و إستخدمتها لأجل القضاء على الطبقات و الجماهير الكادحة التى تستغلها و لأجل الإبقاء عليها مضطهَدة .

أيضا أشار ماركس إلى أنّ أفكار الطبقة السائدة على الإقتصاد هي الأفكار السائدة على الحقبة التاريخيّة . و ينعكس هذا فى الدّين و فى الفنون و فى المجالات الثقافيّة الأخرى كما فى السياسة و الفلسفة و هكذا دواليك . بصيغة أخرى ، من خلال المؤسسات الإجتماعية تتحكّم الطبقة المسيطرة بإنتشار الأفكار و تحدّد أيّ أفكار تسود فى المجتمع . فمنذ ظهور الطبقات ، تنسجم أفكار مختلف الأشخاص ، فى آخر المطاف ، و وضعهم الطبقيّ لكن فى الوقت ذاته ، تتأثّر طريقة تفكير الجميع فى المجتمع بقوّة بأفكار الطبقة التى تسيطر على القاعدة الإقتصاديّة و بالتالي على البنية الفوقيّة السياسية / الإيديولوجية .

خلاصة القول ، ستعكس البنية الفوقيّة للمجتمع العلاقات الطبقيّة : ستكون تحت تحكّم و فى خدمة مصالح الطبقة التى تهيمن على الإقتصاد القائم إلى حين تتحوّل هذه الطبقة و علاقات الإنتاج التى تمثّلها و تفرضها إلى عائق أمام تطوّر قوى الإنتاج ، عندئذ ، ستقود طبقة تجسد علاقات إنتاج جديدة تتوافق مع الطابع الجديد للقوى الإنتاجيّة الشعب إلى الإنتفاض و قَبر سلطة

الطبقة المهيمنة القديمة و بذلك ستفتكّ الطبقة الصاعدة السلطة و ستغيّر المجتمع تبعا لمصالحها الخاصة إلى حين ... إلى هذا كان ماركس (و إنجلز) يشيران عندما كتبا فى " **بيان الحزب الشيوعي** " إنّ تاريخ كلّ مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات .

و لئن كان ما سبق يبدو أوّليّا بالنسبة لمن قد درس مبادئ الماركسيّة فذلك يعود إلى أنّ ماركس صاغ الخلاصة النظريّة التى شرحت . و مثّلت هذه الخلاصة ثورة عظيمة فى التفكير الإنساني و قطيعة راديكالية مع كلّ الأشكال السابقة للفهم (السيء) لقاعدة المجتمع و قوانين حركته . لقد مثّل إثبات أنّ هنالك " صلة " فى التاريخ الإنساني تعزى إلى أن كلّ جيل يرث قوى الإنتاج المتطوّرة إلى حدّ تلك اللحظة و " ينقلها " إلى الجيل اللاحق ، لقد مثّل تقدّما تاريخيّا عظيما . حتّى حين يتّخذ هذا مظاهر تحطيم و إعادة بناء ، فإنّ هنالك نوعا من الحركة ، بكلّ تناقضاتها ، تعطي للتاريخ الإنساني صلة . و هذه الصلة تتّسع لتشمل أكثر فأكثر الإنسانيّة بقدر تطوّر القوى المنتجة و يدخل الناس من جميع أنحاء العالم فى تواصل و يتحدّثون لأجل الإنتاج و التبادل .

وضعت هذه الطريقة فى رؤية الأشياء حدّا لفكرة أنّ التاريخ الإنساني هو ببساطة مجموعة من الحوادث لا تربط بينها أسباب موجودة أو هي إفراز لكائنات ما وراء الطبيعة (آلهة أو قوى أخرى ما وراء الطبيعة) أو تقع نتيجة لأفعال أفراد و خاصة أفراد " عظماء " على غرار الملوك و الأمراء و الأباطرة و الرؤساء قادة جمعيّات و أصحاب مزارع عبيد إلخ ... يجعلون إرادتهم تتحقّق . فقد مثّل إثبات أنّ التاريخ لا يصنع على تلك الشاكلة و أنّ التاريخ هو نتاج للصراع بين المجموعات الإجتماعية المختلفة (طبقات مختلفة فى المجتمع الطبقي) و أنّ هذا بدوره تفرزه القاعدة الإقتصاديّة مثلما شرحنا آنفا ، كلّ هذا مثّل قفزة كبرى إلى الأمام .

و كما نعلم ، لم يقف ماركس عند إثبات الصلة فى التاريخ الإنساني و عند تحديد القاعدة الماديّة و أسباب ظهور الطبقات و تاريخ الصراع الطبقي . ففضلا عن ذلك ، أشار إلى أين تتّجه هذه السيرورة : إنّ الصراع الطبقي يقود إلى إنتصار البروليتاريا ، طبقة تولد فى المجتمع الرأسمالي كنتيجة لقوى الإنتاج التى تصبح إجتماعية و طبقة لا تمثّل شكلا جديدا من تنظيم الإنتاج فيه تستغل طبقة طبقة أخرى و إنّما تمثّل شكلا لإستغلال تطوّر قوى الإنتاج لخلق وضع تستعمل فيه قوى الإنتاج هذه بصفة مشتركة و فيه لن يوجد بعدُ إستغلال و فيه لن توجد بعدُ طبقات .

لقد أثبت ماركس أنّ بإمكان البروليتاريا و من واجبها أن تحقّق هذا لأنّ بتطوّر الرأسمالية و ما يرافقها من تطوّر لقوى الإنتاج تصل هذه الأخيرة إلى مستوى عال من الإجتماعية . يعنى ، يمكن إستعمالها فقط إذا إستعملها آلاف ، و فى نهاية المطاف ، ملايين الناس بصفة مشتركة . و البروليتاريا بآلاف ملايينها هي الطبقة التى تعمل بصورة مشتركة . البروليتاريا هي الطبقة التى تمثّل الإنتاج المشترك و علاقات الإنتاج المشتركة : علاقات الإنتاج التى تتوافق و الإستعمال الأكثر منطقيّة لقوى الإنتاج و الشكل الأنسب لتحريرها و مواصلة تطويرها .

لكن الطبقة الرأسمالية تستولى على نتائج الإنتاج و تحوّلها إلى ملكيّة (رأسمالية) خاصة ، إلى رأسمال و تجسّد الطبقة الرأسمالية و تفرض علاقات إنتاج تحوّلت إلى عوائق لقوى الإنتاج التى طوّرها النظام الرأسمالي ذاته . عندئذ ، يجب الإطاحة بنظام الملكيّة و التملّك إيّاه و بكلّ العلاقات الإجتماعية و المؤسسات و الأفكار المنسجمة معه و يجب تحطيمه و تجاوزه . و هذا لن يكون ممكنا إلاّ بالقضاء على كافة أشكال الإستغلال و كافة تقسيمات العمل التى تحمل فى طيّاتها تناحرات إجتماعية . هذه هي المهمّة التاريخية للبروليتاريا .

و لمّا تنجز ثورتها الإجتماعية ، تحلّ البروليتاريا التناقض الجوهري للنظام الرأسمالي أي التناقض بين الإنتاج الإجتماعي و التملك الفردي (الرأسمالي) . و البروليتاريا ،عند إطاحتها بسلطة الطبقة الرأسمالية و إرسائها سلطتها هي ، تمشرك ملكية وسائل الإنتاج و تحوّلها ، عبر مراحل ، إلى ملكيّة مشتركة للمجتمع . و فى الوقت نفسه ، تغيّر المؤسسات السياسيّة و طريقة التفكير السائدة ، بمعنى ، البناء الفوقي ، بصيغة لا تبقى فى النهاية طبقات و تشيّد مجتمعا مغايرا كلّيا ، (مجتمعا دون إختلافات طبقيّة و دون تناحرات إجتماعية و دون إضطهاد جزء من المجتمع لجزء آخر) سيتطوّر أكثر فى ظلّ الشيوعيّة .

كان هذا هو الإسهام العظيم لماركس فى إثبات صلة التاريخ الإنساني و تقديم طريقة متماسكة لرؤيته فقد شرح التطوّر المتناقض لكن الممكن الفهم ، للتاريخ الإنساني و أنّه عبر هذا التطوّر سيجرى التوصّل فى النهاية إلى مرحلة ستكون فيها الثورة الشيوعيّة على جدول الأعمال .

لرؤية ملخص مقتضب و دقيق لهذا فلنقرأ ما كتبه ماركس ذاته سنة 1852 :

" ... و فيما يخصنى ، ليس لى فضل إكتشاف وجود الطبقات فى المجتمع المعاصر و لا فضل إكتشاف النضال فيما بينها . فقد سبقنى بوقت طويل مؤرّخون برجوازيّون بسطوا تركيب الطبقات الإقتصادي . و إنّ الجديد الذى أعطيته يتلخّص فى إقامة البرهان على ما يأتى :

1- إنّ **وجود الطبقات** لا يقترن إلاّ **بمراحل تاريخية معينة من تطور الإنتاج ،**
2- إنّ النضال الطبقيّ يفضى بالضرورة إلى **دكتاتورية البروليتاريا ،**
3- إنّ هذه الدكتاتورية نفسها لا تعنى غير الإنتقال إلى **القضاء على كل الطبقات و إلى المجتمع الخالي من الطبقات "** .

(ماركس و إنجلز ، **" بصدد الثورة الإشتراكية "** ص 114 ، دار التقدّم ، الطبعة العربية) .

2 / السرّ القذر للإستغلال الرأسمالي :

لقد شرح ماركس كذلك و فضح كيفيّة سير النظام الرأسمالي و بالخصوص ما سُمّي " السرّ القذر للإستغلال الرأسمالي ". حيث عالج بعمق العلاقة بين الملاكّين الرأسماليّين و الذين يعملون لفائدتهم و بيّن أنّ هذه العلاقة التى تبدو من نظرة بسيطة أنّها علاقة مساواة (تبادل محض لأجر مقابل عمل) تتضمّن علاقة جوهريّة من الإستغلال و الإضطهاد خلف مظهر مساواتها.

لذلك لم يقف ماركس ببساطة عند التنديد بالرأسماليّين لأنّهم أغنياء و لا عند الإشارة إلى البون الشاسع بين الثروة الكبيرة التى يتحكّم فيها الرأسماليّون والفقر المدقع للجماهير الكادحة ذلك أنّه بحث بعمق سبب كلّ هذا و أثبت لماذا لم يعد ضروريّا. الرأسمالية ليست مجتمعا حيث يُعمّم إنتاج السلع و حيث الأشياء ، أو الأشياء ذات القيمة الإجتماعية ، لا تنتج لأجل الإستعمال الآني بل لأجل بيعها مقابل مال فحسب . إضافة إلى ذلك ، ثمّة شيء آخر يميّز الرأسمالية هو أنّ قوّة العمل (العمل الإنساني) تصبح سلعة . و كسلعة تتضمّن قوّة العمل قيمة مثلها مثل كافة السلع و قيمة هذه السلعة (قوّة العمل) تتحدّد بنفس الطريقة ، من خلال المقياس ذاته ، شأنها فى ذلك شأن قيمة بقيّة السلع : تتحدّد ب**وقت العمل الضروري إجتماعيا** لإنتاجها (الوقت الضروري فى ظروف الإنتاج الإجتماعية السائدة) . و هذا يعنى أنّ قيمة سلعة قوّة العمل مُساوية لقيمة السلع الضروريّة لمعيشة العامل حتّى يواصل و يقدر على إنتاج أجيال جديدة من العمّال.

و لو أنّ مستوى تطوّر قوى الإنتاج يمكن أن يختلف من بلد إلى آخر فى المجتمع الرأسمالي عموما ، فإن قيمة السلعة هي قيمة قوّة العمل وهي أقلّ من القيمة الجمليّة التى ينتجها العامل أثناء يوم عمله . بالتالي ، جزء من عمل العامل هو عمل مدفوع الأجر أي عمل أثناءه وقع إنتاج قيمة مساوية لقيمة قوّة عمله (ما يناسب أجره) لكن الجزء الآخر هو **عمل غير مدفوع الأجر ،** أي عمل أثناءه وقع إنتاج قيمة لا يقدّمون له عليها أجر . هذه هي القيمة التى يسرقها الرأسمالي . هذا هو المنبع ، الوحيد ، لربح الرأسماليّين ، منبع دخلهم الشخصيّ و ما هو أهمّ ، ما يسمح لهم بإعادة إستثمار المال و توسيع مؤسساتهم الرأسمالية وهو ما يسمح لهم بالتحكّم فى المجتمع و الإنفاق على مؤسّساتهم و خاصة المؤسّسات السياسيّة و العسكريّة التى يستعملونها لسحق الطبقة العاملة و الجماهير الشعبية .

بيد أنّه فى كلّ مجتمع حيث يُنتج فائض (أكثر ممّا يحتاج إليه للبقاء على قيد الحياة) لن يُوزّع هذا الفائض ببساطة بين كافة عناصر المجتمع . إذا ما حدث هذا التوزيع فإّن قوى الإنتاج الإجتماعية لن تستطيع التطوّر نوعيّا و لن توجد موارد لمواجهة النكبات الطبيعيّة أو حوادث أخرى غير متوقّعة و لن توجد موارد لإدارة المجتمع و لا لتمويل التربية و الثقافة

و حاجيات شعبيّة أخرى . فقد أشار ماركس إلى أنّ هذا ينسحب على المجتمع الشيوعيّ مثلما ينسحب على المجتمع الرأسمالي . غير أنّه شدّد أيضا على الإختلاف الكبير بين المجتمعين ففى ظلّ الشيوعيّة (وهي مجتمع أناس يتعاونون بحرّية و مجتمع خال من الطبقات) يضبط الشعب ذاته تملك الفائض و توزيعه تبعا لحاجياته و كذلك يضبط سيرورة الإنتاج . و بالعكس ، فى ظلّ الرأسماليّة ، تتحكّم فى سيرورة الإنتاج و كذلك فى تملك الفائض و توزيعه طبقة منفصلة عن الإنتاج و تسيطر على الذين ينتجون الفائض و الثروة الاجتماعية عامة أي الطبقة العاملة . و بقدر الشدّة التى يعمل بها العمّال فى ظلّ الرأسماليّة بقدر ما يعزّزون أكثر سلطة رأس المال و يعزّزون أكثر ظروف إستعبادهم هم ذاتهم .

بصيغة مختصرة ، أثبت ماركس أنّ إنتاج القيمة و بصورة خاصة **فائض القيمة** (أي القيمة التى يخلقها العامل خلال إنتاج سلع من منتوجات المجتمع الرأسمالي و كجزء من هذا ،**القيمة الزائدة التى لا يدفعون له أجرا عنها ، القيمة التى يحتفظ بها الرأسمالي)** هو القوّة المحرّكة للتراكم الرأسمالي . و هذا كما شرح ماركس ، هو المضمون الجوهريّ للمجتمع الرأسمالي ، " السرّ القذر للإستغلال الرأسمالي " و أصل إضطهاد البروليتاريا . أضف إلى ذلك أنّه فسّر أنّ تبعيّة العامل لسيرورة تراكم رأس المال تخضعه لوضع لا يعيش فيه إلاّ شرط إيجاد عمل و يجده فقط شرط أن يُنتج عمله ربحا كافيا للرأسمالي الذى يستغله . لذلك تؤدى الرأسمالية فى نفس الوقت إلى إستغلال لا يلين للعمّال الذين يشتغلون و لعديد الآخرين من العاطلين ، إنّها تخلق "جيشا إحتياطيّا صناعيّا " ينمو بصفة عظيمة فى أوقات الأزمات الإقتصادية .

إنطلاقا من هذا ، إستخلص ماركس أنّه رغم أنّه على العمّال أن يناضلوا حتّى لا يدعوا النظام الرأسمالي يسحقهم ، فإنّه لا يمكن لأيّ نضال يتحدّد بطلب تحسين الظروف فى إطار النظام الرأسمالي أن يغيّر وضع الطبقة العاملة بمعنى جوهريّ : فالطريقة الوحيدة التى تمكّن الطبقة العاملة من تغيير وضعها و وضع الإنسانيّة جمعاء تغييرا جوهريّا هي النهوض ، واعية مصالحها الطبقية العليا ، لتحطيم النظام الرأسمالي و لمباشرة التحويل الشيوعي للمجتمع .

من خلال الماديّة التاريخيّة ، شرح ماركس (هو و إنجلز) أنّ ظهور علاقات الإستغلال و الإضطهاد (و ظهور مظهر من أكثر مظاهرها جوهريّة : الظروف الإجتماعية التى أفضت إلى إضطهاد المرأة) كان مرتبطا بتقسيم المجتمع إلى طبقات الذى كان بدوره مرتبطا ببعض مراحل تطوّر الإنتاج . فيما بعد أثبت ماركس أنّ الرأسمالية تمثّل آخر مرحلة من مراحل الإنتاج تلك ، آخر مجتمع ستوجد فيه طبقات و تناحرات طبقيّة و أنّ البروليتاريا ستكون عبر الثورة التى تطيح بالرأسماليّة و تغيّر المجتمع راديكاليّا ، هي التى ستقضى على كافة أشكال الإستغلال و الإضطهاد و كافة الإختلافات الطبقيّة .

و فى نفس الوقت ، أبرز ماركس و شرح أنّه خلافا لكلّ الطبقات الأخرى فى المجتمع المعاصر و المجتمعات السابقة ، يجب على نظرة البروليتاريا إلى العالم أن تكون الأمميّة ،لا القوميّة . مع أنّ العالم فى عصر البرجوازية ينقسم إلى أمم فإن البروليتاريا طبقة أمميّة و مصالحها ، كطبقة متأصّلة فى إنتصار الشيوعيّة على المستوى العالمي . و لا يمكن تحقيق الشيوعيّة على المستوى العالمي إلاّ بالقضاء على علاقات الإستغلال و التناحرات الإجتماعية و الإضطهاد و اللامساواة فى العالم قاطبة .

يتأسّس وجوب أن تكون الأممية هي نظرة البروليتاريا إلى العالم و موقفها السياسي على واقع جوهري هو أنّ النظام الرأسمالي نظام عالمي لإنتاج السلع و الإستغلال ، إنّه نظام يحتاج و يشكّل فى كلّ مرّة أكثر سوقا عالميّة تحت هيمنة رأس المال ، نظام (كما سنرى) يدمج ، لا سيما فى المرحلة الإمبريالية ، كلّ الإقتصاد العالمي فى سيرورة مراكمته و يدمج أنظمة إنتاج مختلفة و بلدان فى مستويات مختلفة من التطوّر. هكذا بيّن ماركس أنّ الأمميّة ينبغى أن تكون نظرة البروليتاريا إلى العالم و مثلما قال هو نفسه إنّه لا يمكن للبروليتاريا أن تحرّر ذاتها بذاتها إلاّ بتحرير الإنسانية كافة .

و على المنوال عينه الذى وضعه ماركس بإكتشاف مضمون العلاقة بين الرأسماليين و العمّال (البرجوازية و البروليتاريا) فى المجتمع الرأسمالي ، فإنّه أماط اللثام عن نهب إنجلترا و البلدان الرأسمالية الأخرى للهند و مصر و الصين و بقيّة العالم و تخريبهم الإستعماريين . كما قال بقوّة و بسخرية :
" إكتشاف مناجم الذهب و الفضّة فى أمريكا و إستئصال السكّان المحلّيين و إستعبادهم و دفنهم أحياء فى المناجم و الخطوات الأولى للإستيلاء على الهند الشرقيّة و نهبها و تحويل إفريقيا إلى محميّة لإصطياد السود- ذلك كان فجر عصر الإنتاج الرأسمالي " (ماركس ، منشأ الرأسمال الصناعي ، الفصل الرابع و العشرين للمجلد الأول من "**رأس المال** " ذكر

بالصفحة 151 من ماركس و إنجلز " **فى الإستعمار** " دار التقدم ، موسكو الطبعة العربية ؛ و كذلك فى ماركس و إنجلز " **بصدد الثورة الإشتراكية** " ، صفحة 135 دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

و دلّل ماركس على أنّ كلّ ذلك مرتبط إرتباطا لا ينفصم بالرأسماليّة و أنّ الثورة البروليتاريّة ستجهز عليه على المستوى العالمي و أن التعبير العمليّ لهذا هو أنّ ماركس و إنجلز قادا تأسيس أوّل تنظيم أمميّ للعمّال ، معروف بالأمميّة الأولى .

هنا ، علينا التوقف و التساؤل : هل " يدحض الواقع " هذه المبادئ الجوهرية للشيوعيّة و النظرة إلى العالم و المنهج الذين تقوم عليهما ؟ هل تجاوزهما الزمن ؟ هل تبيّن الأحداث العالميّة و الوقائع و التجربة اليوميّة للجماهير ، لا فى بلد واحد فحسب ، فى الولايات المتحدة ، بل فى العالم بأسره ، أنّ هذه المبادئ ما عادت بعدُ صالحة و سامية ؟ هل ما عادت تقدّم وصفا أو تحليلا صحيحا للأحداث اليوميّة و لمضمون عمل النظام الرأسماليّ و لعلاقاته على المستوى الداخليّ و العالميّ ؟

لا بالعكس ! تحتفظ مبادئ الشيوعيّة بصلوحيّتها و أكثر من أيّ زمن مضى تمثّل أساس إزالة البلبلة التى تبثّها أبواق دعاية النظام القديم و أساس إدراك ما يحدث واقعيّا فى العالم . إنّها أساس التحليل الصحيح للعالم و تغييره لفائدة مصالح الجماهير الشعبية و الإنسانية قاطبة .

لكن الماركسية علم حيّ يتقدّم مع الخطوات إلى الأمام و التغيّرات فى الواقع و فى المجتمع . بهذا نصل إلى القمّة الكبيرة الثانية فى الماركسية ، اللينينية .

<u>2 / لينين :</u>

مع نهايات القرن التاسع عشر ، تحوّلت الرأسماليّة إلى إمبرياليّة و كان لينين هو الذى حلّل هذا التحوّل و شرح نتائجه بالنسبة للثورة البروليتاريّة العالميّة . مدقّقا النظر فى الميزات الجديدة للرأسمالية فى مرحلتها الإمبريالية ، أثبت أنّها وصلت إلى التحوّل إلى نظام تراكم أكثر عالميّة و نظام إستغلال عالميّ كأساس لهذا التراكم . (1)

(1/ التلخيص التالي للإمبريالية يعتمد على المؤلّفين : " **الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** " للينين و " **إنحطاط أمريكا** " لريموند لوتا و فرنك شانون ، شيكاغو ، بانر براس ، 1984 ، مجلد 1 و بالخصوص بابه الأوّل " الإقتصاد السياسي لعصر الإمبريالية و الثورة العالمية ") .

<u>1 - الإقتصاد السياسي للإمبريالية :</u>

حلّل لينين أنّ الإمبريالية تتميّز بنمّو و سيطرة رأس المال الإحتكاري ، خلافا للوحدات الأصغر من رأس المال . و لا يعنى رأس المال الإحتكاري حرفيّا أنّ وحدة واحدة للرأسمال تهيمن على صناعة بكاملها (و أقلّ من ذلك على الإقتصاد بأسره) بل أنّ حفنة من وحدات رأس المال الضخمة و القويّة تهيمن على صناعات برمّتها و فروع كبرى من الإقتصاد . بهذا المعنى الإحتكار هو إحدى أهمّ الميزات الأكثر جوهريّة للرأسماليّة فى مرحلتها الإمبرياليّة (بالفعل رغم تحليله لميزات أخرى للإمبريالية فإنّ لينين قال بوصف مختصر يمكن قول إنّ الإمبريالية هي الرأسماليّة الإحتكاريّة) . مع ما سبق ، من تطور رأس المال المالي ، أي ، دمج رأس المال الصناعي مع رأس المال البنكي لتشكيل تمركزات هائلة لكميات من رأس المال تتحكم بقطاعات كبيرة من إقتصاد البلاد و يمكن أن تمارس تأثيرا بالغا على إقتصاد بلدان اخرى و مناطق أخرى و حتّى على العالم بأسره . رأس المال المالي هو رأس مال غير محدّد (إستثماراته لا حدود لها) بالضرورة بمؤسسة أو بقطاع معيّن من الإقتصاد. إنّه رأس مال يتمّ نقله بسرعة و بصفة ضخمة من صناعة أو قطاع إقتصادي أو منطقة أو بلاد إلى آخر / أو أخرى . إنّه رأس مال متأتّ من عدّة منابع و رغم إمكانيّة التعرّف على تحالفات رأس المال المالي و مجموعات من رأس المال المالي ، فإنّه غير قار أو قابلا للتحوّل ، بالعكس هو على حالة مستمرّة من التغيّر و الإنقسام و إعادة التجمّع فى تشكيلات جديدة و تحالفات داخل بلد واحد و على المستوى العالمي . لنعيد ، كلّ هذا ممكن بحكم أنّ تطوّر رأس المال الإحتكاري و دمج رأس المال البنكي مع رأس المال الصناعي يحدث وضعا يتحكّم فيه عدد صغير من الأشخاص هم كلّ يوم أكثر إنفصالا عن الإنتاج و عن سيرورة إنتاج القيمة ، يتحكّمون فى بليارات الملايين من الدولارات

(اليانات ، الماركات ، الفرنكات ، الروبلات ، الليرات) من هنا جاء تشديد لينين كثيرا على **طفيلية** رأس المال فى مرحلته الإمبريالية .

و ميزة رئيسية أخرى لرأس المال حلّلها لينين هي أنّه مع تحوّل الرأسماليّة إلى إمبرياليّة ، عوّض تصدير رأس المال (كإستثمارات مباشرة فى بلدان أخرى أو كقروض أو معاملات مالية أخرى) تصدير السلع (التجارة) بإعتباره النشاط الإقتصادي العالمي الأكثر جوهريّة لرأس المال . و واصلت التجارة لعب دور هام جدّا لكن الإستثمارات العالميّة و أشكال أخرى من تصدير راس المال صارت تلعب دورا حاسما أكثر فى السيرورة العامة للمراكمة الرأسماليّة على الصعيد العالمي .

و مع ذلك ، و لو أنّ تحوّل الرأسماليّة إلى إمبرياليّة دشّن مرحلة جديدة من عولمة رأس المال و دمج كلّ مناطق العالم و أنظمة مختلفة فى سيرورة عامة من مراكمة رأس المال على مستوى عالمي ، فإنّ رأس المال الذى ظهر جوهريّا إنطلاقا من السوق الوطني فى البلدان الرأسماليّة حافظ على جذوره فى هذه الأسواق الوطنية . حافظ رأس المال على " شخصيّة وطنيّة " فى سيرورة المراكمة رغم أنّه كان يراكم و فقط يمكنه أن يراكم ، على النطاق العالمي . بالأسلوب ذاته الذى حوّلت به الإمبريالية بعض مظاهر إنتاج السلع إلى نقيضها لكنّها لم تنفصل و لا يمكنها ان تنفصل عن إنتاج السلع ، تجاوزت الإمبريالية فى بعض مظاهرها الراهنة العلاقة بين السوق الوطني الرأسمالي و السوق العالمي بيد أنّها لم تنفصل و لا يمكنها أن تنفصل عن السوق الوطني . فى مرحلة الإمبريالية ، تتفاقم المزاحمة بين الرساميل و مظهرها الأكثر محوريّة هو النزاع بين الدول الإمبرياليّة .

و الإمبريالية تعنى تنافسا أشدّ بين الرأسماليّين الكبار و بخاصة تنافسا بين الدول الإمبريالية من أجل الممتلكات الإستعمارية و " مجالات التأثير" إلخ . فى نهايات القرن التاسع عشر قد إنتهى بعدُ بالأساس تقسيم الممتلكات الإستعمارية لكن التوجّه الحتمي لرأس المال نحو التوسّع إلى جانب ميزات أخرى لرأس المال فى المرحلة الإمبريالية دفعا كما هو حتمي ، إلى صراع أحد من أجل إعادة تقسيم **جديد** للمناطق المستولى عليها . عاجلا أم آجلا ، لمرّات متكرّرة ، يدفع هذا النزاع إلى الحرب بين الإمبرياليين : عادة بصفة غير مباشرة (" حروب بالنيابة " إلخ) و أحيانا مباشرة (عامة حروب بين تحالفات عسكرية أو كتل بقيادة دولة أو بعض الدول الإمبريالية عظيمة القوّة). و مهما كانت نتيجة حرب ما (بما فى ذلك حرب بين كتل إمبريالية ، فإنّ الديناميكية الداخليّة للإمبرياليّة ستظلّ تخلق بإستمرار أرضية حروب جديدة . فالتحالفات و الهدنة بين الإمبرياليّين لا يمكن أن تكون دائمة و لا مطلقة و حتميّا ستوجد إنتهاكات متكرّرة و ستندلع حروب من أنواع متباينة . وهذا هو ما أثبته لينين من خلال تحليل الميزات الأساسيّة للإمبرياليّة و طبعا أكّد تاريخ المرحلة الإمبريالية فى هذا القرن بشكل مأساوي تحليله.

إضافة إلى تحليل الميزات الجديدة للإمبرياليّة و تفسير أسبابها ، أشار لينين إلى أنّ الوضع الجديد يضاعف من إمكانيّات الثورة لا سيما الثورة البروليتاريّة و أشار إلى أنّ هذه الأخيرة لا ينبغى أن تقع أوّلا فى البلدان الأكثر تقدما تكنولوجيا) بل سيمكن أن تحدث أوّلا فى بلد أكثر تخلّفا و أنّه يمكن أن تحصل حيث يدفع تفاعل تناقضات النظام الإمبريالي العالمي و الوضع الملموس لبلد إلى أزمة ثوريّة تضعف الطبقة المهيمنة و ترفع من غضب الجماهير و نضالها .

و من ناحية أخرى ، فى ما يتعلّق بالبلدان الرأسماليّة المتقدّمة ، سمح الإنتقال من الرأسماليّة إلى الإمبرياليّة للطبقات المهيمنة بالبلدان الإمبرياليّة الرئيسيّة بأن تقوم برشوة قطاع من الطبقة العاملة بفتات غنيمة إستغلالها و نهبها العالميّين . و قد تسبّب هذا فى إنقسام فى صفوف الطبقة العاملة : القطاعات الأوفر الإمتيازات و المرتشيات هي القاعدة الإجتماعية لسياسة إصلاحيّة فى أفضل الحالات . و القطاعات الأفقر و المستغَلة أكثر تظلّ القاعدة الإجتماعية للثورة البروليتارية و الأمميّة البروليتاريّة . و أبرز لينين أنّه ، كتوجّه و إستراتيجيا جوهريّة ، كان لزاما الذهاب أسفل أكثر و أعمق إلى هذه القطاعات الأفقر ضمن البروليتاريا المحافظة على خطّ ثوري و بناء حزب و حركة تقدر على تحقيق الأهداف الثوريّة للبروليتاريا كطبقة .

2- الحزب البروليتاري الطليعي :

لم يكتف لينين بقطع هذه الخطوات الهامة إلى الأمام فى تطبيق نظريّة ماركس على المرحلة الإمبريالية و إنّما قاد نشاطا جعلها تمتاز "بصفة الواقع المباشر " و تكتسب شموليّة عالميّة . من خلال قيادته للثورة البروليتارية فى روسيا و للجمهورية السوفياتية التى أوجدها ، أثبت بالممارسة صحّة مبادئ الماركسية – اللينينية و قوّتها و قاد البروليتاريا فى التقدّم التاريخي العظيم ألا وهو الإطاحة بالنظام القديم و إفتكاك السلطة و تعزيزها و الشروع فى التحويل الإشتراكي للمجتمع .

كلّ هذا مرتبط وثيق الإرتباط بمساهمات لينين فى التحليل الماركسيّ للعلاقة بين الوعي و العفويّة و بين القيادة الطليعيّة و الجماهير (بين الحزب و الطبقة و الجماهير التى يقودها) فقد شرح لينين أنّ الوعي الذى يحصل عليه العمّال عفويّا لا يمكن أن يكون بعدُ وعيا شيوعيّا . فى مجتمع منقسم إلى طبقات و تهيمن عليه طبقة إستغلالية ، سيكون الوعي " العفوي " محدّدا بأفكار الطبقة المهيمنة . و للقطيعة مع وجهة نظر البرجوازية و الحصول على وعي يعبّر عن المصالح الجوهرية للطبقة العاملة ، شرح لينين ، على العمّال ألاّ يحدّدوا مشاغلهم ونضالاتهم فى النضال الإقتصادي (النضال من أجل أجر يومي أفضل ، و ظروف عمل أحسن إلخ) فقط و رئيسيّا ، عليهم أن يخوضوا نضالا عاما ضد النظام الرأسمالي و إضطهاد العمّال و كلّ الشرائح و الفئات الإجتماعيّة .

يتعيّن على العمّال أن يهتمّوا بكلّ مجالات المجتمع و أن يتعلّموا التعرّف على مصالح كلّ طبقة فى كلّ الشؤون الإجتماعية و الأحداث العالميّة الرئيسيّة . بهذه الطريقة وحدها يمكنهم التوصّل إلى معرفة الطبيعة الأساسيّة للعدوّ (النظام الرأسمالي و طبقته المهيمنة) و معرفة كلّ من إمكانية كسب حلفاء من بين قوى إجتماعية أخرى و **كذلك** حدود مثل هؤلاء الحلفاء بإرتباط بموقعهم و بوجهة نظرهم الطبقيّين . هكذا فحسب يمكن للبروليتاريا أن تصير واعية تماما لمصالحها كطبقة و أن تتّخذ موقفا يتماشى معها و أن تكتسب القدرة على قيادة جماهير المضطهَدين فى نضال حازم و قويّ لأجل قبر النظام القائم و إرساء نظام إشتراكي جديد تحكمه البروليتاريا .

و زيادة على ما سبق ، أثبت لينين أنّه لا يمكن للطبقة العاملة إكتساب وعي طبقيّ ثوريّ و خوض نضال ثوريّ دون قيادة حزب طليعي يمثّل بصفة مركّزة وجهة نظر و مصالح البروليتاريا و يدمجها مع نضال الجماهير فى سبيل تحويل نضالاتها و وعيها العفويّين إلى حركة ثوريّة تقودها الإيديولوجيا الثوريّة . و يتعيّن على الحزب الطليعيّ ألاّ يكون أعضاؤه من صفوف البروليتاريا فحسب بل يتعيّن أيضا أن يضمّ مثقّفين ثوريّين و ثوريّين من شرائح أخرى ، بشرط أن يتبنّى جميعهم موقف البروليتاريا و وجهة نظرها و أن يسخّروا حياتهم كلّها لهدف تحرير البروليتاريا . كي ينهض بهذا الدور الثوري الطليعيّ ، لا يستطيع الحزب أن يكون إتّحادا غير جديّ من أناس لا يوجد بينهم إلاّ تعاطف عام مع قضيّة الإشتراكيّة أو ببساطة توحّد بينهم مساهمتهم فى النضالات العمليّة للعمّال . هذان أمران هامان لكنّهما غير كافيين فينبغى على الحزب أن يكون منظّمة عالية التنظيم و الإنضباط ، توحدها نظرة للعالم و برنامج سياسي مشتركين . و عليه أن يكون قادرا على مقاومة قمع الطبقة السائدة و جهاز دولتها لقيادة (و كجزء من قيادة) نهوض الجماهير الذى يطيح بالنظام . و يجب أن يمتلك الحزب هياكل و أن يعمل على نحو تكون له إرادة مشتركة و وحدة عمل و يجب أن يوفّق بين الديمقراطية و المركزيّة ، و يجب أن يتميّز بنضاله على كافة الصعد من الأسفل إلى الأعلى لبلورة خطوط و تعليمات و إختيار القادة و الإشراف عليهم ، و ينبغى أن يعمل كقوّة موحّدة حيث تخضع المستويات الدنيا إراديّا إلى المستويات العليا بخاصة تطبيقا للخطوط و التعليمات . كما يجب أن يكون له عامود فقريّ من الثوريّين المحترفين لوقت كامل و على كلّ مناضليه أن يسخّروا أنفسهم بصفة متنزّهة عن المصلحة الخاصة للنضال الثوري للبروليتاريا و للحزب من أجل قيادة هذا النضال .

و ينبغى أن يظلّ جليّا أن لينين حين شدّد على أهمّية قيادة الطليعة و دورها كحاملة للوعي الشيوعي للعمّال ، فإنّه لم يكن يعارض المبدأ الجوهريّ الذى طرحه ماركس : يجب أن يحرّر العمّال أنفسهم بأنفسهم و أنّ لا مجموعة أو قوّة أخرى بمستطاعها أن تعوض الجماهير . و بالفعل بيّن لينين أنّ الحزب الشيوعي ، عندما يضطلع بهذا الدور الطليعي ، يعزّز النشاط الواعي للجماهير و أن لهذا أهمّية حاسمة لجعلها قادرة على تحقيق الثورة البروليتارية .

و هذا إضافة خارقة للعادة فقبل لينين لم يكن ذلك مفهوما بوضوح و عليه لم يتطوّر حزب منظّم و منضبط يضطلع بهذا الدور السياسي و الإيديولوجي و **على هذا الأساس** يرتكز على الجماهير و يحثّها على النضال تحقيقا للثورة . و ليس أمرا عرضيا و لا مصادفة أنّ كلّ الذين يعارضون الثورة البروليتارية (بشكل مفضوح كمدافعين عن النظام القديم أو تحت راية أو أخرى أو لون أو آخر من " الإشتراكية " الإصلاحية) لا شدّ ما يهاجمون مساهمة لينين هذه فى نظريّة و ممارسة الثورة البروليتارية .

3 / تطوّر الثورة البروليتاريّة العالميّة كسيرورة ثوريّة عالميّة :

لقد رأينا أنّ تحليل لينين للإمبريالية و نتائجها السياسيّة و الإقتصاديّة كان حاسما بالنسبة للتوجّه الإستراتيجي للثورة البروليتارية العالمية و فى كلّ بلد . و أحد المظاهر التى تتّسم بأهمّية إستراتيجية لهذا التوجّه هو الأمميّة البروليتاريّة التى عزّز كثيرا أساسها كلاّ من تطوّر الرأسماليّة إلى إمبرياليّة و تحليل لينين لهذا التحوّل و إنعكاساته الإستراتيجية . و تكثف هذا فى الموقف الذى إتّخذه لينين و الذى إتّخذه الحزب البلشفيّ تحت قيادته فى ما يتّصل بالحرب العالميّة الأولى . فغداة الحرب ، كانت الغالبيّة العظمى من الأحزاب التى كانت تسمّى نفسها إشتراكيّة أو شيوعيّة وعدت بمعارضة الحرب الإمبريالية بحرب أهليّة . و إعترفت بأنّ الحرب التى كانت ستندلع بين الإمبرياليّين كانت حرب نهب و إستغلال ، حربا بين مالكي العبيد ليس فيها للطبقة العاملة بكلّ بلد أيّة مصلحة ، و وعدت بأنّها عوض "الدفاع عن الوطن " ستقود الجماهير فى النضال ضد الحرب و ضد طبقت"ها " السائدة بهدف الإطاحة بها .

ومع ذلك ، لمّا إنفجرت الحرب رمت تقريبا كافة الأحزاب أرضا راية الأمميّة البروليتاريّة و رفعت راية " الوطن " (راية إمبرياليي بلادها هي) ضد بروليتاريي و مضطهَدى البلدان الأخرى . و قد كان هذا خزيا و كارثة مفاجئة بالنسبة للأمميّة الثانية التى كانت تنتمى إليها تلك الأحزاب. و عمليّا ، بقي لينين و البلاشفة الوحيدين فى الطليعة الأمميّة للذين دافعوا بصرامة عن الموقف الأمميّ البروليتاريّ و خاصة "الإنهزامية الثورية " أي موقف العمل فى سبيل هزيمة البرجوازية الإمبريالية للبلد الخاص و إستغلال كلّ المحن التى تتعرّض لها أثناء الحرب و توجيه كلّ العمل نحو هدف تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهليّة غايتها قبر الطبقة السائدة و دفع المجتمع بإتّجاه الإشتراكية .

و هكذا بالضبط تمّت الثورة البروليتاريّة فى روسيا فى أثناء الحرب العالميّة الأولى . و قد مثّل ذلك مساهمة عظيمة عمليّا و تعبيرا قويّا جدّا عن مبدأ الأمميّة البروليتاريّة و أهمّيته الكبرى فى حقبة الإمبرياليّة مثلما شرح لينين .

كانت ثورة أكتوبر و تكوين الجمهورية السوفياتية الجديدة بحدّ ذاتهما أمميّين و أسهما إسهاما كبيرا فى الأمميّة . أوّلا ، حوّلا ما كان يسمّى عن حق " سجن الأمم " (الإمبراطورية القيصرية القديمة) إلى إتّحاد شعوب قائم على المساواة فى ظلّ حكم البروليتاريا . و لإدراك الأهّمية التاريخية لمثل هذا التحويل لا نحتاج إلى أكثر من مقارنة الإتّحاد القويّ الذى شيّدته الثورة بين مختلف الأمم ، من جهة ، و النزاعات الدمويّة التى يقودها الرجعيّون و التى تندلع الآن فى الإتّحاد السوفياتي سابقا بين قوميات مختلفة و النزاع إنطلاقا من آفاقهم البرجوازية للهيمنة على أمم أخرى ، من جهة ثانية . و هذا تعبير آخر عن أن الإتّحاد السوفياتي فى ظلّ حكومة الإمبرياليّين الإشتراكيّين منذ زمن خروتشوف صار من جديد " سجنا للأمم " . و الآن تلت تبنّى أشكال مفضوحة من الحكم البرجوازي و الرأسماليّة إنفجارات و تناحرات قوميّة إلاّ أنّ جذور هذه الثمرة المريرة هي إفتكاك التحريفيّين السلطة و القفزة إلى الوراء التى شهدها الإتّحاد السوفياتي من الإشتراكيّة إلى الإمبرياليّة الإشتراكيّة .

و قد مثّل ما قام به لينين مساهمة عظيمة فى الممارسة العمليّة و تعبيرا غاية فى القوّة عن مبدأ الأمميّة الثوريّة و الأهمّية الكبرى فى عصر الإمبريالية كما حلّله لينين .

ثانيا ، لقد ألهمت الثورة الروسية و قيادة لينين و شجّعت الثورة فى البلدان المتخلّفة و المستعمَرة . و قد بيّنت الثورة البلشفيّة أنّه لم يكن على الثورة البروليتاريّة بوجه خاص مع تطوّر الإمبريالية ، أن تندلع أوّلا فى البلدان الرأسمالية المتطوّرة (تكنولوجيّا) . فقد كانت روسيا القيصرية بلدا إمبرياليّا لكن أيضا بلدا متخلّفا حيث لا تزال قائمة عديد البقايا الإقطاعية و خاصة فى الريف أين كانت تعيش غالبيّة السكان . و مثلما أشار لينين ، بقيت روسيا القيصرية بين الغرب و الشرق

و الثورة السوفياتية مدّت جسرا بينهما . زيادة على فتحها الباب أمام الإشتراكيّة فى الإتحاد السوفياتيّ ، خلقت هذه الثورة إمكانيّات واسعة للإشتراكية فى البلدان المستَعمَرة كما شدّد على ذلك ستالين .

و قد أبرز لينين أنّ ميزة جوهريّة من ميزات الإمبرياليّة هي خلق تقسيم بين حفنة من البلدان الإمبريالية و العدد الكبير من البلدان المستعمَرة ، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة . و بناء عليه قال إنّ الثورة الإشتراكيّة فى البلدان الإمبرياليّة تكون خداعا و غير ممكنة إذا لم تساند بالكلمة و بالعمل نضالات تحرّر الشعوب المستعمَرة التى تمثّل الغالبيّة العظمى للإنسانية . ذلك أنّه وعى القوّة التى كانت لتلك النضالات الهادفة للحصول على الإستقلال و التحرّر من الإمبرياليّة و التقدّم نحوالإشتراكيّة و قد درس بجدّية المسائل الإستراتيجية المرتبطة بذلك .

لقد حملت الثورة السوفياتيّة تأثير و بذور تنظيم الحركة الشيوعيّة إلى كثير من مناطق العالم المستعمَرة . و لنذكر على سبيل المثال بالتصريح المعروف لماوتسى تونغ بأنّ طلقات مدافع ثورة أكتوبر حملت الماركسية – اللينينية إلى الصين و غيّرت كلّيا طابع نضال الشعب و المجتمع فى ذاته.

و كتعبير ملموس لكلّ هذا تمّ تنظيم الأمميّة الثالثة . و لأوّل مرّة تأسّست أمميّة شيوعيّة حقّا بقيادة لينين و إمتدادا لخطه و ممارسته فى الثورة السوفياتية .

مجدّدا ، يمكن طرح السؤال و الإجابة عليه بإصرار : هل " فنّد الواقع " مساهمات لينين فى الماركسيّة و تطبيقها على المرحلة الراهنة ؟ الأحداث الحالية ، لا سيما في الإتّحاد السوفياتي و أوروبا الشرقية ،هل فنّدت أم أعادت تأكيد صلوحيّة اللينينيّة و شدّدت أكثر من أيّ زمن مضى على أهمّيتها ؟ إنّها لسخرية الوضع الراهن أنّ روسيا بالضبط بينما تسقط "الذئاب و الخنازير و الكلاب السافلة للمجتمع القديم و عباد السماء الذين تفوح منهم المعسكرات و الكنيسة ... و خاصة الإنحطاط " (مثلما وصف ماركس الرجعيّين الذين أغرقوا فى الدم كمونة باريس) تماثيل لينين فإنّ جماهير العالم و جماهير ما كان الإتّحاد السوفياتي الآن أكثر من أيّ زمن مضى تحتاج إلى الدفاع عن إرث الثائر لينين و تبنّيه كمرشد .

و هذا ما يحيلنا إلى القمّة الثالثة للماركسية – اللينينية – الماوية : الماوية .

3 / ماو تسى تونغ :

حمل لينين و ثورة أكتوبر طلقات الماركسية – اللينينية إلى بلدان مثل الصين و فتحا آفاقا أوسع للثورة التى تقودها البروليتاريا فى هذا النوع من البلدان و بادرا بأوّل تقدّم فى الإستراتيجيا المناسبة لمثل تلك الثورات لكن ماو تسى تونغ بلور كلّ هذا على مستوى أرقى و وضعه موضع الممارسة العمليّة بقوّة قائدا الثورة الصينية . فقد صاغ ماو نظرية و إستراتيجيا ثورة الديمقراطية الجديدة الموجّهة نحو الإشتراكية بالنسبة للبلدان المسماة ب " العالم الثالث " .

1/ نظرية و إسترتيجيا ثورة الديمقراطيّة الجديدة :

لقد أشار ماو إلى أنّه فى تلك البلدان و إن ظلّت بقايا علاقات ما قبل الرأسماليّة قائمة (مثلا فى الصين ، ظلّت هنالك عديد بقايا الإقطاعيّة و العلاقات شبه الإقطاعيّة ، فى الريف بصورة خاصة) فإنّ نوع الثورة اللازمة لأجل حلّ تناقضات المجتمع و لأجل تحرير الجماهير ليست ثورة ديمقراطية – برجوازية تركّز هيمنة البرجوازيّة و الرأسماليّة بل ثورة ديمقراطية **جديدة** بقيادة البروليتاريا تحرّر البلاد من هيمنة الإمبريالية و تغيّر النظام الإجتماعيّ و تقضى على العلاقات الإقتصادية و الإجتماعيّة ما قبل الرأسماليّة و تبسط الطريق أمام الإشتراكية . إنّها ثورة على مرحلتين . المرحلة الأولى تتميّز بالنضال للإطاحة بالإمبريالية و الإقطاعية و الرأسمالية البيروقراطية المرتبطة بهما ممّا يعبّد الطريق أمام التقدّم نحو المرحلة الإشتراكية بقيادة البروليتاريا. فى ثورة الديمقراطية الجديدة ، لا سيما فى مرحلتها الأولى ، من الضروري بناء جبهة عريضة متّحدة تجمّع كافة الطبقات و الشرائح و المجموعات التى يمكن توحيدها لمعارضة الإمبريالية و الإقطاعية و الرأسمالية البيروقراطيّة و على البروليتاريا و حزبها أن يقودا تلك الجبهة المتّحدة و النضال الثوريّ عموما .

و إلى جانب هذه النظريّة ، صاغ ماو تسى تونغ الإستراتيجيا العسكريّة الجوهريّة للثورة فى بلدان ما يسمّى بالعالم الثالث . نظرا للهيمنة الإمبريالية (و فى أحيان كثيرة الحرب بين الإمبرياليين من أجل الهيمنة) و بحكم العلاقات ما قبل الرأسمالية و التخلّف العام لقوى الإنتاج (مثلا ، نقص وسائل الإتّصال و النقل المتقدّمة و خاصّة فى الريف) و التطوّر الإقتصادي غيرالمتكافئ و غير المندمج بدرجة عالية ، هنالك مناطق شاسعة من الريف أين لا يمكن للدولة الرجعيّة أن تعمل بكلّ قوتها. و إضطهاد الجماهير العريضة و فقرها المدقع ، إضافة إلى أنّه ثمّة عموما إنقسامات جدّية فى صفوف الطبقات المهيمنة و انّه ليست لها قاعدة إجتماعية رجعيّة قويّة داخل البلاد ، كلّ هذا يجعل تلك البلدان تعيش عامة وضعا ثوريّا ، على أنّ لهذا الوضع الثوريّ مدّ و جزر و حدّته ليست دوما على نفس المستوى . وعلاوة على ذلك ، يمكن تحويل تخلف قوى الإنتاج فى الريف و عزلتها إلى وضع ملائم للنضال الثوري حيث يمكّن من إيجاد مناطق مستقلّة نسبيّا إقتصاديّا .

و نتيجة كلّ هذه الميزات (تباين مع البلدان الإمبريالية التى من اللازم أن يكون طريقها الثوري فترة من التحضيرات السياسيّة المتنوّعة بإنتفاضة و حرب أهليّة عندما تنضج الظروف الموضوعية) فى الأمم المضطهَدة للعالم الثالث ، يمكن للحرب و يجب أن تكون الشكل الرئيسي للنضال الثوريّ ، من البداية إلى النهاية . و الطريق الإستراتيجي لإفتكاك السلطة هو الشروع فى حرب ثوريّة يقودها الحزب الشيوعي : أوّلا ، حرب أنصار على نطاق ضيّق فى الريف ثمّ توسيعها تدريجيّا إلى عمليّات عسكرية و تعزيز القوّات المسلحة للثورة فتركيز مناطق محرّرة فى الريف تمثّل مناطق إرتكاز إقتصاديّة و سياسيّة و عسكريّة للحرب الثوريّة و شيئا فشيئا إفتكاك الريف أكثر فأكثر (محاصرين المدن) بينما يقع إعداد الظروف لإنتفاضة فى المدن و فى النهاية النضال فى سبيل إفتكاك المدن و تحطيم سلطة الدولة الرجعيّة التى تتمركز هناك تحطيما تاما .

هذه هي الإستراتيجيا العسكرية لحرب الشعب الطويلة الأمد و مع الإستراتيجيا السياسية لثورة الديمقراطية الجديدة تشكّل سلاحا غاية فى الأهمّية بالنسبة للمضطهَدين بالعالم الثالث و من هناك بالنسبة للبروليتاريا العالميّة عموما . مع أنّ إستراتيجيا حرب الشعب الطويلة الأمد تنطبق على بلدان العالم الثالث تحديدا فإنّ مبادئ الحرب الثوريّة و مبادئ حرب الشعب التى صاغها ماو كأساس لتلك الإستراتيجيا تنطبق عالميّا على النضال الثوريّ . و من كلّ تلك المبادئ الأكثر أهمّية نجد مبدأ أنّ الحاسم فى الحرب هم الناس و ليست الأسلحة و أنّ الحرب الثوريّة هي حرب الجماهير : هذا و مبادئ ثوريّة أخرى أساسيّة فى الحرب الثوريّة متفرّعة عنه يجب تكريسها عند خوض الحرب الثوريّة فى كلّ البلدان ، كلّ بلد حسب طريقه الإستراتيجي و وضعه الموضوعيّ . هذه مساهمة عظيمة أخرى من مساهمات ماو فى النضال الثوريّ للبروليتاريا العالميّة .

2 / مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا :

لكن أعظم مساهمة من مساهمات ماو تسى تونغ هي النظريّة و الخطّ الأساسيّين لمواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا الذين نحتهما مناضلا ضد المشاكل الجديدة التى إعترضتهم فى المرحلة الإشتراكيّة للثورة و معالجا بعمق كلّ مظاهر التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا فى الإتّحاد السوفياتي و فى الصين . إنّ النظرية و الخطّ الأساسيّين لمواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا و مكافحة التحريفيّة و صعود البرجوازية (التحريفيين أتباع الطريق الرأسمالي) للسلطة ، مهمّة للغاية إستراتيجيّا على المدى البعيد و مهمّة للغاية آنيّا لفهم سيرورة إعادة تركيز الرأسمالية فى الإتّحاد السوفياتي و فى الصين و أيضا الإنعكاسات الحالية لتلك المحن . و كلّ هذا على صلة بدوره بمواضيع تاريخيّة عالميّة عامة متعلّقة بالثورة البروليتاريّة العالميّة .

و لنعرض التحليل الجوهري لماو : تعلّم التجربة التاريخيّة للصين و الإتّحاد السوفياتي أنّه حتّى بعد إفتكاك وسائل الإنتاج من أيدى الرأسماليّين الكبار و وضعها بأيدى الدولة ، و حتّى بعد تحويل رأس المال من الحجم الصغير و الملكيّة الخاصة إلى ملكية إجتماعية للدولة أو مجموعات تعاونية للعمّال و بالخصوص للفلاّحين ، تبقى اللامساواة و الإختلافات واضحة فى المجتمع و أكثر من ذلك ، تظلّ تعبّر عن ذاتها كتناقضات طبقيّة و صراع طبقات . و ما هو أهمّ هو أنّ تلك التناقضات (بين الرجل و المرأة ، بين الأمم المتخلّفة إلخ) معا مع تواصل مظاهر العلاقات الإقتصاديّة البرجوازيّة (مثل التبادل السلعي و الإختلافات فى الأجور) ، تحتوى بذرة تناقضات إجتماعيّة و تجعل البرجوازيّة تستمرّ فى التوالد بإستمرار فى

المجتمع الإشتراكي . تبعا لذلك يبقى التناقض و الصراع بين البروليتاريا و البرجوازيّة هو التناقض و الصراع الأكثر حسما فى المجتمع الإشتراكي .

و إنتهى ماو تسى تونغ إلى إستنتاج مفاده أنّ تواجد الطبقات و المجتمع الطبقي سيستمرّان خلال المرحلة الإشتراكيّة : إن الإشتراكية لا تمثّل نهاية الثورة و لا مرحلة تتطوّر تدريجيا و سلميّا و بصورة متناسقة صوب الشيوعيّة بل مرحلة إنتقاليّة من الرأسمالية إلى الشيوعية متميّزة و مدفوعة بالصراع الطبقي . علاوة على ذلك ، حلّل ماو أنّ فى المجتمع الإشتراكي (حيث الحزب هو المركز السياسي الرئيسي للدولة و القوة الرئيسية التى تقود الإقتصاد) تتركز نواة البرجوازيّة الجديدة داخل الحزب و بخاصة فى مستوياته العليا ضمن الذين يتخلّون عن التوجّه البروليتاريّ و الطريق الإشتراكي ، الذين " يراجعون" (يحرّفون) المضمون الثوريّ للشيوعيّة و يتبنّون وجهة نظر البرجوازيّة و ينتهجون الطريق الرأسمالي بإسم الإشتراكية و الشيوعية .

و قد عبّر ماو عن ذلك بالصيغة المقتضبة الآتية : صعود التحريفية إلى السلطة يعنى صعود البرجوازية إلى السلطة . و قد أشار إلى أنّ هذا هو ما حصل فى الإتّحاد السوفياتي إثر وفاة ستالين بصعود خروتشاف و زمرته إلى السلطة فى 1956 و ما كان يحدث فى الصين ذاتها : هنالك بالضبط وُجد أناس مثل خروتشاف ، قدماء من قادة الثورة كانوا فى مواقع عليا و كانوا يودّون تحقيق البرنامج ذاته . لم تكن تدفعهم ببساطة أسباب تمجيد شخصيّة ، أمام التناقضات الطبقيّة و غمرة الصراعات التى يشهدها المجتمع الإشتراكي و أمام الوضع العالمي و الخطر المستمرّ لهجوم إمبريالي ، كانوا يبحثون عن مخرج سهل : كانوا يريدون تحويل البلاد إلى دولة حديثة و قويّة فى أقصر وقت ممكن و من خلال الطريق الأقلّ خطرا و إشكاليّة و عني ذلك الإستسلام للإمبريالية و قمع المبادرة الثوريّة للجماهير و وضع مبادئ الرأسماليّة و قواها المحرّكة موضع قيادة المجتمع .

و كان الردّ على أتباع الطريق الرأسماليّ و كانت طريقة كبح مخطّطاتهم لإعادة تركيز الرأسماليّة هي الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى التى إندلعت فى أواسط الستّينات . و كانت الثورة الثقافيّة بيانا حيّا عن النظريّة و الخطّ الجوهريّين لمواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا . و قد مثّلت التقدّم الأكبر الذى حقّقته البروليتاريا العالميّة حتّى الآن و حدثا تاريخيّا لم يسبق له مثيل : نهوضا ثوريا للجماهير لدفع التحويل الثوريّ للمجتمع حين كانت الثورة بعدُ قد أطاحت بالنظام القديم و ركّزت دكتاتوريّة البروليتاريا و مشركت جوهرياً الإقتصاد و خاصّة نظام الملكيّة . و علاوة على أنّ الثورة الثقافيّة التى إمتدّت لعقد مؤثر قد حالت دون إعادة تركيز الرأسمالية ، فإنّها قد حقّقت تقدّما جديدا فى تحويل العلاقات و المؤسّسات و أفكار المجتمع و خلقت بذورا جديدة للمستقبل الشيوعي .

و حتّى نستعير مرّة أخرى الكلمات الصائبة و اللاذعة لماركس ، كما كان متوقّعا ، فإنّ كلّ " الذئاب و الخنازير و الكلاب السافلة للمجتمع القديم ، عبيد السماء الذين تفوح منهم رائحة المعسكرات و الكنيسة ... وخاصة الإنحطاط " ، سواء كانوا من الصين أو من الولايات المتّحدة الأمريكية أو من أيّ مكان كانوا ، قد إفتروا على الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى و هاجموها . إنّهم يكرهونها و يحتقرونها لسبب وجيه ألا وهو أنّها تمثّل نهاية أنظمة الإستغلال و الإضطهاد . إنّها تمثّل عدم القبول بتحطيم الثورة . إنّها تمثّل القرار الواعي للجماهير بأن تنجز الثورة البروليتارية دون توقّف حتّى تحقيق الهدف الشيوعي . إنّها تمثّل تقدّما جديدا فى طريق ذلك الهدف . لا شيء (و لا حتّى التراجع عن الثورة الثقافية و التراجع الكلّي عن الثورة البروليتارية و إعادة تركيز الرأسماليّة فى الصين) يمكنه أن يمحو الأهمّية التاريخيّة لما أنجزته الثورة البروليتارية الكبرى و الضوء الذى قدمت مضيئة الدرب نحو المستقبل .

فى ظلّ قيادة ماو ، لا سيما خلال النهوض الشعبي للثورة الثقافية ، كانت الصين منارة و حصنا بارزا مساندا للنضال الثوري فى العالم بأسره ، مثلما شُوهد ذلك فى مساعدة القوى الثوريّة عبر العالم قاطبة و فى التجمّعات الشعبيّة المساندة للنضالات الثوريّة و فى حالة عجوز من كمونة شعبية روت أنّها كانت تعتنى بخنزير لأجل أن تضع حبّة رملها فى تقدّم الثورة العالميّة . بمعنى جوهريّ ، لأبعد من المساندة السياسيّة و الإعانة الماديّة التى قدّمتها الصين الإشتراكية للنضالات الثوريّة للبروليتاريا و لمضطهدى العالم (بتضحيات كبيرة من طرف الجماهير الصينية) أبعد من كلّ هذا مساندتها الأعظم كانت النظريّة و الخطّ الذين طوّرهما ماو تسى تونغ حول المسائل الحيويّة للثورة البروليتاريّة . ستبقى مساهمة ثمينة للغاية و مستديمة بالنسبة للبروليتاريا العالميّة و للحركة الشيوعية العالميّة . إنّ المستجدّات الحديثة فى الصين أو فى الإتحاد

السوفياتي لا تجعل من مساهمات ماو غير صالحة أو تقلّص منها . بالعكس ، إنّها تشعّ الآن أكثر من أيّ زمن مضى فى تباين مع إفلاس التحريفية : أهمّية هذه المساهمات تتألّق اليوم أكثر من أيّ زمن مضى .

4/ الماركسية - اللينينية - الماوية : توليف كلّي القدرة لأنّه صحيح

تمثّل المساهمات الكبرى لماو تسى تونغ تقدّما فى إيديولوجيا البروليتاريا و علم الثورة نحو مستوى أرقى . فمثلما رفع لينين الماركسية إلى مرحلة جديدة هي الماركسية – اللينينية ، فإنّ ماو متّبعا نهج لينين رفعها إلى مرحلة جديدة أخرى هي الماركسية – اللينينية – الماوية . و الماركسية – اللينينية - الماويّة فهم للعالم و منهج علميّ يمكن أن يطبّق فى كلّ مجالات الحياة و الواقع و فى خلال السيرورة يتعيّن أن تتطوّر أكثر . ما قاله ماو بصدد الماديّة الجدليّة ينسحب على الماركسية – اللينينية - الماوية عموما : هي " حقيقة عامة ، ذلك لأنّه ما من أحد يستطيع فى ممارسته العمليّة الخروج عن إطارها " (" **فى الممارسة العملية** " ، **مؤلفات ماو تسى تونغ المختارة** ، بيكين ، منشورات باللغات الأجنبية ، المجلد 1 ، صفحة 446 ، الطبعة العربية) . و كما قلت فى كتاب " **من أجل حصاد التنانين**" : " يمثّل فكر ماو تسى تونغ (حين نُشر ذلك الكتاب بالأنجليزية سنة 1983 ، كان حزبنا يسمّى إيديولوجيا البروليتاريا العالميّة الماركسية – اللينينية – فكر ماو تسى تونغ . منذ ذلك الحين ، للتعبير بصيغة أعمق عن المساهمات النوعيّة لماو فى هذه الإيديولوجيا و بالتالي تطويره لها إلى مرحلة جديدة ، تبنّينا صيغة الماركسية – اللينينية – الماوية) تطويرا نوعيا للماركسية - اللينينيّة . و بالتالى الماركسية - اللينينية - فكر ماوتسى تونغ هي فلسفة و نظريّة سياسيّة شاملة وهي فى الوقت نفسه علما حيّا و ناقدا و فى تطوّر مستمرّ . ليست مراكمة كمّية لأفكار ماركس و لينين و ماو (و ليست كلّ فكرة و إستراتيجيا و تكتيك خصوصيّ تبنّوهم أو دافعوا عنهم صحيحة دائما و مطلقا) بل إنّ الماركسية - اللينينية - فكر ماو تسى تونغ هي توليف للتطوّر و خاصة للتقدّم النوعيّ الذى توصّلت إليه النظريّة الشيوعيّة إنطلاقا من تأسيس ماركس لها وصولا إلى الوقت الحاضر . و لهذا السبب و بهذا المعنى ، مثلما قال لينين عن الماركسيّة ، إنّها كلّية الجبروت لأنّها صحيحة " . (أفاكيان ، " **من أجل حصاد التنانين** " 1983، صفحات ،107 -108 منشورات الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة) .

الجزء الأوّل

الهجوم الراهن ضد الماركسيّة : المراوغات و الردود

لنرى الآن كيف يعلّل القادة و الناطقون الحاليّون بإسم الإمبراليّة (و عملاؤهم) تأكيدهم بأن " الشيوعية قد ماتت ".

و لنبدأ بالنقاط الجوهريّة لخطاب بوش فى الأمم المتّحدة فى سبتمبر 1991 . ما يلى هو ترجمة لمقتطفات متنوّعة من نّص خطابه الذى نشر فى جريدة " **النيويورك تايمز** " (24 سبتمبر 1991) إلى جانب بعض الردود .

قال بوش : " لقد أسرت الشيوعيّة التاريخ طوال سنوات و أوقفت صراعات قديمة و قمعت النزاعات الأثنيّة و الطموحات القوميّة و أفكار مسبّقة قديمة .

بإنحلال الشيوعية ، بسرعة أعيد إحياء الكراهيّات الملغاة . شرع أناس كانوا لسنين مضطرّين لإنكار ماضيهم شرعوا فى البحث عن شخصيّتهم الذاتيّة عادة بطرق سلميّة و بنّاءة و أحيانا بطرق التعصّب و إراقة الدماء .

يبشّر هذا الإنبعاث التاريخيّ بمرحلة جديدة تزخر فُرصا و مخاطرا . ولنستهلّ الحديث عن الفرص . أوّلا ، يسمح تجديد التاريخ بأن يتّبع الناس غرائزهم الطبيعية للمؤسسة [الأنتربراز].

لقد جمّدت الشيوعيّة هذا النموّ إلى درجة أنّ المدافعين عنها ذاتهم لا يستطيعون تحمل عبء فشلهم " .

الردّ : بداية ، تعليق عام عن التاريخ : ما " أوقفته " الثورة البروليتارية و " أسرته " (لوقت قصير جدّا) هو العادة القديمة للإستغلال و الأسر فى قيود العادة ، و الهيمنة الطويلة للقوى التقليديّة و قوّة العُرف ، و تاريخ آلاف السنوات التى كان أثناءها جزء من المجتمع ، قلّة ، يتحكّم فى القاعدة الإقتصاديّة للمجتمع (و من هنالك فى السلطة السياسيّة و القوات المسلّحة و الإيديولوجيا و الثقافة) و كان يقمع و يستغلّ الجماهير و عبر مؤسسات النظام و الأعمال الواعية كان يبقيها فى جهل لوضعها الخاص و طُرق تغييره جوهريّا حيث لم تكن التغيّرات الإجتماعيّة ، بما فى ذلك التحوّلات الثوريّة ، سوى تعويض نظام إستغلالي بنظام إستغلاليّ آخر.

الجانب القار فى كافة التحوّلات الإجتماعيّة السابقة كان الوضع الجوهريّ للجماهير و التقسيم الجوهريّ للمجتمع إلى طبقات ذات مصالح متضادة و متناحرة و كان هذا يمنع الجماهير (و إذا ما ذهبنا إلى ذلك ، الطبقات السائدة عينها) من رؤية كيفيّة سير المجتمع واقعيّا و رؤية الواقع كما هو . هكذا نرى أنّه بالرغم من كلّ الإختلافات فى شكل و مضمون الأنظمة الإستغلاليّة ، فإنّها جميعا تمتاز ببعض النقاط المشتركة الهامة و أعلنت كلّ طبقاتها السائدة أنّ بعض المؤسّسات مثل الكنيسة و الدولة ، من أيّ نوع كانت ، "غير قابلة للمس" وأنّ الأفكار التى تُربّى الجماهير على " الخوف التقديسي و المتطيّر " من مثل تلك المؤسّسات أفكار مقدّسة .

عند سماع الحديث عن " إيقاف التاريخ " يتصوّر المرء أنّ بوش و القوى التى يجسّدها خارجين من ليل طويل فى نهايته يقولون : " لنعد إلى وضع فيه تتقاتل الأمم و الجماعات الدينيّة دون الإنقطاع البغيض ، فيه تستغلّ إلى الحدود القصوى القوى الإمبراليّة الكبرى البلدان الصغيرة و الأمم المضطهَدة و تتقاتل فى ما بينها من أجل الهيمنة العالمية ، فيه يتمّ إخضاع المرأة و السيطرة عليها ، فيه تبقى جماهير العالم فى عبوديّة و بؤس : كلّ هذا لفائدة حفنة من الطفيليّين الذين يحتكرون الثروة و السلطة عبر العالم . لنعد إلى هذا الآن و قد تخلّصنا من الدخيل الجلف ، الثورة الشيوعيّة ".

طبعا لا يستطيعون قول ذلك بصورة مباشرة . و بالفعل إنّ بوش حتّى يسكب دموع التماسيح لإنبعاث " التعصّب و إراقة الدماء " بين المجموعات و الشعوب و الأمم و للرجوع إلى " الأفكار المسبّقة القديمة " . لكن فى الواقع ، هذه الأشياء لا

تنفصل عن " التاريخ " الذى يريد بوش و الآخرون " تجديده " فقد كانوا و لا يزالون على الدوام جزءا من المجتمع و العالم الذين يدافعون عنهما ، مجتمعهم و عالمهم لا يمكن أن يوجدا دون تلك الأشياء .

كلّ هذا (الإستعراض الطويل للعلاقات الإجتماعية و المؤسّسات و الأفكار المهجورة تاريخيّا) هو ما أوقفته و قوّضته الثورة البروليتاريّة . و الآن و قد ردّ حراس النظام القديم الموجة الأولى من الثورات البروليتارية فإنهم يظهرون سلوكا إنتصاريّا و يتنفّسون الصعداء بعمق و يدّعون أنّ الشيوعيّة قد ماتت و يقولون :" لنعد إلى ما كنّا نصنع قبل أن يفرض " الدخيل الجلف " ذاته .

إلاّ أنّه معيدين تقريبا كلمات مارك تواين ، إنّ تقارير موت الشيوعية مبالغ فيها جدّا ! إنّ الموجة الموالية للثورات البروليتارية بعدُ بصدد الإعداد . بعدُ توجّه ضربات قويّة للهياكل الهشّة للنظام القديم فى البيرو . و يدفع بهذه الموجة إلى الأمام عمل كلّ الشيوعيّين الحقيقيّين فى العالم الراهن الذين يسترشدون بالماركسية - اللينينية - الماوية و يطبّقونها فى النضال الثوريّ . لكن و بشكل جوهريّ يدفعها إلى الأمام سير النظام عينه أي جميع ما يقوم به حرّاس النظام القديم لتعزيز مصالحهم الخاصة . على طول التاريخ و عبر العالم الراهن بأسره شاهدنا ما تعنيه " مؤسساتهم " (العذاب والذعر و الحقد و الكره الذى تفرزه) و لا تزال تعتمد على الحقيقة العميقة القائلة بأنّ النظام يخلق حفاري قبره .

و علينا أن نشير إلى شيء جدّ معبّر : لاحظوا كيف يحدّد بوش المعنى العام لكلمة " مؤسسة " عمليّة تأسيس ، مجهود للحصول على شيء) بالمفهوم المحدّد للمؤسسة **الخاصة** . هذه المراوغة ليست ديماغوجية واعية و مغالطة مقصودة فحسب ، بل هي جوهريّا تعبير كلاسيكيّ عن وجهة النظر البرجوازيّة . ذلك أنّه لا يمكن للبرجوازيّة أن تفهم القيام بمجهود أو القيام بمبادرة دون غاية تالية من الربح و الفائدة الخاصة .

و فى ما يتّصل بالردّ ، يجدر التذكير فقط بما قلته فى " **نهاية / بداية** " بهذا الصدد ، مثلا إنّ ماركس و إنجلز ، منذ زمن ، قد دحضاه فى " **بيان الحزب الشيوعي** " مشيرين إلى أنّه إذا كان حقيقة (إذا كان التفريق بين المجهود و فرصة مراكمة الثروة يقود إلى ركود الإقتصاد) فبالتالي يكون المجتمع البرجوازي بعدُ منذ زمن طويل قد ركد بإعتبار أنّ فى المجتمع البرجوازيّ الذين يعملون أكثر هم الذين يحصلون على أقلّ حصّة و الذين يحصلون على أكبر حصّة هم الذين يعملون أقلّ : الطبقة التى تنتج ، البروليتاريا ، مكبّلة فى وضع تحصل فيه فقط على ما يكفيها للغذاء لا غير و تواصل العمل كعبيد للرأسمال ، بينما الطبقة التى لا تنتج شيئا ، الطبقة الرأسمالية (أو البرجوازيّة) تراكم أكثر فأكثر ثروة فى شكل أرباح رأسماليّة عبر إستغلال البروليتاريا .

لقد توصّل ماركس و إنجلز إلى إستنتاج أنّ هذا الخطّ التعليلي للمدافعين عن الرأسماليّة برمّته يتلخّص فى الإعتراض على أنّه إذا لم يستطع الرأسماليّون إستغلال العمّال لن توجد راسمالية و دون راسمالية لن يوجد أناس يقع إستغلالهم كعبيد مأجورين . أو كما يقول " **بيان الحزب الشيوعي** ": " يؤول كلّ إعتراضهم إلى تكرار مملّ للحقيقة التالية وهي : حيث لا يبقى الرأسمال لا يبقى عمل مأجور " (ماركس و إنجلز ، **مختارات** ، مجلد 1 ، " **بيان الحزب الشيوعي** " ، صفحة 67 ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

هذه الحجج مرتبطة بمسألة المبادرة و الفرديّة و قد تحدّثت عن ذلك فى " **نهاية / بداية** " و ستكون لى تعليقات أخرى فى ثنايا هذا الكتاب ، لكن بداية لننظر فى تصريحات أخرى لجورج بوش فى خطابه أمام الأمم المتّحدة .

<u>1/ أسطورة الأسواق الحرّة فى مقابل الإشتراكية الحقيقية :</u>

قال بوش : " ... لقد تعلّم العالم أنّ الأسواق الحرّة تنتج مستويات من الإزدهار و النموّ و السعادة لا يمكن أبدا للإقتصاديّات المخطّطة أن توفّرها ... إنّ النموّ [الذى تدعمه الرأسمالية] يفعل أكثر من ملئ المخازن . يسمح لكلّ إمرء بالربح ليس على حساب الآخرين بل لفائدة الآخرين . و يدفع الإزدهار إلى العيش كجيران و ليس كحيوانات نهب . و النموّ الإقتصاديّ يمكن أن يشجّع على علاقات عالميّة على نفس المنوال بالضبط ".

الردّ : عن أيّ عالم يتحدّث بوش ؟

و لنشرع ، قبل الحديث عن ما " تسمح " به و " تدفع إليه " فى الواقع الرأسمالية – الإمبريالية ، فى إلقاء نظرة على التجربة و المبادئ الحقيقيّين للإقتصاد الإشتراكي و هما شيئا مختلفا كليا عن إتهامات بوش و المدافعين عن النظام القديم عموما . كلّ من الناطقين الرسميين بإسم الإمبرياليين و العديد من الملقّبين خطأ " إشتراكيين " قالوا حماقات حول هذه المسألة و بالخصوص منذ " موت الشيوعية " المدّعى .

هنا من المفيد الإشارة إلى شيء تجنّبه جميعهم مثلما يتجنّب المتزمّت الدينيّ المعرفة العلميّة : خطّ ماو تسى تونغ بشأن التخطيط . إنّهم يتجنّبونه و لهم الحقّ فى ذلك لأنّه يحطّم كلّ القوالب الجامدة المحبّذة لديهم و تفكيرهم المختلّ حول التخطيط الإشتراكي . فماو أبرز أنّ التخطيط لا ينبغى أن يكون مركزة فحسب و أنّه لا ينبغى أن يمرّ كل شيء عبر الجهاز المركزيّ و أنّه يتعيّن مزج جهاز مركزيّ قويّ و مظهر هام من التخطيط الممركز مع مظهر حيويّ من اللامركزيّة أي مبادرة المستويات الجهويّة و المحليّة و الوحدات الأساسيّة للإقتصاد . إضافة إلى ذلك ، أبرز أنّ المبدأ الجوهريّ الذى يعمل كقاعدة لكلّ هذا (لكلّ التخطيط الإشتراكي و بالفعل تطّور الإقتصاد الإشتراكي) هو الإعتماد على الجماهير . لا يمكن للإقتصاد و التخطيط الإشتراكيّين الحقيقيّين أن يعتمدا على الحاسوب أو مكوّنات أخرى من " التقنية العالية " لما يسمّى " ثورة معلوماتية " بل على الجماهير . مثل هذه الطرق و الوسائل " التقنية العالية " تستعمل دوما فى خدمة مصالح إجتماعية معيّنة (طبقيّة) . المسألة الحيوية هي : أيّ خطّ يقود التخطيط و إستعمال التكنولوجيا ؟

على حدّ تعبير ريموند لوتا :

" لقد نقد ماو فكرة أنّ المخطّط هو وسيلة تقنيّة لمراقبة الإقتصاد فالمخطّط هو تعبير عن إيديولوجيا ، عن أهداف و رؤية طبقة للعالم . إنّه إنعكاس طبقيّ للواقع الإجتماعية بدوره يؤثر على الواقع و هدفه من وجهة نظر الطبقة العاملة و تحرّرها هو ممارسة المراقبة الواعية و الإجتماعية على الإنتاج . صياغة مخطّط ليست أبدا مجرّد مسألة جمع معلومات تقنيّة و ليست تنبأ بالأحداث الإقتصادية و إنّما تعنى صراعا طبقيّا على المستوى الإيديولوجي بخصوص أهداف المجتمع و قيادته ... حين يُعتبر التخطيط عملا إداريّا تحدّده المهمّة التقنيّة فى جمع المعلومات و إصدار الأوامر التى على المستويات الأدنى تطبيقها ، يشرع المخطّط فى السيطرة على البروليتاريا و ليس العكس " . (ريموند لوتا ، " **نظرية و ممارسة التخطيط الماوي : دفاعا عن إشتراكية فعّالة و ملهمة** " ، مجلة " **الثورة** " ، ربيع 1992) .

مثل كلّ شيء فى المجتمع الإشتراكي ، يجب على التخطيط أن يتّبع خطّا جماهيريّا : يجب أن يجمع تجارب و أفكار الجماهير و أن يركّبها إلى مستوى أرقى مطبّقا الماركسية ـ اللينينية ـ الماوية و بعد ذلك ، يحملها إلى الجماهير كي تجعل منها أفكارها هي . هذه هي طريقة القيادة و التعويل على الجماهير لتغيير العالم عبر الممارسة الثوريّة .

كذلك شدّد ماو تسى تونغ على أنّ المخطّطات على المدى البعيد رغم ضرورتها ، لا يمكن لها أن تتنبّأ بكلّ ما سيحدث . لا يتعيّن التعويل على أن يكون التخطيط شاملا حتّى آخر تفاصيل كلّ ما يجب أن تتولاّه كلّ مؤسّسة و كلّ مجموعة فلاحيّة إلخ. على التخطيط أن يركّز نماذجا عامّة بصفة كافية من جهة ، و من جهة أخرى خصوصيّة بصفة كافية حتّى يضمن أن يعمل الجميع خدمة للمصالح الأكثر جوهريّة للبروليتاريا و للتحويل الثوريّ للمجتمع و لكنّه أيضا يسمح بالمبادرات و التعديلات . و قد أبرز ماو أنّ كل الأشياء بما فى ذلك تطوّر الإقتصاد الإشتراكي تتقدّم عبر موجات و أنّه من الضروريّ إنجاز تقييم مستمرّ للتجربة و تعديل المخطّطات . و علاوة على ذلك ، أشار إلى أنّه مهما كان عدد المخطّطات التى تصاغ سيوجد على الدوام ، فى المجتمع الإشتراكي ، قدرا من **دعه يعمل** [laissez-faire بالفرنسية فى النصّ الأصلي] .

و بعبارات أخرى سيوجد على الدوام أناس يتّخذون مبادرة خاصة أحيانا إيجابيّة و أحيانا سلبيّة و من اللازم السماح بذلك لسببين إثنين ، لأنّه يتعيّن تشجيع المبادرة الإيجابيّة (أي المبادرة التى تجسّد حماسة تطبيق الخطّ الثوريّ دون إنتظار الأوامر و دون إتّباع تعليمات السلط ميكانيكيّا) و لأنّه يلزم أن نأخذ بعين النظر أنّ **دعه يعمل** ستوجد مهما يكن من أمر و يترتّب علينا أن ندع لها مجالا ما و أن نقوم بالتعديلات المناسبة .

و فى إرتباط بهذا ، منذ زمن قريب ، كنت قرأت لماو فى 1962 خطابا حول التخطيط حيث يقول بصيغته المميّزة الإستفزازيّة إنّ التخطيط لا يمكن أن يتنبّأ بما سيفعل الإلاه . طبعا ، لم يتحوّل ماو إلى متديّن فجأة ! ما كان يريد قوله هو أنّ التخطيط لا يمكنه أن يتنبّأ بالكوارث الطبيعية و الأشياء الأخرى غير المتوقّعة . ينبغى أن يُوجد نوع من الحرّية فى التحرّك لنتأقلم مع هذه الأشياء بما هي حوادث لا يمكن توقّعها على الأقلّ فى عديد الحالات .

و على مستوى أشمل ، شدّد ماو على ضرورة أن يُوجد نوعا من المرونة فى التخطيط بصورة تجعل من الغايات طموحة لكن واقعيّة . ففرض غايات مبالغ فيها يبعث الوهن فى عزم الجماهير و يمكن أن يدفعها إلى تجاوز المخطّط و تحطيم التعاونيّة و المجموعة لأجل تحقيق مطالب غير واقعيّة و طموحة أكثر من اللازم .

و فى الخطاب عينه ، قدّم ماو ملاحظة أخرى إستفزازيّة و عميقة : لا يمكن على الدوام التنبأ بهذه الأشياء عند تبنّى مخطّط، لنقل ، لخمس سنوات . و هكذا ، يجب أن نكون مرنين كيما نستطيع تغيير السير و تقديم مساعدة أكبر للنضالات الثوريّة أو إلحاق الهزيمة بهجوم عسكريّ إمبرياليّ عندما يكون ذلك ضروريّا . كانت هذه هي طريقة ماو فى التنبيه ، من زاوية أخرى إضافية ، إلى أنّ المخطّطات لا يتعيّن أن تكون صارمة و غير قابلة للتغيير و لا يمكن أن تكون ثابتة إلى درجة لا يمكن معها تعديلها و أنّ الوضع عموما سيتطوّر عبر موجات و بوجه خاص أنّ حوادث الطبيعة و المشاكل و الفرص التى يُوجدها الوضع العالمي خصوصا الحرب و النضال الثوريّ ، كلّ هذه الأشياء بإمكانها أن تؤثر بصفة مفاجأة و درامية على ما قد وقع تخطيطه . لا بدّ أن يُؤخذ هذا بعين الإعتبار .

و من المهمّ تأمّل كلّ ما سبق كي نفهم طبيعة التخطيط الإشتراكي و مبادئه . كما رأينا ، شرح ماو أنّ التخطيط هو أيضا إيديولوجيا فالتخطيط ليس تجريدا و لا تمرينا تقنيا دون مضمون إجتماعي (طبقي). إنّ التخطيط نتاج لنظرة إلى العالم و يفترض السؤال الجوهريّ على من و على ماذا يجرى التعويل : على الجماهير المندفعة بالخطّ الثوريّ أم على المختصّين و التقنيّين و عامة على القوى الأكثر إمتيازات فى المجتمع ، ذات المصالح الضيّقة و التى تدفع إلى الحصول على أكثر إمتيازات لنفسها ؟ إنّها مسألة منهج : هل سيكون منهجا يعوّل على الجماهير و يطبّق الخطّ الجماهيري أو منهجا يمثّل إرادة فرض الذات على الجماهير و الواقع بصفة ذاتيّة و بيروقراطيّة ؟

كلّ هذه المسائل الجوهريّة ذات الصلة بالنظرة إلى العالم و المنهجية أي الإيديولوجيا تنعكس و حتّى تتركز فى المخطّطات . هذه هي الطريقة الثوريّة لرؤية التخطيط وهي راديكاليّا مختلفة عمّا كانت تعنيه لستالين و حكومته حتّى لا نتحدّث عن كيف تعامل معها القادة السوفيات منذ خروتشاف و زمرته الذين قاموا بإنقلاب و أعادوا تركيز الرأسمالية . ليس لخطّ ماو أيّة صلة بمفهوم التخطيط الذى يقدّمه المدافعون الرسميون عن الرأسمالية و " الإشتراكيون " الإنتهازيّون الذين يسرعون ، فى أعقاب ما يدعى " موت الشيوعية " إلى التخلّى حتّى عن مظاهر ضرورة الإقتصاد المخطّط . العديد منهم (و ليس قادة ما كان سابقا الإتحاد السوفياتي فحسب ، بل أيضا مجموعة واسعة من الإشتراكيّين الديمقراطيّين) يستنتجون أنّه بإعتبار أنّ الإقتصاد المخطّط مركزيّا فى الإتّحاد السوفياتي قد شهد ركودا و ترنّحا و تعطّل فإنّ هذا دليل على أنّ الإقتصاد المخطّط مركزيّا لا يصلح و ليس له معنى إقتصاديا و أنّه لبناء الإشتراكية لا بدّ من نموذج مختلف كلّيا يستعمل آليّات السوق عوضا عن المراقبة المركزيّة لجهاز الدولة .

و مثلما يلاحظ ريموند لوتا : " هذا النقد يقترح دمية متحرّكة : " المخطّطُ العالِمُ " الذى من المفترض أن تكون بين يديه المعلومة و عليه أن يتنبّأ بكل شيء ". (لوتا ، المرجع السابق) . و هذا النقد يجهل أو يحجب أنّه منذ زمن خروتشاف ، كان التخطيط المركزيّ و الدور الحيويّ للدولة فى الإقتصاد السوفياتي فى خدمة الرأسماليّة و إتّبع مبادئ الرأسماليّة و ليس مبادئ الإشتراكية و أنّ كلّ ذلك يقيّمه حسب معايير رأسماليّة لا فقط أمثال بوش بل أيضا أمثال غورباتشاف و يلتسين و زمرته . هنا مفيدة كذلك ملاحظة لوتا التى تردّ مباشرة على تأكيدات بوش و " تسليم " عديد المسمّين زورا و بهتانا إشتراكيّين بأنّ الإقتصاد الإشتراكي المخطّط مركزيّا ليس واقعيّا و لا معقولا فى الزمن المعاصر : " فى الواقع ، ليس ثمّة أيّة مظهر للتطوّر الإقتصاديّ و لا أيّ شكل للتنظيم الإقتصادي و لا أيّ تنظيم لسيرورة العمل خارج علاقات إنتاج و علاقات طبقيّة خاصة . إن ل"الفعالية " الراسمالية حدودا طبقيّة فهي تقوم على الحصول على المردود الأقصى للعامل و التقليص من مقاومته و على وضع سلاسل بأيدى المنتجين و ليس على دفع قدرتهم الخلاّقة الجماعيّة **. إنّ " العقلانية "**

الإقتصادية لا تعنى شيئا إذا تمّ عزلها عن العلاقات الطبقيّة التى تعبّر عنها و تعيد إنتاجها أو عن الغايات التى تخدم ". (المرجع السابق ، التسطير مضاف) .

هذا هو الردّ الأوّليّ على تصريح بوش بأفضليّة إقتصاد " السوق الحرّة " نسبة للإقتصاد المخطّط مركزيّا . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية ، هنالك ضرورة النظر فى ممارسة الرأسمالية المعاصرة أي الرأسماليّة الإحتكاريّة فى ما يتعلّق بالتخطيط. هنا ، نشهد مثالا جليّا من النفاق ، من قول شيء و عمل شيء آخر . الأمر هو أنّ فى كلّ مجتمع رأسماليّ حاليّا ، لا سيما فى البلدان الرأسمالية " المتقدّمة " (التى طوّرت تكنولوجيا عالية) ، ثمّة الشيء الكثير من التخطيط المركزيّ .

إنّ التخطيط يتمّ على مستوى الحكومة : حين تحدّد البنوك المركزيّة (التابعة للدولة) و مؤسّسات ماليّة حكوميّة أخرى أنواعا من الفوائد ، حين ، فى مجالات الإنتاج لل" دفاع " و أشياء أخرى ذات أهمّية بالنسبة للدول الإمبريالية ، تحدّد هذه الأخيرة كل ّأنواع الغايات و القواعد النموذجيّة إلخ و تمنح عقودا ممركزة ، و فى مستويات أخرى ، كذلك ، يحدث الأمر فى جمعيّات رأس المال المالي الكبرى (النقابات الكبرى و البنوك الكبرى و التجمّعات الكبرى و هكذا) على النطاق العالمي و على النطاق الداخلي لبلد ما و قطاعات إقتصادية ما . تتّخذ القرارات بإنسجام مع هذا التخطيط الذى يؤثّر ، على حساب آلام كبيرة ، على حياة الملايين و حتى آلاف الملايين من الناس .

بوش منافق كبير حين يقول أنّ تجربة الإتّحاد السوفياتي زعزعت الثّقة بالتخطيط المركزيّ . يمكن القول دون أدنى ظلّ للشكّ إنّ الرأسماليّة المعاصرة ، الإمبريالية ، لن يمكنها الوجود أو مواصلة الوجود لمدّة طويلة دون تخطيط على مستوى عال من المركزة و دون بيروقراطية على مستوى عال من التطوّر الذين يوجدان فى كلّ إقتصاد رأسماليّ و الولايات المتّحدة الأمريكيّة ليست إستثناءا .

هذا من جهة و من جهة أخرى ، هنالك إختلاف جوهريّ بين التخطيط الإشتراكي و حتّى التخطيط الرأسماليّ الأكثر تطوّرا و لا يهمّ إن كانت تقوم به وحدات معيّنة من رأس المال (مثل راس المال الممركز بصفة عالية و المركّز فى النقابات الكبرى و البنوك و ما إلى ذلك) أو تقوم به الدولة الرأسماليّة عينها . فى إطار الرأسماليّة لا يمكن للتخطيط أن يتجاوز الفوضى الكامنة فى النظام [الرأسمالي]:

" فوضى الإنتاج الإجتماعي أمر أساسيّ فى الرأسماليّة و لا يمكن للإشتراكية الحقيقيّة إلّا تجاوزها . و تعزى هذه الفوضى إلى أنّ التطوّر الإقتصاديّ فى الرأسماليّة لا يتّبع و لا يتحدّد بمخطّط أو غاية إجتماعيّة... الإنتاج الرأسماليّ ثمرة عدد كبير من الرساميل . كلّ رأسمال يتحكّم فى و يمارس سلطة على سيرورات إنتاجه الخاصة بكلّ واحد و يصيغ مخطّطات لنشاطه و تطوّره . لكن لا وجود لأيّة سلطة إجتماعية تنسق السيرورة الإجتماعية عموما ". (المرجع السابق ، ملحق " **حول فوضوية الرأسمالية و الحاجة إلى التخطيط الإجتماعي** ") .

لنمضى إلى بيت القصيد . ما الذى تعنيه فى الواقع " الأسواق الحرّة " ؟ و ماذا يمكن قوله إزاء النموّ و الإزدهار كما يسميهما بوش ، فى هذا النظام ، بالخصوص فى هذا العصر الإمبريالي ؟ هل صحيح أنّها توجد من أجل أن يتمكّن العالم بأسره من الربح ليس على حساب آخرين بل لفائدة الآخرين ؟ و أنّ الإزدهار الذى يتمّ تحقيقه بهذه الطريقة مفيد للجميع و يدفع للعيش كجيران و ليس كحيوانات نهب ؟

لعلّ (حتّى نكرّر كلمات لينين تقريبا) على بوش أن يمنع الضحك فى الأماكن العامة كي لا تخنق القهقهات التى ستنتجها كلماته تلك عبر العالم و خاصة فى صفوف الجماهير الشعبيّة . من جهة ، تعنى " السوق الحرّة " حرّية التجارة دون حدود تضعها الحكومة . بالمعنى الأكثر حرفيّة و إطلاقيّة لا يمكن لهذا أبدا أن يوجد لأنده سيبقى من الضروريّ على الدوام أن تعدل الحكومة الرأسماليّة بدرجة ما التجارة (و يعترف كلّ ممثّلى البرجوازيّة بذلك فى الممارسة رغم أنّهم لا يقبلون به دائما) . لكن فضلا عن ذلك ، مثل كلّ الحرّيات الرأسماليّة و حتّى " التجارة الحرّة " ليست أبدا حرّة فعليّا فهنالك دائما عدم توازنات سواء كان ذلك فى التجارة الداخليّة للبلاد أم فى التجارة العالميّة ، ثمّة دوما جانب هيمنة و نهب بصفة خاصة جدّا عند بلوغ الرأسماليّة مرحلة الإمبرياليّة .

بيد أنّه كي نمرّ إلى زاوية جوهريّة أكثر ، نقول إنّ " الأسواق الحرّة " تعود على " سوق العمل " و على شراء و بيع قوّة عمل الإنسان . كما سبق تفسير ذلك فإنّ الماركسيّة تبيّن أنّ الرأسماليّة ليست نظام إنتاج و تداول سلع حيث للجميع الفرص عينها فى المساهمة فحسب و إنّما هي نظام يقوم على إستغلال الأقلّية للأغلبيّة و نظام يقوم تحديدا على إستغلال رأس المال للعمل المأجور . إنّه مجتمع صارت فيه قوّة العمل و قدرة العمل سلعة تُشترى و تُباع ، إنّما بيع و إستعمال مثل قوّة العمل هذه هو الذى يسمح للبعض ، للأقلّية بأن تزدهر **على حساب عديد الآخرين** . هنا نرى من جديد " السرّ القذر للإستغلال الرأسمالي " و حين يتحدّث أناس على غرار بوش عن حقّ الملكيّة كحقّ أساسيّ ، فإنّهم يقصدون قبل كل شيء حقّ البعض فى إستغلال الآخرين . هذا هو كنه رأس المال ، روح البرجوازية . (1)

هذه الحرّية الجوهريّة أو حقّ رأس المال وثيقة الصلة بما تسمّيه الماركسيّة حرّية العمّال ب " معنى مزدوج " فى النظام الرأسمالي فأوّلا ليسوا مشدودين إلى مستغِلّ معيّن و ليسوا ملكيّة آخر مثلما هو الحال فى العبوديّة و النظام الإقتصادي و القانون و العادة لا يرغمانهم على العمل عند مالك واحد أو سيّد واحد مثلما هو الحال فى النظام الإقطاعيّ ، إنّهم "أحرار" حتّى تستغلّهم الطبقة المستغِلّة أي الرأسماليّون جميعا . و هذا الوضع يتماشى مع طبيعة الإنتاج و التراكم الرأسماليّين و مع المصالح الطبقيّة الرأسماليّة : إمكانيّة التعاقد مع العمّال و طردهم وفق متطلّبات تراكم رأس المال دون مسؤولية الإنفاق على قوّة العمل عندما لا يستغلّونها ، تتماشى مع حاجيات الرأسماليّين فى إستثمار رأسمالهم حيثما و كيفما يتحصّلون على أفضل الأرباح و فى المنافسة مع الرأسماليّين الآخرين . و ثانيا ، فى الرأسماليّة ، يكون العمّال " أحرارا " من ملكيّة وسائل الإنتاج حيث لا يملكون لا الأرض و لا المصانع و لا الآلات و لا وسائل النقل و الإتّصال و سواها التى يستطيعون إستعمالها لخلق الثروة . إنّهم " أحرار" من كلّ وسيلة عيش تسمح بالعمل لفائدة الذات أو إستعمال الآخرين كي يعملوا لفائدتهم مثلما يفعل الرأسماليّون . كلّ ما يملكونه لخلق الثروة هو قوّة عملهم لكن للقيام بذلك لا بدّ لهم من أن يبيعوها للرأسماليّين و الثروة التى يخلقون عبر إستعمال قوّة عملهم لا يتملّكونها ، بل يتملّكها الرأسماليّون فما يحصل عليه العمّال مقابل ذلك هو أجرُ يكفى لإبقائهم على قيد الحياة و الإستمرار فى هذه العلاقة (2). بعبارات قليلة ، العمّال أحرار فى أن تستغلّهم الطبقة الرأسماليّة فى سعيها المحموم لتحصيل الأرباح . و هم " أحرار " فى الموت جوعا (أو البقاء على قيد الحياة قدر تحملهم للأعمال الشاقة) لمّا لا يمكن للرأسماليّين إستغلالهم بصورة مربحة لأنّه كما رأينا وجود " جيش صناعي إحتياطي " صفوفه تتضخّم بصفة هائلة أوقات الأزمات هو العنصر الحيوي لمراكمة رأس المال.

حصيلة كلّ هذا ليست العالم الخياليّ الذى يصفه بوش حيث الجميع أحرارا فى الإزدهار و ليس على حساب آخرين ، بل لفائدة آخرين و حيث الإزدهار المعمّم يدفع إلى الحياة كجيران و ليس كحيوانات نهب . ما يحدث فى الواقع هو تحديدا ما وصفه ماركس أي يتمّ خلق قطبين ، فى قطب نجد الثروة و السلطة و تركز رأس المال فى أيدى أقلّية صغيرة و فى القطب الآخر البؤس و العمل المضنى و الفقر . و هذا يحدث حتى فى البلدان الرأسماليّة المسماة متقدّمة أي الإمبريالية .

ولنلقى نظرة على أمثلة من المستجدّات الحديثة و مستجدّات الواقع اليوميّ فى الولايات المتّحدة : لتسألوا الذين يعيشون فى الشوارع عن رأيهم فى وصف بوش لنتاج سير النظام الرأسماليّ . لتسألوا الذين لا يتحصّلون على عمل و ليست لديهم وسيلة عيش أكثر من المنحة الإجتماعيّة ، لتسألوا عمّال مصانع تربية الدواجن (التى يمكن أن نسمّيها مصانع الدواجن الإنفجاريّة) بكارولينا الشماليّة أين وجدوا أنفسهم بحكم ظروف العمل اللاإنسانية ، مقبوض عليهم بالداخل ، حرفيّا مسجونين خلال حريق . لتسألوا ملايين العمّال عبر البلاد بأسرها الذين ماتوا أو مرضوا ، جيلا بعد جيل ، بسبب حمّى ربح الرأسماليّين التى لا حدود لها . لتسألوا المهاجرين و العمّال الآخرين الذين يشتغلون كالعبيد فى معامل الخياطة و مصانع تركيب جهنّمية . لتسألوا حتّى عمّال " الصناعات المركزيّة " و عمّال " الحزام الفولاذيّ " بالولايات المتّحدة الذى يتحّول إلى " حزام الأوكسيد " ، الذين كانوا يعتقدون أنّ عملهم كان " مضمونا " و الآن يخسرونه نظرا لسير عمل النظام العظيم ل" الأسواق الحرّة " . لتسألوا الفلاّحين الصغار و المنتجين و التجار الصغار الآخرين الذين يجدون أنفسهم بإستمرار على حافة الإنهيار أو مفلسين . لتسألوا السود ، اللاتينيين [من أمريكا اللاتينية] و القوميّات المضطهَدة الأخرى . لتسألوا السكّان الأصليين لأمريكا (" الهنود الحمر") هل أنّ الرأسمالية ليست نهب مجموعات لأخرى ! لتسألوا الأعداد الكبيرة من النساء اللاتى تعشن فى النظام الرأسمالي خاضعة لسيطرة الرجل و عن ما يعنيه لهنّ ذلك . لتسألوا الشبّان الذين يبعثهم الإمبرياليّون بإستمرار للقتل أو الموت فى حروب غير عادلة . لتسألوا كلّ هؤلاء الناس!

هذه الأمثلة و أمثلة أخرى غير قابلة للدحض تبين لُبّ أيّ نظام قائم على علاقات الملكيّة البرجوازيّة على مراكمة رأس المال ، مع أنّه من الصحيح أنّ فى البلدان الإمبرياليّة ، خاصة فى قوّة عالميّة مثل الولايات المتّحدة الأمريكيّة ، مكّن تراكم الثروة (بإستغلال البروليتاريا المحلّية و إستغلال مئات الملايين من الناس و الهيمنة على أمم بأسرها عبر العالم قاطبة) مكّن من إيجاد شرائح واسعة من " الطبقة الوسطى " تعيش عيشا مرفّها نسبيّا . علينا رؤية هذا على نطاق عالميّ ، قبل كلّ شيء ممّا سيقودنا إلى التأكيد التالي من خطاب جورج بوش أمام الأمم المتحدة :

قال بوش : " هنا ، فى هذه القاعة ، سمعنا حديثا عن مشاكل شمال / جنوب. لكن التجارة الحرّة و المفتوحة التى تسمح بالوصول الحرّ دون عقبات إلى الأسواق و إلى القروض توفّر للبلدان النامية وسيلة للإكتفاء الذاتي و الكرامة الإقتصاديّة ".

الردّ : عندما يتكلّم بوش عن " مشاكل شمال / جنوب " فإنّه يُشير إلى إستغلال أمم العالم الثالث من قبل حفنة من البلدان الإمبريالية . ففى النظام الإمبريالي ، ليست العلاقات العالميّة ببساطة إمتداد للعلاقات الرأسماليّة السلعيّة على المستوى العالمي (و هو شيء بغيض أيضا) بل هي دمج أمم بأسرها و سكّانها فى شبكة المراكمة **الإمبريالية** التى من سيماتها الأساسيّة كما أشار لينين الإنقسام الجوهريّ إلى حفنة بلدان إمبرياليّة و عدد ضخم من الأمم المضطهَدة .

ما هي **الحقيقة الأساسيّة** الناجمة عن هذه العلاقات ؟ المجاعة فى السودان و أثيوبيا و بلدان عديدة أخرى بأفريقيا و العالم الثالث عموما . لنذكر إحصائية واحدة مرعبة : يموت أربعون ألف طفل من أطفال العالم الثالث كلّ يوم جوعا أو بسبب أمراض يمكن الوقاية منها . عبر العالم الثالث كلّه ، الفلاّحون فى إفلاس و الفلاحة موجّهة إلى التصدير و البلاد فى حاجة إلى توريد المؤن فيما يموت الشعب من سوء التغذية . وما هي حقيقة ما يسمى " معجزات " إقتصادية بالعالم الثالث مثل كوريا الشماليّة ؟ الواقع هو أنّ الملايين يعملون كعبيد فى صناعات تدفع لهم بؤسا و يستغلّهم ليس الإستغلاليّون فى بلدانهم فحسب بل يستغلهم بالأخصّ أسياد الإستغلاليّين ، الإمبرياليّون الذين يتحكّمون فى سيرورة المراكمة فى هذه البلدان و يدمجونها فى إستغلالهم و نهبهم العالميّين .

الواقع هو أنّ الإقتصاد فى الولايات المتّحدة رغم توصّله إلى إنتعاشة جزئية " فاسدة " خلال عقد الثمانينات ، مع مصاريف عسكريّة خيالية و تطوّر الطفيليّة فى المستويات الأعلى للهيكلة الإقتصاديّة ، فإنّ وضع مئات الملايين من أمريكا اللاتينية من سيء إلى أسوأ (الآن مثلا ، مستوى عيش الجماهير فى البيرو – خصوصا فى ما يتّصل بالتغذية و الصحّة – أدنى ممّا كان عليه قبل خمسة مائة سنة ، قبل مجيئ الغزاة الإسبان) .

بإمكاننا ذكر أمثلة لا حصر لها و إحصائيّات لا عدّ لها لتبيان الحقيقة الجوهريّة التى يخفيها بوش . إلاّ أنّه هنالك مثال معبّر بوجه خاص فخلال المعركة الحديثة حول قواعد عسكريّة للولايات المتّحدة فى الفلبين ، كانت المجموعة التى حرّكوها لمساندة وجود القواعد و تأثيراتها الهدّامة على الإقتصاد و الهيكلة الإجتماعيّة للفلبينيّين ، كانت آلاف النساء اللاتى يفرض عليهن النظام الإمبريالي أن تتاجر بأجسادهن ، نساء صارت تعول على " الحرفاء " الجنود الأمريكيين ! و هذا يعبّر حقا عن كل شيء .

كذلك ينبغى أن نبقي حاضرا بأذهاننا (لا يجب أبدا نسيانه أو التسامح فيه) العذاب الإنسانيّ الرهيب الذى تسّببه العمليّات العسكريّة الإمبرياليّة (و الذين ساندوها و يسلّحونها) للدفاع عن هذه الظروف الحياتيّة الفظيعة و الحيلولة دون أن تفتكّ منهم منطقتهم العصابات الإمبرياليّة المنافسة . الحرب الحديثة بالخليج و العذاب الهائل الذى تسببت فيه للشعب العراقي (و العذاب الذى لا تزال تتسبب فيه خاصة للأطفال) مثال فظيع حديث جدّا .

هذه هي الحقيقة التى يخفيها جورج بوش عند دفاعه عن النظام الرأسمالي – الإمبريالي و عن المصالح الإمبريالية الأمريكيّة بكلمات و صيغ ذات صدى رنان مثل " الحقوق المشروعة فى الحرّية و الملكيّة الشخصية ... الحرّيات الفرديّة ، حقوق الأقليّات ، الديمقراطية و الأسواق الحرة ..." متذكّرين كلمات ماركس عند وصفه جذور الرأسمالية و تطوّرها ، يمكننا قول إنّ كلّ كلمة من كلمات جورج بوش تقطر دما . هذا هو واقع و قوام النظام الرأسمالي – الإمبريالي الذى يعلن أشخاص على شاكلة جورج بوش ، بكثير من الضجّة إنتصاره و فضائله .

2/ بصدد البرجوازية و " الطبيعة الإنسانية " و الدين : الردّ الماركسي :

لنتناول بالبحث الآن تعليلات نظريّة أخرى تقدّم بها ، منذ زمن غير بعيد ، زبقنياف بريجنسكى / أو برزنسكى بصدد " موت الشيوعية " المدّعى . قال بريجنسكى : " فى الشيوعيّة أو الماركسيّة وُجد عدم فهم ملازم لطبيعة الإنسان . فقد حطّت من قيمة الترابط بين الإبداع و الحصول على الخيرات . و تسبّب الصراع ضد الملكيّة و محاولة الحيلولة دون أن تكون للناس ملكيّتهم الخاصّة فى سبات و ركود " .

هنا مرّة أخرى ، نلمس وجهة النظر البرجوازيّة التى هي واقعيّا غير قادرة على تصوّر وجود مبادرة أو إبداع دون حمّى الأرباح الشخصيّة الشيء الذى يعنى ، فى الواقع ، الربح على حساب الآخرين . إنّ البرجوازية غير قادرة على رؤية أبعد من وضع " الحصول على الخيرات " الذى يفرزه النظام السلعيّ ، فى إطار عام من الصراع من أجل البقاء الذاتيّ على قيد الحياة و المراكمة الخاصة حيث لا وفرة للجميع ، وحيث حصول البعض على الثروة (أكثر ممّا يحتاجون إليه للعيش عيشة لائقة) يعنى فى الآن ذاته عدم قدرة الكثيرين الآخرين على الحصول حتّى على وسائل عيشة لائقة .

إنّ الشيوعيّة لن تمنع الناس من الملكية " الخاصة " . فالشيوعية تعنى القضاء على الملكية **البرجوازية** : الثروة المراكمة كرأسمال و ظروف الإستغلال التى تسمح بوجوده . إنّها تعنى نهاية علاقات الإنتاج التى تنتج ضمنها سلعا للشراء و البيع و التى ضمنها تصير قوّة العمل عينها سلعة و يرتبط إستعمالها فى الإنتاج بمراكمة الأرباح الخاصّة . إنّها تعنى نهاية العلاقات الإجتماعية التى تربط الناس كأشخاص لديهم ممتلكات و أناس لا ممتلكات لهم . ألا إنّها البرجوازية و الرأسمالية هي التى تمنع الجماهير من الحصول على أكثر من الأدنى للبقاء على قيد الحياة وأحيانا تمنع عنهم حتّى الحصول على ذلك. (3)

منذ زمن بعيد ، دحض ماركس و إنجلز هذه الحجج عينها و كخاتمة من المناسب الإستشهاد بما صرّحا به فى " **بيان الحزب الشيوعي** " ردّا على أمثال بريجنسكى فى عصرهم :

" و ما أن يغدو من المستحيل أن يتحوّل العمل إلى رأسمال و نقد و ريع عقاريّ ، أي إلى قوّة إجتماعيّة قابلة للإحتكار ، أو بعبارة أخرى ، ما أن يصبح من المستحيل أن تتحوّل الملكيّة الفرديّة إلى ملكيّة برجوازيّة ، حتّى تزأرون و تصيحون بأن الفرد قد إمحى و أبيد .

فأنتم تعرفون إذن أنّكم ،عندما تتكلّمون عن الفرد ، لا تعنون بكلامكم إلاّ البرجوازي ، أي المالك البرجوازي . و بالفعل إنّ هذا الفرد يجب أن يباد و يمحى نهائيا .

إنّ الشيوعية لا تسلب أحدا القدرة على تملك منتجات إجتماعيّة ، إنّها لا تنزع سوى القدرة على إستعباد عمل الغير بواسطة هذا التملك ".

(ماركس و إنجلز ، "**مختارات** " الجزء الأول ، صفحة 66-67 ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

قال بريجنسكى : " [الماركسية] حطّت من قيمة حاجة الإنسان للإعتقاد فى شيء روحيّ ، إنّ تشديدها على الإلحاد أنكر على الناس الإعتقاد فى شيء سام " .

فى البدء ، لعلّ هذه الطبقة ماديّة النزعة و البخيلة التى تُرجع كل شيء حتّى الناس و الأفكار إلى قيمة ماليّة ستتّهمنا ب "عدم الإعتقاد فى شيء سام " ؟ لنرى .

فى خطاب " **ماو أكثر من أي زمن مضى** " ، تحدّثت بما فيه الكفاية عن هذا لكن من الضروري العودة إلى معالجة النقطة لتوضيح الأكاذيب و الأخطاء و لتوضيح الخلط الكبير الذى ينتجه عمدا أناس على شاكلة بريجنسكى (لمصلحة معروفة هي الدفاع عن النظام القديم) و أيضا لتوضيح الخلط الذى يظهر " عفويا ".

أوّلا ، لماذا تصرّ الماركسية (الماركسية – اللينينية – الماوية) على الإلحاد ؟ لأنّ الإلاه غير موجود (و لا وجود لكائنات و لا قوى ماورائية) و لتغيير الواقع علينا أن نواجهه كما هو ، دون خيالات خاطئة و لا مغالطات . غيرأنّ فى الواقع ، يجب أن يكون السؤال عكسيّا : لماذا تُلحّ البرجوازية (و كلّ الطبقات المستغِلة) على الهجوم على الإلحاد بينما الإلاه غير موجود ؟ لنتذكّر ما قاله نابليون بونابرت حول الدين المسيحي و مفهومه لياسوع ك " تجسيد " للإلاه و ما يدّعى أنه " سرّ" و " مجد" كلّ هذا :

" فى الدين لا أرى سرّ التجسيد ، بل سرّ النظام الإجتماعي " . بالفعل ، قال نابليون إنّ لديه شكوكه بشأن الإلاه و الدين **لكن** لم تكن لديه أيّ شكوك بشأن الأهمّية القصوى لدور الدين فى الإبقاء على نظام الإستغلال مستمرّا . و عبّر عن ذلك على النحو التالي : " المجتمع غير ممكن دون لامساواة و لامساواة غير محتملة ، دون مجموعة قوانين أخلاقية و مجموعة القوانين الأخلاقية غير مقبولة دون دين ".(أفاكيان " **الدين : من يحتاجه ... و من لا يحتاجه** " ، جريدة " **العامل الثوري**"، عدد 538 ، الثامن من جانفى 1990) . هذا هو ما يريد قوله بريجنسكى حين يتحدّث عن أن ما يحتاجه الإنسان هو "الإعتقاد فى شيء سام " .

بيد أنّه إلى جانب نوايا و أكاذيب أشخاص مثل بريجنسكى ، من المفيد نقاش مسألة "الروحانيّة " بصورة أعمق . فى " **ماو أكثر من أي زمن مضى** " تطرّقت ل " الخوف من المجهول و تقديسه " . قلت إنّه جزء هام من الوعي البشري لكن يجب فصل ذلك عن المغالطات الدينيّة . قلت ذلك فى علاقة بالفنّ ، إلاّ انّه كذلك بمعنى أعمّ : الخوف من المجهول و تقديسه سمة من سمات الإنسان وهي جزء هام من وجوده . و يعزى هذا إلى أنّ الناس واعون بالواقع بصفة شخصيّة و إلى إمتلاكهم القدرة على التفكير و مراكمة المعارف و تنظيمها ، رغم ذلك فسيوجد على الدوام ، فى كلّ لحظة ، تناقض بين ما يُعرف و ما هو غير معروف : بين المعرفة و الجهل .

هذا على علاقة بالخيال وهو أيضا هام جدّا فى الفنّ و كذلك فى الوجود الإنسانيّ و فى المجتمع بعامة . تدافع الماركسية – اللينينية – الماوية عن وجهة نظر أنّ كلّ شيء يمكن معرفته إلّا أنّه لا يُعرف كلّ شيء ولا يمكن أن يُعرف فى لحظة معيّنة. لذلك سيلعب الخيال دائما و أبدا دورا هاما لا بدّ من تشجيعه و ليس القضاء عليه ، طبعا .

و بالعودة إلى الفنّ ، نقول إنّ من أهمّ ميزاته أنّه لا يلتصق بصرامة بالواقع و لا ينبغى له أن يتطابق معه . بكلمات أخرى ، فى الأفلام و الأعمال المسرحيّة و الرسوم و الإبداعات الفنّية الأخرى ، لا يجسّد الفنّان عموما الواقع كما هو بل الواقع بشكل آخر ، بالضبط ليجعل من جمهوره و الناس عامة يبلغون رؤية العالم و الواقع بصورة أعمق .

الخيال يلعب و ينبغى أن يلعب دورا كبيرا و سيكون خطأ و بالطبع إستحالة أن يطلب من الفنّ أو التفكير أن يتطابقا بالضبط مع الواقع كما هو لأنّه على هذا النحو لن نتوصّل أبدا إلى فهم الواقع بصفة أعمق و أصحّ و لن نغيّره راديكاليّا تبعا لمصالح الإنسانيّة .

كلّ هذا على إرتباط بالمبدأ التالي : " ينبغى أن تكون لدينا القدرة على المحافظة على صرامة مبادئنا و لكن فى الوقت ذاته على مرونتنا ، ماديّتنا و ديالكتكيتنا ، واقعيتنا و رومنطيقيّتنا ، وضوحنا الجليّ حول الغايات و روح فكاهتنا ". (أفاكيان ، " **من أجل حصاد التنانين** " ، صفحة 146) .

و أيضا كما أشرت فى مناسبات أخرى ، ترفض الشيوعيّة أن تساهم فى مغالطة وجود كائنات أو قوى ماورائية تتحكّم فى الوضع الإنسانيّ و ترفض " الإعتقاد فى شيء سام " لأنّه غير موجود و لأنّه وسيلة لتعزيز و ليس للقضاء على الواقع المادي الذى سيتسبّب فى البؤس الجماهيري فى العالم الواقعي . بيد أنّه ليس هنالك من شيء بنّاء أكثر من الشيوعيّة ، شيء يفتح أبواب الخيال و الإبداع الإنسانيّين أكثر و أبواب رؤية العالم بصفة مغايرة كلّيا و أبواب مبادرة الجماهير لبناءه عبر قواها الذاتيّة .

عدم قدرة الشيوعيّين الزائفين فى البلدان التحريفيّة على إلهام الشعب بهذا المثل الأعلى (و بالفعل لم يكونوا قادرين على أن يكونوا مصدر إلهام لأي شيء) هو إدانة لهم هم ، لكن الأمر يتجاوز ذلك : هو تعبير على أنّهم قد تخلّوا عن مبادئ

الشيوعيّة و خانوها و تحّولوا إلى جماعة أخرى من المستغِلّين و أعراف فى النظام القديم . هي إدانة أخرى للنظام الرأسمالي الذى أعادوا تركيزه مخفينه تحت قناع " الشيوعية " وهو قناع ... وجدوا أنفسهم فى الأخير مضطرّين لإسقاطه . ليتمرّغوا فى زبالة الرأسماليّين الخنازير الآخرين مدّعين أنّه يجب " الإعتقاد بشيء سام " إلاّ أنّه من واجب المرء ألاّ يدعهم يخدعونه بنفاق أولئك الذين يفتكّون الخبز من أفواه الجماهير عبر العالم قاطبة و يدّعون أنّ الإنسان لا يعيش بالخبز فحسب !

أريد الإنتهاء بإعادة شيء كتبته لمقارنة مبادئ الماديّة الجدليّة الماركسيّة البنّاءة و التحرّرية ب " المثل العليا " الإضطهاديّة لرؤية البرجوازية و الواقع الدنيء و المهين فى العالم الرأسمالي : " تهاجم السلط الدينيّة و يهاجم المدافعون عن " النظام الإجتماعي " الرأسمالي الشيوعيّة ناعتينها ب " الماديّة " . إنّهم يلوون عُنق مفهوم **المادية الماركسية** ليجعلوا الناس تعتقد أن فى الشيوعيّة لا مكان ل" الميزات الروحيّة التى هي جوهر الإنسان " . " لا يعيش الإنسان بالخبز فحسب !" هؤلاء المدافعين عن نظام تدفعه حمّى جشعة من مزيد مراكمة الثروة المادية يتجرؤون على الوعظ ! نظام يتعامل مع كلّ شيء حتّى الإنسان و قدرة عمله كسلعة تشترى و تباع و تدرّ الأرباح . نظام يشجّع العقليّة الأكثر أنانيّة و المنافسة الأكثر تلطّخا بالدم ، نظام يبرّر كلّ شيء حتّى المجازر والقضاء المبرم على و عبوديّة شعوب بأكملها بالدولار المطلق القدرة (أو اليان، المارك ، الروبل أو أيّة عملة أخرى) .

بالطبع ، تعترف الماديّة الماركسيّة بانّ الأشخاص ليسوا ببساطة آلات و تعترف بذلك بأعمق من النظام الإجتماعي البرجوازي و فلسفته لأنّ الماديّة الماركسيّة تبحث عن فهم العلاقة الحقيقيّة للإنسان ببقيّة الواقع الماديّ . و تعترف بانّ الإنسان ، على مستوى مختلف عن الأنواع الأخرى التى نعرف ، للإنسان قدرة على إستعمال خياله و تحقيق كلّ أنواع النشاطات الخلاّقة . كما و تعترف بان " الخبز" (أي إنتاج و توزيع المنتوجات ذات الحاجة الأكيدة) هو قاعدة المجتمع الإنساني ، لكن ليس بالإمكان العيش بالخبز فحسب فبإمكان الشعب و ينبغى عليه أن يستعمل خياله و قدرته الإبداعيّة بأشكال متنوّعة .

غير أن هذا يختلف أيّما إختلاف عن إختراعات و أحابيل الدين و الإعتقاد فى "روحانيّة " مفترضة لا تعتمد على العالم (أو الكون) كما هو بالملموس و لا تعتمد على الظروف الحقيقيّة للمجتمع الإنسانيّ و لا على الميزات و القدرات الحقيقيّة للإنسان ، بل على الأوهام . هذه الأوهام ليست مجرّد حماقات أو " تطيّر بريئ " و إنّما هي مدد قوي للأنظمة الإستغلالية و الإضطهلادية و تقف حاجزا قويّا أمام النضال الثوريّ الذى يبحث عن تغيير العالم و كنس كلّ هذه الأنظمة . "

==================

" أعظم شيء ، أكثر شيء تحرّري فى الشيوعيّة هو أنّها تبيّن أنّنا " **لسنا فى حاجة** لأكثر من الشعب و نضاله الواعي و القويّ العزيمة لتشييد عالم أفضل . مقادة بالمبادئ و الأخلاق الشيوعيّة ، البروليتاريا قادرة على حمل المجتمع الإنساني إلى مستوى آخر و الإبقاء وراء بعيدا العلاقات و القيم السائدة التى تدعم الرأسمالية و كافة الأنظمة الأخرى القائمة على الإستغلال و الإضطهاد و السيطرة و الإخضاع و تمثّل مددا لها . (" **الدين : من يحتاجه ... و من لا يحتاجه** " و " **الأخلاق التى نحتاج ... و الأخلاق التى لا نحتاج** " ،" **العامل الثوري** " أعداد 538 ، الثامن من جانفى 1990 و 516، 31 جويلية 1989 ، بالتوالي ، علما و أنّ التشديد فى النصّ الأصليّ) .

3/ مرّة أخرى حول الإقتصاد البرجوازيّ و خلط البرجوازيّة للأمور:

قال بريجنسكى : " لم تفهم الماركسيّة طبيعة الإقتصاد المعاصر ... بعد كل شيء قد نشأت فى القرن التاسع عشر ، خلال المراحل الأولى للثورة الصناعيّة . و لم تستطع إستيعاب ضرورة التداخل المعقّد و فى الوقت نفسه ، لم تستطع أن تستوعب اللامركزة الملازمة للمجتمع ما بعد الصناعي المتميّز بالإتّصال المكثّف " .

بداية ، وصلت النظريّة البرجوازية و بالخصوص الإقتصاد السياسيّ البرجوازيّ الكلاسيكيّ قمذة تطوّرها قبل ظهور الماركسيّة ، و بالفعل تطوذرت الماركسيّة و بصفة خاصة الإقتصاد السياسيّ الماركسيّ ، فى جزء كبير منها ، من خلال التحليل النقديّ للإقتصاد السياسيّ البرجوازيّ الكلاسيكيّ . و عندئذ علينا أن نسأل أيّ النظريّتين مضى زمانها ؟

و يسعى بريجنسكى إلى جعل الناس يعتقدون أنّ البرجوازيّة (الطبقة التى مضى زمانها من وجهة النظر التاريخيّة) و نظريّتها التى مضى زمانها كذلك قادرتين على التأقلم مع التغيّرات الكبرى التى وقعت منذ القرن التاسع عشر ، بينما لا تستطيع البروليتاريا و نظريّتها التى تمثّل الجديد و الصاعد فى العالم ، لا تستطيع التأقلم .

و هذا قلبُ نموذجّي لواقع البرجوازية و المدافعين عنها فهم على الدوام يقدّمون الواقع بالمقلوب.

فى الردّ على خطاب جورج بوش أمام الأمم المتّحدة ، دحضت مواربات مبادئ التخطيط المرتكزة على الماركسية – اللينينية – الماوية فمثلا تحدّثت عن مسألة المركزة و اللامركزة . سأعود إلى ذلك فى ما بعد ، لن أتوقّف عند ذلك الآن ، لكن قبل المرور إلى النقطة الموالية ، لنلاحظ عبارة " المجتمع ما بعد الصناعي " . من الضروري الترجمة : بريجنسكى (و آخرون يستعملون هذه المفردة فى إشارة إلى " المجتمع المعاصر ") و يقصدون المستوى المتقدّم من الطفيليّة التى توصّلت إليه البلدان الإمبرياليّة و الشبكة العالميّة للإستغلال التى أرسوها فى خضم حمّاهم الجشعة للأرباح . العالم الحالي لا يقدر بأيّة حال و لن يقدر أن يكون " ما بعد صناعي " و البلدان مثل الولايات المتّحدة ، منذ زمن ، لن تُوجد دون **منتوجات** صناعية . و هكذا من أين خرج هؤلاء ؟

فى الولايات المتّحدة و بلدان إمبرياليّة أخرى لا يزال هنالك بعدُ ملايين العاملين فى الإنتاج و شرائحهم الأسوء أجورا تشكو إستغلالا فاحشا إلاّ أنّه فى الوقت ذاته ، هنالك توجّه مستمرّ إلى نقل الإستثمار المنتج لأمم العالم الثالث حيث إستغلال الجماهير الكادحة أعمق . لا يزال " السرّ القذر للإستغلال الرأسمالي " يعبّر عن نفسه أكثر فأكثر كظاهرة على الصعيد العالمي . و يتمّ هذا إلى جانب مصاريف و نشاطات غير منتجة و طفيليّة أكثر داخل المجتمع الإمبريالي : سلع فاخرة للأغنياء و إشهار و مضاربة ماليّة و شراء مؤسسات إلخ و مصاريف عسكرية و هكذا دواليك . و هذا هو الواقع المقزّز و القذر الذى تحجبه " مفردات تقنية " مثل " المجتمع ما بعد الصناعي " .

4/ من يدافع حقا عن التحرر الوطنيّ و ما هو مفهوم الأمميّة :

قال بريجنسكى " [الشيوعية] إستهانت بأهمّية القوميّة ..." .

للردّ على هذا من اللازم رسم تمايز حيويّ بين القوميّة الرجعيّة و القوميّة التقدّميّة . إنّهما شيئان مختلفان جدّا و الإختلاف هام للغاية فى عالم اليوم . من جهة ، ثمّة قوميّة الأمم المضطهَدة على وجه خاص فى العالم الثالث و التى تناضل فى سبيل تحرّرها من نير الإمبريالية . و من جهة أخرى ، ثمّة القوميّة التى تعبّر عن نفسها حاليّا فى أوروبا الشرقيّة و أوروبا الوسطى على إثر التحوّلات فى البلدان التحريفيّة . هذان النوعان من القوميّة متعارضان راديكاليّا و جوهريّا . و النوع الأوّل تقدّميّ و ثوريّ و النوع الثاني رجعيّ قيادته رجعيّة وهو فى خدمة الرجعيّة .(4)

فى هذه الحقبة من التاريخ ، من الذى يدافع حقّا عن نضالات التحرّر الوطني الشرعيّة و الثوريّة و من يعارضها ؟ عندما تحدّثت عن مساهمات ماو تسى تونغ و تطويره للماركسيّة - اللينينيّة – الماويّة إلى مرحلة جديدة ، أشرت إلى مظهر رئيسيّ لهذا ألا وهو نظريّة و خطّ الثورة الديمقراطيّة الجديدة اللذان يبيّنان كيف تجرى قيادة الثورة الوطنيّة – الديمقراطيّة فى العالم الثالث بشكل يمهّد الأرضيّة للثورة الإشتراكيّة التى تليها فى الحال .

هنا نرى العلاقة فى العالم الراهن بين النضالات الحقيقية للتحرّر الوطني و النضال فى سبيل الإشتراكيّة (و فى النهاية الشيوعيّة). نلاحظ فى الواقع البروليتاريا و قيادتها الشيوعيّة هما اللذان يدافعان عن التحرّر الوطني الحقيقيّ و يربطانه بالنضال من أجل الإشتراكيّة (و الشيوعيّة) وهي الطريقة الوحيدة للتحرّر النهائي للأمّة و التحرّر الفعليّ للجماهير الشعبية.

و يجرّنا هذا إلى نقطة ثانية : إيديولوجيا الأمميّة ضد القوميّة . الإيديولوجيا الشيوعيّة للبروليتاريا بأمميّتها هي وحدها القادرة على قيادة نضالات التحرّر إلى تحرّر حقيقيّ : إلى قطيعة حقيقيّة مع الهيمنة الإمبرياليّة و أبعد من ذلك ، المرور إلى الإشتراكيّة و إلى مواصلة الثورة نحو هدف الشيوعيّة . يمكن أن يبدو هذا ساخرا لكن الإيديولوجيا القوميّة (التى هي

مفهوميّا ، و رغم كلّ ما يقال عكس ذلك ، بالقوّة وجهة نظر " أمّتى أوّلا ") لا تستطيع الإيصال إلى تحرّر الأمم ، لا تستطيع الإيصال إلى عالم لا توجد فيه علاقات لاتكافئ و هيمنة بين الأمم . إنّ القومية حتّى عندما تكون معبّرة عن سياسة ثوريّة فى نضال الأمّة المضطهَدة تبقى محدودة إيديولوجيا برؤية البرجوازية للعالم و التى لا تقدر على رفع النظر إلى أبعد من حدود إنتاج السلع الرأسماليّة و تبادلها بعلاقاتها الداخليّة الإستغلاليّة و الإضطهاديّة .

إنّ دفاع بريجنسكى عن القوميّة ضد الشيوعيّة ، ضد الأمميّة البروليتاريّة هو موقف الإمبرياليّين و يعود إلى أنّ إحدى الإنقسامات الجوهريّة فى عالم اليوم هو الإنقسام بين عدد وفير من الأمم المضطهَدة و حفنة من القوى الإمبريالية ، و القومية التى يدافع عنها ممثّلو الإمبريالية مثل بريجنسكى ، هي قبل كل شيء شوفينيّة القوّة العظمى لأمّتهم الإمبرياليّة . بمعنى أشمل ، يدافع بريجنسكى عن القوميّة لأنّ البرجوازية الإمبرياليّة تقوم على السوق القوميّ رغم أنّها تحقّق تراكمها على المستوى العالمي عبر نظام شامل من الإستغلال و النهب . و بالرغم من انّ وجودها مرتبط شديد الإرتباط بهذه الترابطات العالميّة ، فإنّ البرجوازية لا تستطيع أن ترى أبعد من أفق عالم مقسم إلى أمم (إلى أمم مضطهِدة و أمم مضطهَدة) لأنّه ليس من مصلحتها تصوّر و لا التوصّل إلى مساواة بين الأمم و تجاوز التقسيمات و الحدود القوميّة و لا خلق أسرة عالميّة من الناس الذين يتعاونون بشكل حرّ . و بإمكان البروليتاريا العالميّة و إيديولوجيّتها الأمميّة وحدها تحقيق ذلك .

<u>5/ دكتاتورية البروليتاريا : ألف مرّة أكثر ديمقراطيّة ... بالنسبة للجماهير :</u>

قال بريجنسكى : " فى النهاية ، يتعيّن النظر فى الحادث التاريخي لإرتباط الإستبداد الروسي . فالمجتمع الشيوعيّ الأوّل لسنة 1917 إنزرع فى أرضيّة روسيّة ذات عادات أوتوقراطية قويّة إنعكست فى ما بعد فى اللينينيّة وإثر ذلك فى الستالينيّة المجرمة ، كلّ ذلك حطّ من سمعة الشيوعيّة و أدّى بها فى النهاية إلى ما أسمّيه أنا " الفشل الكبير" " .

فى الحقيقة ، كانت الثورة البلشفية **نفيا** للإستبداد الروسي ، نفيا للقيصرية و كذلك للديمقراطية البرجوازية (لاحظوا أن أشكال يلتسين و سولزنتيسين هم الذين يذكرون بتحسّر أيّام القيصر !) هنا ، من الهام التذكير بملاحظة قدّمتها فى خطاب " **مزيدا من الأفكار** " :

" بالنسبة للبرجوازيّة تتساوى دكتاتورية البروليتاريا مع الإستبداد . أي ، فى نظر البرجوازية و الديمقراطيين البرجوازيين الصغار الذين هم صدى لها إيديولوجيّا و سياسيّا ، يبدو الجهاز المركزيّ القويّ و دكتاتوريّة البروليتاريا الحازمة فى المجتمع الإشتراكي ، يبدوان جوهريّا مماثلان للهيمنة المطلقة للنبلاء و الطغاة الإقطاعيين مثل قياصرة روسيا .

لا تملك البرجوازيّة و الديمقراطيّون البرجوازيّون الصغار أن يروا (و عندما يرون ذلك يعملون على حجبه) الفارق النوعيّ بين هذين اللونين من الدكتاتوريّة . إنّهم لا يفهمون أو يدّعون عدم فهم أنّ هدف القيصريّة و اشكال الحكم المطلق الأخرى هو الذود عن نظام إستغلال الجماهير و فرضه و الإبقاء عليه ، بينما تمثّل دكتاتوريّة البروليتاريا إفتكاك الجماهير للسلطة و هي مواصلة النضال حتّى تحرّرها التام .

بالنسبة للبرجوازيّة ، الأمران لعينان سوى أنّ دكتاتورية البروليتاريا أسوء بإعتبار أنّها تجسّد القضاء على كافة أشكال الإستغلال . فى حين إستطاعت البرجوازيّة ، تاريخيّا ، أن تتعايش مع أشكال متنوّعة من الإستبداد و المُلْكية و سواها و إستطاعت أن تدمجها فى هياكل حكمها ، فإنّها لن تستطيع بأيّة حال أن تتعايش مع دكتاتوريّة بروليتاريا حقيقية .

لمّا كان المجتمع السوفياتي إشتراكيّا فعليّا فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، كان " ألف مرّة أكثر ديمقراطيّة " (بالنسبة للجماهير) من أيّ مجتمع برجوازيّ . و كان كذلك أثناء السنوات الأولى من الجمهورية السوفياتية بقيادة لينين و كان كذلك أيضا أثناء فترة قيادة ستالين . و رغم الأخطاء الخطيرة (بعضها خطير جدّا) و الإنحرافات عن الماركسية – اللينينية التى حصُلت فى ظلّ قيادة ستالين و بالخصوص قبل و فى غضون الحرب العالميّة الثانية و بعدها ، فإنّ الآتى صحيح :

" علاوة على ذلك ، من المهمّ التأكيد هنا على أن " فى روسيا الستالينيّة " عاشت الجماهير الشعبية حرية أكبر بكثير و توصّلت إلى فهم الحقيقة بصورة أعمق بكثير منها فى أيّ بلد برجوازيّ ديمقراطيّ ، دون إستثناء . و لإدراك الحقيقة العميقة و المغزى العميق لهذا التصريح إدراكا تاما ، من الضروري فهم أنّ كلّ المجتمعات البرجوازيةّ الديمقراطيةّ تقوم على الإستغلال الرأسمالي ، بينما فى الإتّحاد السوفياتي ، إلى حدود وفاة ستالين ، قد وقعت إزالة علاقات الإنتاج الإستغلالية (رغم أنّها لم تمح كلّيا) . كذلك من اللازم فهم أنّه بالرغم من بعض التوجّهات نحو الماديّة الميكانيكيّة و تزييفات براغماتية ، فى ظلّ قيادة ستالين ، جرى السعي جدّيا إلى تعليم الشعب وجهة النظر و الطريقة العلميّة للماركسية – اللينينية ، بينما فى كلّ البلدان البرجوازيّة الديمقراطيّة (و هذه ليست مبالغة) منذ الطفولة و عبر نظام التربية و وسائل الإعلام الجماهيرية و أشكال أخرى ، **يشوّهون الإعلام و يغالطون السكّان بشأن جميع المسائل الهامة للأحداث السياسيّة و العالميّة الحاليّة و المتّصلة بالتاريخ العالميّ و يغرسون فيهم عقائدا و يربونهم بصفة منظّمة على رؤية للعالم مقلوبة رأسا على عقب و على منهج خاطئ .** و يحدث هذا ليس عبر نوع الوسائل القصوى و الغريبة للدولة الإستبدادية لكتاب " **1984** " لجورج أوروال ، بل عبر السير " العادي " المفرط فى الديمقراطيّة للمجتمع البرجوازي الديمقراطيّ و دولته ". (أفاكيان ، " **الديمقراطية : أليس بوسعنا أن نصنع أفضل منها ؟** " ، شيكاغو ، بانر برسا ، 1986 ، صفحة 190 ، التسطير فى الأصل) .

وبالعودة إلى تـأكيدات بريجنسكى ، من الأكيد أنّ الشيوعية لم يقع أبدا " الحطّ من سمعتها " زمن كان الإتّحاد السوفياتي و الصين بلدين إشتراكيّين حقّا . فعلا ، كان هذان البلدان يتمتّعان بسمعة و مساندة كبيرتين رئيسيا فى صفوف الجماهير المستغَلَة و المضطهَدَة و أيضا فى صفوف شرائح متوسّطة ببلدان العالم كافة (لنذكر بان فى ذروة الثورة الثقافية وقع بيع أعداد نسخ من " **الكتاب الأحمر** " لمقتطفات ماو تفوق عدد نسج الإنجيل **!**) .

ما حطّ من سمعة الشيوعية (بقدر ما أن ذلك صحيح) كانت هزائم البروليتاريا العالميّة على أيدى البرجوازية العالميّة (تحطيم الإشتراكيّة و إعادة تركيز الرأسماليّة) و حصرا قيام التحريفيّين بإعادة تركيز الرأسمالية تحت قناع الشيوعيّة . كان هؤلاء التحريفيّين أسوء شيأين فى العالم :

- إيديولوجيا و خط سياسيّ من المفروض أن يستمرّا فى العمل على بناء الإشتراكية و التقدّم نحو الشيوعيّة لكنّهما لا يملكان أن يلهما الجماهير و أن يقوداها إلى إنهاء التحويل الثوريّ للمجتمع و **لا يريدان** القيام بذلك،
- و "إشتراكيّة " (و فهم لل" شيوعية ") يتحدّد بكلمات تقديم مستوى معيشة عال للشعب و فرص إقتناء سلع كثيرة و أكثر من السلع فى المجتمعات الإمبريالية المفضوحة لكنّها غير قادرة على تحقيق ذلك .

هذا هو مشكل التحريفيّين فى السلطة فى الإتّحاد السوفياتي و الصين و ليس غريبا أن يكون جرى الحطّ من سمعتهم .

لو نظرنا إلى الأحداث الأخيرة فى الإتّحاد السوفياتي من وجهة نظر عامّة و تاريخيّة يمكن أن نقول إنّ الثورة البلشفيّة تجنّبت الثورة الديمقراطيّة البرجوازيّة و مرّت مباشرة إلى الإشتراكية . (5) و صعود التحريفيّة إلى السلطة بداية بإنقلاب خروتشاف مثّل إعادة تركيز الرأسمالية دون ثورة ديمقراطية برجوازية مع الحفاظ على بعض المظاهر الخارجية للإشتراكيّة . و ما يجدّ الآن فى الإتّحاد السوفياتي هو إبعاد لهذه المظاهر الخارجيّة و تبنّيا لأشكال حكم برجوازية أكثر تقليديّة مصحوبة ببعض ميزات الثورة الديمقراطية البرجوازية . و ما يحدث ليس ثورة (ليس حتّى ثورة ديمقراطية برجوازية) بل تبنّى مفضوح أكثر للأشكال البرجوازية الكلاسيكية .

و هذا يرتبط بنقطة كنت أثرتها عديد المرّات : إنّ النقض الحالي للتحريفيّة فى مثل هذه البلدان ، متحدّثين عن الجماهير (أو على الأقلّ عن قطاعات مؤثّرة منها) ليس مطلب الإشتراكيّة الحقيقيّة و إنّما مطلبا ديمقراطيّا برجوازيّا . و آخذين بعين النظر مثّقّفي الإتّحاد السوفياتي والصين ، نجد مثلا أنّه بقدر ما كانوا يرون عفويّا بشكل أوضح النفاق و التناقضات التحريفيّة ، فإنّ العديد منهم بات يدور عفويّا فى فلك الديمقراطيّة البرجوازيّة و الحكومة البرجوازيّة و الإقتصاد الرأسماليّ. و يعزى هذا إلى أنّ الحكومات التحريفيّة تستغلّ و تضطهِد الجماهير بإسم **الإشتراكية و الشيوعية** و يعزى كذلك إلى المغالطة الذاتية للبرجوازية الصغيرة فكما قال ماركس ، تتّجه البرجوازية الصغيرة عامة إلى خلط مصالحها الخاصة الضيّقة و المصالح العامّة للمجتمع .

6/ الشيوعيّة ليست " طغيانا طوباويّا " بل هدفا قابلا للتحقيق و هدفا تحرّريا :

لكن لنرى ما يقوله بريجنسكى عينه فى الختام . مجيبا عن سؤال بصدد هل أنّ الشيوعية لا تمثّل على الأقلّ بعض المُثُل ذات القيمة ، مثل العمل من أجل المصلحة المشتركة و ما إلى ذلك ، قال : " أرادت [الشيوعية] أن تمضى بالمثاليّة إلى أقصاها ممّا إنعكس فى طوباويّة مؤسساتيّة و إرغاميّة أنتجت الضلالات التى شاهدنا فى الإتّحاد السوفياتي . فى إعتقادي ، خُلق زواج فجّ بين المثاليّة المدفوعة إلى أقصاها و عقلانيّة مفترضة مدفوعة إلى نهايات غير عقلانية . فقد كانوا يعتقدون أنّه من الممكن بناء مجتمع متكامل وفق مخطّط و أنّ هذا يعلّل القضاء على أيّ إمرء ليس موافقا على ذلك . كلّ هذا أفضى إلى التراجيديا و الجرائم و ختاما الإخفاق الذى شاهدنا " .

هذه لازمة معروفة . فى الواقع ، هو يردّد صدى آناه آراندت و " نظريّتها " عن الكليانيّة التى حلّلتها فى كتاب " **الديمقراطية ...**". و تشبه فضلا عن ذلك تعليقات مقال فى " **النيويورك تايمز "** كان يقول : " [الإتّحاد السوفياتي] كان مصدرا للتسلّط و مركز الإيديولوجيا المثاليّة التى بإسمها وقع القضاء على الحرّيات و أفلست إقتصاديّات فى قارتين ... الوهم المخطِأ الرئيسي كما قال ذلك الباتريارك [!] آلاكساي كان من الممكن " صنع مادة إنسانيّة جديدة " و خلق إنسان كامل عبر الإستخدام الإصطناعي للتنظيم الإجتماعي . نستطيع القول إنّ ،على العكس ، قوّة الديمقراطيّة و السوق الحرّة تعزى إلى أنّها تعترف بأنّه رغم كلّ هيناتها يتطوّر الإنسان بصورة أفضل حين يُقيّم هو بذاته ". (" شاهد للثورة " ، " **النيويورك تايمز"** ، 25 أوت 1991) .

فى المصاف الأوّل ،هذا مديح دون موارات للأنانيّة . متحدّثا بهذا الصدد فى " **نهاية/ بداية** " أشرت إلى أنّ المرء بإمكانه أن يحصُل على فكرة جيّدة عن أيّ نظام و المدافعين عنه بالنظر فى القوانين التى يضعونها **هم** ذاتهم كنموذج . يلحّ النظام البرجوازي على أنّ الأنانيّة هي القوّة المحرّكة جوهريّا للمجتمع الإنسانيّ ، هذا هو إنفضاح ذاتيّ جليّ للرؤية العالميّة للبرجوازيّة و ل" أخلاقها " و للعلاقات القائمة عليها .

و من ناحية ثانية ، أقوال مثل " الإنسان الذى يقيّم هو بذاته " أو إنّ للناس ماهيّة ثابتة (**وغير قابلة للتغير**) غريزيّة و/أو تتشكّل بعيدا عن العالم الحقيقيّ و التفاعل الإجتماعيّ ، كلّ هذا هراء برجوازيّ نموذجيّ . يمكن القول إنّ للناس نوعا من الخصوصيّة بإعتبارهم من النوع نفسه : ثمّة بعض المظاهر الجوهريّة المشتركة تميّز عموما كلّ الناس ، بعض مظاهر تكوينهم البيولوجي مثل التطوّر الهام جدّا للمخّ ،غير أنّ هذه الخصوصيّة الإنسانيّة المشتركة نسبيّة و ليست مطلقة و إحدى الميزات الأكثر دلالة التى يختصّ بها الإنسان بوجه عام هي "المرونة " الكبرى أي قدرته على **التأقلم** و التغيّر تبعا للظروف و كذلك قدرته على تغيير هذه الظروف الخارجيّة بشكل أوعى فأوعى .

طوال آلاف سنوات تاريخه ، شهد الإنسان و مجتمعه تحوّلات بالغة العظمة ، و لو أنّها كما قلت سابقا ، حدثت فى حدود معيّنة جدّا ، تعود فى ذاتها إلى التطوّر المحدود بعدُ لقوى الإنتاج الإجتماعية و العلاقات الإنتاجيّة و العلاقات الإجتماعيّة المواتية و لا تعود إلى المدعّوة " طبيعة إنسانية " غير القابلة للتغيّر . و حتّى ما يعدونه " طبيعة إنسانيّة " (و ما يعدّونه "عقلانيّا " و "غير عقلانيّ ") كان مختلفا من عصر إلى آخر و بالنسبة لكلّ طبقة (على سبيل المثال ، ما يبدو عقلانيّا أو غير عقلانيّ بالنسبة للرأسمالي و مالك العبيد هو أشياء مختلفة فكلاهما مستغلّين لكنّهما يمثّلان أنظمة علاقات إستغلال بقيمها المناسبة لكلّ منها ، " أخلاقها " إلخ مختلفة) .

إن أمكن تشخيص بعض المظاهر المشتركة للمجتمع البشريّ ، إلى حدّ الآن ، فمرجع ذلك هو أنّ للناس بالفعل بعض الميزات الأساسيّة العامة المشتركة ، لكن بالخصوص إرادة الإثراء على حساب الآخرين و فكرة أنّ بعض الأشخاص و الأمم أرقى و أنّ على الرجل أن يهيمن على المرأة و مفهوم أنّ قوّة أو سلطة ماورائية تحكم مصير الناس : لا شيء من هذا ينسب إلى" الطبيعة الإنسانية " بل ينسب إلى أنّه ، إلى حدّ الآن ، لم يُوجد أساس مجتمع ، عالم وناس يشتركون بحرّية، واعون علاقتهم مع بقيّة الطبيعة و فيما بينهم . غير أنّ المهمّ هو تحديدا أنّ الآن و لأوّل مرّة فى التاريخ الإنسانيّ ، نعم توجد هذه الإمكانيّة و أيضا توجد ضرورة ملحّة للقيام بذلك . برؤية ثوريّة وصف إنجلز ذلك على هذا النحو :

" و لكن إذا كان للإنقسام إلى طبقات بعض ما يبرّره تاريخيّا ، فليس ذلك إلاّ لفترة معيّنة ، إلاّ فى ظلّ أوضاع إجتماعيّة معيّنة . لقد إشترطته عدم كفاية الإنتاج ، و سيكنسه تطوّر القوى المنتجة الحديثة الكامل . و بالفعل ، يفترض إلغاء الطبقات الإجتماعيّة بلوغ درجة من التطوّر التاريخيّ يغدو معها وجود هذه الطبقة المسيطرة أو تلك ، بله وجود كلّ طبقة مسيطرة على العموم ، و بالتالي إنقسام المجتمع إلى طبقات ، بقيّة من بقايا الماضى و ظاهرة من الظواهر ولىّ زمنها . إنّ إلغاء الطبقات يفترض ، إذن ، أن تطوّر الإنتاج و المنتجات (و بالتالي للسيطرة السياسية وإحتكار الثقافة و القيادة الفكريّة) من الأمور النافلة و حسب ، بل يغدو أيضا عائقا أمام التطوّر الإقتصاديّ و السياسيّ و الفكريّ ، و قد تمّ اليوم بلوغ هذه الدرجة ...

إنّ بإمكان الإنتاج الإجتماعي أن يؤمّن لجميع أعضاء المجتمع لا ظروف معيشة ماديّة تكفى تماما و تتحسّن يوما بعد يوم و حسب ، بل أيضا حرّية تطوير و ممارسة مواهبهم الجسديّة و الفكريّة على نحو كامل ، و هذه الإمكانيّة قد تحقّقت الآن لأوّل مرّة و أنّها **موجودة** الآن فعلا .

فما أن يتملّك المجتمع وسائل الإنتاج حتّى يزول الإنتاج السلعيّ و تزول معه سيطرة المنتوج على المنتجين . و محلّ الفوضى داخل الإنتاج الإجتماعي ، يحلّ تنظيم واع منهجيّ . و يزول النضال فى سبيل البقاء الفردي ."

(إنجلز ، " **الإشتراكية الطوباوية و الإشتراكية العلمية** " ، صفحة 88-89 ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية).

فى الختام ، ردّا على بريجنسكى أقول إنّ الماركسيّة رؤية علميّة للعالم (إنّها نقيض الطوباويّة) و قد ناضل ماركس بصلابة طوال حياته ضد عديد ألوان " الإشتراكية الطوباوية " التى لم تكن تعتمد الواقع و القاعدة الماديّة للمجتمع الإنسانيّ و تطوّره التاريخيّ . إضافة إلى ذلك ، لم يكن للمجتمعات الإشتراكيّة التى وجدت إلى الآن أيّ شيء من الخيال و **لا** كان هذا ما يبحث عنه قادتها . بيد أنّ هذه المجتمعات تمثّل تقدّما ضخما مقارنة بالرأسماليّة و كافة المجتمعات السابقة .

إنّ لينين (و حتّى ستالين إلى حدود معيّنة) إعترف و أبرز أنّ المجتمع الإشتراكي و إن كان يمثّل قفزة كبرى إلى الأمام ، فإنّه سيكون مليئا بالتناقضات و الصراع فى سبيل تغيير الظروف و الناس مثلما قال ماركس . و قد لخّص ماو تسى تونغ ذلك مثلما رأينا و طوّره إلى مستوى أرقى بصياغة الخطّ الجوهريّ القائل بأنّ المجتمع الإشتراكي مرحلة إنتقاليّة طويلة من الرأسمالية إلى الشيوعيّة فيها ستوجد طبقات و سيوجد صراع طبقيّ (لا سيما الصراع الحاسم بين البروليتاريا و البرجوازيّة الذى تفرزه بإستمرار التناقضات الأساسيّة للمجتمع الإشتراكي) و أنّ ثمّة إذا خطر دائم لإعادة تركيز الرأسماليّة و أيضا خطر الهجمات الإمبرياليّة . و قد أبرز ماو أنّه حتّى عندما تبلغ الإنسانيّة مرحلة الشيوعيّة ، فإنّ المجتمع سيظلّ يتقدّم عبر التناقضات و الصراع (بصفة خاصة ، بين القديم و الجديد ، بين الخاطئ و الصحيح) مع أنّها لن تكون تناقضات طبقيّة و لا صراع طبقات . كيف سينعت هذا بالطوباوية !

لكنّنا لن نتوقّف عند هذا الحدّ . و بالفعل ، للماركسية - اللينينية - الماوية جانب يمكن تسميته ب" الطوباوي " و " التنبئي" . لا أقول ذلك وبذات المعنى الذى يستعمله إيديولوجيو البرجوازيّة و الناطقين بإسمها ، لا أريد القول إنّ الماركسية - اللينينية - الماويّة تعدُ بمجتمع " كامل " دون تناقضات لأنّه كما عبّر ماو ، دون تناقضات و صراع سيكفّ العالم عن الوجود . ما أودّ قوله هو أنّ للماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة و لا بدّ أن يكون لها جانب الذهاب أبعد من الحدود التى تفرضها المرحلة الحالية للمجتمع الإنساني وتصوّر عالم مختلف راديكاليّا فيه يكون الناس متحرّرين من سلاسل المجتمع المنقسم إلى طبقات.

و للردّ على بريجنسكى بكلماته هو ، فى الشيوعيّة ثمّة نوع من الشخصيّة ، توليف من المثاليّ و العقلاني ، أي المثل الأعلى لعالم دون إستغلال و إضطهاد و دون إختلافات طبقيّة أو حتّى إختلافات قوميّة هو هدف عقلانيّ ، **ممكن التحقيق** فى هذه المرحلة من التاريخ الإنساني ، لكن هذا بمعنى فلسفيّ أعمق و أكثر جوهريّة ليس مثاليّة بل ماديّة : ماديّة جدليّة . إنّه تعبير عن أنّ تطوّر المجتمع الإنساني (الذى يحدث ليس فحسب عبر تغيّرات كمّية ، و إنّما أساسا عبر قفزات ثوريّة و إنقطاعات راديكاليّة) أعدّ الأرضية لبلوغ هذا المجتمع الشيوعيّ و يتطلّبه بصفة إستعجاليّة . و مثلما قال لينين مرّة بصدد النضال الثوريّ ، الحُلم أمر حسن ، من الضروريّ أن نحلم طالما أنّ الأحلام تكون متماشية مع سيرورة تطوّر الواقع و طالما نعمل دون كلل كي نحقّقه. هكذا بالضبط ينبغى معالجة مسألة الشيوعيّة الآن أكثر من أيّ زمن مضى .

هذا هو جوابي على أناس من فصيلة بريجنسكى و بوش و آخرين يتحدّثون عن " موت الشيوعية " المفترض.

7/ " الماديّة التاريخيّة " الميكانيكيّة و الماديّة التاريخيّة الجدليّة :

و الآن أرغب فى أن أردّ بشكل مقتضب أكثر على مقال حديث من مجلة " **نيولافت رفيو** " [مجلّة اليسار الجديد] الذى يصرّح شأنه شأن الكثير من "إشتراكيي" هذه الأيّام ، أنّ التخطيط المركزيّ للبلدان الإشتراكيّة كان فشلا ذريعا . و قد ناقشت بصورة مفصّلة عن هذا لكن أريد أن أفنّد نقطة محدّدة من المقال . فى هامش أسفل صفحة يجعل روبين بلاكبورن ، الكاتب ، مستشهدا بشيء قاله إنجلز فى " **حرب الفلاحين فى ألمانيا** " ، القارئ يفهم أنّ تحليلا ماركسيّا سيؤدّى إلى إستخلاص أنّه كان على البلاشفة ألاّ ينجزوا الثورة الإشتراكيّة . إليكم نص الهامش مع الإستشهاد بإنجلز :

" مشيرا إلى وضع مونزر ، قائد حرب الفلاحين فى الجزء الأوّل من القرن السادس عشر ، كتب [إنجلز] : " لم تكن حرّية آنذاك فقط بل حركة كلّ الحقبة ناضجة لتحويل الأفكار إلى واقع ، الأفكار التى كان هو ذاته يبدأ فقط فى تحسّسها بشكل غامض . فالطبقة التى يمثّلها [يشير إلى البروليتاريا الناشئة - ب. أ] لم تكن فحسب بعيدة بعدُ عن بلوغ التطوّر الكافيّ و لم تكن قادرة بعدُ على إخضاع كلّ المجتمع و تحويله ، بل بالكاد كانت وُلدت . كان المنعرج الإجتماعيّ الذى كان يتراءى فى خياله يعوّل بعدُ على عدد جدّ قليل من الركائز ضمن الظروف الماديّة و بالأحرى ، كانت هذه الأخيرة الذى تُعدّ نظاما إجتماعيا على النقيض تماما من الذى كان يرنو إليه هو ." (فريديريك إنجلز " **حرب الفلاحين فى ألمانيا** " ، فى ليونارد كرياقار للنشر " **الثورات الألمانية** " ، شيكاغو ، 1967 ، صفحة 105) . كان يجب على البلاشفة [يستطرد بلاكبورن] أن يكونوا عالمين جيّدا بهذه الفقرة و إستنتاجها القائل بأنّ مونزر كان على كّل حال على حقّ فى تصرّفه على النحو الذى فعل . الموقف المنشفيّ كان سيكون : مهما كانت أحلامه ، فإنّ مونزر على حقّ فى خوضه صراعا ما كان ليذهب أبعد من أفق جمهوريّة برجوازيّة مبكّرة . عند مساندته لنضال مونزر ، لم يكن إنجلز بأيّة صفة يوصى بمحاولة القفز مباشرة إلى الشيوعيّة دون أخذ الظروف بنظر الإعتبار . كان سيكون متّفقا مع صديقه بليخانوف فى أنّ محاولة شيء من هذا القبيل فى بلد معزول و متخلّف كان يجب أن ينتهى إلى " إستبداد أبويّ " كالذى دأب الإنكا [من هنود أمريكا - المترجم]على ممارسته ..." (" **نهاية قرن : الإشتراكية بعد الإنهيار** " ، هامش 7) .

بداهة يتطابق موقف بلاكبورن مع موقف المناشفة و بليخانوف (و يريد منّا أن نفهم أنّ إنجلز أيضا كان إلى جانب المناشفة !) . المناشفة و الكاوتسكيّون و التروتسكيّون و كلّ الباقين حتّى أحفادهم الإشتراكيّين – الديمقراطيّين فى يومنا هذا، قد عارضوا على الدوام إنجاز تحويل إشتراكيّ فى البلدان المتخلّفة إقتصاديّا مثل الإتّحاد السوفياتيّ و الصين . و تبعا لمنطقهم ، أفضل ما يمكن أن ينتج عن الإطاحة بالقيصريّة فى روسيا هو ضرب من الجمهوريّة البرجوازيّة فيها ستضطلع حركة الطبقة العاملة بقيادة الإشتراكيّين – الديمقراطيّين دورا إصلاحيّا معارضا هاما مثلما حصل فعلا فى ألمانيا قبل الثورة البلشفية فى روسيا و بعدها . والأسوء ؟ حسنا ، فى نظرهم فرض نوع من الكليانيّة القائمة على عدم نجاعة إقتصاد متخلّف، شيء مشابه لنوع " الإستبداد الأبويّ " الذى دأب الإنكا على ممارسته " ! هذه هي صورة التجربة الإشتراكيّة للإتّحاد السوفياتيّ التى إنطلقت مع ثورة أكتوبر 1917 ، منظور إليها من خلال النظارات المشوّهة للإشتراكية – الديمقراطية .

بُغية الردّ على هذا ، من المهمّ التشديد على نقطة محوريّة فى تحليل إنجلز : زمن الحروب الفلاحيّة فى ألمانيا (فى بدايات القرن 16) ، كانت الرأسماليّة فى مرحلة من التطوّر جدّ بدائيّة خاصة فى ألمانيا و كانت البروليتاريا كطبقة إجتماعيّة فى مرحلة جنينيّة . و مع أنّ روسيا فى 1917 ، كانت بلدا متخلّفا مقارنة ببقيّة البلدان الإمبرياليّة الأخرى فى تلك الحقبة ، مثل إنجلترا و فرنسا و الولايات المتّحدة و ألمانيا ، على كلّ حال ، كانت فى وضع مختلف راديكاليّا عن وضع ألمانيا قبل 400 سنة ! فى روسيا ، كانت هنالك قوى إنتاج متقدّمة و خاصة بروليتاريا كانت رغم عددها القليل نسبيّا مقارنة بعدد السكّان ككلّ ، كانت تلعب دورا هاما فى إقتصاد البلد و كانت قادرة على لعب دور له أهمّية قصوى فى السياسة كما أثبتته ثورة أكتوبر . فى كلمات مختصرة ، كانت ثمّة قاعدة ماديّة كافية لقبر النظام الرأسماليّ و لبناء نظام إشتراكيّ و التقدّم على طريق الإشتراكيّة نحو الشيوعيّة . و هذا ما تمّ القيام به فعلا فى ظلّ قيادة لينين ثم ستالين .

تلك حجّة قديمة تمّ الردّ عليها فى عدّة مناسبات بدءا بجدالات لينين مع المناشفة الأوّلين و كاوتسكى و آخرين . لكن بالذات فى الظروف الحاليّة ، من الضروريّ العودة إلى الردّ عليها .

أوّلا ، لننظر إلى إجابة لينين على كاوتسكى و جماعته بهذا المضمار ، فى أوائل سنوات الجمهوريّة السوفياتيّة :

" هكذا نراهم يستشهدون بذريعة فى أقصى الإبتذال حفظوها غيبا خلال تطوّر الإشتراكيّة – الديمقراطيّة فى أوروبا الغربيّة و قوامها القول إنّنا لم ننضج للإشتراكيّة ، و إنّنا لا نملك المقدّمات الإقتصاديّة الموضوعيّة للإشتراكيّة ، حسب تعبير بعض السادة من "علمائ"هم . و لا يخطر على بال أحد أن يتساءل : إذا ما جابه شعب وضعا ثوريّا كالوضع الذى تبدّى لدن الحرب الإمبرياليّة الأولى ، أليس بوسع هذا الشعب أن يندفع ، تحت طائلة حالة لا مخرج منها ، إلى خوض نضال يوفّر له و لو بعض الأمل بالظفر بشروط غير مألوفة تماما من أجل تطوير مدنيّته ؟ ...

إذا كان ينبغى ، فى سبيل إنشاء الإشتراكيّة ، بلوغ مستوى معيّن من الثقافة (مع العلم أنّه ما من أحد يستطيع أن يقول بدقّة ما هو هذا " المستوى " المعيّن من " الثقافة " ، لأنّه يختلف فى كلّ من دول أوروبا الغربيّة) ، فلماذا لا يمكن لنا أن نبدأ أوّلا بالظفر ، عن طريق الثورة ، بالشروط المسبّقة لهذا المستوى المعيّن ، لكي نتحرّك **فيما بعد** للحاق بالشعوب الأخرى ، مستندين إلى حكم العمّال و الفلاّحين و على النظام السوفياتي ؟ " (لينين ، " **حول ثورتنا** " 16 جانفى / كانون الثاني 1923 ، ضمن كتاب " **ضد الجمود العقائدي و الإنعزالية فى الحركة العمالية** " صفحة 229-230 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

للينين الحقّ كلّه . كان له الحقّ فى نبذ " نظريّة قوى الإنتاج " هذه التى تؤكد أنّه يتعيّن وجود مستوى معيّن لقوى الإنتاج كي نحاول التحويل الإشتراكي للمجتمع أو أنّه ، على أيّة حال ، من غير الممكن القيام بذلك فى بلد متخلّف لا تتوفّر لديه تكنولوجيا فوق عصريّة ، مثل تلك التى لدى البلدان الرأسماليّة التى يسمّونها متقدّمة .

كان لينين يفهم أيضا ، حين قال ذلك ، أنّه كان من المستبعد جدّا أن تحدث ثورة إشتراكيّة فى كلّ البلدان فى الوقت نفسه و أنّه كان من المحتمل أكثر بكثير أن تحدث فى بلد واحد أو فى عدد قليل من هذه البلدان . و فى إرتباط بهذا ، (داحضا فكرة الذين كانوا يتكلّمون عن ثورة عالميّة متزامنة أو على الأقلّ ، ثورة إشتراكيّة أثناءها تفتكّ الطبقة العاملة فى عديد البلدان الرأسماليّة المتطوّرة السلطة السياسيّة فى الوقت ذاته) صاغ لينين هذه الملاحظة ذات القيمة العظيمة : " أعلم أنّ هنالك ، بالطبع ، حكماء يعتبرون أنفسهم فى غاية الذكاء و حتّى يسمّون أنفسهم بالإشتراكيّين و يؤكدون أنّه ما كان ينبغى إفتكاك السلطة إلى أن تندلع الثورة فى كلّ البلدان . إنّهم لا يدركون أنّهم بالحديث هكذا يبتعدون عن الثورة و ينتقلون إلى المعسكر البرجوازيّ فإنتظار أن تقوم الطبقات العاملة بالثورة على النطاق العالمي يساوى أن يبقى الجميع معلّقين فى الهواء. هذا أمر عبثيّ ." (لينين ، الأعمال الكاملة ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة الفرنسية ، المجلد 27 ، الصفحة 390) .

بتعبير آخر ، كان لينين يقول إنّه إذا كان للمرء موقف " ألفستون و قاستون " المتمثّل فى " مُرّ أنت ، لا مرّ أنت ، لا مرّ أنت " حيث يترقّب كلّ واحد من الآخر أن يقوم بالخطوة الأولى لن نتقدّم أبدا . هذا مثلما قال سخيف و أتعس من سخيف . لكن ما يبيّنه الصراع بين لينين و الكاوتسكيين و المناشفة و الخلاف الجوهريّ الذى يبرز بين هذين الموقفين حيال ثورة أكتوبر و أُفق بناء الإشتراكيّة فى الجمهوريّة السوفياتيّة هو أنّ لينين كان يثق بالجماهير بالمعنى العلميّ : يثق فى قدرتها على تحويل المجتمع عبر نضالها الثوريّ ، بينما يعتبر الكاوتسكيّون و المناشفة و آخرون الجماهير كتلة متخلّفة (" ناسين" المبدأ الجوهريّ فى الماركسيّة القائل بأنّ الجماهير الكادحة هي القوّة المنتجة الأكثر أهمّية و الأكثر ثوريّة) و كانت لهم ثقة فقط فى التكنولوجيا المخترعة فى ظلّ العلاقات الرأسماليّة .

من وجهة نظر التوجّه الأساسيّ للينين يمكننا قول إنّ ستالين كان على حقّ ، فى الجوهر، فى صراعه ضد تروتسكي و زينوفياف و بوخارين و آخرين من القادة المفترضين لثورة أكتوبر حول مسألة إذا ما كان ممكنا بناء الإشتراكية فى الإتّحاد السوفياتي أو إذا ما كان غير ممكن بناؤها فى بلد متخلّف جدّا دون إعانة (أو " إنقاذ ") من الثورات الإشتراكيّة فى أوروبا التى تستطيع أن تمدّها بالتكنولوجيا و أشياء أخرى . كان هذا الصراع العظيم حول " الإشتراكية فى بلد واحد " الذى شهد أوجَهُ إثر وفاة لينين ، فى 1924 (6) .

فى أواسط العشرينات و نهايتها ، بصفة خاصة ، شدّد ستالين على أهمّية مساندة و دعم النضال الثوريّ الأمميّ و أشار إلى أنّ مصير الإشتراكيّة فى الإتّحاد السوفياتيّ مشروط ، فى النهاية ، بتقدّم الثورة العالميّة و ليس بالحركة الإشتراكيّة فى

أوروبا فحسب حتّى لا يقع أحد فى الخطإ : إحدى إسهامات ستالين الأهمّ كانت الإعتراف بأنّ الإتّحاد السوفياتي كان يخلق جسرا للنضالات الثوريّة لشعوب الشرق و أنّ الحركة الشيوعيّة الأمميّة لا ينبغى أن تتحدّد فى وجهة نظر مركزيّة – أوروبيّة لسيرورة الثورة العالميّة . بيد أنّه أبرز أنّ التحويل الإشتراكيّ للإتّحاد السوفياتي كان ممكنا و ضروريّا دون " إنتظار " نجدة " الثورة الإشتراكيّة فى أماكن أخرى (و بالخصوص فى أوروبا).

لقد إتّخذ ستالين موقفا صحيحا فى هذه النضالات بمعنى أنّ خطّه ، فى تناقض مع الخطوط الأخرى ، كان متناغما مع موقف لينين وهو " إمتداد منطقيّ " له و أيضا بالمعنى الأكثر جوهريّة بأنّ خطّه (و خطّ لينين) يتوافقان و الواقع (7). رغم الأخطاء التى إرتكبها ستالين فى تحقيق هذا التوجّه الإستراتيجيّ (و قد إرتكب عديد الأخطاء و بعضها فى غاية الجدّية و حتّى خطير كما سبق و أن أشرنا) فإنّه ، فى ما يتّصل بالمسألة الأساسيّة للتقدّم فى بناء الإشتراكية فى الإتّحاد السوفياتيّ ، قد كان على حقّ و فى الممارسة قاد الجماهير فى إنجاز التحويل و البناء الإشتراكيّين .

هوامش الجزء الأوّل

1- إنّ أصحاب الملكيّة الخاصة الصغار لا يعملون كذلك خارج هذا الإطار الرأسماليّ العام . فالمقاولون الخواص ، مثلهم مثل الفنّانين و آخرين ، من الجائز أنّهم لا يستغلون آخرين بصفة مباشرة أو شخصية ، و لكنّهم على كلّ حال ، يعملون فى إطار نظام حيث الغالبيّة العظمى من الثروة المتداولة تخلق عبر إستغلال الملايين (آلاف الملايين) من العمّال فى العالم بأسره . أجرة و مستوى عيش المقاولين و الفنّانين و غيرهم لا يمكن فصلها عن هذا النظام العام للمراكمة و قاعدة إستغلاله (علاوة على ذلك ، فإنّ المقاولين و الفنّانين إلخ الذين يراكمون قدرا كبيرا من المال يستثمرون تقريبا دائما جزءا من المال فى تجارتهم الخاصة أي يستعملون آخرين ليعملوا لأجلهم ، و/ أو فى بورصة القيم و البنوك و سواها . و بهذه الصيغة يساهمون فى إستغلال العمّال ف " وضع المال ليعمل لأجل المرء " يعنى وضع **آخرين** ليعملوا لصالح المرء ، **إستغلال الآخرين** ، هذا هو لبّ المسألة) .

2- ليس هذا ساكنا و مطلقا . خاصة حين يقلّ الطلب على قوّة العمل و حين تكون الظروف مواتية ، يقلّص الرأسماليّون أجور بعض قطاعات العمّال إلى أسفل من قيمة قوّة عملهم و من جهة أخرى ، تجرّ رشوة قطاعات معيّنة من عمّال البلدان الإمبرياليّة إلى وضع تكون فيه أجورهم ، على الأقلّ خلال فترات معيّنة ، أرفع من قيمة قوّة عملهم . غير أنّ لا شيء من هذا يغيّر من الطابع الأساسيّ للعلاقة بين البرجوازيّة و البروليتاريا خاصة أنّ المسألة الأساسيّة ، وهي أنّ جماهير البروليتاريّين فى النظام الرأسمالي تغدو فى وضع يملى عليها بيع قوّة عملها للعيش وهي تابعة لسيرورة المراكمة الرأسماليّة .

3- كما نؤكد على ذلك هنا ، فإنّ هدف الثورة الشيوعيّة هو القضاء على كافة علاقات الملكيّة التى تسمح للبعض بأن يستغلّوا الآخرين و ليس " منع الناس من أن تكون لهم ملكيّة خاصة " كما يدعى بريجنسكي . هذا من ناحية و من ناحية ثانية ، فى المرحلة الإنتقاليّة إلى الشيوعيّة (و بشكل تام فى المجتمع الشيوعي) سيجرى التوصّل إلى مشركة عديد الأشياء التى هي فى المجتمع الحالي ملكيّة خاصة (وملكية عائلية) أو تُستهلك بصفة شخصية (أو فى إطار العائلة الفردية) بدرجات متفاوتة و سوف تستهلك فى إطار ممشرك . مثال ذلك الأكل : الآن ، يقع إعداده و إستهلاكه بصورة شخصيّة أو فى إطار العائلة و هو فرض على المرأة . عموما بالقضاء على الإنتاج السلعيّ و التبادل السلعيّ سيمكن الحصول مباشرة ، دون واسطة المال (و لا سلع أخرى معادلة) ، حسب الحاجة ، على أشياء فى المجتمع الحالي ، ينبغى إقتناؤها كسلع يمكن إستهلاكها (الأكل و مواد أخرى ذات ضرورة أوليّة و إستهلاك شخصيّ) . و فى هذا الإطار حيث لا توجد لا سلع و لا مال ، و لو أنّه سيوجد نوعا من الممتلكات الشخصية (على وجه خاص مواد إستهلاك شخصية) ، لن تصل أبدا إلى أن تكون أكثر من ممتلكات شخصية ذلك أنّها لن تكون مصدرا كامنا للثروة التى يمكن تحويلها إلى رأس مال على أساس إستغلال آخرين .

4- المسألة القوميّة فى أوروبا الشرقيّة و أوروبا الغربيّة مسألة معقّدة و رغم أنّ تعبيراتها الحاليّة ، مثلما قلت آنفا ، هي تعبيرات رجعيّة (قيادتها رجعيّة وهي فى خدمة الرجعيّة) فإنّ هذا لا يعنى أنّ كل التعبيرات القوميّة للمنطقة بالضرورة ستكون رجعيّة و لا يمكن تصوّر حقّ تقرير المصير بأيّة حال . و الوضع فى الإتّحاد السوفياتي أعقد حتّى إذ أن عديد القوميّات فيه تشبه الأمم المضطهَدة للعالم الثالث بينما وصلت أخرى إلى مستوى عال نسبيّا من التطوّرالرأسماليّ و هنالك إعادة ظهور فاحش للشوفينيّة الروسيّة الأكثر رجعيّة و غرابة و هنالك إنفجارات متكرّرة للتناحرات بين الأمم المضطهَدة التى تقهرها الإمبرياليّة (الإشتراكية) السوفياتيّة (أو الإمبرياليّة الروسيّة) و ثمّة مكائد و دسائس عديد القوى الإمبريالية فى علاقة بكلّ هذا . و الوسيلة الوحيدة للتوصّل إلى حلّ يفيد جماهير كلّ هذه القوميّات هو النضال الثوريّ ضد الإمبرياليّة و الرجعيّة : نضال ثوريّ على رأسه القوى التى :" تكتشف " الشيوعيّة الحقيقيّة و تتبنّى إيديولوجيا الماركسية - اللينينية - الماوية .

5- فى إطار الثورة الإشتراكية ، قد تحقّقت بعض المطالب الديمقراطيّة البرجوازيّة ، مثل إلغاء العلاقات الإقطاعيّة فى الفلاحة غير أنّ هذا حصل بالضبط فى إطار الثورة البروليتارية – الإشتراكية و ليس كجزء من ثورة **ديمقراطية – برجوازية** تنتهى إلى الرأسمالية .

6- فى " **كسب العالم ...**" كنت قد قلت إنّ الصراع حول هل أنّ " الإشتراكية ممكنة فى بلد واحد " إلى حدّ معيّن ، ستالين " تهرّب من سؤال " ما هي الإشتراكية ؟ لقد قلته بهذه الصيغة للتشديد على أنّه علينا ألاّ نفصل الصراع من أجل إنجاز التحويل الإشتراكي للمجتمع فى بلد واحد (و أقلّ من ذلك ، ألاّ نضعه فوق) النضال الثوريّ للبروليتاريا العالميّة وهو ما كان توجّها واضحا لدى ستالين (و فى كلّ مرّة أوضح) . إلاّ أنّ الأمر هو أنّ ستالين ، بصدد المسألة الجوهريّة التى أثيرت فى الصراع بين ستالين من جهة وتروتسكي وزينوفياف و بوخارين و قادة مفترضين آخرين لثورة أكتوبر ، من جهة ثانية، كان على صواب عند تشديده على أنّ هذا الخطّ ، بغضّ النظر عن أنّه تمّ التعبير عنه بصيغة " يسراويّة " أو يمينية مفضوحة ، يتلخّص فى قول إنّه كان على البلاشفة أن يعتبروا أنفسهم مهزومين و ألاّ يقوموا بالتحويل الإشتراكي للإتّحاد السوفياتي .

7- من المفيد دراسة كتابات ستالين و خطاباته خلال السنوات الحرجة بين 1923 و 1929 و بخاصة نقاشاته الحيويّة . على ما يبدو نادراجدّا أن يكون قد قام بذلك الذين يندّدون به و يشّوهون دوره .

==

الجزء الثانى

مرّة أخرى حول التجربة التاريخيّة للثورة البروليتاريّة – مرّة أخرى حول كسب العالم

كما سبق و أن لاحظنا فإنّ أناسا من أمثال كاتب مقال " **النيولافت رفيو** " (روبين بلاكبورن) و عموما من يسمّون أنفسهم " إشتراكيّين – ديمقراطيّين " من شتّى الأصناف و المتّبعين لخطى كاوتسكى و تروتسكى و مناشفة روسيا و عديد الآخرين يتساءلون عن الإمكانيّات التاريخيّة و يطرحون مشكل الظروف الماديّة الضروريّة بُغية أن يقولوا عن البروليتاريا الروسيّة و عن كلّ البروليتاريّين الثوريّين : كان عليهم ألاّ يفتكّوا السلطة ، كان عليهم ألاّ يحتفظوا بها ، كان عليهم ألاّ يحاولوا التحويل الراديكاليّ للمجتمع .

الحقيقة هي أنّ الثورة البروليتاريّة لم تحدث بالشكل الذى تنبّأ به مؤسسو الحركة الشيوعية (ماركس و إنجلز) . لكن أيّ إستنتاجات علينا الخروج بها من هكذا شأن ؟ أيّ درس فى النشاط يجب أن يُستشفّ من هكذا حقيقة ؟ بهذا المضمار كما بأيّ مضمار آخر (لا سيما فى ما يخّص طبيعة المجتمع و قيادته) ستكون لكلّ طبقة إجتماعيّة وجهة نظرها و ستخرج بإستنتاجات مغايرة للغاية .

توقّعات ماركس و إنجلز العامة كانت أنّ الثورة البروليتاريّة ستكون مظفّرة أوّلا فى بلد أو عدّة بلدان رأسماليّة فيها قوى الإنتاج (و التطوّر التكنولوجي تحديدا) تكون على درجة عالية من التطوّر و تشكّل البروليتاريا غالبيّة السكّان (أو على الأقلّ الطبقة الإجتماعيّة الأوسع) . لكن بالعكس ، إنتصرت الثورة البروليتاريّة ، أوّلا و إلى يومنا هذا فقط فى بلدان متخلّفة تكنولوجيّا حيث كانت البروليتاريا تشكّل أقلّية صغيرة نسبيّا ضمن " بحر" من المنتجين و التجار الصغار (لا سيما الفلاّحين) . إلى ذلك ، وُجدت هذه الثورات البروليتارية والدول الإشتراكية التى خلقتها فى عالم ما إنفكّت تهيمن عليه الإمبرياليّة سياسيّا و إقتصاديّا و عسكريّا .

قبلا ، فى خطابات أخرى ، قد تطرّقت إلى هذه الظروف و نتائجها الإستراتيجيّة بالنسبة للثورة البروليتاريّة و الهدف النهائيّ للشيوعيّة ، و فى هذه الفرصة ، أريد أن أركّز على بعض المظاهر المفاتيح بهذا الصدد و التعمّق فيها من زوايا متنوّعة على ضوء الأحداث العالميّة الراهنة .

1/ مسألة قوى الإنتاج :

قبل كل شيء ، فى غاية الأهمّية التذكير بأنّ مسألة الظروف الماديّة الضروريّة (أي درجة تطوّر قوى الإنتاج و بخاصة البروليتاريا كطبقة إجتماعيّة فى علاقة ببقيّة الطبقات فى المجتمع) لا ينبغى أن يجري النظر إليها بصورة ميتافيزيقيّة أي بمعان مطلقة و غير قابلة للتغيّر . هنا ، من الهام إبراز أنّه عند التأمّل فى قوى الإنتاج فى العالم عامة ، نرى أنّها متطوّرة إلى درجة عالية مقارنة بتلك التى عرفها ماركس و إنجلز قبل مائة سنة . فى أيّامنا هذه ، توجد قطعيّا قوى إنتاج كافية فى العالم تسمح بإيجاد الظروف الماديّة الضروريّة لعالم شيوعيّ إن كان هذا هو الشرط الوحيد .

والمشكلة ليست نقص قوى الإنتاج فى العالم بل هي شكل التحكّم فيها و توزيعها و إستعمالها . إنّه النظام السياسيّ و الإقتصاديّ القائم ، إنّه اللاتكافئ الذى يظهر فيه زمرة من الناس فى حفنة من البلدان تحتكر الملكيّة و السيطرة على قوى الإنتاج بواسطة إستغلال و نهب بلدان عبر العالم قاطبة . إنّما كما وصف ماركس ، ثمّة مراكمة أقلّية صغيرة من المستغِلّين للثروة و السلطة من جهة ، و من جهة أخرى ، مراكمة العذاب و البؤس و إحتضار الغالبيّة الغالبة . و الآن ، أكثر من زمن ماركس ، هذا لا يخصّ بلدا فقط بل هو يخصّ الصعيد العالمي .

إنّ اللاتكافئ سيستمرّ لزمن طويل و نتيجة لذلك ، لبعض الوقت ، ستنطلق الدول الإشتراكيّة التى ستتشكّل بصفة محتملة جدّا من مستوى تكنولوجيّ و إنتاجيّة عمل أقلّ من تلك بالبلدان الإمبرياليّة الباقية و أنّه لن يكون كافيا لإنتاج الوفرة الماديّة

الضروريّة للشيوعيّة . بيد أنّ الوفرة الماديّة الضرورية **للشيوعية** لا يمكن التوصّل إليها مُركّزين رئيسيّا على تطوّر التكنولوجيا و إنتاجيّة العمل لوحدهما ، فعلى التحويل الثوريّ للمجتمع أن يكون حلقة مفتاحا و يكون الدافع لتحرير قوى الإنتاج (و قبل كل شيء العمّال) و تطوير الإنتاج الإشتراكي . و فى الوقت ذاته ، و الأكثر جوهريّة هو أنّ الظروف الضروريّة للشيوعيّة لا بدّ من تحقيقها على مستوى عالمي، عبر تقدّم الثورة البروليتاريّة العالميّة و إنتصارها النهائي(8).

و من غير الممكن تجاوز هذا المشكل بسرعة لسبب بسيط هو أنّه ، على الأقلّ لفترة تاريخيّة معيّنة ، و بوجه خاص فى الفترات الأوليّة للثورة البروليتاريّة العالميّة ، من المحتمل بدرجة دنيا أن تحدث فى غالبيّة البلدان أو فى عدد كبير منها فى آن ، على الأرجح أنّها تحصل فى بلد أو فى بعض البلدان فى آن . و مهما كانت جوهريّة و أهمّية الأمميّة البروليتاريّة ، هنالك مبدأ ثوريّ عام هو أنّه لا يمكن أن تصنعها عدا الجماهير ذاتها ، فى كلّ بلد ، حسب الظروف الملموسة للبلد المعيّن ، رغم حصولها فى إطار الوضع العالميّ العام . يمكن للبروليتاريا حيثما تهبّ و تفتكّ السلطة و تركّز دولتها الخاصة و بالفعل عليها أن تراعى دولتها الخاصة ، فوق كل شيء ، كقاعدة مساندة للثورة العالميّة لكن مع كلّ هذا ، لا يمكن للمساندة أن " تعوّض" النضال الثوريّ للجماهير فى بلدان أخرى .

2/ تقدّم الثورة العالميّة و تعزيزها :

نصل من جديد إلى محور مركزيّ من **" كسب العالم ..."**: كيف يمكن للدول الإشتراكيّة أن تتصرّف ، فوق كلّ إعتبار ، كقواعد مساندة للثورة العالميّة و كيف يرتبط هذا بمواصلة الثورة و تحويل المجتمع فى بلد إشتراكيّ و بالدفاع عنها فى وجه عدوان إمبريالي ؟

لنلقى نظرة أخرى على ما قاله ماوتسى تونغ سنة 1968 بصدد " الإنتصار النهائي " للإشتراكيّة و ما يستلزمه :

" لقد حققنا انتصارات عظيمة ، ولكن الطبقة المهزومة ستواصل القتال. هؤلاء الناس لازالوا هنا، وهذه الطبقة أيضا. و لهذا لا يمكننا الكلام عن انتصار نهائي. يجب ألاّ تقلّ يقظتنا ، فمن وجة النظر اللينينيّة ، الإنتصار النهائيّ لبلد اشتراكيّ لا يتطلّب فقط جهود البروليتاريا و الجماهير الشعبيّة العريضة لهذا البلد ، بل هو رهين بانتصار الثورة العالميّة ، و بتدمير نظام استثمار الإنسان للإنسان على المستوى الكونيّ ، الشيء الذي سيجلب معه تحرير كلّ الإنسانيّة. و عليه ، فالكلام بهذه البساطة عن نصر نهائي للثورة هو خاطئ و غير لينينيّ . ثمّ إنّ هذا لا ينطبق مع الواقع ". (ماو ، إستشهاد ورد فى " **تقرير المؤتمر الوطني التاسع للحزب الشيوعي الصيني** " بالجزء الثاني من كتاب " **كيف تكون شيوعيا جيّدا** " لليو تشاوتشى ، صفحة 226-227 ، منشورات 18/10 ، باريس ، 1970 باللغة الفرنسيّة) .

غاية فى الأهمّية هي إعادة التأكيد على التوجّه الذى يقترحه ماو هنا و الذى هو فى مظهره الرئيسيّ و الجوهريّ أمميّ . إلاّ أنّه فى الوقت نفسه ، من اللازم ، كما أعربت عن ذلك سابقا ، القطع مع بعض التوجّهات القومية و "الخطّية " التى نراها هنا كتوجّه ثانويّ . بكلمات أخرى ، لكي نعبّر عن ذلك بصيغة بسيطة ، لا يتعيّن الإنطلاق من وجهة نظر " الإنتصار النهائي لبلد إشتراكي " و إنّما من الإنتصار النهائيّ للبروليتاريا العالميّة . و لا يمثّل هذا إختلافات بسيطة لا غير و لا يتعلّق الأمر بالبحث عن الإختلافات الصغيرة فى الصياغة . فالأمر بالأحرى هو **كيف** نفهم سيرورة الثورة العالميّة : هل أنّ كلّ بلد يتقدّم من الإشتراكيّة إلى الشيوعيّة تقريبا بديناميكيّته الخاصة بينما تتآزر البلدان الإشتراكيّة و النضالات الثوريّة و تتعاون بصفة متبادلة (أي توجّه قوميّ و " خطيّ" أم هل ثمّة إعتراف أعمق بأنّ مصير النضالات الثوريّة و المجتمعات الإشتراكيّة فى بلدان مختلفة مرتبط فى كلّ المراحل ، و بشكل مركّز فى بعض الأوضاع ، بالتناقضات العالميّة و بأنّ الساحة العالميّة هي الحقل الحيويّ و نقطة الإنطلاق الأساسيّة .

و هذا يرتبط إرتباطا وثيقا بمسألة (أو تناقض) تقدّم سيرورة الثورة البروليتاريّة العالميّة و تعزيزها . و حيث أنّ سيرورة الثورة البروليتاريّة العالميّة ككلّ تتّبع شكل أمواج أو بصيغة أفضل **شكلا لولبيّا** و ليس شكلا خطّيا مستقيما ، فإنّه ستوجد ، فى أيّة لحظة و بالخصوص (و إن لم يكن فقط) فى أوضاع جدّية من التناقضات العالميّة ، إمكانيّة تحقيق خطوات نوعيّة إلى الأمام (تركيز دولة إشتراكيّة جديدة والقيام بخطوات عملاقة فى البلدان الإشتراكيّة التى قد تركّزت قبل ذلك إلخ، لكن بعد ذلك، لن يكون من الممكن تحقيق مزيد التقدّم العالميّ من المستوى عينه و على نفس الدرجة و ذلك لوقت معيّن . لذلك ، فى هذه

الفترات ، سيكون من اللازم إيلاء إنتباه أكبر إلى ترسيخ ما قد جرى كسبه فيما يتواصل النضال الثوريّ فى ظلّ الأوضاع المعطاة و يقع إعداد أساس قفزات مستقبليّة ، على النطاق العالمي ، خاصة لمّا يعود الوضع ليسمح بذلك فى المستقبل .

و مثلما قلنا آنفا ، إحدى التعبيرات الأحدّ عن هذه السيرورة المتناقضة هو التناقض بين الدفاع عن البلدان الإشتراكية التى توجد فى لحظة ما من جهة و من جهة أخرى ، تشجيع و دعم النضالات الثوريّة على الصعيد العالمي . من المهمّ جدّا أن يكون لدينا توجّه جوهريّ صحيح و أن تمارس المبادئ الأمميّة بشكل صائب فى هذا المضمار . من النظرة الأولى ، يبدو أنّ بين هذين المظهرين لا يجب أن يوجد تناقض . و يمكن رؤية (و قد وقعت الرؤية على هذا النحو على مستوى له دلالة فى تاريخ الحركة الشيوعيّة العالميّة) كيفيّة إجتهاد الجميع لبلوغ الشيوعيّة العالميّة و مساهمة الجميع فى القيام بالثورة فى بلد كلّ منهم و مساندة النضالات الثوريّة فى الأماكن الأخرى و كذلك رؤية أنّ الكلّ ينبغى أن يتقدّم جنبا إلى جنب فى الإتّجاه عينه ، دون تناقضات أو على الأقلّ دون تناقضات لا يمكن حلّها بيسر . لكن الحقيقة هي أنّ ذلك تناقض جديّ و معقّد للغاية كان أحيانا حادا جدّا .

لقد كان التناقض حادا جدّا بالذات فى لحظات كان فيها مصير بلد إشتراكيّ متعلّق بخيط نظرا لتهديدات الدول الإمبريالية و هجماتها . عموما ، كان ذلك كذلك فى أوقات أزمة عميقة و إنتفاضات و نزاعات فى العالم بأسره . و قد وجد الإتّحاد السوفياتيّ نفسه فى وضع مماثل قبل الحرب العالميّة الثانية و خلالها و الصين وجدت نفسها فى وضع مشابه على إثر تهديد الإمبرياليّة الإشتراكيّة ، الإتّحاد السوفياتي حينذاك ، بهجوم نوويّ أو هجوم عسكريّ من نوع آخر ، فى نهاية الستّينات و حتّى السبعينات . أمام تناقضات بهذا العمق و هذه الحدّة لا يسعنا إلاّ أن نقول من جهة أنّ الثورة العالميّة هي ما يتعيّن أخذه بعين الإعتبار ، كنوع من التجريد ، ثمّ نتصرف كما لو أنّ التقدّم الملموس للثورة العالميّة (و إرساء دول إشتراكيّة) لا يعنى أيّ شيء. هذا نفي للأمميّة و رفض مهام البروليتاريا العالميّة على نحو " يسراوي" . الذود عن الدول الإشتراكيّة التى توجد فى أيّة لحظة و تقديم كلّ ما فى المستطاع لتقوية بروليتاريا هذه الدول فى صراعها من أجل إنجاز التحويل الثوريّ للمجتمع مهمّة حيويّة على عاتق البروليتاريا على النطاق العالمي و ليست على عاتق دولة إشتراكيّة فحسب .

هذا من ناحية و من ناحية أخرى (و هذا التوجّه كان الأهمّ و المعضلة الأكبر فى الحركة الشيوعيّة العالميّة) ليس بوسعنا أن نقول أنّ كلّ شيء يقوم به بلد إشتراكيّ فى الدفاع عن نفسه يتماشى آليّا (بفعل أنّه بلد إشتراكيّ) مع مصالح البروليتاريا العالميّة . فمن الواجب معالجة ذلك بالملموس و **مجموع** مصالح البروليتاريا العالميّة هي التى ينبغى أن تكون المرشد الرئيسيّ.
لا بدّ من النظر فى الدفاع عن دولة إشتراكيّة مهما كان حقيقيّا و عميق الأهمّية ، فى هذا الإطار . هذا المبدأ كُنّا قد ألمحنا إليه أعلاه ، إلاّ أنّه من المبادئ الأساسيّة التى علينا إعادة التأكيد عليها و التشديد عليها بإستمرار.

و يمكن التساؤل : لماذا من الأهمّية بمكان التشديد على هذا المبدأ **الآن** ، مع أنّه ليس لدينا ، لسوء الحظّ أيّة دولة إشتراكيّة ؟ المسألة هي الآتية : إن لم يكن توجّهنا صحيحا نحو المشاكل التى أثيرت و ستثار مرّة فأخرى أمام الحركة الشيوعيّة العالميّة ، لن نقوى على تطوير النضال الثوريّ على نحو سليم بهدف إرساء دول إشتراكيّة و مواصلته ، طوال لوالب كثيرة ، إلى تحقيق الغاية النهائيّة للشيوعيّة العالميّة .

و مثلما أشرنا إلى ذلك ، يبرز كلّ هذا فى لحظات (أو ظروف) حرجة لمّا يزداد تداخل التناقضات العالميّة الكبرى و تصل إلى نقطة حاسمة . فى هذه اللحظات ، تصير معالجة التناقض بين الدفاع عن البلد الإشتراكي و تشجيع و دعم الثورة العالميّة فى مجملها أقوى و أصعب . غير أنّ للوضع ، من جهة أخرى ، إمكانيّات تقدّم أفضل . و كلّ هذا يؤكّد أهمّية فهم هذا التناقض الحاسم و معالجته معالجة صحيحة .

3/ الثورة البروليتاريّة و الأمميّة : القاعدة الإجتماعيّة :

هنا ، من المنصوح به معالجة نقطة أثارها ماو تسى تونغ فى السنوات الأخيرة من نضاله ضد أتباع الطريق الرأسمالي و بعض المظاهر النقدية للنضال آنذاك بين التحريفيّة و الشيوعيّة ، بين الطريق الرأسمالي و الطريق الإشتراكي . فمن خلال نقاش القصّة ، أشارت الحملة إلى أنّ الرجعيّين المصمّمين على إيقاف الثورة فى نصف الطريق و على خلق ظروف إعادة تركيز الرأسماليّة سيستسلمون كذلك أمام الإمبرياليّة و خاصة أمام تهديد الإمبرياليّين بهجوم عسكري .(9) .

و لهذا علاقة بما كنت أكّدت عليه فى " **نهاية / بداية** " بشأن مسألة أنّ هنالك " تناقضات لم تحل فى ظلّ الإشتراكيّة " . فمن جهة ، تتحوّل إتّجاهات الناس الذين تحسّن وضعهم فى ظلّ الإشتراكيّة (لا سيما الذين ، كما قال ماو ، صاروا موظّفين سامين و يودّون حماية مصالحهم الخاصة) إلى إتّجاهات محافظة تعمل على تغطية التناقضات و القضاء على النضال و كلّ هذا يعزز القوى التى تريد إعادة تركيز الرأسمالية . لكن من جهة أخرى ، " لوجود تناقضات لم تحلّ فى ظلّ الإشتراكية جانب إيجابي هو أنّه يحرّك قوى ترغب فى مواصلة التحويل الثوريّ فى المرحلة الإشتراكيّة ، قوى فى طليعة التناقضات الأكثر حسما التى تظهر فى لحظة ما لتحدّد إن كان المجتمع سيتقدّم أم سيتراجع ... كلّ هذه القوى تدعّم غاية الدعم مواصلة الثورة . بتحريرها و إندماجنا معها فى خضمّ النضال ، سيكون من الممكن توطيد تأثير البروليتاريا و قيادتها لهذه الحركات الشعبيّة و توجيه الهجوم الرئيسيّ للمقاومة و التحدّى الشعبيّ للسلط التى تعتقد أنّها سادة كبار و التى تبحث عن إعادة تركيز نظام يضطهد و يستغلّ الجماهير ." (مجلّة " **الثورة** " ، خريف 1990 ، صفحة 20) .

كلّ واحد من هذين الطريقين و الخطّين (الطريق الإشتراكي و الخطّ الشيوعي من جهة و الطريق الرأسماليّ و الخطّ التحريفيّ من جهة ثانية) يعوّل على قاعدته الإجتماعيّة الخاصة ، و من المهمّ تحديد القاعدة الإجتماعيّة للثورة البروليتاريّة و الأمميّة البروليتاريّة و الإعتماد عليها و تعبئتها تعبئة كلّية . كلا المظهران متّصلان تماما إذ أنّ القوى الطبقيّة التى تناضل لأجل التحويل الكامل للمجتمع و لأجل مواصلة الثورة فى البلد الإشتراكيّ هي كذلك القوى التى ستعارض بأكثر صرامة الإمبرياليّة و ستدعم النضالات الثوريّة عبر العالم بأسره . هذه هي القاعدة الإجتماعيّة التى ينبغى تعبئتها و التى عليها ينبغى التعويل بخاصة للقيام بالثورة الإشتراكية عموما و تحديدا فى هذه الظروف الحرجة حيث يكتسى مصير البلد الإشتراكيّ و قيادة الحركة الثوريّة العالميّة قاطبة يكتسى أهمّية حيويّة و يمكن أن يدخل فى تناقض حاد ، حيث يمكن للتوصّل إلى قرار غير صائب أن يساهم فى إخفاقات البروليتاريا العالميّة و بالعكس يمكن لقرار صائب أن يساهم فى قفزات عظيمة ذات أهمّية تاريخيّة-عالميّة .

القيام بالثورة و دفع الإنتاج

ثمّة موضوع أساسيّ له صلة بما مرّ بنا و لا بدّ أن نبحثه ألا وهو المبدأ الذى صاغه ماو تسى تونغ " **القيام بالثورة و دفع الإنتاج** " فلنعالج مختلف جوانبه (10) .

1/ تحويل العلاقات بين الناس و تحويل الملكيّة :

عندما قدّم لينين تعريفا أساسيّا للطبقات الإجتماعيّة ، شرح أنّ جذورها هي جوانب ثلاث متداخلة من علاقات الإنتاج : أوّلا و قبل كلّ شيء ، نظام الملكيّة و، ثانيا ، علاقات الناس فى سيرورة العمل الإجتماعيّ ، وثالثا ، موقعهم فى نظام التوزيع و حصّتهم من توزيع الثروة الإجتماعيّة . (لينين " **المبادرة الكبرى** ") .

والملكيّة هي أكثر جوانب علاقات الإنتاج الثلاث المذكورة أعلاه أهمّية . و مع ذلك ، لا يجب إعتبارها العامل المهمّ الوحيد فى علاقات الإنتاج هذه و علاقتها بالعوامل الأخرى لا يجب النظر إليها على نحو صارم . و يتّسم هذا بأهمّية خاصة فى المجتمع الإشتراكيّ أين حتّى بعد بلوغ ، فى خطوط عامة ، مشركة الملكيّة ، تبقى إختلافات و لاتكافئ هامين فى المجتمع الرأسماليّ يعبّرون عن أنفسهم فى قوانين و سياسة الحكومة و الإيديولوجيا (ما يعبّر عنه بصيغة مقتضبة ب " الحق البرجوازي ") . هنا كذلك ، يتعيّن تحليل شامل لمشكل البناء الفوقيّ و علاقته بالقاعدة الإقتصاديّة .

فى مقال هام مكتوب سنة 1975 ، أشار تشانغ تشن – شياو إلى أنّه :

" من الصحيح تماما أن نولي إهتماما كبيرا للدور الحيويّ للملكيّة فى علاقات الإنتاج . و سيكون مع ذلك من الخاطئ أن لا نلاحظ مع كلّ العناية اللازمة هل أنّ مشكل الملكيّة قد جرى حله فعلا أم فقط ظاهريّا. سنقترف خطأ إن إستهنّا بإنعكاسها على العنصرين الآخرين لعلاقات الإناج – العلاقات بين الناس و شكل التوزيع . و إنعكاس البنية الفوقيّة على البنية التحتيّة الإقتصاديّة ، لأنّ هذين العنصرين و البناء الفوقيّ ينهضان بدور حيويّ في ظروف معيّنة . ...إنّ الخطّ الإيديولوجي و

السياسي و الطبقة التي تقود هي العوامل التي تحدّد إلى أيّة طبقة تعود ملكيّة المصانع في الواقع ." (تشانغ تشن – شياو ، " **بصدد الدكتاتورية الشاملة على البرجوازية** " ، صفحة 11 ، منشورات باللغات الأجنبية ؛ الإنقليزية ، بيكين 1975 ؛ و بالعربيّة " شادي الشماوي ، " **قيادات شيوعيّة ، رموز ماويّة** " ، مكتبة الحوار المتمدّن) .

و لنتفحّص هذا بالتفصيل . فى كتاب الإقتصاد السياسي الذى صدر بشنغاي [الطبعة الأنجليزيّة في ديسمبر 1975- المترجم] و عموما فى الخطّ الذى تمّت صياغته فى ظلّ قيادة ماو ، وقع التأكيد بإلحاح على "الحلقة الوسطى " لعلاقات الإنتاج أي العلاقات بين الناس فى سيرورة الإنتاج (ما كان الرفاق الصينيّون يسمّونه " العلاقات بين الأفراد "). وضعوا تشديدا خاصا على" الدور الديناميكي للعلاقات بين الأفراد ". و إلى جانب ذلك ، أعاروا أهمّية كبرى إلى الدور المبادر للبنية الفوقيّة . ما معنى هذه المفاهيم ؟

مبتدئين بالعلاقات بين الأفراد نقول إنّ هذا المفهوم يعود على أشياء مثل العلاقة بين الإداريّين و العمّال فى المؤسسة و العلاقة بين العمّال بالساعد و العمّال التقنيّين و العمّال بالفكر و هكذا دواليك . و ما أبرزه ماو فى " نقد"ه للإقتصاد السياسي السوفياتيّ (و كتاب الإقتصاد السياسيّ لشنغاي يحلّل هذه النقطة أيضا) هو أنّ فى المجتمع الإشتراكي ، تحدّد طبيعة نظام الملكيّة فى أيّة مرحلة الإطار المرجعيّ العام للتحوّلات التى يمكن إدخالها على علاقات الإنتاج ، لكن ضمن هذا الإطار العام يمكن تحقيق تغييرات كبيرة فى الحلقة الوسطى للعلاقات بين الأفراد .

ولنلق نظرة على بعض الإجراءات الملموسة و الخاصة . إنّ مساهمة القيادة و الموظّفين السامين فى الحزب و الدولة فى العمل المنتج جنبا إلى جنب مع الجماهير و مساهمة الجماهير فى المجالات الهامة من البنية الفوقيّة كالإدارة و التعليم و الثقافة و مساهمة الجماهير فى تطوير التكنولوجيا ، كلّ هذا يقطع مع مظاهر هامة من تقسيم العمل الموروث عن المجتمع القديم . و من غير الممكن القضاء كلّيا على تقسيم العمل إيّاه مرّة واحدة . إلّا أنّه ينبغى مقاومته و مهاجمته بإستمرار و تحويله إلى أقصى درجة ممكنة فى كلّ لحظة و إن لم نقم بذلك فإنّ المجتمع **سيتراجع** إلى الرأسمالية .

و مثلما تعرب عنه أطروحة تشانغ تشن- شياو ، بمقدور مثل هذه التغييرات فى العلاقات بين الناس فى الإنتاج (أو العلاقات بين الأفراد) معا مع التغييرات فى نظام التوزيع ، بمقدورها أن تمارس تأثيرا عميقا على نظام الملكيّة . ولننظر فى الوضع الملموس للصين الإشتراكيّة . فى وقت قصير نسبيّا ، رغم تمكّنهم من تحويل الغالبيّة العظمى من الملكيّة الصناعيّة إلى ملكيّة دولة ، فإنّهم فى الريف (و لنتذكر أنّ الفلاحين كانوا يمثّلون غالبيّة السكّان) لم يقدروا على بلوغ مثل ذلك التحويل. حين إغتصب التحريفيّون السلطة ، عقب ثلاثين سنة تقريبا من إنتصار الثورة ، كان الشكل الرئيسي للملكيّة ، فى الريف ، هو الملكيّة الجماعيّة لمجموعات من الفلاّحين (و ليس ملكيّة الدولة) . علاوة على ذلك ، ضمن هذه الأشكال الجماعيّة للملكيّة ، كانت وحدات المحاسبة الأساسيّة و المقصودة هي وحدات الإنتاج المسؤولة عن أرباحها و خسائرها الذاتية ، كانت " مجموعات إنتاج " صغيرة نسبيّا .

إلاّ أنّه فى ظلّ هذا الوضع العام ، أمكن تحقيق تحويلات ذات أهمّية كبرى مثل جعل التقنيّين و الخبراء الموجودين بالريف يساهمون إلى جانب جماهير الفلاّحين فى العمل الإنتاجي و من جهة أخرى ، أمكن جعل الجماهير تساهم فى التخطيط و فى التحديث التقنيّ و فى الإدارة . كانت هذه الخطوات هامة لسببين إثنين : ليس لأنّها تحول دون تعميق الإختلافات فى صفوف الشعب ، فى سيرورة الإنتاج و دون الإقتراب أكثر فأكثر من علاقات الإستغلال الطبقيّة فحسب ، بل أيضا لأنّها تؤثّر على نظام الملكيّة .

و زيادة على ذلك ، حصل صراع دائم و أحيانا حاد للتوصّل إلى أن يضع الفلاّحون المصلحة الجماعيّة فى المصاف الأوّل قبل مصالح وحداتهم الإنتاجيّة الصغيرة (و الربح و الخسارة) فعلى سبيل المثال لإنجاز مشاريع كانت على المدى القصير غير مربحة للفرق أو المجموعات (و بالنسبة للفلاّحين ذاتهم ، شخصيّا) و لكن كانت ستعزّز الإقتصاد الجماعيّ و الروح الجماعيّة و مزيد تحرّر قوى الإنتاج و بالتالى كانت تتناسب مع المصالح **العامة و على المدى البعيد** لجماهير الفلاّحين و قد إستنهضوا جماهير الفلاحين و العمّال لتحقيق مهام الإنتاج التى لم تكن موجّهة لتلبية حاجياتها الآنية و الشخصيّة لكن التى تتناسب مع المصالح الأكثر جوهريّة للنضال فى سبيل الشيوعيّة العالميّة : مهام إنتاج موجّهة إلى دعم النضالات الثوريّة عبر العالم قاطبة و إلى خدمة الثورة العالميّة .

و لنتفحّص جانبا آخر من العلاقات الإجتماعيّة و نقصد النضال من أجل تحرير المرأة من إضطهاد النظام الأبويّ/ البطرياركي و من أجل جعل الرجال يشاركون على قدم المساواة فى العمل المنزليّ و جعل العديد من هذه الأعمال إجتماعيّة و من أجل كسر السلاسل التى كانت تحدّ من مساهمة المرأة فى كلّ مجالات الحياة . كانت لكلّ هذا دلالة كبرى سياسياّ و إيديولوجيّا و مثّل تغييرا راديكالياّ آخر فى العلاقات بين الناس فى الإنتاج و تحريرا عظيما لقوى الإنتاج و بوجه خاص جماهير النساء .

و بقدر ما يتمّ النضال فى سبيل تحقيق هذه التغييرات بقدر ما تقع توعية الشعب و تتطوّر القاعدة الماديّة لإنجاز تغييرات فى نظام الملكيّة . (بخاصة فى الريف الصيني ، ، مثل هذه التغييرات رفعت إلى أعلى مظاهر الإنتاج على نطاق محاسبة الفرق ، و حتّى الكمونة ، حسب تطوّر قوى الإنتاج و الإقتصاد عامة) . مفاد هذا ليس أن تطوّر الإقتصاد (و بالخصوص التكنولوجيا) ليس هاما . بالعكس إنّه هام إلى أقصى درجة و من الضروري تحقيق نوع من الوفرة فى كلّ مرحلة لكي نقدر على القيام بتحويلات كبرى فى نظام الملكيّة . مثلا ، ناظرين مرّة أخرى إلى تجربة الصين الإشتراكية ، كان لزاما القيام بقفزة فى مستوى قوى الإنتاج فى الريف و فى الإقتصاد عموما قبل أن يُستطاع إحداث تحوّل راديكالي إلى وضع يكون فيه مستوى الكمونة مسؤولا على كلّ شيء ، أو تقريبا كلّ شيء ، الملكيّة و الأرباح و الخسائر فى الريف . و كان لزاما إيجاد مستوى حتّى أرقى لقوى الإنتاج قبل أن يمسي ممكنا إحداث قفزة كبرى أخرى ، من الملكيّة الجماعيّة للفلاّحين إلى ملكيّة الشعب بأسره (بداية فى شكل ملكيّة الدولة و فى النهاية ، مع القضاء على الطبقات و الدولة ، فى شكل ملكيّة مباشرة للمجتمع بأسره دون وساطة الدولة) . بيد أنّ المركزيّ هنا هو أنّ كلّ هذه السيرورة تمرّ بمراحل أو لوالب و أنّه كي نستمرّ على الطريق الإشتراكي ، من اللازم تحرير المبادرة الواعية للجماهير دفعا للسيرورة عبر جدليّة تحرير قوى الإنتاج إنطلاقا من التغييرات فى علاقات الإنتاج ، مستعملين الدور الديناميكي للعلاقات بين الأفراد . (11)

إجمالا لهذه العلاقات بين الأفراد أو العلاقات بين الناس فى سيرورة الإنتاج تأثير عظيم على تقسيم العمل و على التغييرات التى يمكن إحداثها فى نظام الملكيّة . و لهذا بدوره تأثير كبير على مظاهر أخرى متبقّية من الرأسماليّة لا سيما إستمرار علاقات تبادل السلع بين الجهود الفلاحيّة المختلفة و بين المجموعات الفلاحيّة و قطاع الدولة فى الإقتصاد و خاصة الصناعة و بين مؤسسات مختلفة من قطاع الدولة . فإستمرار بقايا العلاقات السلعيّة يعنى أنّه لا يمكن على الفور التجاوز مع الإبقاء فى الخلف أشياء مثل قانون القيمة و مفاده أنّ قيمة المنتوجات تساوى زمن العمل الضروري لإنتاجها و يتضمّن هذا القانون بذور الرأسماليّة و لا يمكن السماح بأن يقود الإنتاج فى ظلّ الإشتراكيّة و أن يعيّن ما سينتج و كيف سيُنتج . هذا من جهة و من جهة أخرى ، طالما وُجدت علاقات سلعيّة ، من الواجب أن نأخذ بعين الإعتبار قانون القيمة فى الإنتاج و التبادل . إذا جرى التعاطي معه بطريقة جيّدة ، يمكن أن يكون مفيدا لضمان أن يتماشى التخطيط و سير الإقتصاد مع الظروف و القوانين الموضوعيّة لتطوّر الإقتصاد (مثلا ، القانون الجوهريّ القاضى بأنّ الأشياء المنتجة تمثّل كمّية معيّنة من العمل الإجتماعي و أنّه لا بدّ أن يؤخذ بنظر الإعتبار حتّى فى المجتمع الشيوعيّ ، رغم أنّه لا بدّ ألاّ يعكس مبدأ التبادل القائم على الكمّيات المتساوية من العمل المبدأ الذى يقود تبادل السلع) . ينبغى إستعمال قانون القيمة للتقدّم من المستوى الحالي بإتّجاه هدف الشيوعيّة ، عاملين على تحقيق هذا الهدف عبر جملة من الأمواج و اللوالب .

2/ المساواة و الوفرة العامة فى ظلّ الإشتراكيّة :

و ضمن كلّ هذا ، تحتلّ مسألة الوفرة مكانة هامة جدّا إلاّ أنّه علينا أن نتساءل : وفرة لأيّ غرض و من أي نوع ؟ أيّ خطّ يقودها و نحو أيّ هدف ؟ هذا ما يجرّنا إلى مسألة هامة أخرى متّصلة بعلاقات الإنتاج هي نظام التوزيع و اللامساواة فى ظلّ الإشتراكيّة .

يقول كتاب الإقتصاد السياسي لشنغاي : نعم ، من الصحيح الوقوف ضد المساواة المطلقة لكن من غير الصحيح الوقوف ضد المساواة عامة .

فلنتفحّص الجزء الأوّل : لماذا من الصحيح الوقوف ضد المساواة المطلقة . لا يجب قول إنّ على الجميع أن يحصلوا على الأجر عينه و إلاّ بصراحة فإنّ عديد التقنيّين و الناس الذين يشغلون مناصب مشابهة سيثورون و سيخرّبون الإقتصاد

الإشتراكيّ . لبعض الوقت ، سيكون عديد هؤلاء التقنيّين و " الخبراء " و آخرين ، بالضرورة أناسا مؤهّلين فى المجتمع القديم و حتّى عديد الناس المتكوّنين فى المجتمع الجديد لن يقبلوا بنفس أجر العمّال الأقلّ مؤهّلات . هذه المواقع التقنيّة (و العمل الفكريّ عموما) بذاتها تتطلّب مزيدا من التربية التقنيّة و وقتا أطول للتوّصل إلى المعرفة الضرورية . لذلك ، طالما بقيت العلاقات السلعيّة ، ستكون قيمة العمل التقنيّ و الفكريّ أعلى من قيمة العمل الذى يحتاج إستعدادات أقلّ . لهذا و للظروف الماديّة العامّة و الإيديولوجيّات فى المجتمع ، لن تتمّ تعبئتهم جماهيريّا بالنداءات الإيديولوجيّة الشيوعيّة فقط فالعديد لن يتعاونوا معنا بحماس و نشاط و طريقة خلاّقة فى سيرورة تطوير الإقتصاد الإشتراكيّ إذا لم ندفع لهم أجورا أعلى من أجور العمّال الذين ليس لهم ذات مستوى التأهيل و الإستعداد التقنيّ .

أعيد ، هذه مسألة نرثُها عن الرأسمالية بيد أنّه لا يمكن القضاء عليها فى الحال . و لذلك يعترف كتاب الإقتصاد السياسي لشنغاي بحقيقة أنّه من غير الممكن التوصّل إلى مساواة مطلقة و أنّه لا يمكن أن ندفع للجميع الأجر نفسه و لا يمكن أيضا أن يعيش الجميع فى المستوى نفسه بالضبط . علاوة على ذلك ، فى النقاش حول الحقّ البرجوازي ، يضع الكتاب تشديدا على أنّه على أيّ حال ، طالما تواصلت العلاقات السلعيّة و معها قانون القيمة ، فإنّ" المساواة " ذاتها لا يمكن واقعيّا أن تكون متساوية ذلك أنّ الذين يحصلون على الأجر نفسه مقابل العمل نفسه لا يقومون بالضرورة بكمّية العمل نفسها و النوعيّة نفسها و للبعض عائلة تعدّ أنفارا أكثر لإعالتها بأجرهم إلخ . و هكذا ، على كلّ حال ، فى النهاية ليست هنالك مساواة . و تتأتّي كلّ هذه اللامساواة من أنّ المجتمع ، فى ظلّ الإشتراكيّة ، لم يتخط بعدُ تماما العلاقات البرجوازيّة و الحقّ البرجوازيّ الذى يجسّدها و هدف الثورة البروليتاريّة هو تخطّى كلّ هذا .

و نمضى الآن إلى جانب آخر جرى التعبير عنه على هذا النحو في كتاب الإقتصاد السياسي لشنغاي : مع أنّنا ضد المساواة المطلقة فإنّنا **من أنصار** المساواة **عامة** . إنّنا من أنصار مساواة مستوى معيشة السكّان على المدى الطويل نسبيّا ، خطوة خطوة و رئيسيا برفع المستوى الأدنى . و إنّنا نعارض جعل الطريق معبّدا أمام اللامساواة و السماح بأن تتفاقم و تتحوّل إلى تناحرات طبقيّة و تعزّز قاعدة إعادة تركيز الرأسماليّة .

فى كتاب شنغاي ، بعد قول إنّنا نعارض المساواة المطلقة لا غير و ليس المساواة عامة يقال إنّ ما نتطلّع إلى خلقه هو الوفرة العامة . بكلمات أخرى ، الهدف هو خلق وفرة يقتسمها الشعب بأسره كلّ مرة أكثر فأكثر . و يمثّل هذا قطيعة راديكالية مع الوضع الذى وُجد منذ ظهور الإنقسامات و التناحرات الطبقيّة : فى جميع المجتمعات الطبقيّة السابقة ، سيطرت أقلّية ، المستغِلّون ، على وسائل إنتاج الثروات و على الثروة المنتجة و على فائض القيمة . الوفرة العامة التى ترنو إليها المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة فى تعارض مطلق مع الوضع العالمي الراهن حيث علاقات الإستغلال والإضطهاد المهيمنة تعطى لفئة صغيرة السيطرة على قوى الإنتاج المتطوّرة بدرجة عالية و مراكمة ثروات ضخمة فيما غالبيّة البلدان فى " تخلّف" و الغالبيّة العظمى من الناس فى العالم ، يعيشون فقرا و غمّا .

و ليست الوفرة وحدها الهامة كهدف و مُرشد عام للتقدّم نحو الشيوعيّة عبر المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة بل هو هام أيضا فى كلّ مرحلة ، و فى كلّ لولب فى هذه السيرورة ، أن يقع مزيد التقدّم بإتّجاه هذه الوفرة العامة . منظور إليها بمعنى ديناميكي (كشيء فى حركة و ليس كشيء مطلق) ، الوفرة العامة و المساواة العامة يجب أن يميّزا المجتمع الإشتراكي فى كلّ خطوة من هذه المراحل و اللوالب . عند التقدّم نحو الشيوعيّة ، لا بدّ من تحسين الظروف الماديّة للشعب من مستوى متساوى نوعا ما إلى آخر ... ثم إلى آخر ... بينما يتواصل فى كلّ مرحلة التقليص ، بأقصى قدر ممكن ، من الإختلافات الباقية . لا يمكن تعميق اللامساواة المتبقّية و فتح الأبواب أمام الحقّ البرجوازي و لا يسمح فضلا عن ذلك بأن تتحوّل الإختلافات فى صفوف الشعب إلى تناحرات طبقيّة بتعلّة خلق وفرة سيتقاسمها الجميع بمساواة ... يوما ما فى المستقبل البعيد . كان هذا هو خطّ دنك سياو بينغ ، الخطّ الذى مارسه تماما أتباع الطريق الرأسمالي ، و على رأسهم دنك سياو بينغ لمّا إغتصبوا السلطة بواسطة إنقلابهم .

<u>3/ ماذا يعنى أن تكون الجماهير سيّدة المجتمع ؟</u>

ضمن كلّ هذا ، يمكن رؤية أنّ التغييرات فى العلاقات بين الناس (العلاقات بين الأفراد) و فى نظام التوزيع (يعنى الحدّ من الإختلافات و اللامساواة المتبقّية و الحدّ من تعبيرات الحق البرجوازي) تؤثّر على نظام الملكيّة الإقتصاديّة الذى يمثّل

الجانب الحاسم لعلاقات الإنتاج و لذا تلعب دورا فى غاية الأهمية . بنفس الطريقة ، يمكننا رؤية أنّ البنية الفوقيّة و بالذات الخطّ السياسي و الإيديولوجيّ و ترجمته فى خطوط و إجراءات ملموسة ، يؤثّر أيّما تأثير على علاقات الإنتاج عامة .

إلاّ أنّ تأثير البنية الفوقيّة و دورها المبادر لا يتحدّد بالمسائل المتعلّقة بالإقتصاد ليس إلاّ . أمر واقعي أنّه كي يتمّ تغيير علاقات الإنتاج ، من اللازم إستنهاض الجماهير حتّى تساهم فى كلّ مجالات البنية الفوقيّة (الثقافة و التربية و العلم و الفلسفة و شؤون الدولة) على إعتبار أنّ الأمر إذا لم يكن كذلك سيستحيل على الجماهير أن تفرّق بين الخطّ الصحيح و الخطّ الخاطئ و أن تناضل بالإعتماد على الخطّ الصحيح من أجل إلحاق الهزيمة بمقاومة القوى التى تعارض هذه التغييرات . لكن زيارة على ذلك ، يقتضى الإنتقال إلى الشيوعيّة أبعد من التغيير الراديكالي للظروف الماديّة و للعلاقات الإجتماعيّة فهو يشمل فضلا عن ذلك ، التغيير الراديكالي لرؤية الناس إلى العالم . و يستدعى هذا عملا نظريّا تربية الجماهير على النظريّة الشيوعيّة و يستدعى نضالا إيديولوجيّا نشيطا فى صفوف الجماهير و فى كافة المجتمع . فقط إذا غيّرت الجماهير كلّ مجالات المجتمع بالرؤية الثوريّة و وفق مصالح البروليتاريا ، ستقدر على الإحتفاظ بالسلطة و فى النهاية ، ستقدر على خلق الظروف الماديّة و الإيديولوجيّة للشيوعيّة جنبا إلى جنب مع جميع البروليتاريا العالميّة .

هنا ، من الضروريّ التصدّى لمسألة هامة هي عندما نقول إنّ الجماهير فى ظلّ الإشتراكيّة هي سيّدة المجتمع و المالكة لوسائل الإنتاج ، فإنّ الأمر أكيد لكنّه حقيقة نسبيّة و ليست حقيقة مطلقة . نظرا لتناقضات المجتمع الإشتراكيّ ، أن تكون الجماهير السيّدة و المالكة يعبّر عن نفسه ليس من خلال الدور النشيط للجماهير عينها فى كافة نواحى المجتمع و حسب ، بل أيضا من خلال دور ممثّليها ، فى الإقتصاد مثلما فى البنية الفوقيّة السياسيّة و الإيديولوجيّة .

سيظلّ هذا التناقض قائما حتّى فى الشيوعيّة . ستظلّ هنالك حاجة إلى ممثّلين فى جوانب معيّنة . و لن يستطيع كلّ الناس فعل كلّ شيء فى الوقت نفسه . غير أنّ هذه التناقضات ، فى مرحلة الإشتراكيّة ، تتضمّن بذور تناقضات و حتّى تناقضات طبقيّة . و نقطة فى غاية الأهمّية أشار إليها أنصار الخطّ الثوري لماو كانت أن فى المجتمع الإشتراكيّ ، تتركّز السيطرة على وسائل الإنتاج و كذلك على التوزيع في سلطة القيادة السياسيّة . و على النحو ذاته ، تتركّز سلطة القرار فى الفنّ و الثقافة و التربية و كافة مجالات الحياة الإجتماعيّة الأخرى في سلطة القيادة السياسيّة .

و يجرّنا هذا إلى التساؤل ثانية : ما هو دور الجماهير فى كلّ هذا و كيف يمكن لها ، فى ذلك الوضع ، أن تعبّر عن دورها كمالكة للإقتصاد و كسيّدة للنظام السياسيّ فى المجتمع الإشتراكي ؟ بهذا الشأن يمكننا أن نستشهد بنقطة مهمّة للغاية أثارها ماو تسى تونغ فى " نقد "ه لكتاب الإقتصاد السياسي السوفياتي : " فى الصفحة 414 ، عندما يعالج كتاب الإقتصاد السياسي مختلف الحقوق التى يتمتّع بها العمّال ، فإنّه لا يتعرّض لحقّ العمّال فى إدارة الدولة و مختلف المؤسسات و المنظّمات الثقافية و التربويّة . فى الواقع ، هذه الأخيرة هي حقوق العمّال الأهمّ فى ظلّ النظام الإشتراكيّ . إنّها حقوق جوهريّة بغيابها لا وجود لحقّ العمل و لحقّ الحصول على التربية و لحق العُطل و سواها من الحقوق ." (**" ماو تسى تونغ و بناء الإشتراكية "** ، صفحة 95 ، سلسلة " سياسة " ، منشورات سوي ، باريس 1974) .

غير أنّه كيف نضع ما سبق موضع الممارسة ؟ من جديد ، مسألة الخطّ و القيادة مسألة حاسمة . كما أبرز ماو ، حينما تكون القيادة بأيدى ماركسيّين حقيقيّين ستكون للجماهير هذه الحقوق و السلط الجوهريّة عمليّا و حينما تكون القيادة بأيدى التحريفيّين أو ممثّلين آخرين للبرجوازيّة ، عمليّا لن تكون للجماهير مثل تلك الحقوق و السلط الجوهريّة . بدوره ، ما يحدّد إذا كان القادة ماركسيّين حقيقيّين أم لا ، إذا كانوا يمثّلون المصالح الثورية للبروليتاريا أم لا ، هو الخطّ الذى يقترحونه و يضعونه محلّ الممارسة . هذا ما قصده ماو عندما صدح بأنّ الخطّ الإيديولوجي و السياسي هو المحدّد .

و الخطوط ليست مجرّد تجريدات و إنّما تمثّل مصالحا طبقيّة على المدى البعيد و أيضا تجسّدها فى إجراءات خاصة مناسبة لأوضاع اللحظة . و بدورها ، تستنهض الخطوط قواعدا إجتماعيّة معيّنة . هذا ما حصل فى المعركة الكبرى الأخيرة فى الصين حيث إستنهض الخطّ الثوري الجماهير البروليتاريّة و القطاعات الأفقر ضمن الفلاّحين معا مع مثقّفين ثوريّين ، بينما جيّش الخط التحريفي القطاعات الأكثر إمتيازات ضمن السكّان يدا بيد مع بعض القطاعات الأكثر تخلّفا سياسيّا ضمن الجماهير ، التى وقع خداعها مؤقّتا ، بحلم الإستقرار و وعد بمداخيل أفضل و مزيدا من مواد الإستهلاك إلى آخره ، بالضبط إثر فقدان الثوريّين السلطة .

كان التحريفيّون يعربون عن أنّ على المؤسّسات أن تكرّس الضوابط الأكثر صرامة و أن ترسّخ نظام المسؤوليّة و أنّ على العمّال أن يوجَّهوا إلى موقع شغل و أن يظلّوا فيه و أنّ مساهمة العمّال فى الإدارة و فى التجديد التقنيّ و العلميّ و فى النشاطات الثقافيّة و فى النضالات الإيديولوجيّة تستغرق وقتا طويلا على حساب العمل و تضرّ ب" مردود " الإنتاج و هكذا إلى آخره . كلّ هذا ، مع ذلك ، لم يكن مسألة " مردود " بل كان أيّ دور سيكون للعامل فى الإنتاج و فى العمق ، أيّة علاقة ستكون له مع وسائل الإنتاج .

و يذكر كتاب الإقتصاد السياسي لشنغاي نقطة من الأهمّية بمكان بهذا المضمار : إذا لم يكن للعمّال حقّ السؤال و نقاش كيفيّة تنفيذ الإنتاج و لا الغاية منه و الأهداف و المصالح ، عندئذ يتحوّل هؤلاء العمّال من أسياد إلى مجرّد قطع فى آلة الإنتاج ، عبيد مأجورين ، ملحقون بسيرورة إنتاج تهيمن عليها نخبة و تتمّ إعادة تركيز العلاقات الرأسماليّة بين أعراف و عمّال . هذا هو بالضبط ما حدث و يحدث فى المجتمع الصينيّ منذ أن إستولى أتباع الطريق الرأسمالي على السلطة .

من هنا جاء تأكيد الخطّ الماويّ ، فى تعارض مباشر مع التحريفيّة ، على أنّ تقسيم العمل فى سيرورة الإنتاج يجب أن يكون تقسيما نسبيّا و ليس مطلقا و أنّه ينبغى القطع معه بالدرجة الأقصى الممكنة فى كلّ لحظة و أنّ على العمال أن يشاركوا فى تقرير أهداف الإنتاج و طرقه و أن على التقنيّين و المشرفين و ما إلى ذلك أن يساهموا فى العمل المنتج . لكن ، إضافة إلى ذلك ، يؤكد الخطّ الماويّ على أنّ واجب جماهير الشعب الكادح أن تعتني بالمسائل الرئيسيّة للمجتمع و للعالم و أن تركّز إنتباهها على شؤون الدولة . بهذه الطريقة فحسب ستستمرّ مالكة لسيرورة الإنتاج و سيّدة للمجتمع .

<u>4/ البناء الإشتراكيّ فى الإطار العالميّ :</u>

يتّصل كلّ هذا بما بسطته سابقا حول اللاتكافئ العالميّ و قيادة الثورة البروليتاريّة العالميّة و طابعها . و هذا متّصل بالخصوص بوضع الدول الإشتراكيّة التى تظهر من خلال هذا النضال الثوريّ ، فى عديد البلدان ، أي ، متّصل بأنّ الثورة البروليتارية لن تنتصر فى كلّ البلدان فى الوقت ذاته ، بل سيكون على الأقلّ فى فترة تاريخيّة معيّنة من المحتمل جدّا أن يحدث ذلك فى بلد أو عدد قليل من البلدان فى آن معا و أن نتيجة لذلك ، لوقت معيّن ، ستوجد الدول الإشتراكيّة فى عالم لا تزال تهيمن عليه الإمبريالية .

كان " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " فى جانب منه الردّ الصينيّ على وضع بلد إشتراكيّ تحاصره دول إمبرياليّة قويّة (و حلفاؤها) و له إرث من الهيمنة الإمبرياليّة ، مع كلّ التشويه و عدم التمفصل الناجم عن ذلك ، فى المجال الإقتصاديّ . لكن ، أبعد من ذلك ، شكّل ذلك توجّها جوهريّا للقيام بالتحويل الإشتراكي للمجتمع كجزء من تقدّم الثورة العالميّة نحو الشيوعيّة و يُشكل مبدأ عالميّا يمكن تطبيقه على كلّ البلدان الإشتراكيّة بغضّ النظر عن تاريخها أو درجة تطوّر قوى إنتاجها . فهذا المبدأ يحدّد هدف الإنتاج (المساهمة فى التحويل الثوري للإشتراكيّة و العالم) و كذلك طريقة بلوغ النتائج القصوى فى بناء الإقتصاد وفق **هذا** الهدف لإستنهاض الجماهير فى ظلّ قيادة خطّ إيديولوجيّ و سياسيّ شيوعيّ .

إنّ المقارنات المعقودة بين إقتصاد الصين الإشتراكيّة (أو أي إقتصاد إشتراكيّ) و " المردود الإقتصاديّ " لبلدان الكتلة الإمبريالية سواء كانت الأمم المضطهَدة للعالم الثالث أو البلدان الإمبرياليّة عينها) **تعتمد معاييرا خاطئة** . لكن " النموّ الكمّي للصين الإشتراكيّة مقارنة بالبلدان الأخرى كان جيّدا جدّا . إذا قارننا ذلك النموّ ببلدان ذات نموّ دخل ضعيف فى العالم الثالث خلال 1870-1900 و 1900 -1971 ، فإنّ البلد الوحيد الذى ربّما كان أفضل من الصين فى مؤشّر الدخل الفردي هو اليابان . و إذا قارننا ذلك النموّ ببلدان ذات نموّ دخل ضعيف فى العالم الثالث خلال 1965-1975 فإنّ مؤشر نموّ الصين كان عاليا بمقدار كاف . (لوتا ، " **نظرية و ممارسة التخطيط الماويّ** ") .

يسيطر الإمبرياليّون و كلّ الطبقات المضطهِدة على سيرورة الإنتاج و ينظّمونها بهدف مناقض كلّيا لهدف البروليتاريا الشيء الذى يفرز نتائجا مختلفة : " نجاحاتهم " فى الإنتاج و الإستهلاك تشدّد و تعتمد على إستغلال الجماهير و إضطهادها على النطاق العالمي و تشدّد و تعتمد على اللاتكافئ العالميّ و كلّ بؤسه ؛ بينما ينبغى أن يكون للإنتاج فى ظلّ سيطرة البروليتاريا (تطوّر الإقتصاد الإشتراكي) بالضبط هدفا مناقضا هو إقتلاع أسس الإستغلال و الإضطهاد فى المجتمع

الإشتراكي و الدفاع عن البلد الإشتراكي أمام الهجمات الإمبريالية و مساندة النضال الثوريّ العالمي فى إتّجاه الهدف المشترك للشيوعية (12) .

و من المهمّ النظر فى مسألة " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " من زاوية أخرى ، زاوية رؤية كيف عبّرعن نفسه الصراع بين القوى الثوريّة بقيادة ماو من جهة و التحريفيّين و على رأسهم دنك سياو بينغ من جهة أخرى ، هذا الصراع الذى إنتهى إلى الهزيمة المؤقّتة للثوريّين ، إثر وفاة ماو ، و إستيلاء التحريفيّين على السلطة و إعادة تركيز الرأسماليّة . كأرضيّة عامة لهذا يتعيّن التذكير بأنّ ماو أنجز ،لأجل تطوير خطّ " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " ، تقييما نقديّا لبناء الإشتراكية فى الإتّحاد السوفياتي فى ظلّ قيادة ستالين .

مثلما ناقشنا أعلاه ، فقد إستخلص ماو أنّ فى ظلّ قيادة ستالين للإتّحاد السوفياتي ، وقع التشديد المبالغ فيه على المركزة ممّا ألحق الضرر بالمبادرة المحلية و أنّ بالخصوص بعد التجميع الأوّلي للفلاحة ، جرى التوجّه إلى التفكير فى أن الآلات المتقدّمة التى تنتجها الصناعة المركّزة فى المدن كانت المفتاح فى بناء الإشتراكيّة فى الريف و فى كلّ البلاد . و قد ألمح ماو تسى تونغ إلى أنّ هذا مرتبط بنزعة كانت تبالغ فى التشديد على الصناعة الثقيلة ممّا ألحق الضرر بالصناعات الخفيفة و بالفلاحة و أن توجّه ستالين عامة كان أكثر من اللازم " من الأعلى إلى الأسفل " ، مبالغا فى الثقة فى التكنولوجيا و التقنيين و " الخبراء " . و قد إقترح ماو و ناضل فى سبيل توجّه مختلف تماما أي التعويل على الجماهير و ليس على التكنولوجيا و " الخبراء" و إيلاء أهمّية للمبادرة من الأسفل و كذلك للقيادة من الأعلى و إعطاء الأولويّة للفلاحة و الإعتماد على مكننة الفلاحة القائمة على التجميع بنفس نسق تثوير علاقات الإنتاج فى الريف و مزج المشاريع الكبرى مع المشاريع الصغرى و المتوسّطة و التكنولوجيا المتقدّمة مع التكنولوجيا الأقلّ تطوّرا و أخذ كلّ القوى المنتجة المتوفّرة بنظر الإعتبار و بوجه خاص قوّة الإنتاج الأهمّ أي العمّال . و فى تعارض مباشر مع هذا ، حوّل التحريفيّون الذين إستولوا على السلطة فى الإتّحاد السوفياتي و الذين إتّبعت خطاهم فى الصين التوجّهات الخاطئة التى شخّصها ماو فى الإجراءات الإقتصاديّة لستالين محوّلة إيّاها إلى مبادئ و صاغها التحريفيّون فى خطّ عام لإعادة تركيز الرأسمالية .(13)

عند تحليل المعركة الكبرى الأخيرة لماو تسى تونغ ضد التحريفيّين و لماذا إستطاع التحريفيّون الإنتصار إثر وفاته بقليل ، غاية فى الأهمّية هو التذكير بالصعوبات و المخاطر و المشاكل التى كانت تحفّ بالصين عقب ذروة الثورة الثقافية . و من الأهمّية بمكان (و بالفعل أمر مركزيّ) كان تهديد الإتّحاد السوفياتي بهجوم عسكريّ كان يمكن أن يكون هجوما نوويّا و كانت مجموعة الإجراءات المتّخذة بحكم ذلك :" الإنفتاح على الغرب ". وقد تمّت معالجة هذا الأمر فى " **نهاية / بداية** " و لن أناقشه هنا بعمق بيد أنّه من الهام جدّا التذكير بأنّ الخطّ و القوى التحريفيّة كانا يعملان فى ذلك الوضع الذى خلق لهم ظروفا مواتية لإستقطاب قطاعات هامة و مؤثرة ضمن السكّان و خاصة الشرائح ذات الإمتيازات الأكبر.

و قد إقترح التحريفيّون خطّا تميّز بجاذبية " تحقيق أفضل (لكن كما رأينا أتعس) ما فى العالمين " : وضع الإنتاج فى المصاف الأوّل ، دون الإهتمام بأيّ الوسائل و العلاقات هي السائدة و تركيز مراكمة الثروات الخاصة كدافع رئيسيّ و التأكيد على أنّ هذا لا يتضارب مع خدمة المصلحة العامة . أيضا ، كانوا يقولون إنّ الدخول فى علاقات مع الإمبرياليّة (كانت عمليّا إستسلاما) كان الطريقة الوحيدة لتجنّب الحرب و الإستمرار فى الإشتراكيّة ، إشتراكيّة دون نوع الإنتفاضات الجماهيريّة و أحيانا الفوضى التى ميّزت الثورة الثقافية و دون المطالبة بتغييرات راديكالية فى العلاقات بين الناس و فى نظرتهم إلى العالم و دون المطالبة بتحديد اللامساواة التى تلائم بعض الشرائح على حساب الجماهير، حتّى يمكن فى النهاية القضاء عليها ودون إلتزام توجّه النقد لهذه الشرائح ذات الإمتيازات و للقادة و دون إشراف الجماهير . كلّ هذا لخّصه دنك سياو بينغ فى مقولته البسيطة : " قطّ أبيض ، قطّ أسود ، لا يهمّ طالما أنّه يصطاد الفئران " أيّة أهمية للوسائل المستعملة طالما أنّها تعطى " نتائج " ؟ و قد بيّن لنا ماو بجلاء أنّ هذا الخطّ لا يفرّق بين الماركسيّة و الإمبريالية و أنّه يشجّع إعادة تركيز الرأسماليّة و البرجوازيّة . و فى معارضة ل " القيام بالثورة و دفع الإنتاج "، يمكن تلخيص هذا الخطّ بهذه الصيغة : دفع الإنتاج الرأسماليّ و القضاء على الثورة البروليتاريّة .

و كما أثبتت لنا التجربة على نحو جليّ ، رغم أنّ التحريفيين يستطيعون تعبئة قاعدة إجتماعيّة من الشرائح ذات الإمتيازات و حتّى بعض العناصر المتخلفة من الجماهير فإنّ خطّهم لا يتماشى و مصالح أغلبيّة الشعب و لا يمكن حتّى أن يحقّق الوعود الغريبة التى يقدّمونها للشرائح ذات الإمتيازات .

و قد نظر دنك و شركاؤه بحسد إلى اليابان ووضعوها مثالا على الصين أن تنقل عنه فى ما يتعلّق بالإقتصاد و لكن على الرغم من كلّ محاولاتهم إتّباع هذه النماذج ، لم يتوصّلوا إلى غايتهم و فى الظروف الملموسة للعالم الحالي ، لا يملكون تحويل الصين إلى بلد رأسماليّ " حديث " ، قويّ بالمعنى الإمبرياليّ . (14)

أيضا ، من الهام الإشارة إلى أنّ وضع الصين مختلف فى معان شتّى عنه فى الإتّحاد السوفياتي . إلى الآن ، لم يسقط التحريفيون الصينيّون قناعهم " الشيوعي" و أدهى من ذلك ، إثر الإنتفاضة التى أغرقوها فى الدماء ، فى ساحة تيان آن مان ، شرعوا فى " إحياء أوراق إعتمادهم " ومظاهرهم الشيوعيّة . هذا الوضع فى تناقض حاد . تفاقمت من جهة و خاصة فى صفوف المثقفين ، المطالبة بنفي التحريفيّة فى الحال (أي المطالبة بالديمقراطيّة البرجوازيّة و ليس المطالبة بإشتراكية حقيقيّة) . لكن ثمّة إشارات واضحة إلى أنّ حتّى الإمبرياليين و وسائل إعلامهم أُجبروا على الإعتراف بأنّ هنالك فى صفوف الجماهير الكادحة بخاصة (و حتّى فى صفوف طلبة و مثقّفين) من يقرّون بالبون الشاسع بين " شيوعية " دنك و زمرته المزيّفة و الشيوعيّة الحقيقيّة الثوريّة لماو و رفاقه و أنّه مرّة أخرى، شرحا لكلمات ماو ، ، يمكن أن يصلوا إلى الإقرار بأن" فقط الماويّة يمكنها أن تنقذ الصين " و بالطريقة ذاتها ، فقط الماوية يمكنها أن تنقذ العالم و فقط الماركسية – اللينينية - الماوية تنير طريق التحرّر الحقيقيّ لجماهير الشعب فى الصين و فى العالم .

==

هوامش الجزء الثاني

8- سوف أعود لهذا مفصّلا أكثر عندما أناقش مبدأ ماو " القيام بالثورة و دفع الإنتاج ".

9- العودة إلى ملخّص أهداف حملة **على حافة المياه** و الصراع المرتبط بها و أيضا وثائق ذلك الصراع ، فى كتاب " **و خامسهم ماو** " ، شيكاغو ، بانر براس ، 1978 ، المقدّمة " **المعركة الكبرى الأخيرة لماو تسى تونغ** " من تاليف ريموند لوتا ، لا سيما الصفحات 32-34 و ما يخصّ " نقد على حافة المياه " ، صفحات 239-256) .

10- حينما كتبت " **نهاية / بداية** " و " **ماو أكثر من أيّ زمن مضى** " ، كتبت كذلك " **ملاحظة ختاميّة** " بأربع نقاط تلخّص المبادئ المفاتيح لدفع الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا و للنضال ضد التحريفيّة و صعود البرجوازيّة إلى السلطة . و لم أدمج فى " الملاحظة الختاميّة " مبدأ " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " رغم أنّه كان عليّ أن أفعل ذلك . إنّ المبادئ الأربعة لتلك " الملاحظة " متّصلة بالصراع الطبقيّ (الثورة) ككلّ ، لكن " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " مرتبط إرتباطا وثيقا بالموضوع الذى تعالجه النقاط الأربعة .

و لمّا كنت أُعدّ هذا الجزء من الكتاب ، درست مطوّلا كتيّبا هاما ألّفه تشانغ تشن- تشياو ، أحد القادة الثوريين الرئيسيّين الذين وقع إيقافهم أثناء الإنقلاب التحريفيّ إثر وفاة ماو و كتابا حول الإقتصاد السياسي منشور فى شنغاي فى بدايات السبعينات(طبعة بالأنجليزيّة تحمل عنوان " **أسس الإقتصاد السياسي** " أنجزها جورج س. وانغ و بمقدّمة له ، نشرته شركة م.أ. شارب) و كذلك درست عدّة مقالات مكتوبة فى خضمّ المعركة الأخيرة لماو ضد التحريفيّة التى يجسّدها دنك سياو بينغ . كانت كلّ هذه الأعمال تحثّ حثّا على تحليل نقاط ذات أهمّية عميقة بالنسبة لبناء الإشتراكيّة و التقدّم بإتّجاه الشيوعيّة . و الملخّص التالي بشأن الموضوع الحاسم ل " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " يستند ، فى جزء كبير منه إلى هذه الأعمال .

11- عند النظر فى " كلّ هذه السيرورة " يكتسى أهمّية حاسمة أن يكون حاضرا فى ذهننا أنّ التقدّم نحو الشيوعيّة لا يمكن أن يتحقّق إلاّ على الصعيد العالميّ و عبر النضال الثوريّ للبروليتاريا العالميّة و أنّه طوال كلّ السيرورة ، سيتداخل النضال الثوري و التغييرات داخل بلد إشتراكيّ معيّن و ستعمل بصفة متبادلة مع صراع الطبقات فى البلدان الأخرى و ستتطوّر فى الظروف الأعمّ و فى النهاية الحاسمة ألا وهي الوضع العالميّ و مستجدّاته . لكن لا يجب طبعا أن يُفهم من هذا أن البروليتاريا التى تكون قد توصّلت إلى السلطة فى بلد إشتراكيّ و لا أن البروليتاريّين فى البلدان الأخرى الذين لم يصلوا بعد إلى إفتكاك السلطة ، لا يجب أن يفهم أنّ عليهم أن يتّخذوا موقفا مستكينا و حتميّا . بالعكس ، عليهم أن يقوموا بأكبر مبادرة

ممكنة ، فى كلّ مرحلة ، للتقدّم إلى أعلى درجة ممكنة فى المجال المباشر (أي فى كلّ بلد) حيث يناضلون لكن على نحو يسمح لهم بتقديم أقصى مساندة للنضالات الثوريّة الأمميّة فى سبيل خدمة الثورة العالميّة و دفع تقدّمها .

12- هنا من الضروريّ أن ننقد الفصل الأخير من كتاب الإقتصاد السياسي لشنغاي فلسوء الحظّ ، إثر محاججة جليّة للغاية و ملموسة بهدف النضال من أجل تطبيق الخطّ البروليتاري حول الإنتاج فى ظلّ قيادة الثورة و دفعها ، يتمّ الشروع فى الحديث عن بعض " البلدان ذات التوجّه الوطني " و يتمّ نسيان المقاييس الطبقيّة التى جرى التشديد عليها على طول الكتاب. إذ تُقترح و تناقش مناهجا و نماذجا من خلالها تقدّر " البلدان ذات التوجّه الوطني " أن تطوّر إقتصاديّاتها باكثر إستقلاليّة عن الإمبرياليّة ممّا يضع جانبا العامل الجوهريّ المتمثّل فى الطبقة التى تحكم " البلدان ذات التوجّه الوطني " إيّاها فى أيّ نوع من العلاقة لتلك البلدان و لطبقاتها المهيمنة مع الإمبريالية من جهة و مع الجماهير من جهة أخرى .

بكلمات أخرى ، يقدّم هذا الفصل الوضع كما لو أنّ مختلف القوى البرجوازيّة الحاكمة لتلك " البلدان ذات التوجّه الوطني " كانت قادرة على ممارسة السلطة مثل البروليتاريا و كما لو كانت قادرة على إنجاز التطوّر الإقتصاديّ طبقا لخطّ الصين الإشتراكيّة ذاتها . و على سبيل التورية التهكّمية يتمّ نسيان نقاط قوّة معظم الكتاب فى الفصل الأخير . و هذا يؤكّد ، بصفة سلبيّة فى هذه الحال ، حيويّة مسألة أيّة طبقة تحكم و أيّة مصالح طبقيّة تعبّر عنها خطوطها و إجراءاتها وهو ما من شأنه أن يحدّد ما هو ممكن و ما الذى سيطبّق عمليّا .

حتّى و إن كانت القوى البرجوازيّة ذات التوجّه الوطني لتلك البلدان تودّ إتّباع النموذج و المقترحات التى تقدّم فى نهاية الكتاب فإنّ ذلك لن يتيسّر لها . لن تتمكّن من إستنهاض الجماهير و لا من تنفيذ التحويلات و الإجراءات اللازمة لتطوير الإقتصاد ذلك أنّ علاقات إنتاجها ليست علاقات إشتراكيّة (هي علاقات إقتصاديّة تهيمن عليها الإمبرياليّة) و لأنّ هذه القوى الطبقيّة لا تملك أن تتبنّى أفقا و خطّا يستطيعان أن يعبّآ الجماهير بغرض أن تثوّر البناء الفوقيّ و القاعدة الإقتصاديّة كي تتحوّل الإجراءات الإقتصاديّة من قبيل ما يقترحه الكتاب إلى واقع . هذا مثال سلبيّ و إن كنّا نجد على طول الكتاب شاهدا إيجابيّا على أهمّية الخطّ : أهمّية تحديد أيّ خطّ يمثّل أيّة طبقة و ما هي العلاقات التى تعكس هذه الخطوط و فى أيّ إتّجاه يجرى تحويل هذه العلاقات .

13- فى " **كسب العالم ...**" و فى مناسبات أخرى ، ناقشت مسألة أنّ عديد الإجراءات التى إتّخذها ستالين لا سيما فى ما يتعلّق بالبناء الإقتصاديّ مماثلة للإجراءات التى إتّخذها التحريفيّون الذين إستولوا على السلطة فى الإتّحاد السوفياتي و الصين . بيد أنّه علينا التشديد على أنّ ثمّة إختلاف نوعيّ و محوري هو أنّ ستالين شقّ الطريق دون معونة تجربة تاريخية [سابقة] بشأن بناء الإشتراكية ، بينما **رفض التحريفيون و عن وعي** إستنتاجات ماو و خاصة إثر تحليله لتلك الإجراءات على أنّها غير صائبة و أنّها تعزّز قوى إعادة تركيز الرأسمالية و شجّعوا عمدا تلك القوى . و الأدهى من ذلك ، عندما إستولى التحريفيّون على السلطة ، شرعوا فى تطبيق هذه الإجراءات كجزء من الخطّ العام لإعطاء قوّة منظّ0مة لقانون القيمة و وضع الأرباح فى مصاف القيادة فى الإقتصاد . هذه مبادئ رأسماليّة جوهريّة و ستالين رفضها بصفة خاصة و رفضا باتا .

14- هنا نلاحظ نزعة ساخرة لتنديد ماو بأنّ " دنك لا يفرّق بين الماركسيّة و الإمبرياليّة ! " بإعتبار أنّ دنك لم ينجز تحليلا ماركسيّا للإمبرياليّة (و لا لأيّ شيء آخر) فإنّه لم يفهم أيّ دور ستلعبه الصين فى الشبكة العالميّة للإمبرياليّة حينما يتولّى هو السلطة و يعيد تركيز الرأسماليّة . و لأنّ منهجه لم يكن ماديّا ماركسيّا ، و لم يستطع معرفة إستحالة تحقيق "غايته الأسمى " فى تحويل الصين إلى قوّة عظمى (إمبرياليّة) عالميّة ، فى الظروف الحاليّة للعالم .

خاتمة

1/ المواجهة الإيديولوجيّة :

قبل كلّ شيء ، أودّ أن أناقش هذا الموضوع بمعنى آنيّ أي الهجوم الإيديولوجيّ الإمبرياليّ و هجومنا المضاد إيديولوجيّا .

رفعت الأحداث الأخيرة فى الإتّحاد السوفياتي إضافة إلى أحداث كبرى أخرى فى البلدان التحريفيّة، فى السنوات الأخيرة ، من أهمّية النضال الإيديولوجيّ . مثلما سبق و أن قلنا ، بهجومها العنيف على الشيوعيّة أثارت الإمبرياليّة أمام الملايين موضوع الشيوعيّة و مع أنهّا أثارته بشكل سيء جدّا و مع أنّ ردّ الفعل " العفويّ " للشعب لم يكن إلى جانب الشيوعيّة ، فإنّ لكلّ هذا مظهر جدّ موات علينا إستغلاله . ولنذكّر من جديد ، بنقطة توجّه هامة . فى نهاية التحليل ، رغم أنّ على الردّ على الإمبرياليّين و على هجومهم الإيديولوجيّ أن يتمّ فى المجال الماديّ (خاصة على مستوى النضال السياسيّ الذى يكتسى شكله الأرقى فى حرب الشعب حين تنضج الظروف) لا ينبغى علينا أن نستهين بأهمّية النضال الإيديولوجيّ و لا بفرض خوضه فى الظروف الحاليّة .

ليس من واجبنا الردّ على تشويه الأحداث الحاليّة و بيان الأسباب و المصالح الطبقيّة لكلّ هذا و حسب ، بل علينا كذلك أن نخوض فى مسائل مداها أوسع تتناول شؤونا إقتصاديّة و سياسيّة و أيضا فى تساؤلات إيديولوجيّة جوهريّة مثل " طبيعة الإنسان " و إمكانيّة التحويل الراديكاليّ للمجتمع الإنسانيّ و الناس الذين يكوّنونه . ينبغى أن نعرض رؤيتنا للعالم و أن نطبّقها عمليّا و ننشر مبادئها الجوهريّة فى صفوف الشعب . و عندها تتّحد المعركة الإيديولوجيّة الآنيّة مع النضال العام و الجوهريّ بين النظرتين المتناقضتين للعالم : النظرة البروليتاريّة و النظرة البرجوازيّة .

2/ نظرتان إلى العالم ، رؤيتان متناقضتان للحرّية :

فى عالم اليوم ، لا توجد سوى طبقتين إثنتين قادرتين على قيادة المجتمع هما البرجوازيّة و البروليتاريا . و تتميّز المرحلة الحاليّة من التاريخ العالميّ بالصراع بين هتين الطبقتين المتناحرتين و لا يمكن تجاوز هذه المرحلة إلاّ عندما يُحلّ هذا الصراع بإنتصار البروليتاريا و المرور من عصر الرأسمالية إلى عصر الشيوعيّة عبر العالم قاطبة . إنّه صراع لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسانيّة لأنّ الثورة البروليتارية تمثّل قفزة تبقى وراءها وضعا فيه تجعل الظروف الماديّة و العلاقات الإجتماعيّة و الأفكار المناسبة لها ، من المستحيل أن يدخل الناس فى علاقات إراديّة تعتمد على معرفة القوى المحرّكة الحقيقيّة و العلاقات الجوهريّة للطبيعة و معرفة المجتمع و التفكير الإنسانيّ . و هذه الثورة تعبّر ، كما قال ماركس و إنجلز فى " **بيان الحزب الشيوعي** " عن القطيعة الراديكاليّة مع علاقات الملكيّة التقليديّة و الأفكار التقليديّة . و البرجوازيّة هي آخر حاجز يحول دون القيام بالقفزة ، المانع الأخير الذى يمنع حدوث هتين القطيعتين الراديكاليتين .

لهذه الأسباب نجد النضال بين هتين القوّتين مؤهّل لأن يكون نضالا هائلا و سيخاض على الأصعدة كافة . و يشكّل النضال الإيديولوجيّ مجالا لمعركة حاسمة و له تداعيات كبرى على النزاع كلّه . و فى كلّ مسألة حاسمة (من مسألة طبيعة الإنسان إلى مسألة طبيعة الحرّية و مضمونها) تتعارض البرجوازيّة و البروليتاريا جوهريّا . إنّهما يعكسان عالمين مختلفين راديكاليّا ، واحد متقادم فى حالة تشنج مستفحل و فى طريق الإضمحلال و الآخر يعيش آلام وخز الولادة .

يدافع البرجوازيّ عن أنّ نظامه وقيمه أزليّة و لكن هذا مجرّد هراء لأنّه لا يمكنه الرؤية لأبعد من هوامش المجتمع البرجوازيّ . لا يمكن للبرجوازية أن تعترف ولا أن تقبل بأنّ أفكارها المقدّسة غدت جوفاء لأنّها تعبير عن الظروف الماديّة و العلاقات الإجتماعيّة التى هي تاريخيّا (رغم أنّ ذلك ليس بعد عمليّا) عتيقة .

لنتفحص هذا .

قبل كلّ شيء ، هنالك هيمنة العلاقات السلعيّة التى تميّز المجتمع البرجوازيّ و معها ما يصفه ماركس ب" صنميّة السلعة " و الفردانيّة البرجوازيّة . هذه مبادئ مقدّسة و قياديّة لدى حرّاس النظام القديم و لدى المدافعين عن الرأسماليّة و الإمبرياليّة .
و ما كان يقصده ماركس ب"صنمية السلعة " هو جوهريّا أنّ فى مجتمع ينتج سلعا **تحجب** العلاقات الأساسيّة بين الناس الذين هم قاعدة المجتمع و تحجب الحقيقة الأساسيّة التى إكتشفتها الماديّة التاريخيّة : أنّ العمل الإجتماعي الذى يقوم به الناس الذين يدخلون فى علاقات إنتاج محدّدة هو قاعدة المجتمع و مؤسساته و أفكاره . إن الأفراد يتواجهون عبر السلع التى يملكونها . و تترابط **الأشياء** فى ما بينها : يتبادل المال بشيء معيّن يتبادل بالمال بدوره و هكذا دواليك ممّا يعطى مظهر أنّ هذا هو قوام الحياة فى المجتمع . فى هذه العلاقات ، يبدو البشر ببساطة أفرادا يمتلكون هذه السلعة أو تلك و يبدو تملّكهم عرضيّا أو نتاج مجهودهم و مثابرتهم الخاصّين . كونهم جزء من التقسيم الإجتماعي الكبير للعمل و طريقة كسب حياتهم (أو مراكمتهم للثروة) يتحدّد ، فى آخر المطاف ، بالتقسيم الإجتماعي للعمل و بسيرورة الإنتاج و التبادل فى المجتمع و بالأساس فى العالم ... هذا أمر يظلّ محجوب ، هذا ما يُحجب .

إلى جانب هذا ، نجد الفردانيّة البرجوازيّة ، فكرة أنّ على كلّ فرد أن يعتني بذاته أوّلا و فى تعارض مع كلّ الآخرين . هذه العقليّة القائلة ب " أوّلا رفاهيتى " تتماشى مع العلاقات السلعيّة التى ليست مجرّد تبادل مع الآخرين عبر السلع ، بل هي تنافس متبادل فيه يزدهر البعض و يخسر الآخرون (و هو بدوره تعبير عن الفوضى الكامنة فى الإنتاج السلعيّ الذى ينطلق من أنّ السلع هي أشياء منتجة ليس للإستعمال الآنيّ بل للتبادل ، لكن أحدا لا يمكنه أن يضبط بكلّ يقين الطلب الذى سيكون على سلعة معيّنة فى المستقبل) . علاقة الأفراد كمالكين متساوين للسلع فى مجتمع حيث قيمة السلعة هي الوسيلة النمطية لعلاقات التبادل تمثّل مظهرا خارجيّا فقط . و حتّى العلاقة بين العمّال و الرأسماليّين تتّخذ هذا المظهر . لكن فى الواقع هذه طريقة لوضع قناع على الجوهر المركزيّ للرأسماليّة و سيرورة مراكمتها أي علاقة إستغلال الطبقة الرأسماليّة و إضطهادها للطبقة العاملة .

كذلك ، تعنى فكرة " الحرّية " لدى البرجوازية ببساطة **مظهر** الفردانيّة ، مظهر أن ّالفرد سيّد ذاته و أنّ الفرد و حقوقه هما أولويّة الأولويّات و الهدف الأوّل للسياسة و للحقوق . **اللبّ** هو أنّ هذه الفردانيّة مرتبطة بالعلاقات الطبقيّة أي علاقات إستغلال و إضطهاد طبقيّة . بما فى ذلك فى مظهرها الخارجي ، تنعكس الفردانيّة البرجوازية و الأفكار المناسبة لها حيال الحرّية فى معان سلبيّة هي معنى أنّ حقوق الفرد لا تتضارب مع حقوق الآخرين و معنى أنّ أفرادا آخرين أو الدولة لا يعتدون على حقوق الفرد .

و تكشف فكرة الحرّية إيّاها بمظهرها الخادع (الذى يغطى العلاقات الأساسيّة و جوهر الإستغلال الرأسماليّ) أيضا شيئا من جوهر التناحر الإجتماعي الذى يعنيه رأس المال . إنّ هذا لمتّصل بأن العلاقات السلعيّة فى حدّ ذاتها ، رغم أنّها لا تعنى بالضرورة تناحرا إجتماعيّا و إستغلالا طبقيّا ، فهي ، مع ذلك ، تتضمّن بذور هذا التناحر و هذا الإستغلال . (15)

كما رأينا سالفا ، ليست العلاقات السلعيّة ببساطة علاقات مساواة (قائمة على مبدأ تبادل قيم متساوية) و إنّما هي كذلك تتضمّن مظهر منافسة و مزاحمة . وحتّى مفاهيم الفردانيّة و الحرّية التى تتناسب و العلاقات السلعيّة فى ظاهرها الخارجيّ و فى شكلها العام (و ليس فقط العلاقات بين البرجوازيّة و البروليتاريا) تفصح عن نفسها كصدامات مصالح و " إرادات " فرديّة . بهذا المعنى ، هنالك تماثل بين مثل هذه الأفكار و طبيعة المجتمع الرأسماليّ . علاوة على ذلك ، تنطوى العلاقات السلعيّة على بذرة أو تنطوى على إمكانيّة علاقات تتحوّل فيها قوّة العمل نفسها إلى سلعة . على الأقلّ إلى حدّ ما ، يجرى الإعتراف بهذا فى المجتمع البرجوازي عامة بقول إنّه لكي يمسي المرء غنيّا ، من الضروري أن يكون أكثر من مالك بسيط لسلع و إنّه لا يكفى العمل للمصلحة الخاصة و إمتلاك وسائل الإنتاج الخاصة ، بل ينبغى أن يصير المرء عرفا (و عند الإستطاعة مالكا و مضارب) لقوّة عمل الآخرين و بمعنى آخر ، ينبغى التحوّل إلى مستغِل رأسماليّ . هذا هو المفهوم الأعمق لتعبير أنّ الرأسمالية مجتمع تنافس قاتل له فلسفة لاإنسانية [بلا ضمير] .

و يركّز المجتمع البرجوازيّ و حكّامه إهتمامهم على الأقلّية من الأغنياء و ذوى الإمتيازات فى وسائل إعلامهم و نظامهم التربويّ و ثقافتهم و وسائل أخرى وهم يقدِّمون للجماهير كي تقلّدهم و تجعلهم مثلها العليا إنطلاقا من وضعها الدونيّ . أن يكون هذا الغناء و الإمتياز على صلة مباشرة و يقع الإبقاء عليهما على حساب الكثرة الكثيرة من الفقراء و المضطهَدين فى العالم (أن تفيد هيمنة الملكيّة الخاصة البرجوازيّة فى العالم البؤس بالنسبة للغالبيّة الساحقة فى العالم) هذا الأمر العميق

يذرون عليه الرماد و يحجبونه . إنّهم يصرّحون بأنّ العلاقات الإجتماعيّة الحاليّة و علاقات الإنتاج فى العالم أزليّة و يصرّحون بأنّ النظام السائد هو أفضل نظام على الإطلاق . و الغاية " الأسمى " التى يحضّون عليها هي الإرتقاء إلى الصفوف الفاسدة للنظام ، فى تنافس قاس مع الآخرين .

أمّا البروليتاريا الواعية طبقيّا و نظرتها إلى العالم و ثقافتها فترتكز على الجماهير الشعبيّة للعالم بأسره ،على قهرها و ألمها لكن أكثر من ذلك و بوجه الخصوص على نضالاتها الثوريّة و قدرتها الكامنة على قلب العالم البرجوازيّ رأسا على عقب لتغيير العالم و الوضع الإنسانيّ عموما تغييرا كلّيا . و تأسيسا على هذا ، فإنّ البروليتاريا تدعو القطاعات الأوسع إلى التوحّد على أساس البرنامج السياسيّ للثورة البروليتاريّة ، إضافة إلى تبنّى موقفها و نظرتها وإلى تغيير نظرتها إلى العالم ، قاطعة مع عقليّة البقاء على قيد الحياة (أو الإزدهار) عبر التنافس الشرس و الإستفادة على حساب الآخرين . و الغاية الأسمى التى تقدّمها البروليتاريا ليست " الإرتقاء داخل " النظام ، بل النهوض و تحطيمه و القضاء على كافة الأنظمة و جميع العلاقات التى تساوى فيها ثروة البعض بؤس الكثيرين و تعويضها بمجتمع إنسانيّ أين سترى الإنسانيّة مصالحها المشتركة محقّقة و فيه سيكون التعاون " طبيعيّا " مثلما تبدو المنافسة حاليّا .

هكذا إذا نظرة البروليتاريا الشيوعيّة للحرّية مغايرة راديكاليّا و بعمق لنظرة البرجوازيّة . ذلك أنّ النظرة الشيوعيّة للحرّية تفيد جوهريّا و أساسا القضاء على ظروف إستعباد أيّة طبقة و إلغاء أيّ إستغلال و إضطهاد و أكثر من ذلك ، القضاء على جميع الإختلافات الطبقيّة و التناحرات الإجتماعيّة . إنّها تصبو ، أي نعم ، إلى تحرير الأفراد من هذه العلاقات الإستغلاليّة و الإضطهاديّة ، لكنّها لا تبحث عن وضع فيه يسعى كلّ فرد بصورة مستقلّة لمصلحته الخاصة الذاتيّة على حدة أو ضد المجتمع فالشيوعيّة تعترف بأنّ على الأفراد أن يتّحدوا و سيتّحدون فى المجتمع للتوصّل إلى تحقيق المصالح الجماعية (و مصالحهم كأفراد) و أنّه **ضمن و من خلال** المجتمع فقط (و بالأساس ضمن و من خلال سيرورة إنتاج و إعادة إنتاج العناصر الماديّة الضروريّة للحياة) يستطيع الشعب تحقيق قدر متصاعد من الحرّية . هذا المبدأ الجوهريّ سيستمرّ تطبيقه فى المجتمع الشيوعيّ مع أنّه هنالك سيطبّق بطريقة مختلفة جدّا عنها فى كلّ المجتمعات الإنسانيّة السابقة .

فى المجتمع الشيوعيّ ، ستوجد حرّية للأفراد على مستوى جديد تماما و سيوجد مجال أوسع للفرديّة لكن **لن** توجد الفردانيّة أو بصيغة أخرى لن تكون مشكلة إجتماعيّة ذات أهمّية عظيمة ؟ل ن يعيش المرء داخل حدود النضال فى سبيل البقاء الفرديّ و لا بدافع إرادة الحصول على ثروة على حساب الآخرين . بصفة واعية و إراديّة سيتّبع الناس أعلى المصالح الجماعيّة للمجتمع . سيستوعبون بعمق علاقاتهم الحقيقيّة مع الآخرين فى المجتمع و مع الطبيعة ، من خلال المجتمع . سيفهمون أنّ حرّية النشاط فى مجالات مختلفة عند العمل و أنّ طبيعة العمل ذاته (محدثا إغترابا أو مقدّما مكافأة ، نقضا لإرادتهم أو تعبيرا عنها) مشروطان بطابع العلاقات الإجتماعيّة و بخاصة بعلاقات الإنتاج و بالتطوّر العام لقوى الإنتاج . سيفهمون هذا و سيعملون تبعا لذلك . سيكونون على وعي بوجود الأسس و معها ضرورة التحسين المستمرّ للظروف المادية و الإجتماعية و الثقافيّة لأعضاء المجتمع **بصورة مشتركة .** سيعرفون أنّ مصالح الجميع تتحقّق عبر تحويل المجتمع موسّعين مجال الحرّية للجميع . هذه هي النقطة العميقة التى تعرّض لها ماركس فى تصريحه بأنّ " الحقّ لا يمكن أبدا أن يكون فى مستوى أعلى من النظام الإقتصادي و من التمدّن الثقافيّ الذى يناسب هذا النظام ." (ماركس ، " **نقد برنامج غوتا** " صفحة 15 ، دار التقدم ، موسكو و فى ماركس و إنجلز ، " **بصدد الثورة الإشتراكية** " ، صفحة 255 ، دار التقدم ، موسكو) . و قد تحدّث ماو عن هذه النقطة لمّا وصف وصفا مقتضبا الشيوعيّة : " و عندما تبلغ البشريّة جميعها مرحلة تغيّر فيها نفسها و العالم تغييرا واعيا ، يكون العالم قد دخل عصر الشيوعيّة " . (ماو تسى تونغ " **فى الممارسة العمليّة** " **مؤلفات ماوتسى تونغ المختارة** ، الجزء الأول ، صفحة 451) . و معنى و دلالات هذا تمّ التعليق عليها بإستفاضة فى القسم الأخير من كتاب " **الديمقراطية : أليس بإمكاننا أن نصنع أفضل منها ؟** " . هنالك تقع الإشارة إلى أنّ الشيوعية تفهم أنّ جوهر الحرّية هو الإعتراف بالضرورة و تغييرها و أنّ هذه السيرورة من العلاقة الجدليّة (التناقض) بين الضرورة و الحرّية لن تنتهي أبدا مع أنّها تعبّر عن ذاتها بشكل مغاير فى أوضاع متباينة و أنّ فى المجتمع الشيوعيّ سيكون لهذا تعبير جديد نوعيّا مختلف لأنّه لن يوجد حاجز و خلط الإنقسام إلى طبقات و التناحر الإجتماعي و غياب الوفرة العموميّة . و هذا المقتطف من القسم يعطى فكرة أساسيّة عمّا قلته فى علاقة بالطابع الأساسيّ للمجتمع الشيوعيّ و مبادئه الموجّهة :

" ... سيتواصل ظهور التناقضات فى صفوف الشعب و طبعا ، سيكون الصراع من أجل حلّها قوّة دفع فى المجتمع ، إلاّ أنّه لن توجد تناقضات بين الشعب و العدوّ ... لن يوجد أعداء . سيتواصل تواجد الإكراه بمعنى الضرورة ، **لكن لن يوجد إكراه بمعنى الهيمنة السياسيّة لجزء من المجتمع على آخر أو هيمنة فرد على آخر .** فى غياب مثل هذا التناحر و الإكراه ، سيتّحد الأفراد بصفة إراديّة (و سيناضلون غالبا بعسر ، لا شكّ فى ذلك ، غير أنّه ليس على شكل تناحريّ) لمواجهة الضرورة و تغييرها بإستمرار...

سيوفّر القضاء على التناحرات الإجتماعيّة و القضاء على الهيمنة السياسيّة و وحدة الناس إنطلاقا من المبادئ الأساسيّة للماديّة الجدليّة (معا مع الصراع حول كيفيّة تطبيقها و تطويرها أكثر) لأوّل مرّة ، إمكانيّة المشاركة الإراديّة فى المجتمع إنطلاقا من معرفة صحيحة جوهريّا و فى كلّ مرّة أعمق لقوانين حركة الطبيعة و المجتمع و العلاقة بينهما و سيوفّر إمكانيّة الإعتراف بالضرورة و تغييرها إلى مستوى جديد تماما و أرقى جدّا نسبة إلى ما كان ممكنا إلى حدّ الآن ". (أفاكيان ، " **الديمقراطية : أليس بوسعنا أن ننجز أفضل من ذلك ؟** " صفحة 190 ، الطبعة باللغة الإنجليزية) .

3/ أبعد من الحقّ البرجوازيّ :

فى ضوء ما قيل إلى حدّ الآن ، أرغب أن أسلّط الأضواء على مبدأ شيوعيّ محوريّ " من كلّ حسب كفاءاته و لكلّ حسب حاجياته ". أودّ الحديث عن ما يقصد به و لماذا هو ممكن التحقيق . أوّلا ، لننظر فى الملخّص الأساسيّ التالي لماركس حول الظروف الضروريّة لتحقيق هذا المبدأ :

" بعد أن يزول خضوع الأفراد المذلّ لتقسيم العمل و يزول معه التضاد بين العمل الفكريّ و العمل الجسديّ و حين يصبح العمل لا وسيلة للعيش و حسب بل الحاجة الأولى للحياة أيضا ، و حين تتنامى القوى المنتجة مع تطوّر الأفراد فى جميع النواحي ، و حين تتدفّق جميع ينابيع الثروة العامة بفيض و غزارة ؛ حينذاك فقط ، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيّق للحقّ البرجوازي تجاوزا تاما، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجّل على رايته: من كلّ حسب كفاءاته ولكلّ حسب حاجياته**!** " (ماركس ، " **نقد برنامج غوتا** " صفحة 15 ؛ دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية / و ماركس و إنجلز " **بصدد الثورة الإشتراكية** " صفحة 255 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

ما هو الشيء العميق الذى يفيده هذا ؟ هذا المبدأ " من كلّ حسب كفاءاته و لكلّ حسب حاجياته " ليس مبدأ بسيطا للتوزيع و لا يصف فقط العلاقة بين الإنتاج و التوزيع فى المجتمع الشيوعيّ . إنه يصف ذلك لكنّه فى الوقت ذاته ، يعكس و بعمق أوضاعا ماديّة ، علاقات إجتماعيّة و أفكارا معيّنة . و لكي يتحقّق هذا المبدأ ، يجب التوصّل إلى **الظروف المادية** الضروريّة و يجب أّن يوجد وضع فيه يكون تطوّر قوى الإنتاج و إنتاج وفرة عامة قد تقدّم جنبا إلى جنب مع تغيير علاقات الإنتاج و العلاقات الإجتماعيّة ، بشكل يمكّن من تجاوز التقسيم بين العمل الفكري و العمل اليدويّ و تقسيم العمل الإضطهاديّ عموما و يمكن تلبية حاجيات المجتمع و الأفراد على مستوى أرقى فى كلّ مرّة . فضلا عن ذلك ، لا بدّ من القضاء على العلاقات السلعيّة و معها على تعبيرها العام فى شكل نقد/ مال سيتمّ تعويضه بوسيلة تبادل لا تعكس العلاقات السلعيّة و لا تحمل بذرة الإستغلال الرأسمالي أو أيّ إستغلال آخر . (16)

بيد أنّ **الظروف الإيديولوجية** الضروريّة كذلك يجب أن تكون متوفّرة : من اللازم أن يوجد وعي شيوعيّ عام فى المجتمع . و بصيغة أخرى ، إذا ظلّ يُنظر إلى " الكفاءة " و " الضرورة " بمفهوم التصوّر البرجوازيّ للحرّية و بمفهوم الفردانيّة ، لن يطبق المبدأ . كلّ إنسان لن يساهم فى المجتمع حسب كفاءاته لن يستطيع حلّ طريقة الحصول من المجتمع على ما يجب الحصول عليه حسب ضروراته حلاّ صحيحا . فالشيوعيّة (و الجزء الأوّل من الشعار " من كل حسب كفاءاته ...") تعنى أنّه لا يزال يتوجّب العمل لتغطية الحاجيات الفرديّة و الآنيّة . سيكون المجتمع قد تقدّم إلى درجة وجود وفرة عامة و وسائل مواصلة الترفيع فى هذه الوفرة حتّى يكون الوجود الأساسيّ للفرد مضمونا و يكفّ عن أن يكون مركز الإهتمام . و لن يتمّ العمل و هذا الفرض أو الضرورة فى الذهن ، بل سيتمّ العمل من أجل المساهمة فى المجتمع بكلّ ما يمكن حسب قدرات كلّ واحد .

و فى الوقت نفسه ، سينال كلّ إنسان من المجتمع طبقا لما يحتاجه ، ليس بشكل تقدير هذه الضرورات من وجهة نظر المجتمع البرجوازيّ (أي ليس لأجل الحصول على أكثر من الآخرين و الصراع بغية تحويل الثروة المراكمة إلى وسائل

إستغلال الآخرين) بل طبقا لمبدأ تحسين الظروف الماديّة و توسيع مجال حرّية الناس فى المجتمع ككلّ وعلى نحو مشترك، مثلما تمّ نقاش ذلك آنفا . و من الهام التذكير بأنّ الضرورات ليست مطلقة أو مجرّدة بل ملموسة و محدّدة إجتماعيّا ، إنّها تتعيّن بما يقدر المجتمع على إنتاجه فى مرحلة معيّنة و بالعلاقات و الأفكار السائدة فيه . و ينطبق هذا على المجتمع الشيوعي أيضا .(17)

فى المجتمع الشيوعيّ ، ستتّخذ الضرورات بما يسمح لكلّ أعضاء المجتمع بالإستمرار فى التطوّر سواء فكريّا أم جسديّا و بما يسمح ، فى الوقت نفسه للمجتمع بمواصلة تنمية درجة الوفرة العامة و مواصلة تغيير العلاقات الإجتماعيّة حتّى يستطيع **مستوى** التطوّر العام للشعب **الإرتفاع** بصورة مستمرّة ، فى شكل **لولبيّ تصاعديّ .**

4/ التكنولوجيا و الإيديولوجيا :

تقول البرجوازيّة و إيديولوجيّتها أنّ كلّ ذلك غير ممكن على النطاق التكنولوجيّ و الإيديولوجيّ و تؤكد أنّ التكنولوجيا المعاصرة الحاليّة لا تسمح بنوع المركزيّة التى تتطلّبها الشيوعيّة و أنّه ، فى أيّ حال ، لا يمكن للإنتاج أن يكون خاضعا لنوع المراقبة الواعية التى تقترحها . علاوة على ذلك ، تؤكد أنّ الناس غير قادرين على النشاط الواعي فى سبيل المصالح العليا للإنسانيّة و يمكن أن يحثّها فقط إكتساب الخيرات و تعظيم الذات . إنّهم على خطإ فى المجالين معا.

سيستعمل المجتمع الشيوعيّ التكنولوجيا المتقدّمة و سيواصل تطويرها . بيد أنّه من الواجب عدم خلط هذا بمركزة أكبر فأكبر و لن يتطوّر على نحو تهيمن فيه التكنولوجيا على الشعب و هذا طابع مميّز للرأسماليّة . فالشيوعيّة و الوفرة العامة التى تميّزها لن تكون ببساطة مستوى أعلى من الإنتاج القائم على العلاقات و القيم عينها . و لن تكون " أكثر إنصافا " فى توزيع " الوفرة الإمبريالية " . ستكون مختلفة ليس فى مقدار الإنتاج على النطاق العالميّ فحسب بل أبعد من ذلك ، ستكون مختلفة راديكاليا و **نوعيّا** فى شكل التعاطي مع الإنتاج و صلته بالعلاقات و القيم الاجتماعية .

ستكون الإيديولوجيا ، وهي موضوع نقاش واسع فى مجتمعنا الآن ، مظهرا مركزيّا . و من الهام جدّا التذكير بالخطوات الكبرى إلى الأمام فى الصين الإشتراكيّة فى هذا المجال و نشرها فى صفوف الشعب (رغم أنّها ما زالت مجتمعا منقسما إلى طبقات و رغم أنّها وُجدت فى عالم هيمنت عليه الإمبريالية) : خطواتها الكبرى إلى الأمام فى تغيير المواد المبدّدة إلى منتوجات مفيدة و معالجة المشاكل الإيكولوجية / البيئيّة آخذين بعين الإعتبار مصالح الأجيال القادمة . و كان ذلك ممكنا لأنّهم لم يكونوا مندفعين بفوضويّة الرأسماليّة و البحث اللامتناهي عن الأرباح الرأسماليّة دون الإهتمام بالتأثيرات على الوسط الطبيعيّ على النظام الإيكولوجي .

عندما تبلغ الإنسانيّة الشيوعيّة ، سيسيطر الشعب بقيادة الإيديولوجيا الشيوعيّة على التكنولوجيا . و هذا من شأنه أن يخلق إمكانيّات لكلّ ألوان الأشياء غير الممكنة و حتّى غير المتصّورة فى المجتمع السابق ، و من شأنه أن يلبّي كلّ حاجيات الشعب و المجتمع ليس فى الحاضر فحسب ، بل مفكّرين فى الأجيال القادمة . و من المفيد هنا التذكير بتعليق لماركس فى " **رأس المال** " : " منظور إليه من نظام إقتصادي لمجتمع أرقى من مجتمعنا هذا ، سيبدو حقّ ملكيّة بعض الأفراد لكوكب الأرض عبثيّا شأنه شأن حقّ إنسان فى إمتلاك إنسان آخر . فلا أحد يمتلك الأرض ، لا مجتمع و لا شعب و لا حتّى كلّ مجتمعات فترة معيّنة مأخوذة معا . إنّهم ليسوا أكثر من حائزين و منتفعين بها عليهم أن يورّثوها للأجيال القادمة بعد أن يكونوا أدخلوا عليها تحسينات كمسؤولين جيّدين عن عائلات ." (ماركس ، " **أعمال : إقتصاد 2** " صفحة 1385-1386 ، الفصل 23 من الكتاب الثالث ، مكتبة بلياد ، باريس ، الطبعة الفرنسية) .

ستكون الشيوعيّة قفزة كبرى إلى الأمام بالنسبة للإنسانيّة ، أبعد من الآفاق التى يمكن الآن تبيّنها فقط . مثل الواقع بصفة عامة ، ستكون للمجتمع الشيوعيّ تناقضات و صراع (ستدفعه التناقضات و الصراع) لكن ليس على نحو تدخل فيه المصالح المحوريّة للأفراد أو المجموعات فى صدام جوهريّ . سيكون قد تم القضاء على النضال من أجل البقاء فحسب و على التقسيم الإجتماعي للعمل الذى ينطوى على بذور الإضطهاد و على التناحرات بين المجموعات البشريّة و إنفجارها فى صدامات عنيفة و على فهم غير صحيح للقوى المحرّكة للطبيعة و المجتمع وهي أشياء قد وُجدت فى صفوف الناس منذ الأزمان السحيقة و سيكون قد تمّ تجاوزها . لكن كقفزة إلى الأمام لن تعني الشيوعيّة النفي الكلّي و الإحاديّ الجانب لأشياء

الماضى . على العكس من ذلك ، ستعنى تقييما للإنتاجات و لتجربة تاريخ الإنسان بهدف التوّصل إلى خلاصة جديدة عبر الإشتراك التعاونيّ للناس المتحرّرين من التناحر الإجتماعيّ و الذين يطبّقون عن وعي نظرة إلى العالم موحّدة و شاملة و علميّة .

5/ تغيير المجتمع و تغيير " طبيعة الإنسان " :

فى الختام ، أرغب فى العودة إلى " طبيعة الإنسان " و ما على الماديّة التاريخيّة أن تقوله بهذا المضمار . كما رأينا ، إحدى الأطروحات المفضّلة أكثر و الأكثر إستعمالا لدى المدافعين عن النظام البرجوازيّ هي أن " طبيعة الإنسان " لا يمكن أن تتغيّر و أنّ العيب الجوهريّ للشيوعيّة و السبب الجوهريّ ل " فشلها " هو إرادتها تغيير " طبيعة الإنسان " و أنّ الناس أنانيّين بطبعهم و أنّه مقدّر لهم بطبيعتهم أن يفكّروا فى مصالحهم الخاصة فى تعارض مع المصلحة العامة و أنّ الشكل الوحيد للتوصّل إلى خير عام هو فتح الأبواب أمام المصلحة الفرديّة لكلّ واحد ضدّ الآخرين . هذا ما يدحضه تعليق آخر لماركس بأنّ وجهة النظر هذه تعكس ببساطة علاقات الإنتاج فى المجتمع البرجوازيّ و ليس الطبيعة غير القابلة للتغيير المفترضة للناس عبر التاريخ . و مثلما شرح ماركس ، فإنّ الإقتصاديّين السياسيّين البرجوازيّين يتّخذون علاقات الإنتاج الرأسماليّة على أنّها أبديّة أو هي نقطة نهاية التطوّر فى علاقات الإنتاج الإنسانيّة و أنّ أيّ تغيير فى المجتمع ليس بوسعه إلاّ أن يحدث ضمن حدود علاقات الإنتاج تلك . مع ذلك ، تبيّن الماديّة التاريخيّة لا أن هذه العلاقات الإنتاجية فحسب بل أيضا الأفكار المناسبة لها (و منها فكرة أنّه " لا يمكن تغيير طبيعة الإنسان ") محدّدة تاريخيّا ، إنّها إفراز مرحلة معيّنة من تطوّر التاريخ الإنسانيّ و سيقع تجاوزها بتقدّم صراع الطبقات و بناء عليه ، ستتحرّر قوى إنتاج المجتمع و أوّلا و قبل كلّ شيء ، ستتحرّر جماهير الشعب الكادح .

و تدلّل الماديّة التاريخيّة بوضوح أنّ مثل هذه " الطبيعة الإنسانيّة " الفطريّة و غير القابلة للتغيير لا وجود لها . ما يبدو معقولا و طبيعيّا ليس ذاته فى كلّ العصور و بالنسبة لكلّ الطبقات : يتطوّر مع التغيّرات فى الأوضاع الإجتماعيّة ، و فى المجتمع الطبقيّ يعكس على الدوام وجهة نظر طبقة (لنتذكّر تعليق ماركس بأنّ فى المجتمع الشيوعيّ المستقبليّ سيبدو عبثيّا و غير عاديّ أن يملك شخص أرضا ، كما هو الحال الآن بالنسبة لإمتلاك إنسان إنسانا آخر. و لنتذكّر التعليق السابق بأنّ الردّ على سؤال هل أنّ العبودية "معقولة " و " طبيعيّة " بأنّ المسألة تتعلّق بمن يجيب على السؤال ، تاجر العبيد أم العبد) . تُشير الماديّة التاريخيّة و الماركسية ـ اللينينية ـ الماوية إلى أنّ الثورة البروليتاريّة يمكن أن تحمل و ستحمل تغييرا عميقا ، تغييرا لم يشهد له مثيل فى العلاقات بين الناس و فى طريقة تفكيرهم و أخلاقهم و حوافزهم .

6/ الماديّة التاريخيّة و تقدّم التاريخ :

و مثلما وقع نقاشه قبلا ، فصّل إنجلز لماذا إلى الآن يعود وُجود بعض الميزات المتجانسة فى المجتمع الإنسانيّ و فى تصرّفات الناس (ما يسمّى " طبيعة الإنسان ") إلى أنّه حتّى الآن لم تتوفّر أسس القضاء على الندرة و النضال من أجل البقاء الفرديّ . لكن الآن ، كما يقول إنجلز ، قد ترسّخت هذه الأسس . الآن ليس من الضروريّ وجود علاقات فيها يسيطر جزء من المجتمع و يستغلّ جزءا آخر فحسب ، وإنّما يمثّل إستمرار مثل هذه العلاقات عائقا مباشرا أمام تحرير قوى الإنتاج و على الأخصّ الشعب . و فى الوقت الراهن ، يمكن القيام بثورة إجتماعية (وهي إستعجاليّة الضرورة) للذهاب بالإنسانيّة إلى أبعد من كلّ هذا ، نحو مرحلة جديدة من التاريخ البشري ." (إنجلز ، " **الإشتراكية الطوباوية و الإشتراكية العلميّة** " صفحة 88-89 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

و اليوم نحن على عتبة عهد جديد أي تجسيم هذه المرحلة الجديدة من التاريخ الإنسانيّ هو المهمّة التاريخيّة التى على الثورة الشيوعيّة أن تحقّقها و ستحقّقها . هذا ما تلخّصه الماديّة التاريخيّة و كلّ الماركسية ـ اللينينية ـ الماوية .

و يحتاج الشعب إلى الماديّة ! هذه الحاجة تعبّر عن ذاتها بحدّة فى الوضع العالميّ الراهن إزاء الأحداث العالميّة الكبرى و الرؤية المشوّهة التى تقدّمها الإمبرياليّة لها . يحتاج الشعب إلى الماديّة الجدليّة و تطبيقها على المجتمع الإنسانيّ ، الماديّة التاريخيّة . يحتاج إلى الإستيعاب العميق للعلاقات الطبقية و المصالح الطبقية فى كلّ سيرورة لأنّه مثلما شرح لينين :

" لقد كان الناس و سيظلّون أبدا ، فى حقل السياسة ، أناسا سذجا يخدعهم الآخرون و يخدعون أنفسهم ، ما لم يتعلّموا إستشفاف **مصالح** هذه الطبقات أو تلك وراء التعبير و البيانات و الوعود الأخلاقيّة و الدينيّة و السياسيّة و الإجتماعيّة ، لأنّ أنصار الإصلاحات و التحسينات سيكونون أبدا عرضة لخداع المدافعين عن الأوضاع القديمة طالما لم يدركوا أن قوى هذه الطبقات السائدة أو تلك تدعم كلّ مؤسّسة قديمة مهما ظهر فيها من بربريّة و إهتراء " . (لينين ، " **مصادر الماركسية الثلاثة و أقسامها المكوّنة الثلاثة** " ضمن ، ماركس و إنجلس ، " **مختارات** " ، الجزء الأوّل ، صفحة 33-34 ، دار التقدّم، موسكو ، الطبعة العربية) .

فضلا على ذلك ، يحتاج الشعب إلى فهم ما هو أساس هذه العلاقات الطبقيّة و ما هو لازم لتحطيم التقسيم و التناحرات الطبقيّة . و قد وقع التعبير عن هذا بشكل جليّ و قويّ فى ما يعرف ب " الكلّ الأربعة " التى قدّمها ماركس فى تصريح شهير حيث قال إنّ " هذه الإشتراكية إعلان للثورة المستمرّة ، الدكتاتوريّة الطبقيّة للبروليتاريا كنقطة ضروريّة للقضاء على كلّ الإختلافات الطبقيّة ، و للقضاء على كلّ علاقات الإنتاج التى تقوم عليها و للقضاء على كلّ العلاقات الإجتماعيّة التى تتناسب مع علاقات الإنتاج هذه ، و للقضاء على كلّ الأفكار الناجمة عن علاقات الإنتاج هذه " .

و من الواجب نشر " الكلّ الأربعة " فى صفوف الشعب حتّى أكثر فى هذا الزمن لتقديم فكرة أساسيّة و جليّة عن ماهيّة الشيوعيّة . و من الواجب نشرها فى صفوف الشعب بمعنيين : عرضها بصورة واسعة أمام الجماهير و رغم أنّها تُستعمل أحيانا حرفيّا كما صرّح بها ماركس لجعل الشعب يألفها ، ينبغى ترجمتها إلى مفردات أكثر شيوعا . و بهذه الطريقة سيدرك الناس فحواها و سيحتضنونها على أنّها منهم و إليهم بُغية إمتلاك نظرة عن ما تمثله " الكلّ الأربعة " (18).

و يحتاج الشعب إلى سعة النظر التى لا تقدّمها له إلاّ النظرة الماديّة الجدليّة للعالم و المنهج الماركسيّ- اللينينيّ- الماويّ : ملخّص التطوّر التاريخيّ و القوى الجوهريّة التى تحرّكه (التناقضات). هذه النظرة الكونيّة و هذا المنهج يسمحان للجماهير بإستيعاب أنّ طوال سيرورة تطوّره المعقّد و الملتوى ، توجد فى التاريخ الإنساني " الصلة " التى تحدث عنها ماركس . هذه النظرة الكونيّة و هذا المنهج يجعلانها قادرة على التعرّف على القوّة الكامنة الموجودة فى الوقائع الراهنة ، بالتحديد نظرا للتطوّر التاريخيّ السابق ، فى سبيل القطيعة الراديكاليّة و قفزة تحرّرية تبقى خلفها كلّ علاقات الملكيّة السابقة و المؤسّسات و الأفكار المتناسبة معها . يمكن لهذه النظرة الكونيّة و لهذا المنهج أن يلهما الشعب و يحثّاه على النضال بوعي لإنجاز الثورة الشيوعيّة فى العالم قاطبة .

هذا ما يعطى مادة و حياة لشعارات " الثورة أمل الذين لا أمل لهم " و " خدمة الشعب " و " لا تخشى أي شيء ، إبق صلبا إلى النهاية " . هذا ما يجب علينا نشره فى صفوف الشعب . علينا أن نستغل أيّما فرصة لتقديم هذا فى تعارض مع النظرة الكونيّة الفاسدة و المهينة ، نظرة الطبقة المهيمنة و نظامها البائد . و مع أنّ توجّهنا حاليّا مبنيّ ، سياسيّا ، على تحطيم النظام القديم ، علينا أن نزرع رؤية و بذور عالم جديد بالإيديولوجيا التى عانقناها و بطريقة تعبيرنا عنها عمليّا .

و كما صرّح ماو تسى تونغ :

" على الشيوعيّ أن يكون صريحا ، صافي السريرة ، مخلصا ، عظيم الهمّة و النشاط ، يفضّل مصالح الثورة على حياته ، و يخضع مصالحه الشخصيّة لمصالح الثورة . و عليه أن يتمسّك فى كلّ زمان و مكان بالمبادئ الصحيحة و بخوض النضال بلا كلل أو ملل ضد جميع الأفكار و الأفعال الخاطئة ، و ذلك من أجل توطيد الحياة الجماعيّة للحزب و تعزيز الروابط بين الحزب و الجماهير . و عليه أن يهتمّ بالحزب و الجماهير أكثر من إهتمامه بالأفراد و أن يهتمّ بالآخرين أكثر من إهتمامه بنفسه ."(ماو تسى تونغ ، " **ضد الليبرالية** " ، **مؤلفات ماو تسى تونغ المختارة** ، المجلد الثاني ، صفحة 42 ، بيكين ، دار النشر باللغات الأجنبيّة ، الطبعة العربيّة) .

ومثلما ينصّ على ذلك القانون الأساسيّ لحزبنا ، التوجّه الأساسيّ للشيوعيّين و الواجب الأوّليّ للمناضلين فى الحزب هو واجب أن " يثقوا دوما فى أذهانهم و أن يعتمدوا بكلّ قلبهم على و أن يسخّروا كلّ حياتهم للثورة و للدور التاريخيّ للبروليتاريا العالميّة أي تحقيق الشيوعيّة عبر العالم ". (**القانون الأساسي للحزب الشيوعي الثوري**، الولايات المتّحدة

الأمريكيّة ، أعضاء الحزب ، الفصل 3،1 ضمن " **البرنامج الجديد و القانون الأساسي الجديد للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكيّة** " ، صفحة 126)

فلتتمسّك البرجوازية الجديدة و القديمة بالنظام القديم و لتصرّح بأنّ الإنسانيّة لا تستطيع أن تصبو إلى أيّ شيء أفضل . أمّا نحن فإنّنا نعلم أنّ هذا غير صحيح . فللبروليتاريا الآن أكثر من أيّ زمن مضى ، عالم تربحه ، عالم جديد تصنعه و بإنجاز البروليتاريين لذلك ، لن يحرّروا أنفسهم فحسب بل سيحرّرون الإنسانيّة جمعاء .

- ماو أكثر من أي زمن مضى **!**
- عاشت الماركسية - اللينينية - الماوية **!**
- ماتت الشيوعية الزائفة ... عاشت الشيوعية الحقيقية **!**

هوامش الخاتمة

15- فى " **فى التناقض** " ، يستشهد ماو تسى تونغ بنصّ لينين " **فى مسألة الديالكتيك** " حيث قال لينين مشيرا إلى تبادل السلع " كشف التحليل **جميع** تناقضات (أو بذور **جميع** تناقضات) المجتمع الحديث [الرأسمالي] " ("**مؤلفات ماو تسى تونغ المختارة** " ، المجلّد الأوّل ، صفحة 464 ، بيكين ، دار النشر باللغات الأجنبيّة ، الطبعة العربية) .

16- كما سبق و قلنا ، هذه الظروف لا يمكن بلوغها سوى على الصعيد العالمي بعد سيرورة طويلة و ملتوية من التغيير الثوريّ حيث سيوجد تطوّر لامتكافئ أي إفتكاك سلطة فى عديد البلدان فى أوقات متباينة ، و جدليّة معقّدة بين النضالات الثوريّة و التغييرات الثوريّة للمجتمع فى تلك البلدان ، جدليّة يكون فيها المحوريّ و الحاسم فى آخر المطاف هو المجال العالميّ و يمثّل فيها التأثير المتبادل و المساندة المتبادلة لنضالات البروليتاريا فى كلّ بلد الحلقة المفتاح فى التحويل التام للعالم قاطبة .

17- للناس نوع من الحاجيات الأساسيّة ، لكن طريقة تلبيتها ، مواد الإستهلاك ، و كيفية حصولهم عليها إلخ ، كلّ هذا يحدّده المجتمع الذى فيه يعيشون . و فضلا عن ذلك ، و هذه نقطة هامة ، فإنّ حاجياتهم يُحدّدها طابع القوى المنتجة و علاقات الإنتاج (و البنية الفوقيّة المناسبة لها) فى المجتمع المعنيّ .

18- فى ما يخصّ هذا و تحديدا فى ما يخصّ العلاقة بين الماديّة التاريخيّة و " السرّ القذر للإستغلال الرأسماليّ " ، من المفيد التذكير بتصريح لإنجلز فى " **ضد دوهرينغ** " إستشهد به ستالين فى " **القضايا الإقتصادية للإشتراكية فى الإتحاد السوفياتي** " . لقد أعرب إنجلز عن أنّه " لأجل الوصول بهذا الإنتقاد [الأفضل النقد – المترجم] للإقتصاد [السياسيّ – المترجم] البرجوازيّ ، لم يكن يكفى أن يعرف المرء الشكل الرأسمالي للإنتاج و التبادل و التوزيع . فالأشكال التي سبقته أو التي لا تزال قائمة إلى جانبه في بلدان أقلّ تطوّرا ، كان ينبغي أن تدرس أيضا في خطوطها الأساسيّة على الأقلّ ، و أن تستخدم كنقاط للمقارنة "(" **القضايا الإقتصادية للإشتراكية فى الإتحاد السوفياتي**" ، صفحة 75 ، منشورات باللغات الأجنبيّة ، بيكين 1976 ، الطبعة الفرنسية / الطبعة العربيّة ، دار الفارابي ، بيروت 1954 ، صفحة 88) . كان هذا هاما لوضع الرأسماليّة فى منظور الحقيقة و على ضوئها و عليه من أجل رؤية **أبعد** منها .

++

الديمقراطية :

أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك

(بوب أفاكيان ، رئيس اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية / ديسمبر 1991)

http://revcom.us/bob_avakian/democracy/

مقدّمة :

هذا العنوان يذكّر عن قصد بعنوان كتاب ألّفته حول مسألة الديمقراطيّة و محتواها الإجتماعيّ و الطبقيّ و دورها التاريخيّ و علاقتها بالثورة البروليتاريّة و هدف الشيوعيّة . و جعلت الأحداث الراهنة فى العالم ، فى السنوات القليلة الماضية منذ وضعت ذلك الكتاب ، و بخاصة التغيّرات الراديكالية فى طبيعة حكم البرجوازيّة فى الإتّحاد السوفياتيّ و ما قد مثّل كتلته ـ إلى جانب الأحداث التى جرت بساحة تيان آن مان بالصين ، جعلت بالفعل ما قيل فى ذلك الكتاب من إمكانيّة و ضرورة صنع ما أفضل بكثير مناسبة أكثر و أهمّ من أيّ زمن مضى . فقد أكّدت معنى الخاتمة ، أنّه " حيث من الممكن الحديث عن الديمقراطيّة ، أيّا كان نوعها ، هذا علامة على أنّ إختلافات طبقيّة و ، بشكل أو آخر ، تناحرات إجتماعيّة و معها دكتاتوريّة لا تزال قائمة و بالفعل لا تزال تميّز المجتمع . و حينما لن يعود الأمر كذلك ، لن يكون بعدُ ممكنا أو ضروريّا الحديث عن الديمقراطيّة ".

(بوب أفاكيان ، " **الديمقراطية : أليس بوسعنا أن ننجز أفضل من ذلك ؟** " ، بانر براس ، شيكاغو 1986 ، صفحة 261)

و مثلما هو معلوم ، قد كانت لتلك الأحداث التى هزّت العالم ، فى البلدان المنظور إليها عادة على أنّها " شيوعيّة " ، الإنعكاسات الكبرى ليس على صفوف جماهير الشعب بصفة واسعة فقط ، بل كذلك على صفوف أولئك الذين إعتبروا أنفسهم شيوعيّين ثوريّين و قد ركّزوا أنفسهم على الخطّ الثوريّ لماو تسى تونغ و التاريخ العام للحركة الشيوعيّة العالميّة المتطابق مع ماركس و لينين و ماو . و مثال من الأمثلة القاطعة على هذا هو وثيقة نشرتها مؤخرا اللجنة المركزيّة لإعادة التنظيم ، الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي – اللينيني) [من هنا فصاعدا سيشار إليها باللجنة – المترجم] وهو تنظيم كان منتميا إلى الحركة الأمميّة الثوريّة . و تمثّل وثيقة ال ل م ت " **حول الديمقراطية البروليتارية** " إنكارا جوهريّا ليس ل " **بيان الحركة الأمميّة الثوريّة** " ذاته فحسب و إنّما أيضا إنكارا للمبادئ الأساسيّة التى بُنيت على قاعدتها تلك الوثيقة و فوق ذلك تمثّل إنكارا لكافة تجربة البروليتاريا العالميّة و الحركة الشيوعيّة العالميّة فى ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا و إنجاز التحويل الإشتراكي للمجتمع . (1) .

لنحدّد الأمر أكثر ، لا تدافع هذه الوثيقة إلاّ عن كمونة باريس سنة 1871 كممارسة شرعيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا فهي تضع تجربة الكمونة القصيرة و المحدودة جدّا فى تضارب مع كافة التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا فى المجتمع الإشتراكيّ إبتداءا بثورة أكتوبر السوفياتيّة سنة 1917 . (2)

و تجمل الحجّة الأساسيّة لوثيقة اللجنة فى الآتى : رغم أنّ لينين ، قبل ثورة أكتوبر ، دافع عن كمونة باريس كنموذج لدكتاتوريّة البروليتاريا (مثلما يمكن رؤية ذلك فى "**الدولة و الثورة** " الذى كتبه لينين قبل أشهر قليلة فقط من ثورة أكتوبر) فإنّه مع ذلك ، بالضبط بعد أن إفتكّت الثورة البلشفيّة السلطة ، مارس خطّ فرض دكتاتوريّة الحزب الشيوعيّ عوضا عن ممارسة جماهير الشعب الكادح ذاتها السلطة السياسيّة . و كما يقول المثل الباقي تاريخ . و طبّق ستالين دكتاتوريّة الحزب إيّاها و ذهب بها إلى أقصاها وحتّى ماو و الثورة الثقافية البروليتاريّة الكبرى لم يقطعا مع هذا النظام السياسي لدكتاتوريّة

الحزب . و هكذا ينبغى التبرّء من كلّ تلك التجربة التاريخيّة و " إحتكار السلطة السياسيّة " من طرف الحزب و يتعيّن على الثورات الإشتراكيّة المستقبليّة أن تعود إلى التطبيق الصارم لنموذج كمونة باريس .

و ليس من العسير معرفة أنّ خطّ وثيقة اللجنة إيّاها تتّفق فى كثير من النقاط مع الهجمات ضد اللينينيّة منذ عهد بعيد و مع الهجمات ضد الشيوعيّة عموما فى يومنا هذا . لهذه الأسباب من الضروريّ الردّ على تلك الوثيقة على رؤوس الأشهاد و بكلمات جليّة و قويّة . ما من سبيل لتجنّبها فهذه الوثيقة تجسّد تفسّخا كلّيا بالأحرى نحو المعارضة الإشتراكيّة الديمقراطيّة الكلاسيكيّة للشيوعيّة و الثورة البروليتاريّة . و يمكن أن يبدو هذا قاسيا لكنّه ليس قاسيا إلى درجة التأكيد الواضح فى تلك الوثيقة بأنّ كافة تجربة دكتاتوريّة البروليتاريا ، إبتداءا من الإتّحاد السوفياتي و التوجّه الأساسيّ القائد لهذه التجربة (ليس فى الإتّحاد السوفياتي فى ظلّ قيادة لينين و كذلك ستالين فحسب ، و إنّما أيضا فى الصين فى ظلّ قيادة ماو تسى تونغ) ، بأنّ كلّ هذه التجربة قد كانت خاطئة جوهريّا و ينبغى نبذها و إستعمالها كمادّة تعلّم من المثال **السيء**.

و من المؤلم على وجه الخصوص رؤية مثل هذا التحّول لأنّ اللجنة قد رسمت لنفسها مهمّة الدفاع عن و التطوير الأعمق لتاريخ ثوريّ جّد إيجابيّ و هام ، فى تطابق مع التجربة و القيادة الثوريّتين الأكثر تقدّما فى صفوف الحركة الشيوعيّة العالميّة (من ماركس إلى لينين إلى ماو) و فى تطابق كذلك مع كلّ تجربة النضال المسلّح لجماهير الفلاّحين بقيادة الشيوعيّين الثوريّين فى أواخر الستّينات و أوائل السبعينات فى الهند (لقد تميّزت هذه الفترة بإنفجار هذا النضال فى قرية نكسلباري فى دولة الهند و تحديدا غرب البنجاب ، فى ربيع 1967 و الذى غدا معروفا ب" رعد الربيع ")." رعد الربيع " هذا و الطريق الثوريّ المرتبط به كان موضع ترحيب حينها كتطوير عظيم قامت به القيادة الثوريّة للحزب الشيوعيّ الهندى و يبقى صحيحا مهما كانت الأخطاء و النواقص التى يكون إنطوى عليها . إنّ هذا التطوير الثوريّ شديد القوّة و الدلالة ليس فى ذلك الجزء من العالم فحسب ، بل فى العالم بأسره .

لهذه الأسباب فإنّ المقاربة التى ينبغى إتّباعها فى الردّ على تلك الوثيقة هي ما وصفه ماو ب " علاج المرض لإنقاذ المريض " بيد أنّ ماو كجزء من هذا شدّد على أنّه أحيانا ، من اللازم إحداث صدمة لإمرء ما لجعله يعى جدّية " المرض" و لمساعدته على البحث عن علاج . نُعتت وثيقة اللجنة ب" المسودّة " . من حسن الحظّ ، نتيجة للصراع الحاد للرفاق داخل و خارج اللجنة ضد الخطّ المتضمّن فى تلك المسوّدة ، ستنبذ كلّيا و رفاق اللجنة سيتّخذون من جديد ، مرّة أخرى الطريق الثوريّ و ستكون الحركة الأمميّة الثوريّة قد تعزّزت أكثر فى توطيدها العزم على التوحّد على أساس الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة و على الدفاع الصارم عن التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا بينما تلخّص بعمق أخطاء الحركة الشيوعيّة العالميّة و تتقدّم على تلك القاعدة . بهذه الروح و بهذا الهدف فى البال تمّ هذا النقد لوثيقة اللجنة .

و بداية و لتقديم فكرة عامة ، هذه بعض الإستنتاجات العامة التى يجب إستخلاصها من قراءة نقديّة لتلك الوثيقة :

1- هنالك نقص مذهل فى الماديّة فى تلك الوثيقة . هنالك غياب لفهم التناقضات الأساسيّة و خاصة فى القاعدة الإقتصاديّة لكن أيضا التناقضات بين القاعدة الإقتصاديّة و البنية الفوقيّة ، التناقضات التى تميّز المجتمع الإشتراكيّ كمرحلة إنتقاليّة . هذه مسائل حدّدها ماو و مركز قيادته الثوريّة كمسائل حاسمة للنضال ليس للدفاع عن دكتاتوريّة البروليتاريا فحسب و إنّما أيضا للتقدّم بالثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا و لقتال التحريفيّة و صعود البرجوازية إلى السلطة . لكن فى وثيقة اللجنة إيّاها يجرى نبذ كلّ هذا بإعتبار أنّ لا صلة له بالموضوع أو أنّه لا يعالج المسائل الأساسيّة !

و بالأخصّ ، هنالك نقص فى إدراك وجود إختلافات طبقيّة (و أيضا متقدّمين و متوسّطين و متأخّرين) ضمن الفئات الواسعة من " الشعب " فى المجتمع الإشتراكيّ أو بصفة أدقّ ، ثمّة رفض للإعتراف بالدور الحاسم للتحليل الطبقيّ الماركسيّ فمثل هذا التحليل منبوذ بإسم معارضة " الإختزالية الطبقية " !

و إضافة إلى هذا ، هنالك عدم إيلاء إهتمام جديّ (و على ما يبدو لا تولى أيّة أهميّة حقيقية) للمشاكل الصعبة للغاية التى واجهت الدول الإشتراكيّة نتيجة وجودها فى وضع " محاصرة " إمبريالية (و جود فى عالم لا تزال تهيمن عليه بالخصوص الإمبريالية) . و محاولة نقاش مسائل الديمقراطيّة و الدكتاتوريّة ، بعيدا عن تمحيص جديّ لهذا المشكل ينمّ عن نقص فى الجديّة ، و بالأخصّ ، ينمّ عن نزعة كلاسيكيّة و " نقطة عمياء " من الأنواع الإشتراكيّة الديمقراطيّة ، الأنواع

التى تزعم ، بنظرة برجوازيّة مثاليّة نموذجيّة ، معالجة مسألة الديمقراطيّة بطريقة " خالصة " و "غير طبقيّة " ، بغضّ النظر عن محتواها الفعليّ و عن الإطار التاريخيّ و الإجتماعيّ الفعليّ .

2- تقود الحجج المقدّمة فى وثيقة اللجنة حول دور الحزب (أو كما وضعوا ذلك ، فقدان دور طليعة مقنّنة للحزب فى المجتمع الإشتراكي) تقود إلى خطّ " إنتقال سلميّ " . و يقود منطق هذه الحجج ذاته إلى إستخلاص أنّ الإطاحة العنيفة فى حدّ ذاتها " قسريّة " و " نخبويّة " بالنسبة للجماهير (أو على الأقلّ بالنسبة لقطاعات منها لا تشارك فى هذا النضال المسلّح) و هي بالتالي خاطئة من حيث الجوهر .

و لا ترسم تلك الوثيقة ذلك الإستنتاج (فى الواقع تقول إنّ الإطاحة العنيفة بالحكم البرجوازيّ ضروريّة) إلاّ أنّ ذلك كذلك فقط لأنّ تلك الوثيقة لا يذهب منطقها الخاص إلى " نهايته المنطقيّة " . بهذا المعنى ، تتخفّى تلك الوثيقة خلف أولئك الإشتراكيّين الديمقراطيّين و الفوضويّين و السلاميّين إلخ الذين قدّموا تاريخيّا مثل تلك الحجج فى التأكيد على أنّ خوض حرب و حتّى حرب ثوريّة ، هو ذاته يعزّز النخبويّة و يمركز السلطة فى أيدى جهاز (الحزب ، فى صميم القوّة المسلّحة الثوريّة) الذى يقود الحرب الثوريّة و بعد القيام بذلك ، يشكّل لبّ نظام السلطة الجديدة . و عادة ما يكون هذا على صلة بمثل أولئك الناس الذين يندّدون بالتوجّه الأساسيّ للينين (على نحو خاص مثلما هو مركز فى " **ما العمل ؟** ") فى ما يتعلّق بدور القيادة الطليعيّة فى إرتباط بالجماهير . و يدّعى مثل هؤلاء الناس أن جذور " دكتاتورية الحزب " مكمنها هنا . و وثيقة اللجنة تستخدم تشويه " دكتاتوريّة الحزب " لكنّها لا تضمن " إكتشاف " " جذوره " فى " **ما العمل ؟** " (هنا أيضا " تتلكأ " تلك الوثيقة) .

و صرخة " دكتاتوريّة الحزب " هذه مرتبطة إرتباطا لا فكاك منه ب" كان عليهم ألاّ يرفعوا السلاح " (وهي لازمة لطالما ردّدها المعادون للثورة فى تنديدهم بكمونة باريس و كذلك بالثورة الروسيّة ، كما أشار إلى ذلك لينين و اللازمة المشتركة لمثل هؤلاء الناس فى معارضة كلّ الثورات الحقيقيّة لا سيما الثورات البروليتاريّة . هنا ، من المهمّ معرفة أنّ النضالات الثوريّة و مهما تمكّنت من التعويل بصورة أساسيّة على الجماهير ، فإنّها فى النهاية تمارس جزءا من القسريّة ، ليس ضد العدوّ فحسب و إنّما أيضا ، بطريقة مختلفة نوعيّا لكن فعليّة ، حتّى على الجماهير المتأثّرة بها (بمعنى فعليّ : تضطرّ الجماهير و خاصة تلك التى لم تشارك بعدُ إلى إتّخاذ موقف فى علاقة بها) .

و بالتأكيد كان هذا حال ثورة أكتوبر التى قادها البلاشفة سنة 1917 . و من المحتمل جدّا ، فى الواقع ، أن غالبيّة العمّال فى السوفياتات ، إذا أخذنا بعين الإعتبار البلاد ككلّ ، لم تكن بعدُ كُسبت إلى فكرة خوض الإنتفاضة المسلّحة آنذاك . و أكيد أنّ هذا كان صحيحا فى ما يخصّ الفلاّحين فى الريف و حتّى أهمّ من ذلك حيث أُنجزت الإنتفاضات المسلّحة أوّلا في المدن (على وجه الخصوص في بتروغراد و موسكو) فإنّ غالبية العمّال غير الصناعيّين ضمن الشعب كانت بالتأكيد غير مساندة بوعي للراية البلشفيّة لمّا شنّت تلك الإنتفاضات المسلّحة و مع ذلك ينبغى إعتبار أولئك العمّال غير الصناعيّين ضمن الفئات الواسعة من " الشعب " . إذن ، وفق منطق وثيقة اللجنة ، لا وجود لأيّ مانع من إستنتاج آخر سوى " كان عليهم ألاّ يرفعوا السلاح " . لا يمكنهم المحاججة "منطقيّا " أنّ على الطليعة ألاّ تفرض إرادتها على الشعب حين تكون فى السلطة و لكن بإمكانها القيام بذلك للتوصّل إلى السلطة ، فى البداية . إنّ التناقضات المعنيّة هنا يمكن أن تُحل عبر تطبيق الماديّة الجدليّة ، بيد أنّ هذا لا يمكن أن يحصل بتطبيق المنطق (البرجوازيّ) الذى تبنّته وثيقة اللجنة .

طبعا ، حقيقة (و حقيقة عميقة) هي أنّ نشاطات البلاشفة فى شنّ تلك الإنتفاضات المسلحة و قيادتها كانت تخدم مصلحة غالبيّة الجماهير و ليس فحسب فى نوع من المعنى التاريخيّ البعيد المدى ، بل أيضا بمعنى أنّها مناسبة لحاجيات الجماهير الآنية و الإستعجاليّة الملموسة و ل" إرادتها السياسيّة " . غير أنّ هذه هي النقطة : مقاييس مثل هذه هي بالضبط ما تنبذه الآن وثيقة اللجنة و تعوّضه بمنطق و مطالب الديمقراطية (البرجوازيّة) الشكليّة ، أي ، التأكيد على أشكال الديمقراطيّة بقطع النظر عن محتواها الإجتماعيّ و الطبقيّ أو بإعلاء الشكل فوق المحتوى .

3- المنطق نفسه سيقود أيضا إلى التخلّى عن دكتاتوريّة البروليتاريا ذاتها كنظام حكم " غير ديمقراطيّ " فدكتاتوريّة البروليتاريا هي أيضا تتضمّن جانبا من القسريّة من طرف الدولة ، فى علاقة لا بالطبقات المتناحرة فحسب و إنّما كذلك فى

علاقة بالأفراد فى صفوف (الفئات الواسعة من) الشعب . و سياسات أساسيّة (و منها أشياء من قبيل سُلّم الإختلافات فى الأجور إلى أشياء مثل بعث الملايين من الشباب المتعلّم إلى الريف ليندمج مع جماهير الفلاّحين) تحتوى جانبا من القسريّة .

و بالطبع ، لا يمكن التعويل على القسريّة فى علاقة بجماهير الشعب إذ ينبغى **التعويل** على التربية و الصراع على أساس خطّ إيديولوجيّ و سياسيّ شيوعيّ . غير أنّ هذا لا يستطيع أن يلغي تماما جانب القسريّة المتضمّن هنا . و يرتبط هذا بالوجود فى الجذر لإختلافات موروثة عن المجتمع القديم و من ذلك الإختلافات بين المدينة و الريف و بين العمّال و الفلاّحين و بين العمل الفكريّ و العمل اليدويّ.

لقد تحدّث لينين عن كيف أنّ الدولة لا تزال ضروريّة فى المجتمع الإشتراكيّ (و قد قصد حتّى حين تكون ملكيّة وسائل الإنتاج قد تمّت مشركتها كلّيا) بسبب وجود مثل تلك التناقضات . فهذه الدولة ضروريّة ، قال ، لأجل ضمان أن تعالج مثل تلك التناقضات على نحو متناغم مع التقدّم نحو الشيوعيّة ، لكن ، فى نفس الوقت ، تنطوي على ممارسة سلطة هذه الدولة (دكتاتوريّة البروليتاريا) وضع " الحق البرجوازي " أي التعبير قانونيّا و سياسيّا عن العلاقات التى تحتوى عناصر لامساواة موروثة من المجتمع القديم) موضع التنفيذ . و لكي يعرض رأيه بجلاء و بطريقة نوعا ما إستفزازية ، أشار لينين إلى هذه الدولة على أنّها " الدولة البرجوازية بدون البرجوازية ! " (لينين **" الدولة و الثورة "** ، دار التقدم ، موسكو ، صفحة 105 ، الطبعة العربية) .

لقد تناولت بالحديث هذه المسألة بإسهاب فى كتاب " **الديمقراطية : أليس بوسعنا أن ننجز أفضل من ذلك ؟** " (خاصة الفصل 7) . هناك إقتطفت مطوّلا من عمل لينين " **الثورة البروليتاريّة و المرتدّ كاوتسكى**" الذى يعالج هذه المسألة بصفة جليّة للغاية . إذ يتحدث لينين عن كلٍّ من الأساس الداخليّ و الروابط العالميّة للبرجوازيّة التى توفّر لها أفضليّات حقيقيّة على البروليتاريا التى صعدت حديثا إلى السلطة ولا تملك تجربة تاريخيّة فى ممارسة السلطة. و يبيّن لماذا ، لكلّ تلك الأسباب، ستكون دكتاتورية البروليتاريا ضروريّة لمرحلة تامة من الإنتقال من الرأسماليّة إلى مرحلة عليا من المجتمع . و كما نعلم ، طوّر ماوتسى تونغ هذا التحليل أكثر و رتّبه منهجيّا إلى الخط الجوهريّ ألا وهو أنّ الإشتراكية تمثّل مرحلة تاريخيّة طويلة للإنتقال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة و أنّ طوال كامل هذه المرحلة توجد طبقات و يوجد صراع طبقيّ و أنّه من الضروريّ النضال ضد إعادة تركيز الرأسماليّة و مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . غير أنّ وثيقة اللجنة قد تعامت عن كلّ هذا : بمنطقها لا تقدر على أن تقدّم تفسيرا ماديّا لسبب إطلاقيّة الحاجة إلى دكتاتوريّة البروليتاريا خلال مرحلة الإشتراكيّة و كيف أنّ هذه الدكتاتوريّة ليست فى نزاع مع بل **متماسكة مع** أنّ الإشتراكيّة و التقدّم صوب الشيوعيّة يتطابقان و المصالح الجوهريّة للبروليتاريا و الجماهير الواسعة و فى تعارض مع حفنة من المستغِلّين .

عوض مواصلة نقاش الإستنتاجات العامة المستخلصة من وثيقة اللجنة ، سيكون من الأفضل العودة الآن إلى تمحيص بعض الحجج الخاصة التى تقدّمها تلك الوثيقة. و هذا سيساعد على أن " تُكتسى باللحم " هذه الإستنتاجات الأساسيّة و على بسطها و تعميقها.

1 / بصدد الأحداث الأخيرة بالكتلة السوفياتية السابقة و بالصين

بادئ ذى بدء ، تكشف طريقة صياغة تلك الوثيقة تذيّل للأوهام الديمقراطيّة البرجوازيّة الصغيرة و نظرة برجوازيّة ديمقراطيّة عموما . ففى الجملة الأولى يُشار إلى أحداث السنوات القليلة الأخيرة " فى البلدان الإشتراكيّة سابقا مثل تلك التى حصلت بالصين والإتّحاد السوفياتي وتلك التى حصلت فى بلدان أوروبا الشرقيّة "على أنّها ببساطة " إنتفاضات ديمقراطيّة" (الفقرة 1-1 من وثيقة اللجنة) .

قبل كل شيء تلك الأحداث و منها الإنتفاضات الجماهيرية فى مثل تلك البلدان ، قد تضمّنت عديد القوى الطبقيّة المختلفة المعبّأة حول عدد من البرامج المختلفة ، لكن الشيء الأساسيّ هو أنّ **الإيديولوجيا و السياسة البرجوازيّين كانا فى القيادة** . نعتها ببساطة ب " إنتفاضات ديمقراطيّة " هو إخفاق فى القيام بأيّ تحليل طبقيّ جديّ (و فى تقديم الديمقراطيّة كما تقدّمها

البرجوازيّة : ظاهرة "عالمية " "غيرطبقيّة ") . إنّه تذيّل للعفويّة البرجوازيّة الصغيرة و أكثر ، إنّه تشجيع على الأقلّ بصفة غير مباشرة ، للقوى والرؤى و البرامج البرجوازيّة التى قادت تلك " الإنتفاضات الديمقراطيّة " .

و هذا صحيح بالرغم من أنّ تلك الوثيقة تذهب إلى صياغة مواقف عامة حول كيف أنّ " القوى الماركسيّة - اللينينيّة... قد حذّرتها [حذرت الشعوب] أنّ الديمقراطيّة البرجوازيّة أو الرأسماليّة المفضوحة ليست هي الحلّ " (فقرة 1-2) . مرّة أخرى نعت تلك الإنتفاضات ببساطة ب" الديمقراطيّة " هو إخفاء لمضمونها الديمقراطيّ **البرجوازيّ** إذ أنّ مضمون الشيء كما يوضح ماو ، مُحدَّد بطرفه الرئيسيّ الذى هو فى حالنا هذه هيمنة القوى و الرؤى البرجوازيّة داخل تلك " الإنتفاضات الديمقراطيّة " .

إلى ذلك ، من المهم ملاحظة ما يمكن أن يبدو ، فى البداية ، مثل مسألة صياغة غير هامة . فى بداية الفقرة الثانية ، نجد تحديدا للأنظمة فى " البلدان الإشتراكية سابقا " ك " إشتراكية **فاشيّة** " (الفقرة 1-2 التشديد مضاف) . هذه صياغة إستعملها ماو و قد إستعملها ماويّون بعده (و إستعملها أيضا ، أحيانا ، حزبُنا و لو أنّنا إنتهينا أكثر إلى تحديد شكل حكم البرجوازيّة فى الإتّحاد السوفياتي فى ظلّ خروتشاف و بريجناف و أمثالهما على أنّه " ديمقراطية تحريفية ") . على أنّ المسألة المهمّة هي أنّ الماويّين قد شدّدوا دائما على **المضمون الطبقي (المضمون البرجوازي)** لهذا الحكم البرجوازي . و فى كلّ من الوعي الشعبيّ العفويّ و فى تاريخ الحركة الشيوعيّة العالميّة ، يُتّجه إلى معالجة الفاشيّة كمسألة عمليّا " فوق الطبقات " ، مسألة " أتعس " من دكتاتوريّة البرجوازيّة " العاديّة " وهو أمر يبرز رسم حدود الصراع فى الفاشية **مقابل الديمقراطية البرجوازية** . هذا ما توحى به وثيقة اللجنة كذلك فإستعمال " الإشتراكية الفاشية " لوصف الأنظمة التحريفيّة يتكرّر وهو ثابت في ثنايا تلك الوثيقة و حين يقارن هذا ب " الإنتفاضات الديمقراطيّة " فهنالك التضمين الواضح بأنّ الديمقراطيّة (التى هي فى الواقع الديمقراطيّة البرجوازيّة) أفضل من " الإشتراكية الفاشيّة " و من الدكتاتوريّة المفضوحة عموما و حتّى ، مثلما سنرى ، أفضل من دكتاتوريّة **البروليتاريا** .

إلاّ أنّه لا ينبغى أن نعتمد على الخروج بإستنتاجات من الدلالات التى تبدو دقيقة . بصورة سريعة بما فيه الكفاية ، تنبذ تلك الوثيقة بصفة واضحة كافة التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا إبتداءا من الثورة السوفياتيّة و فى معارضة لها تخرج بنداء لما هو ديمقراطيّة برجوازيّة بالكاد مقنّعة . حين تقول الوثيقة ، منذ مطلع الفقرة الأولى ، إن ّللردّ على " إنعكاسات تلك التطوّرات " (" الموجة الحديثة من الإنتفاضات الديمقراطيّة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا ") على الشيوعيّين " أن يدركوا عمق هذه المشاكل و أن يكتشفوا الأجوبة المناسبة " ، حين تقول ذلك ، يصبح بديهيّا أن تلك الوثيقة تنظر إلى الأجوبة الأساسيّة التى قدّمتها الماركسيّة - اللينينيّة - الماويّة على أنّها غير كافية أو غير صحيحة و أنّ ما تسعى إليه هو إعادة تقييم جوهريّة (و نبذ) لما يُشار إليه بعد ذلك بقليل على أنّه " الفهم الماركسيّ - اللينينيّ التقليديّ لإعادة تركيز الراسماليّة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا " (فقرة 1-3) .

و يمسى هذا بيّنا أكثر و متقونا أكثر ، إثر ذلك بقليل :

" فى هذا الوضع ، من مهام الشيوعيّين الحقيقيّين النظر إلى الوراء و تحديد الجذور المتسبّبة فى هذا المشكل الذى تواجهه الحركة الشيوعيّة . دون الإجابة على المسائل الجوهريّة التى ظهرت أمامنا ، ليس بإمكان أيّ تنظيم شيوعيّ أن يتقدّم فى ممارسته الخاصة . لئن بقيت مثل هذه المسائل الجوهريّة دون إجابات لزمن طويل ، فإنّها ستُحبط الكوادر وتضعف التنظيم. بناءا عليه ، ينبغى لحلّ هذه المشاكل أو على الأقلّ محاولات حلّها أن يُتّخذ كمهمّة سياسيّة ملحّة . بهذه الروح ، نناشد كلّ الشيوعيّين الحقيقيّين أن يعيدوا تفحّص تاريخ الحركة الشيوعيّة بأسره و المفاهيم الأساسيّة التى رفعنا عاليا إلى الآن كي تكون لنا صورة واضحة عن دكتاتوريّة البروليتاريا مثلما جرى تطبيقها إلى يومنا هذا . " (الفقرة 1-9) .

إذن لننظر فى " إعادة التفحّص " هذه .

أوّلا ، لنستهلّ بإستشهاد آخر من تلك الوثيقة . تقول الوثيقة ، فى إشارة إلى " الفهم الماركسيّ - اللينينيّ التقليديّ لإعادة تركيز الرأسماليّة " : هذا التفسير صحيح بالأساس فى علاقة بالجانب الإقتصاديّ من إعادة تركيز الرأسماليّة . إلاّ أنّه غير

كافى للإجابة على المسألة السياسيّة الرئيسية التى تطرحها جماهير تلك البلدان . فمطلبها الأهمّ هو تفكيك النظام السياسيّ القائم الذى يصون إحتكار الحزب الشيوعيّ " (فقرة 1-3).

فى البدء ، هذا فصل ميتافيزيقي بين السياسة و الإقتصاد إذ لا يمكن أن يوجد تفسير صحيح فى ما يخصّ الجانب الإقتصاديّ إلاّ أنّه غير صحيح أو "غير كافى " بمعنى جوهريّ ، فى ما يخّص الجانب السياسيّ . و زيادة على ذلك ، تحجب الإشارة ، مثلما تفعل الوثيقة ، إلى " الجماهير" و " مطلبها الأهمّ " أنّ " تفكيك النظام السياسيّ القائم " هذا بينما يمكن أن يكون له سندا جماهيريّا معتبرا و أن يعبّر عن شعور جماهيريّ معتبر هو فوق كلّ شيء مطلب قوى **برجوازية**_ معيّنة ، فى كلّ من معنى أنّها هي من مثّلت القوّة المحرّكة فى تشجيعه و جوهريّا أكثر ، فى معنى أنه يتناسب مع مصالحها الخاصة و يلائم حاجياتها هي الواقعيّة فى الوضع الحاليّ.

ثمّ تستمرّ الوثيقة : " غير أنّه ، فى ما يتعلّق بجماهير تلك البلدان ، لا وجود لأيّ إختلاف بين الهياكل الأساسيّة لهذا النظام السياسيّ الإشتراكيّ الفاشيّ و تلك الأنظمة السياسيّة التى وجدت قبلا حين كانت إشتراكيّة " (فقرة 1-3) . و توضّح الوثيقة أنّها تتّفق مع هذه النظرة : " حتّى فى الصين ، حيث أفرزت الثورة الثقافيّة وضعا سياسيّا جديدا ، فإنّ هيكلة الدولة فى ظلّ دنك لا تختلف جوهريّا عن الهيكلة التى وُجدت سابقا " (المصدر نفسه) .

ياله من موقف مذهل ! لا إختلاف ؟ ! يعزى هذا إلى التذيّل لأكثر الناس تخلّفا ضمن الجماهير و إلى التذيّل للبرجوازيّة التى شجّعت لوقت طويل هذا الخطّ . إنّه لمن السخف أن يُطبّق على الإتّحاد السوفياتي ، ليس فى السنوات الأولى فحسب ، زمن قيادة لينين و لكن حتّى كموقف من العقود التى كان ستالين أثناءها قائد الإتّحاد السوفياتي . لننظر فى عدد قليل من الأمثلة : خوض الحرب ضد القوى المعادية للثورة و الغزاة الإمبرياليّين فى السنوات الأولى من الجمهوريّة السوفياتيّة ، النضالات المثيرة فى صفوف الحزب فى العشرينات (دون نسيان أنّ التكتّلات المنظّمة قد حُظرت فى الحزب) ، تعبئة الفيالق الواعية طبقيّا و النهوض الجماهيريّ الذى ولّد المزارع التعاونيّة فى بدايات الثلاثينات ، إستنهاض الجماهير لإنجاز التصنيع الإشتراكيّ ، بالرغم من بعض النزعات الخاطئة بوضوح فى ذلك الشأن ، كلّ هذه الأمثلة و أمثلة أخرى لا تحصى و لا تعدّ هي بديهيات جليّة عن أنّه ثمّة إختلاف راديكاليّ بين الإتّحاد السوفياتي لمّا كان إشتراكيّا و ثمّ عندما إستولى التحريفيّون على السلطة و أعادوا تركيز الرأسماليّة.

صحيح ، و بالخصوص بعد أن تمّت تحويلات كبرى فى إقتصاد الإتّحاد السوفياتي (أواسط الثلاثينات) أنّ نزعة ظهرت داخل الحزب السوفياتيّ و لدى ستالين كقائد له ، إلى التعويل أكثر على الإجراءات الإداريّة و الأخصائيّين و هلمجرا . و نقد هذا يمكن و يجب أن يتمّ (و قد قام به الماويّون) و ينبغى التعمّق فى فهم أساس تلك النزعات الخاطئة . بيد أنّ هذا لا يمكن القيام به بصفة سليمة إلاّ على أساس المبادئ الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة و ليس على أساس مبادئ الديمقراطيّة البرجوازيّة . و كدليل على هذا ، ليس نباح التروتسكيّين و المناشفة و الكوتسكيّين و الديمقراطيّين البرجوازّيين عموما حول رعب البيروقراطية فى ظلّ ستالين و لينين ، بل إنّ النقد التالي من لدن ماو تسى تونغ هو الذى يقدّم التوجّه السديد :

" زمن ستالين ، لم يكن ثمّة شيء آخر يعوّل عليه سوى الجماهير . لذلك طالبوا بالتعبئة العامة للحزب و الجماهير [يشير ماو إلى فترة أواخر العشرينات و بداية الثلاثينات] . بعد ذلك ، لما حقّق الإتحاد السوفياتيّ بعض المكتسبات ، صاروا أقلّ تعويلا على الجماهير " (الصفحة 177 من **" ماو تسى تونغ و بناء الإشتراكية "** ، نشر سوى ، سلسلة سياسة ، باريس 1975، الطبعة الفرنسية) . لكن علينا أن نبقى بأذهاننا ، مثلما فعل ماو بتماسك ، أنّ هنالك عالم من الإختلاف بين الماركسيّين الذين يخطئون (و حتىّ يخطئون جدّيا) فى إتّجاه أن يصبحوا أقلّ تعويلا على الجماهير من جهة و التحريفيّين الذين يحكمون على أساس إستغلال الجماهير و إضطهادها .

إنّها لمثاليّة و ميتافيزيقا محضة أن يحاجج أنّ هذا الإختلاف الراديكالي لم ينعكس على مؤسّسات المجتمع (فى ما حصل هنالك فعلا و على أيّة قاعدة) و فى علاقة الجماهير بكلّ هذا و موقفها منها .

هذه الحجّة شكلانيّة ضحلة فما تقصده هو قول إنّه بسبب وجود دور مؤسّساتي للحزب الشيوعيّ كقائد لكلّ جوانب الحياة السياسيّة و الإقتصاديّة ، لم يرسم أيّ إختلاف أساسيّ سواء مثّلت تلك القيادة الطريق الإشتراكيّ أم الطريق الرأسماليّ .

و تبرير هذه الحجة بإسم الجماهير "غير الطبقيّة " التى لا ترى " أيّ إختلاف " بين الهياكل الأساسية " للإشتراكيّة و الهياكل الرأسماليّة هو ، فى أفضل الأحوال ، تذيّل لتلك الأنماط و الأفكار الموجودة ضمن الجماهير و التى هي أكثر عبوديّة إزاء رؤية البرجوازيّة .

و هذا أسخف بوضوح عندما يُطبّق على الصين . هل " نسي" مؤلفو وثيقة اللجنة التحوّلات العظيمة التى أُنجزت على كلّ مستويات المجتمع الصينيّ ، أوّلا ، مع إفتكاك السلطة عبر البلاد بأسرها و حتّى أكثر خلال الثورة الثقافية ؟ ظاهريّا ، قد " نسوا " كيف أنّ التحريفيّين ، إثر إفتكاكهم السلطة بعد وفاة ماو فى 1976 ، ركّزوا هجومهم على الإرتداد عن كلّ ذلك بصفة منظّمة ، مفكّكين تلك " الأشياء الإشتراكية الجديدة " (أشياء من قبيل اللجان الثوريّة ، من المستويات الدنيا إلى مختلف المستويات العليا و التى كانت توحّد الجماهير و القادة فى أشكال حكم و إدارة فعليّة ، الإتّحادات الثلاثة فى واحد [3 فى 1] التى جمّعت الجماهير و الكوادر و الخبراء ، و هكذا ، على كافة مستويات المجتمع ، مساهمة العمّال فى الإدارة و مساهمة الإداريّين مثلهم مثل القادة الرسميّين فى العمل الإنتاجيّ كسياسة رسميّة ، مدارس 7 ماي للكوادر أين كان كوادر الحزب و الدولة يذهبون إلى الريف و يشاركون فى العمل الإنتاجيّ و كذلك فى الدراسة و النضال الإيديولوجيّ و السياسيّ، التربية و العلم " المفتوحي الأبواب " معبّئة الجماهير و معوّلة عليها و موحّدة الخبراء و الجماهير و التجربة العمليّة و الدراسة النظريّة ، العناية الصحّية الموجّهة إلى الجماهير و خاصة إلى جماهير المناطق الريفيّة بالإعتماد ليس على المستخدمين المحترفين فى الطبّ فحسب و لكن أيضا على " الأطباء ذوى الأقدام الحافية " عبر الرّيف و هلمجرا .

فضلا عن ذلك ، وهو أمر حاسم للغاية ، قد قام التحريفيّون بتغييرات جوهريّة فى جيش التحرير الشعبيّ ملغين طابعه كجيش ثوريّ يعتمد على الدور الديناميكي لوعي جنوده و على مساندة الجماهير الواسعة له . فقد عوّضه التحريفيّون بقوّة عسكريّة برجوازيّة "محترفة " (جيش التحرير الشعبي " الجديد" هذا هو الذى إقترف مجازر ساحة تيان آن مان فى 1989) . و يدا بيد مع هذا ، إرتدّ التحريفيّون عن الجهود الأوّلية ، فى ظلّ القيادة الثوريّة ، لبناء المليشيا تحديدا كتعبير عن الجماهير الواسعة المسلّحة بقيادة خطّ بروليتاريّ (حتّى مع بقاء عدم إمكانيّة إلغاء الجيش القائم لوقت معيّن نظرا لكلّ الأسباب التى سنناقش هنا) (3) .

هل ينتظر مؤلفو وثيقة اللجنة فعلا من أيّ إنسان على علم بكلّ ذلك أن يعتقد بأنّ ذلك لا يمثّل إختلافا واقعياّ فى الهياكل الأساسيّة للمجتمع أو أنّ الجماهير (و خاصة جماهير العمّال و الفلاّحين) غير واعية بهذه الإختلافات أو تعتبرها غير ذات بال ؟! فى تناغم مع " الهياكل الأساسيّة " و الإيديولوجيا البروليتاريّة المسيطرة فى الصين الإشتراكيّة ، حين رفع عمّال أرصفة شنغاي شعار " لنكن سادة الأرصفة ، لا عبيد الطنّية " ، حين مشى عمّال مؤسّسة إلى مكتب الإدارة سائلين مستخدمى الإدارة " أين هي مطارقكم " ؟ (أين هي مساهمتكم فى العمل المنتج ، إلى جانب العمّال ؟) ألم يكن ذلك إختلافا راديكاليّا عن وضع الصين اليوم و ألا تعرف جماهير العمّال الفرق؟ حين جرى تحطيم الكمونات فى الريف و جرى تشجيع عمل الفلاّحين الأغنياء بالزراعة ، حين تمّ تعويض شعار " خدمة الشعب " بشعار " أن نصبح أغنياء أمر رائع " كمبدأ مرشد ، ألا يجسّد كلّ هذا إرتدادا راديكاليا لم يكن فى وسع جماهير العمّال إلاّ معرفته ؟ مرّة أخرى ، لمّا تتحدّث وثيقة اللجنة إيّاها عن " الجماهير " ففى ذهنها على ما يبدو ، الجماهير الأكثر تخلّفا و قبل كلّ شيء أولئك من ضمن المثقّفين و شرائح أخرى ذات إمتيازات و التى هي متأثّرة فى غالبيّتها بالأفكار الديمقراطيّة البرجوازيّة " الكلاسيكيّة " و بالإيديولوجيا البرجوازيّة على وجه العموم .

<u>2/ أفق كمونة باريس : الثورتان البلشفيّة و الصينيّة كإمتداد و تعميق لها :</u>

بعد هذا ، لنعد إلى نظرة وثيقة اللجنة لما لخّصه ماركس بخصوص كمونة باريس فى مؤلّفه العظيم " **الحرب الأهلية فى فرنسا** " و خاصة فى ما يتعلّق بإلغاء الجيش القائم و تعويضه بالشعب المسلّح و أنّ كلّ موظّفى الكمونة قد وقع إنتخابهم و كان يمكن إقالتهم بأصوات الشعب ، عبر الإقتراع السريّ العام . و هذه الأجزاء من وثيقة اللجنة تذكّر كذلك بكيف أنّ لينين دافع عن تلك الدروس الأساسيّة فى " **الدولة و الثورة** " (و بعض الكتابات الأخرى فى الفترة السابقة بالضبط لثورة أكتوبر و فى الفترة اللاحقة لها) ، لكن بعد ذلك ، حتّى فى ظلّ لينين ، تحاجج وثيقة اللجنة بدأ الإبتعاد الأساسيّ عن هذا الطريق (الفقرات 2-1و 6-6) .

أوّلا ، لا بدّ من " نظرة تاريخيّة عامة " . و هنا علينا أن ننبّه مرّة أخرى إلى أنّ فى تجربة الإتّحاد السوفياتيّ (و تجربة الإشتراكيّة عموما إلى الآن) ، لم تستطع فعليّا أن تطبّق تماما السياسات التى إنتهجتها كمونة باريس (و لدرجة كبيرة ، فى البدايات الأولى من الجمهوريّة السوفياتيّة) وهي سياسات أولاها ماركس الأهمّية الحاسمة . بالتركيز على مظهر مفتاح من هذا ، نرى أنّه لم يكن من الممكن **إلغاء** الجيش القائم كمؤسّسة و **تعويضه** بالجماهير المسلّحة . و هذا يرتبط إلى درجة كبيرة بما قد تحدّثنا عنه آنفا : إنّ الثروات التى أدّت إلى الإشتراكيّة لم تحدث فى البلدان الرأسماليّة المتطوّرة صناعيّا حيث البروليتاريا تمثّل غالبيّة السكّان (أو على الأقلّ أوسع طبقة) كما توقّع ماركس و إنجلز ، بل حدثت فى البلدان المتخلّفة تكنولوجيّا و ذات سكّان فلاّحين كثيفي العدد و حيث تمثّل البروليتاريا أقلّية صغيرة ، و لم تحصل تلك الثورات فى عدد من البلدان فى آن ، و إنّما تقريبا فى بلد واحد كلّ مرّة (بغضّ النظر عن تجربة بلدان أوروبا الشرقيّة نتيجة الحرب العالميّة الثانية ، حيث وجدت بعض التحويلات فى مظاهر العلاقات الإجتماعيّة لكن لم يُوجد قط تحويل إشتراكيّ حقيقيّ للمجتمع) : و عاشت البلدان الإشتراكيّة فى عالم لا تزال تهيمن عليه الإمبريالية .

أمّا بالنسبة لسبب عدم قدرة البلدان الإشتراكيّة إلى حدّ الآن (وهو من المحتمل من غير الممكن لبعض الوقت فى المستقبل) على أن تلغي الجيش القائم و أن تعوّضه بالجماهير المسلّحة ككلّ ، فإنّنا نستطيع تلخيصه فى الآتي : سيتطلّب القيام بذلك تقدّما فى تحويل علاقات الإنتاج (و العلاقات الإجتماعيّة عموما) و كذلك تقدّما فى تطوّر قوى الإنتاج إلى درجة يصير معها بإمكان الجماهير جميعها ، و ليس فقط جزء صغير منها ، أن تتنظّم و تتمرّس على الشؤون العسكريّة على مستوى يكون كافيا حقّا للتعاطى ليس مع المعادين للثورة " المحليّين " فحسب و إنّما ، أبعد من ذلك ، للتعاطى مع القوى العسكريّة للقوى الإمبرياليّة المتبقّية و الدول الرجعيّة الأخرى . عندما يتمّ بلوغ هذه الدرجة ، لن توجد بعد فعليّا حاجة إلى قطاع من الجماهير (جسم خاص من الشعب المسلّح) يتخصّص فى و يسخّر نشاطه الأساسيّ للشؤون العسكريّة و حينذاك يمكن للجيش القائم أن يُلغي و يُعوّض بالجماهير المسلّحة ، غير أنّه مرّة أخرى ، ما من دولة إشتراكيّة من الدول التى قد وُجدت إلى الآن قد توصّلت أو حتّى إقتربت ، فى أيّ مكان ، من هذه النقطة .

فى كتاباته بصدد كمونة باريس ، لم تكن لماركس (و لينين عندما كتب " **الدولة و الثورة** " قبل ثورة أكتوبر) تلك التجربة ليلخّصاها . و إلى درجة هامة ، بينما من الواجب الدفاع عن التوجّه الجوهريّ فى تلك المؤلّفات فى ما يتّصل بدكتاتوريّة البروليتاريا ، فإنّ عديد المظاهر الخصوصيّة لتحاليلها تعكس فهما غير كافى للنضال الشرس و المعقّد و المديد من أجل تحقيق التحويل الشيوعيّ للمجتمع (و العالم) **بعد** تركيز دكتاتوريّة البروليتاريا فى بلد واحد أو فى عدّة بلدان . و مع ذلك ، فإنّ كمونة باريس دامت شهرين لا غير و فقط فى أجزاء من فرنسا (و لو أنّها أجزاء هامّة جدّا) و ليس فى البلاد بأسرها .
و لصبّ الإنتباه بصفة إستفزازية نوعا ما ، على الحدود التاريخية لكمونة باريس ، من المفيد إعادة ما صغته فى كتاب **" الديمقراطية : أليس بوسعنا أن ننجز أفضل من ذلك؟ "** :

" بهذا المضمار ، جديرة بالذكر هي الحجّة التى يقدّمها جيمس ميلار فى ما يتعلّق بنظرة ماركس لكمونة باريس فى1871: متمرّدو 1871 كانوا يشبهون بصفة لافتة للنظر المتمرّدين الباريسيّين فى 1792 و 1830 و1848 : حرفيّين و عمّال مياومين و صنّاع و منتجين خواص و محترفين و فقط بعض العاملين بالصناعة المعمليّة الجديدة . و مع أنّه يمكن النظر إلى كمونة باريس كتطوّر أخير للثقافة الشعبيّة الفرنسيّة المبنيّة على سياسات ساعد روسو فى تحديدها ، قبل ثلاثة أجيال ، فإنّه من العسير جدّا ، و خاصة على ضوء التاريخ المعاصر ، أن نجد فيها رائدا لثورة بروليتاريّة عالميّة . "

(ميلار ، " **روسو** " ، صفحة 260-261) .

" بينما تعدّ ملاحظات ميلار وحيدة الجانب و جملته الأخيرة بالخصوص خاطئة (إنحياز ميلار البرجوازيّ هو الذى جعل من الصعب عليه أن يجد فى كمونة باريس 1871 " رائدا لثورة بروليتاريّة عالميّة ") لكن تعليقاته ليست دون أيّة صلوحيّة إذ هي تعكس أنّ حتّى كمونة باريس هذه تجسّد كلاّ من العناصر القديمة ، الثورة البرجوازيّة و كذلك العناصر الجديدة ، الثورة البروليتاريّة و أنّه لم يكن بإمكانها ، فى حدّ ذاتها ، أن تستخدم كنموذج تام التطوّر لدولة بروليتاريّة (خاصة نموذجا للمراحل الأولى من الثورة البروليتاريّة العالميّة و تحاصره دول برجوازيّة قويّة ". (أفاكيان ، " **الديمقراطية ...**"، صفحات 38-39 ، الهامش 63) .

لا يمكننا أن نعقد مقارنة مثاليّة و ميتافيزيقيّة و نؤكد على أنّ على الواقع أن ينحني ليتطابق مع ما تصوّره ماركس (ولينين، قبل ثورة أكتوبر بوجه خاص) على ضوء تجربة كمونة باريس الهامة جدّا و لكن أيضا المحدودة جدّا . إذا فعلنا ذلك ، يمكن أيضا أن نشدّد على أن تقفز البروليتاريا فى الحال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة التامة و بالتالى تجنّب كلّ التناقضات المتضمّنة فى المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة و دكتاتوريّة البروليتاريا ! ما **علينا** أن نشدّد عليه هو تقييم الخطّ و الممارسة الرائدين للدول التى حصلت فيها مثل تلك الثورات لنرى ما إذا كانت فعلا متناغمة مع التوجّه الجوهريّ الذى سطّره ماركس من خلال تلخيصه لكمونة باريس و ما إذا كانت الخطوط و السياسات و المؤسّسات و الأفكار التى ميّزت تلك المجتمعات قد قادت بصفة شاملة إلى إتّجاه تحويل المجتمع نحو إلغاء الطبقات و معها الدولة (و الحزب) . و إنطلاقا من هذه المقاييس ، ينبغى لنا من جديد أن نعيد تأكيد " الفهم الماركسيّ- اللينينيّ التقليديّ "بأنّ الإتحّاد السوفياتي ، فى ظلّ قيادة لينين و ستالين ، و الصين ، فى ظلّ قيادة ماو ، قد مثّلا مواصلة لكمونة باريس.

نقطة أخرى يتعيّن تفحّصها هنا وهي طريقة أخرى فيها توقّعات لينين فى ما يخّص طابع الثورة البروليتاريّة لم يتمّ تأكيدها كلّيا . ففى السنة الأولى بعد ثورة أكتوبر ، كتب لينين :

" مصيبة الثورات الماضية أنّ الحماسة الثوريّة عند الجماهير ، هذه الحماسة التى كانت تدعم توتّرها و تبعث فيها القوّة لقمع عناصر التفسخ بلا رحمة ، إنّما كانت لا تدوم طويلا . و السبب الإجتماعيّ ، أي السبب الطبقيّ لهذه الرخاوة فى الحماسة الثوريّة عند الجماهير ، إنّما كان ضعف البروليتاريا ، القادرة **وحدها** (إذا كانت بما يكفى من العدد و الوعي و الطاعة [الأفضل فى الترجمة يكون الإنضباط ، حسب رأينا - المرتجم]) على حشد **أغلبيّة** الشغيلة و المستثمَرين (أغلبيّة الفقراء ، إذا تكلّمنا بلغة أبسط و أكثر شعبيّة) و الإحتفاظ بالسلطة زمنا طويلا كافيا لكي تقمع نهائيا جميع المستثمِرين و جميع عناصر التفسّخ على حدّ سواء .

إنّ هذه التجربة التاريخيّة التى كدّستها جميع الثورات ، إنّ هذه العبرة – الإقتصاديّة و السياسيّة – التى يعطيها التاريخ العالميّ هي التى لخّصها ماركس فى صيغة وجيزة ، قاطعة ، دقيقة ، ناصعة : دكتاتورية البروليتاريا ."

(لينين ، " **المهام الحالية أمام الحكومة السوفياتية** "،" **المختارات** " في ثلاثة مجلّدات ، مجلد2 ، جزء 2 ، صفحة 277 ، التشديد فى النص الأصليّ ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

هنا كان لينين يقارن ثورة تقودها البروليتاريا و ثورات سابقة فيها لم تكن البروليتاريا قادرة على كسب قيادة النضال إلى حدود الإطاحة بالرأسماليّة و خوضه . لكن فى بعض المظاهر الهامة ، ما يقوله لينين هنا ، بشأن صعوبة الحفاظ على الحماس الثوريّ للجماهير ، قد بيّن أنّه ينطبق على الثورة البروليتاريّة عينها .

وهذا مرتبط بما مثّل السيرورة الفعليّة للثورة البروليتاريّة فى العالم حتّى الآن (كما نوقشت أعلاه) و ما يتّصل بها من أنّه تبيّن أنّ الإنتقال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة سيرورة طويلة الأمد و معقّدة و متعرّجة أكثر بكثير ممّا كان قد توقّعه سابقا ليس ماركس و إنجلز فحسب ، بل كذلك لينين ذاته قبل ثورة أكتوبر و فى الفترة الموالية لها بالضبط (فى بداية العشرينات و فى السنوات الأخيرة من حياته ، واجه لينين بصورة شاملة أكثر مسألة أنّ من المحتمل جدّا أنّه سيكون على الثورة السوفياتيّة أن " تمضى لوحدها " لفترة من الزمن) .

و بدوره ، كلّ هذا وثيق الإرتباط بكون هنالك طابع يشبه الموجة للصراع الطبقيّ فى ظلّ الإشتراكيّة و بوجه خاص طابع يشبه الموجة للإنتفاضات الجماهيريّة دفاعا عن دكتاتوريّة البروليتاريا و دفعا للثورة إلى الأمام فى ظلّ هذه الدكتاتوريّة .
و بالعودة إلى موقف لينين حول الحفاظ على الطاقة و الحماس الجماهيريّين ، يمكن وضع المسألة على هذا النحو : كما إنتهى إليه الأمر ، مع المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة و دكتاتورية البروليتاريا الدائمة أكثر ممّا تمّ التوقّع و مع الثورات الإشتراكيّة الأولى التى لم تتّبع بثورات أخرى فى المجتمعات الأكثر تقدّما تقنيّا و مع تواصل وجود الدول الإشتراكيّة فى وضع محاصرة إمبرياليّة ، مع كلّ هذه العوامل التى ناقشنا ، من غير الواقعيّ توقّع ، و لم يكن الحال أنّ إستطاعت الجماهير أن تحافظ على درجة عالية و حادة من الحماس و الطاقة الثوريّين على قاعدة مستمرّة . فى الواقع ، توقّع أنّ تستطيع ذلك متناقض ليس مع التجربة فحسب بل أيضا متناقض مع مبادئ الجدليّة .

نظرا لكافة طبيعة سيرورة الإنتقال المتناقضة من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة عالميّا و كجزء من هذه الطبيعة المتناقضة ، فإنّ دور الجماهير كحاكمة للمجتمع و كمالكة لوسائل الإنتاج فى ظلّ الإشتراكيّة أمر واقعيّ لكنّه غير مطلق (إنّه نسبيّ و متناقض بحدّة) و فى آن تُعبّر عنه مباشرة مساهمتها الخاصة فى كلّ مجالات المجتمع و بصفة غير مباشرة تُعبّر عنه وسائل عدّة ، و فى المصاف الأوّل الدولة و الحزب الطليعيّ .

مرّة أخرى ، ليس بوسع أيّة مقاربة شكلانيّة (أيّ تأكيد على الديمقراطيّة الشكليّة كجوهر المسألة) حتّى أن تعالج بجديّة هذا التناقض ، ناهيك عن حلّه . و التشديد على مثل هذه المقاربة هو فعلا عمل يتّفق مع مبادئ الديمقراطيّة **البرجوازية** و مع مصالح البرجوازية فى مهاجمة دكتاتورية البروليتاريا و تقويضها تحديدا على ذلك الأساس ذلك أنّه لا يتماشى ، فى جميع النواحي الهامة ، و مبادئ الديمقراطيّة الشكليّة و أنّه بالتالى ، يمثّل نقضا للديمقراطيّة ، حتّى بالنسبة للذين تمارس بإسمهم .

و لنسلّط الضوء على مزيد النقاط الخاصة بهذا الموضوع .

تقول الوثيقة : " هذا البرنامج العام لإفتكاك السلطة أنجزه مندوبو المؤتمر الثاني لسوفياتات عمّال و جنود عموم روسيا المنعقد فى 25-26 أكتوبر 1917 " (فقرة 5-2) .

بيد أنّه من المهمّ ملاحظة أنّ البلاشفة لم **يترقّبوا** هذا المؤتمر ليفتكّوا السلطة فقد شرعوا فى الإنتفاضة المسلّحة **قبل** هذا المؤتمر . و مثلما يُسرد فى **" تاريخ الحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي (البلشفي) "**، فإنّ مؤتمر سوفيتات عموم روسيا إفتُتح " حين كانت بعدُ إنتفاضة بتروغراد فى تدفّق تام للإنتصار و قد صارت السلطة فى العاصمة فعليّا بأيدى سوفيات بتروغراد " (**" تاريخ الحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي (البلشفي) "** ، الباب السابع ، الجزء 6 ، باريس 1971 ، نشر نورمان بيتون) . و قد عارض تروتسكى و آخرون ذلك واقفين على المسألة الشكليّة أنّه ينبغى على الإنتفاضة المسلّحة أن يعلنها مؤتمر سوفياتات عموم روسيا . و يرتبط كلّ هذا بالنقطة التى عرضنا آنفا (فى ملخّص الإستنتاجات العامة) حول كيف أن التشديد على الديمقراطيّة الشكليّة الذى يُميّز وثيقة اللجنة سيؤدى منطقيّا إلى إعلان أنّ الإنتفاضة المسلّحة التى قادها البلاشفة خرق للديمقراطيّة و إخفاق فى التعويل على الجماهير ، من خلال مؤسّساتها الممثّلة ، فى القيام بإفتكاك السلطة . و يلتقى هذا بصورة كبيرة مع الحجج التى قدّمها تروتسكي آنذاك ، و لئن تمّ الإستماع إلى تلك الحجج ، كان من المحتمل جدّا أن تجهض الإنتفاضة المسلّحة و عندئذ لم تكن لتوجد قط ثورة أكتوبر نتجادل بشأنها .

تعتقد وثيقة اللجنة أنّ القرار البلشفيّ الخاص بالإنسحاب من المجلس التأسيسيّ " كان ذلك مبرّرا بمعنى أنّ سلطة السوفيات التى إنبثقت عن الثورة كانت تمثّل حقيقة الإرادة السياسيّة للغالبيّة العظمى من الشعب ". و تقول كان من المبرّر حينذاك حلّ المجلس التأسيسيّ بقرار من اللجنة المركزيّة لسوفياتات عموم روسيا وهو قرار إتّخذ بمبادرة من البلاشفة "(فقرة 5-4) .
لا حظوا جيّدا : " كانت تمثّل حقيقة الإرادة السياسيّة للغالبيّة العظمى من الشعب " (هذا صحيح و كما جرى التشديد عليه سابقا ، فإنّ هذا ينطبق كذلك على تنفيذ الإنتفاضة المسلّحة ، حتّى و إن لم يكن ذلك قد أُنجز بصرامة بقرار مؤتمر سوفياتات عموم روسيا أو بالموافقة الشكليّة لغالبيّة الجماهير ، من خلال أجهزتها المنتخبة . و بالفعل هذا هو المقياس :أن يكون الأمر أو لا يكون متطابقا مع المصالح الجوهريّة و أيضا مع " الإدارة السياسيّة " لجماهير الشعب هو لبّ المسألة وهو إلى حدّ بعيد حاسم أكثر من مسائل الديمقراطيّة الشكليّة . لكن هذا المقياس تحديدا الذى " تنساه " الوثيقة (وتتخلّى عنه و تعوّضه بمقياس الديمقراطيّة الشكليّة) فى " إعادة فحصها " للتجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا (و الشيء ذاته ، فى ما يخصّ " تاريخ الحركة الشيوعيّة بأسره و المفاهيم الأساسيّة التى رفعنا عاليا إلى الآن ".

ثم تقول الوثيقة: " إلاّ أن ما كان يتطوّر كنظام سياسيّ جديد كان ينزلق تدريجيّا تحت تحكم الحزب الشيوعيّ "(فقرة 5-7).

هنا تبدأ الحجّة حول " دكتاتوريّة الحزب " فى التحوّل أكثر إلى أوج التفتّح . و تستمّر الوثيقة لتؤكد " أعلن لينين بصراحة أنّ دور الحزب بإختصار " إثر سنتين و نصف السنة من السلطة السوفياتيّة ، برزنا بالأمميّة الشيوعيّة و قلنا للعالم إنّ دكتاتوريّة البروليتاريا لن تعمل سوى من خلال الحزب الشيوعيّ ." (الأعمال الكاملة ، مجلد 32 ، صفحة 208، الطبعة الفرنسية) . الآن إكتملت الدائرة . إنتهى البرنامج العمليّ لتركيز دكتاتورية البروليتاريا الذى إبتدأ بشعار جذاب " كلّ السلطة للسوفيات " ، إنتهى إلى واقع أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا تمارس من خلال الحزب الشيوعيّ حيث صارت

السوفياتات مجرّد دواليب فى الآلة . و حتّى إن كان نقد كاوتسكى نابع من زاوية نظر البرلمانيّة البرجوازيّة ، فى الواقع ، تبقى المسألة أنّ في الوضع العالميّ وقتذاك لم يظهر نظام سياسيّ جديد نوعيّا تُصوّر فى دكتاتوريّة بروليتاريا حقيقيّة ، لم يظهر كواقع تاريخيّ إذ ليست الطبقة و إنّما حزبها هو الذى يحكم فعلا ." (فقرة 5-8) .

و بالفعل ، بعض المزاعم و التشويهات المقدّمة هنا متعلّقة بالمسائل الأساسيّة لذا من الضروريّ بحثها بشيء من العمق .

أوّلا ، لا يمكننا أن ندع يمرّ التعبير الذى يبدو بريئا ألا وهو "حتّى و إن كان نقد كاوتسكى نابعا من زاوية نظر البرلمانيّة البرجوازيّة ". فى الحقيقة "حتّى و إن " هذه هي بالضبط النقطة هنا فمعارضة كاوتسكى لدكتاتوريّة البروليتاريا كما مورست فى ظلّ قيادة البلاشفة ، منذ زمن لينين فصاعدا ، كانت متّصلة كلّيا ب " البرلمانيّة البرجوازيّة " فقد كان بالذات موقف مثل هذه " البرلمانيّة " هو الذى أدّى بكاوتسكى إلى تحريف ما كانت عليه دكتاتوريّة البروليتاريا هذه و إلى معارضتها . و فى الجوهر ، هو نفس الموقف الذى يشى (أو يشوّه) بتحريف كافة التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا فى هذه الوثيقة . و حقّا تتميّز هذه الوثيقة بمنطق كاوتسكى من ألفها إلى يائها " حتّى و إن " كانت لا تعانق كاوتسكى بشكل مفتوح و تام .

و ينعكس هذا فى الإستعمال المحرّف و المشوّه لإستشهادات بلينين و ستالين فى هذا القسم من وثيقة اللجنة . فى الأوّل ، لننظر فى معالجة هذه الوثيقة لمواقف لينين حول المسألة الأساسيّة أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا مثلما صرّح لينين بجلاء ، لن تنجح دون الدور القيادي للحزب الشيوعي .

فى نفس عمل لينين بالذات (و على نفس الصفحة عينها) الذى منه إقتطفت وثيقة اللجنة ، يوضّح لينين أنّ هذا لا يعنى أنّ الحزب يمارس الدكتاتوريّة عوضا عن البروليتريا أو أنّ الحزب منفصل بطريقة ما عن البروليتاريا فى ممارسته لهذه الدكتاتوريّة . و يوضح أنّ البروليتاريا هي التى تمارس الدكتاتوريّة غير أنّها لا تستطيع القيام بذلك دون قيادة الحزب . مرّة أخرى ، على نفس الصفحة المستشهد بها و عبر هذا العمل (خطابات لينين فى المؤتمر العاشر للحزب ، فى مارس 1921) ، يشدّد لينين على انّها لنزعة فوضويّة و نقابوية تلك التى لا تقدر على رؤية وحدة قيادة الحزب و ممارسة الجماهير البروليتاريّة للدكتاتوريّة و أنّ تُهما حول دكتاتوريّة الحزب تظهر فى إطار و إلى درجة معتبرة بسبب تأثير جوّ الإنحلال البرجوازيّ الصغير و من هنا وُجدت فى الجمهوريّة السوفياتيّة كنتيجة للحرب الأهليّة الطويلة و الإنخلاعات الضخمة و الإفلاس الإقتصادي الذى أفرزته تلك الحرب و فى إثرها (لقد كان موقف عديد العمال و نظرتهم يضعفان تدريجيا فى تلك الظروف و كانت جماهير الفلاحين تفلس و لم تتم بعدُ إعادة تركيز العلاقات الإقتصادية بين العمّال و الفلاّحين و المدينة و الريف و لم تُعد صياغتها على قاعدة خطوط جديدة) . ردّ لينين هذا على نقّاده حينذاك ينسحب بصفة جيّدة جدّا كردّ على مؤلّفى وثيقة اللجنة ، بعد سبعين سنة تقريبا .

أمّا فى ما يتّصل بموقف " صارت السوفياتات مجرّد أجهزة لنقل الحركة " فإنّه يبدو أنّ مؤلّفى الوثيقة يعتقدون أنّهم سجّلوا نقطة عميقة بإضافة " مجرّد " هنا . لكن كما شرح ذلك لينين ، لا وجود لأيّ شيء " مجرّد " حول ذلك . فقد اوضح، من جهة ، أنّ " الحزب يستوعب ، إذا جاز القول ، طليعة البروليتاريا ، و هذه الطليعة تطبّق دكتاتوريّة البروليتاريا " (لينين : " **عن النقابات** " (مجموعة من المقالات و الخطب) دار التقدم ، موسكو ، صفحة 405 ، ضمن خطاب **"عن النقابات ، و عن الوضع الراهن ، و عن أخطاء الرفيق تروتسكي** ").

و يستشهد مؤلّفو هذه الوثيقة فعلا بهذا الموقف لدي لينين بيد أنّهم لا يدركون مغزاه إذ يبدو أنّهم جانبوا الأمر كثيرا بسبب إستعمال تشبيه " دواليب " بحيث أنّ بالنسبة لهم قليل الأهمّية أن يقول لينين أنّ السوفياتات تضطلع بوظائف الحكومة و أنّ هذه السوفياتات " مؤسّسات خاصة " وهي من " نوع جديد " (لاحظوا ليست نفس المؤسّسات القديمة للمجتمع البرجوازيّ و إنّما تمثّل شكلا جديدا راديكاليّا من سلطة الدولة وهي تضطلع بوظائف الحكومة) كيف و بأيّة نظرة يمكن حذف المغزى التاريخيّ لهذا؟

نعم ، يناقش لينين بصراحة مسألة أنّ : " البروليتاريا ، لا عندنا فقط ، فى بلد من أشدّ البلدان الرأسماليّة تخلّفا ، بل أيضا فى جميع البلدان الرأسماليّة الأخرى ، لا تزال متفرّقة ، و مهانة و مرشوّة هنا و هناك (من قبل الإمبرياليّة على وجه الضبط

فى مختلف البلدان) إلى حدّ أنّه يستحيل على التنظيم الشامل الكليّ للبروليتاريا أن يحقّق الدكتاتوريّة مباشرة . فلا يمكن أن يحقّق الدكتاتوريّة غير الطليعة التى إستوعبت الطاقة الثوريّة للطبقة (نفس المصدر السابق ، صفحة 406) .

ثم يستطرد لينين ليصوغ الموقف الجالب لسوء السمعة بأنّ " الحاصل أشبه بعدد من العجلات المسنّنة " و " يستحيل تحقيق الدكتاتوريّة بدون بضعة " أجهزة لنقل الحركة " من الطليعة إلى جمهور الطبقة الطليعيّة ومنها إلى جمهور الشغّيلة." (نفس المصدر السابق ، صفحة 407).

هنا ليس بإستطاعة المرء سوى أن يتساءل : ما الخطأ فى هذا ؟ أين ، فى أيّ جزء من هذا ، يوجد فهم أنّ الحزب يمارس دكتاتوريّة البروليتاريا و وظائف الحكومة **عوضا** عن الجماهير ؟ الإعتراض الوحيد الذى يمكن إثارته و الذى أثارته فعلا وثيقة اللجنة هو أنّ لينين يشدّد على الدور القياديّ للحزب . بوسعكم أن تعارضوا هذا إذا أردتم ذلك (و من المؤكّد أنّ البرجوازيّة و عديد المناشفة و الإشتراكيّين الديمقراطيّين و هلمجرا ، منذ زمن لينين فصاعدا ، قد عارضوا ذلك بعنف) لكن أيّ إنسان يدّعى أنّه شيوعيّ و أنّه يدافع عن دكتاتوريّة البروليتاريا ينبغى عليه مبدئيّا أن يبيّن كيف يمكن بالفعل للجماهير أن تمارس دكتاتوريّة البروليتاريا و تحول دون إعادة تركيز الرأسمالية **دون** الدور القياديّ للحزب ، أي ، دون الدور القياديّ **المؤسّساتي** للحزب . الواحد هو نفسه الآخر : الإعتراف بالدور القياديّ قولا بينما يقع التأكيد على **ألاّ** يكون دورا قياديّا مؤسّساتيّا مفاده فى الواقع ، نفس الشيء شأنه شأن **إنكار** الدور القياديّ ككلّ . و سوف نرى كيف أنّ وثيقة اللجنة تهدف بالذات إلى أنّ من الأفضل بكثير أن تبقى الجماهير دون الدور القياديّ (المؤسّساتي) للحزب فى ظلّ الإشتراكيّة و كيف تخفق الوثيقة ببؤس – كما عليها أن تخفق – فى تبيان ذلك .

كي توضع هذه المسألة برمّتها الخاصة بدور السوفياتات (و تنظيمات جماهيريّة أخرى) فى علاقة بالحزب الشيوعي فى أفق أرحب و تاريخيّ أشمل ، من الضروريّ أن " نميط اللثام " عن كلّ هذا الشيء قليلا . و فى المصاف الأوّل ، و لو انّ السوفياتات ، بمعنى حقيقيّ و عميق ، كانت من إبداع الجماهير ، فإنّها لم تكن بحال مسألة إبداع جماهيريّ " نقيّ " أو " عفويّ " بنقاوة . كانت السوفياتات إفرازا للصراع الطبقيّ فيه كانت الجماهير متأثّرة بعدد من القوى السياسيّة المختلفة و منها البلاشفة و كذلك المناشفة و عدد من الآخرين . و فى صفوف السوفياتات ، منذ بدايتها ، وُجد صراع مستمرّ و عادة ضار بين ممثّلي مختلف التيّارات ممثّلة ، فى النهاية ، مصالحا طبقيّة مختلفة .

تعبير له دلالة بالغة عن هذا الصراع كان مسألة ما هو ، برغم كلّ شيء ، الدور السياسيّ للسوفياتات و أيّة سيرورة ستكون هذه السوفيتات رافدا من روافدها . لنطرح ذلك على نحو بسيط ، رأى البلاشفة فى السوفياتات وسيلة تنظيم الجماهير للإطاحة بالنظام القديم و تحطيم آلة الدولة القديمة و ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا بينما رفض المناشفة و الآخرون هذا و قاوموه (رؤيتهم للسوفياتات ناجمة عن نظرتهم البرجوازيّة الصغيرة) و حين قادوا أو أثّروا فى السوفياتات و إلى درجة قيامهم بذلك ، تمّ ذلك فى إتّجاه تحويلها إلى تنظيمات جماهيريّة موجّهة نحو الإشتراكيّة الديمقراطيّة و/ أو نحو برامج فوضويّة ، فى تعارض مع إفتكاك البروليتاريا سلطة الدولة و ممارستها لها . و قد إستمرّ الصراع حول هذه الإختلافات الجوهريّة داخل السوفياتات قبل و غلى حدّ بعيد إلى إنتفاضة أكتوبر و قد تواصل باشكال متنوّعة بعد إفتكاك السلطة .

صحيح أنّ لينين أقرّ ، إثر إفتكاك السلطة ، بالحاجة إلى تعديل فى دور السوفياتات و علاقة الحزب بها الشيء الذى إنعكس فى مواقف لينين التى تستشهد بها الوثيقة . بيد أنّ هذا ينبغى أن يُفهم فى إطار الأحداث الملموسة وقتذاك و كذلك أن يفهم بأفق تاريخيّ أشمل . مثلما سبق و أن لاحظنا ، كانت تلك وضعيّة حرب أهليّة غير باعثة على كثير من الأمل و بالتالى حتّى بالإنتصار فى تلك الحرب ، فهو وضع تمزّقات و إنخلاعات و تفكّكات ضخمة إقتصاديّا و سياسيّا . و فى هذه الظروف ، تطوّعت جملة من العناصر الأكثر تقدّما فى صفوف السوفياتات لتصير قادة و مفوّضين فى الجيش الأحمر الذى كان يتعيّن خلقه كلّيا تقريبا ، بين عشيّة و ضحاها و إندفعت فى معركة حاسمة ، فى مهام حلّ العقد حيث برزت أزمات متنوّعة و للمساهمة فى سحق المعادين للثورة و لمساعدة هيئات توزيع الغذاء و إدارة المصانع إلخ و للإلتحاق بالحزب و بنائه.

المسألة هي أنّ ، مع نهاية الحرب الأهليّة ، كانت لعشرات الآلاف من العمّال و الجنود و البحارة مواقع مسؤوليّة إداريّة (و سياسة إستيعاب الجماهير المتقدّمة هذه إلى الجهاز الحاكم ستتواصل مع طرق التنظيم وفقا لمبادئ " الجماعيّة " و التصنيع فى ظلّ قيادة ستالين . لكن كان ذلك كذلك الواقع و كنتيجة لكلّ ذلك ، أنّ عديد أفضل القادة و أبعدهم نظرا ضمن

البروليتاريا كانوا مجنّدين ليس بالسوفياتات بل فى مؤسّسات أخرى . و إلى جانب هذا ، وُجد تحوّل فى الوزن النسبيّ للسوفياتات بالمقارنة مع المؤسّسات الأخرى و منها بالخصوص الحزب ، فى الإدارة الفعليّة للمجتمع و الممارسة الشاملة لدكتاتوريّة البروليتاريا .

هذا ما يتحدّث عنه لينين فى مقارنته المعابة جدّا حول " الدواليب " و الأحزمة الناقلة للحركة و ما إلى ذلك و موقفه العام أكثر بصدد الدور القياديّ للحزب فى ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا .

إعتمادا على التجربة الواقعيّة لتلك الفترة ، يلخّص لينين أنّه من غير الممكن ممارسة هذه الدكتاتوريّة ببساطة من خلال السوفياتات دون قيادة حزبيّة (مؤسّساتيّة) متماسكة . غير أنّه لا يقول إنّ السوفياتات لن تلعب دورا حيويّا إذ هو يوضّح أنّه سيتواصل التعويل عليها لتضطلع بوظائف الحكومة . إنّه لا يقول إنّ بإمكان الحزب أن **يعوّض** السوفياتات (أو تلك المؤسّسات الأخرى و التنظيمات الجماهيريّة) فى ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا .(4)

هنا يبدو من الهام الحديث عن ممارسة أخرى من كمونة باريس شخّصها ماركس كمسألة ذات أهمّية حاسمة : " إستبدال " أو " إمكانية سحب الثقة " من القادة . مرّة أخرى ، أثبتت التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا أنّه لم يكن من الممكن تطبيق هذا المبدأ بمعناه الصارم الذى تحدّث عنه ماركس كإستنتاج من كمونة باريس حيث كان الموظّفون تنتخبهم الجماهير و كانوا يخضعون إلى الإقالة من طرفها فى أيّ وقت .

ينبغى أن نقول توّا إنّ الأمر لا يذهب إلى لبّ الأشياء إذ كان للجماهير الحقّ الشكليّ فى تعويض القادة عندما تكون الظروف (التناقضات) الإجتماعيّة على نحو فيه بعض الناس أقلّ " تعويضيّة " من آخرين . و لنضرب مثالا على ذلك . إذا كان للجماهير فى الصين الإشتراكية حقّ التصويت لإقالة ماو تسى تونغ و إذا مارست ذلك الحقّ على نحو أحمق و صوّتت بإبعاده ، لواجهت المسألة الصارخة وهي أنّه لن يوجد ماو تسى تونغ آخر ليشغل مكانه . فى الواقع ، سيجدون أنفسهم فى وضع حيث على إنسان ما أن ينهض بدور ، من الناحية الشكليّة ، سيكون نفس دور ماو ، أي ، سيحتلّ إنسان ما المواقع القياديّة مثل تلك و التقسيم الإجتماعيّ للعمل (و بالخصوص العمل الفكريّ و العمل اليدويّ) سيعنى أنّ قطاعا صغيرا فقط من الشعب سيكون إذا ، قادرا على لعب مثل هذا الدور . و التصويت بإبعاد ماو كان سيعنى حصرا أنّ إمرء أقلّ مؤهلات (أو حتّى أسوء من ذلك ، إمرء يمثّل البرجوازيّة عوضا عن البروليتاريا) سينهض بالدور القياديّ . لا يمكنهم تجنّب هذا و الإنخراط فى هياكل الديمقراطيّة الشكليّة لن يعين فى شيء البتّة . (5)

طبعا ، لا يفيد هذا أنّه يتعيّن جعل تقسيم العمل بين الجماهير و القادة شيئا مطلقا ، عوضا عن تقليصه و فى النهاية تجاوزه و لا يفيد حتّى أقلّ أنّ القادة و ليست الجماهير هم الذين ينبغى أن يعتبروا السادة الحقيقيّين للمجتمع الإشتراكي . فى الصين الثوريّة ، تمّ التأكيد بقوّة على دور الجماهير فى نقد و بمعنى شامل فى نقد القادة . و قد وجد هذا تعبيره على مستوى جديد كلّيا أثناء الثورة الثقافيّة التى كانت ، كما شدّد على ذلك ماو ، تمثّل شيئا جديدا راديكاليا : " شكلا ، طريقة يسمح بإستنهاض الجماهير الواسعة فى جميع الميادين و إنطلاقا من القاعدة الحزبيّة بهدف أن تفضح جانبنا المظلم ".(ماو ذكره " **تقرير المؤتمر الوطني التاسع للحزب الشيوعي الصيني** " ملحق بكتاب ليوتشاوتشى : " **كيف تكون شيوعيا جيدا** " ، الصفحة 201 ، نشر 18/10 باريس ، 1970).

لكن بالرغم من الأهمّية و الرياديّة الذين مثّلهما ذلك ، فالأمر يبقى أنّ طوال المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة ، لن توجد حاجة إلى قادة (و تناقض موضوعيّ بين القادة و المقودين) فحسب و إنّما ستوجد أيضا إمكانيّة أن يقع تحويل تلك العلاقات إلى علاقات إستغلال نظرا للتناقضات التى تميّز الإنتقال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة ،عالميّا ، إذا لم يضطلع الحزب بالدور القياديّ الملقى على عاتقه داخل الدولة البروليتاريّة ـ لأنّ مجموعات منظّمة أخرى (زمر برجوازيّة) ستقوم بذلك و سرعان ما تكفّ الدولة عن أن تكون بروليتاريّة لتصبح دولة برجوازيّة . لا بدّ من قول ذلك صراحة . من وجهة نظر البروليتاريا ، المشكل مع الأحزاب الحاكمة فى البلدان التحريفيّة ليس مشكل أنّها كانت "تحتكر" السلطة السياسيّة و إنّما المشكل أنّها مارست تلك السلطة السياسيّة لإعادة تركيز الرأسماليّة و الحفاظ عليها . المشكل هو أنّها **ليست ثورية ، ليست شيوعيّة فعليّا و لذا** لا تعوّل على الجماهير و لا تعبئها لممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا و لمواصلة الثورة فى ظلّ هذه الدكتاتوريّة .

و مثلما تحدّثنا عن ذلك آنفا ، أثناء الثورة الثقافيّة فى الصين ، تمّ تطوير وسائل و طرق جديدة للهجوم على الإختلافات و عدم المساواة الموروثة من المجتمع القديم وهي وسائل و طرق تحديد الحقّ البرجوازيّ إلى أكبر درجة ممكنة فى أيّ زمن معيّن فى تناسب مع الظروف الماديّة و الإيديولوجيّة . غير أنّ تناقضا جوهريّا سيظلّ قائما خلال المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة و وجود هذه الإختلافات و اللامساواة الأساسيّة و تعبيرها فى الحقّ البرجوازي تمثّل القاعدة الماديّة للطبقات و الصراع الطبقيّ و لخطر إعادة تركيز الرأسماليّة . و هذا مشكل لا يمكن حتّى معالجته جوهرياً فما بالك بحلّه عن طريق مقاربة شكلانيّة . لذا يتوجّب أن يعالج من خلال خوض الصراع الطبقيّ فى ظلّ قيادة الشيوعيّين الثوريّين (جاعلين ذلك العلاقة المفتاح) و لن يتمّ ذلك بأيّة وسيلة أخرى . و بالضبط على هذا النحو جرى تناول المشكل بقيادة ماو .

وخاصة فى ما يتعلّق بتوزيع المداخيل ، إتّبع أثناء الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى توجّه أساسيّ و إنطلاقا منه ، طبّقت سياسات ملموسة للتقليص التدريجيّ من الإختلافات فى الأجور فى تناسب مع تطوّر الوفرة العموميّة و بالأساس بترفيع المستويات الدنيا نحو المستويات العليا . كجزء هام من هذا ، وُجد توجّه للإبقاء على الإختلاف فى الأجر بين موظّفى الحكومة و العمّال العاديّين على أقلّ درجة ممكنة (تمّ بهذا الصدد إعلان الروح الجوهريّة لكمونة باريس و تمّ الدفاع عنها فى الممارسة) رغم انّ مثل هذه الإختلافات فى الأجور ما زالت قائمة و كان يُنظر إليها كشيء من اللازم تحديده أكثر . لكن ، مرّة أخرى ، مهما كانت أهمّية تطبيق مثل هذه المبادئ ، فى تناسب مع الظروف الواقعيّة فى كلّ زمن معيّن ، فإنّ هذا لم يستطع أن يغيّر المسألة الجوهريّة ألا وهي أنّه ، لفترة تاريخيّة طويلة ، ستستمرّ الإختلافات و اللامساواة فى المجتمع الإشتراكي وهي تنطوى على إحتمال تطوّرها إلى تناحرات طبقيّة إذا لم يكن خطّ التعاطي معها خطّا بروليتاريّا .

3 / ممارسة السلطة فى المجتمع الإشتراكيّ : القيادة و الجماهير و دكتاتوريّة البروليتاريا :

بكلّ ذلك فى ذهننا ، لنعد إلى مسألة " دكتاتوريّة الحزب " . تستطرد وثيقة اللجنة لتقول : " ليس الموقف الذى إتّخذه لينين فى علاقة بالحزب و دكتاتوريّة البروليتاريا مختلفا إختلافا كبيرا عن الموقف الذى تبنّاه ستالين و كرّسه " (فقرة 5-9). هذا صحيح فى الأساس و لو أنّه يتضمّن تناقضا حادّا فهو صحيح فى طرفه الرئيسيّ بمعنى أنّ ستالين دافع عن المبدأ اللينينيّ فى قيادة دكتاتوريّة البروليتاريا فى الإتّحاد السوفياتيّ و طبّقه وهو شرف لستالين . لكن من أجل تقديم ستالين و لينين فى صورة سيّئة و من أجل تدعيم تهمها ضد " دكتاتوريّة الحزب " ، تقول الوثيقة " حاجج ستالين بأنّ دكتاتوريّة البروليتاريا هي " فى الأساس" دكتاتوريّة الحزب ؟ و فى ممارسة هذه الدكتاتورية ، يستعمل الحزب السوفياتات كمجرّد أجهزة لنقل الحركة ، مثل النقابات و رابطة الشباب إلخ " (فقرة 5-9) .

إنّه لمدهش كيف أن وثيقة اللجنة تستشهد بهذا الجزء من جملة ستالين لكنّها لا تستشهد بما قاله ، مطوّلا ، قبل ذلك و بعده . أوّلا ، إليكم الإطار الواقعيّ الذى فيه إستعمل ستالين هذه الجملة : " يجب الإعتراف بأنّ التعبير الأسمى عن دور الحزب كقائد ، عندنا ، فى الإتّحاد السوفياتيّ مثلا ، فى بلاد دكتاتوريّة البروليتاريا ، يكمن فى أنّ أيّة مسألة هامة سياسيّة كانت أم تنظيميّة لا تحلّها مؤسّساتنا السوفياتيّة و غيرها من المؤسّسات الجماهيريّة بدون توجيهات الحزب . و **بهذا المعنى** يمكن أن نقول إنّ دكتاتوريّة البروليتاريا هي ، فى الأساس ، " دكتاتوريّة " طليعتها ، " دكتاتوريّة " حزبنا ، الذى هو القوّة القائدة الأساسيّة للبروليتاريا " (كتاب " **أسس اللينينيّة و حول اللينينيّة** " ، دار الينابيع ، دمشق 1992 ، لجوزيف ستالين " **حول مسائل اللينينيّة** " ، الجزء الخامس من " **حول مسائل اللينينيّة** " ، صفحة 163 ، التسطير فى النص الأصليّ) .

و يمضى ستالين بعد ذلك ليناقش حرفيّا صفحة إثر صفحة ، إثر صفحة كيف أن هذا يجب ألاّ يفهم منه أنّ " بالإمكان وضع **علامة المساواة** بين دكتاتوريّة البروليتاريا و دور الحزب كقائد (" دكتاتورية " الحزب) و أنّ بالإمكان جعل التعبيرين **شيئا واحدا** ، و أنّ بالإمكان وضع الثانى محلّ الأوّل ".(الصفحة 164 من المصدر السابق ، التسطير فى النص الأصلي). إنّه بوضوح يحاجج أنّ قول " بالأساس " لا يعنى " بصورة تامة "(نفس المصدر ، صفحة 164) و يناقش فى بعض الجزئيّات لِما الأمر كذلك . لا يجادل مطوّلا فحسب ضد خطّ يسعى إلى تعويض الحزب للجماهير فى ممارسة هذه الدكتاتوريّة و إنّما يقول على وجه خاص إنّ " من يجعل دور الحزب كقائد و دكتاتوريّة البروليتاريا شيئا واحدا ، يضع الحزب **محلّ السوفياتات ، محلّ سلطة الدولة** " .(نفس المصدر ، صفحة 168 ، التشديد مضاف).

يؤكّد ستالين على تطبيق الخطّ الجماهيريّ و يشدّد على أنّه ينبغي على الحزب أن يبقى على "علاقات متبادلة " سليمة مع الجماهير ، علاقات " ثقة متبادلة " وهذا يعنى أنّ "على الحزب أن يصغي بإنتباه إلى صوت الجماهير ، أنّ عليه أن يقف موقف العناية من الغريزة الثوريّة عند الجماهير ، أنّ عليه أن يدرس نضال الجماهير العمليّ متحقّقا بذلك من صحّة سياسته و أنّ عليه ، إذن ، ألاّ يُعلّم الجماهير و حسب ، بل و أن يتعلّم منها أيضا " . (نفس المصدر السابق ، صفحة 170-171).

و يحذّر ستالين من أيّة نزعة تحويل الدور القياديّ للحزب إلى دكتاتوريّة على الجماهير و يعلن مشدّدا : " هل يمكن فرض قيادة الحزب على الطبقة بالقوّة ؟ لا ، لا يمكن . و على كلّ حال فإنّ قيادة كهذه لا يمكن أن تكون مديدة لأيّ حدّ كان . ينبغى على الحزب ، إذا كان يريد أن يظلّ حزب البروليتاريا ، أن يعلم أنّه ، قبل كلّ شيء و بصورة رئيسيّة ، **قائد** الطبقة العاملة، **مرشدها و معلّمها** ...هل يمكن إعتبار الحزب قائدا حقيقيّا للطبقة إذا كانت سياسته غير صحيحة ، إذا كانت سياسته تصطدم مع مصالح الطبقة ؟ طبعا لا يمكن . فإذا كان الحزب يريد أن يظلّ قائدا ينبغى عليه فى مثل هذه الحالات أن يعيد النظر فى سياساته ، ينبغى عليه أن يصلح سياسته ، ينبغى عليه أن يعترف بغلطته و أن يصلحها ." (نفس المصدر السابق ، الصفحة 175 ، التسطير فى النص الأصلي) .

و هلمّجرا ، مرّة أخرى صفحة تلو الصفحة ، تلو الصفحة ، يصوغ ستالين هذه النقاط الحاسمة فى تعارض مع مفهوم أنّ بإمكان الحزب أن يعوّض الجماهير فى ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا أو حتّى فى ممارسة دكتاتوريّة ضد إرادة الجماهير و مصالحها ، بفرض قيادته عليها بالقوّة . غير أنّ و لا نقطة من هذه النقاط عالجتها وثيقة اللجنة التى تستشهد ب " بالأساس" كجزء من جملة و تضيف موقفا حيال كيف أنّ ستالين قال إنّ السوفياتات كان الحزب يستعملها " كمجرّد أحزمة نقل حركة " و تقف عند هذا الحدّ . من الصعب الإعتقاد بأنّ واضعى هذه الوثيقة لم يكلّفوا أنفسهم مشقّة قراءة كافة المقطع المعنيّ و حتّى من الصعب أكثر الإعتقاد بأنّهم إن فعلوا ذلك ، فإنّهم سيختارون عمدا تجاهل كلّ ما يذهب إليه ستالين فى قوله حول هذه المسألة . لكن مرّة أخرى ، هذه طرق نموذجيّة لأولئك الذين يعارضون التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا من منظور الديمقراطيّة البرجوازية (حتّى من نوع راديكاليّ و " إشتراكي ") هذه طرق يضطرّ المرء إلى تبنّيها حينما ينبذ " المفاهيم الأساسيّة التى رفعناها عاليا إلى الآن " و يستسلم ، عوضا عن ذلك ، إلى المنطق البرجوازيّ.

من الممكن أن يحاجج بأنّ صياغة دكتاتوريّة البروليتاريا هي " بالأساس " دكتاتوريّة الحزب ، رغم كلّ ما قاله ستالين بصدد هذه المسألة ، على طول الخطوط التى قد ذكرتها هنا ، لا تزال صياغة غير مناسبة . أعتقد بأنّ ثمّة بعض الحقيقة فى هذا : بصفة ساخرة ، يمكن أن تؤوّل هذه الصيغة ذاتها كإسطوانة ضد العلاقة عينها التى كان ستالين يؤكّد عليها أي العلاقة التى تمارس فيها الجماهير دكتاتوريّة البروليتاريا بقيادة الحزب . و من الممكن أن يحاجج أيضا أنّ هذه تعكس أو على الأقلّ تشجّع ، نزعة نحو عدم التعويل على الجماهير ، نحو توجّه " من الأعلى إلى الأسفل" . و بوجه خاص على ضوء التجربة (الإيجابيّة و السلبيّة أيضا) مذّاك ، ينبغى أن نقول إنّ هنالك بعض الحقيقة فى هذا كذلك . مثل هذا التوجّه قد صار بالأحرى بيّنا لدى ستالين . و مع ذلك ، لم يكن سيرورة مستقيمة الخطّ بل سيرورة فيها كان توجّه أكثر صحّة عند ستالين قد تحوّل ، فى بعض مظاهره الهامة ، إلى نقيضه ، مثلما أشار إلى ذلك ماو .

لكن وثيقة اللجنة تعالج هذا كما لو أنّ ستالين كان ، منذ البداية ، يتّبع توجّه عدم التعويل على الجماهير ، كما لو أنّ ستالين ، على خطى لينين ، كان يؤيّد و يطبّق خطّ تعويض دكتاتوريّة الجماهير بدكتاتوريّة الحزب . فى الواقع ، هذا خطّ عارضه لينين بصرامة ، وهو خطّ نبذه ستالين (بوضوح ، بتأكيد و بحجج شاملة) فى ذات العمل الذى تستشهد به وثيقة اللجنة . فى ذلك العمل ، وضع ستالين ، شأنه شأن لينين ، موضع التطبيق النظرة الصحيحة و الجدليّة للعلاقة بين الحزب و الجماهير ، علاقة يكون فيها الحزب القوّة القائدة و تكون الجماهير القوّة المحرّكة .

تنطلق وثيقة اللجنة من إستعمالها المشوّه لموقف ستالين " بالأساس" لتستشفّ هذه الخلاصة : " إنطلاقا من هذا الموقف ، يمكن أن نرسم بيسر طبيعة سيرورة البقرطة و تقدّمها و تطوّرها و ظهور الطبقات الجديدة . فى ظلّ مثل هذه **الهيكلة السياسيّة** ، مثّل وضع غياب سياسة واعية فى تحديد الحقّ البرجوازيّ و التعويل المتنامي على الحوافز الماديّة لرفع الإنتاج مثّل **الأساس الإقتصاديّ** للرأسماليّة البيروقراطيّة . و حين نصل إلى مرحلة إكتشاف ماو أنّ فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا، تظهر البرجوازيّة داخل الحزب ذاته ، تكتمل الصورة . ". (فقرة 5-9 ، التشديد مضاف)

هذا التحليل فى تعارض مع تحليل لينين لأساس " ظهور الطبقات الجديدة " و بوجه خاص البرجوازيّة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا . فلينين أشار إلى أن موظّفو الحكومة السوفياتيّة و شريحة العمّال بالفكر عموما و كذلك إلى إستمرار الإنتاج على المستوى الصغير ، هي المنابع الأساسيّة للبرجوازية الجديدة ، إلاّ أنّ تحليله كان ضارب الجذور فى تقدير ماديّ للتناقضات الإجتماعية و الطبقة فى المجتمع الإشتراكي (لم ير **منبع** أو جذور البرجوازية الجديدة فى " البيروقراطيّة " فى حدّ ذاتها . و لينين على حقّ (على الطريق الصحيح) ووثيقة اللجنة غالطة تماما.

و مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإنّ ماو طوّر التحليل الأوّليّ للينين لهذا المشكل بصفة أكثر إكتمالا ، إلى خطّ شامل . تقوم وثيقة اللجنة على " قلب " هذا الخطّ و " قلب " الحقيقة . إنّها لا تنطلق من التناقضات الكامنة فى القاعدة الإقتصاديّة (الإختلافات و اللامساواة الباقية و إستمرار العلاقات السلعيّة إلخ) ، فى إطار الوضع العالميّ و تمّ تفحّص البناء الفوقيّ (بخاصة المؤسّسات و الأفكار السائدة) على ضوء ذلك ، لكنّها تنطلق فى الواقع من تحليل مشوّه للتناقضات فى البناء الفوقيّ و تركّبها على القاعدة الإقتصاديّة . ظاهريّا ، يبدو تحليلها مشابها لتحليل ماو بيد أنّه فى الواقع يناقضه: إنّها مثاليّة فى حين أنّ المنهج الماويّ منهج ماديّ . إنّها تجعل من إنحرافات البيروقراطيّة (و بعضها حقيقيّ ، و العديد منها مختلق فى هذه الوثيقة) **أساس** أو العامل الأساسيّ فى إيجاد " القاعدة الإقتصاديّة " لل"رأسمالية البيروقراطية " .

هذه النظرة المثاليّة حيال قاعدة إفراز البرجوازيّة الجديدة فى المجتمع الإشتراكيّ و خطر إعادة تركيز الرأسماليّة تتردّد مرّات عديدة فى وثيقة اللجنة و منها الموقف التالى الملفت للنظر :

" [لينين] إنتهى إلى حلّ تعويض دكتاتوريّة البرجوازيّة بدكتاتوريّة البروليتاريا بقلب دكتاتوريّة الأقلّية على الأغلبيّة إلى دكتاتوريّة الأغلبيّة على الأقليّة . بالتالى لا يتطلب الأمر قطيعة نوعيّة مع الهيكلة القديمة . فى الأخير ، تفضى الهيكلة القديمة التى تركز السلطة بأيدى قيادة الدولة إلى ظهور و ترسيخ طبقة حاكمة جديدة ضمن الطبقة العاملة و صفوف و قيادة حزبها عينه . " (الفقرة 9-2 ، التسطير مضاف)

و هنا يمكن أن نرى حتّى بأكثر جلاء كيف أنّ وثيقة اللجنة تعالج البنية الفوقيّة (فعليّا نظرة مشوّهة للبنية الفوقيّة للمجتمع الإشتراكيّ) كعنصر حاسم فى " ظهور و ترسيخ طبقة حاكمة جديدة " .

لقد دحض ماو " نظريّة قوى الإنتاج " الماديّة الميكانيكيّة و التى ترى أنّ قوى الإنتاج و القاعدة الإقتصاديّة للمجتمع بإعتبارها محدّدة بطريقة مطلقة نوعا ما (و التى لا تعترف بالدور الديناميكيّ للبنية الفوقيّة فى إنعكاسها على القاعدة الإقتصاديّة و لا بدور الثورة فى البناء الفوقيّ و علاقات الإنتاج فى دفع و تطوير قوى الإنتاج . غير أنّ ماو عارض هذه الماديّة الميكانيكيّة **بالماديّة** الجدليّة (و ليس **بالمثالية**)(6) و ليس بخطّ ينكر الدور الحاسم فى النهاية للواقع الماديّ و بوجه خاص القاعدة الإقتصاديّة فى علاقة بالبناء الفوقيّ للمجتمع . مع ذلك ، تسيئ وثيقة اللجنة ، تحت شعار معارضة " الموقف الإختزاليّ الإقتصاديّ " (فقرة 7-4) فهم خطّ ماو و تنكر بالفعل الدور الحاسم للإقتصاد فى علاقة بالسياسة (وعلينا كذلك أن نرى فى ما بعد كيف أنّ وثيقة اللجنة تنكر أيضا الماديّة الماركسيّة بإسم نبذ " الإختزاليّة الطبقيّة ").

مجدّدا ، يحدّد الخطّ الماويّ القاعدة الماديّة الأساسيّة لإعادة تركيز الرأسماليّة فى التناقضات الباقية فى العلاقات الإجتماعيّة، وفوق كلّ شيء ، فى علاقات الإنتاج داخل المجتمع الإشتراكيّ و أيضا فى العلاقات العالميّة . إنّه يركّز جوهريّا على البناء الفوقي **فى علاقات بهذه التناقضات** . خطّ وثيقة اللجنة يجعل من مثل هذه التناقضات فى القاعدة الإقتصاديّة مسألة ثانويّة تابعة للعنصر الحاسم المفترض : وجود " مثل هذه الهيكلة السياسيّة " أي دكتاتوريّة البروليتاريا التى تعتمد على الديمقراطيّة الشكليّة .

و بعد هذا ، لنمرّ إلى نقاش وثيقة اللجنة للصراع بين تروتسكى و ستالين و كيف أخفق نقد تروتسكى فى أن " يجيب على أيّة مسألة من المسائل الجوهريّة التى واجهتها دكتاتوريّة البروليتاريا " ، لكن عرضيّا (و المسألة جرى تناولها بصفة عرضيّة) كان ستالين على حقّ فى " الجدال الكبير" مع تروتسكى حول إمكانيّة بناء الإشتراكيّة فى بلد واحد . (الفقرة 5-10) .

إلاّ أنّه كيف أمكن لستالين أن يكون محقّا (كيف أمكن له أن يقود بناء إشتراكيّة فى الإتّحاد السوفياتي) إذا كان مسؤولا (أكثر من أيّ إنسان آخر) على فرض دكتاتوريّة الحزب على الجماهير ؟ أيّ نوع من الإشتراكيّة بالإمكان بناؤه فى ظلّ **مثل** هذه الدكتاتورية ؟ أو ربّما لم يُبن قط أيّ مجتمع إشتراكيّ فى الإتّحاد السوفياتي ؟ و لا فى الصين لو إتّبعنا المنطق نفسه. إذن ما كانت القاعدة الإقتصاديّة لهذه البلدان ؟ رأسماليّة على طول الخطّ ؟ أو شيئا آخر ؟ فى هذه الحال و فى الأخير، تنتهى الوثيقة إلى نفس التحليل الأساسيّ لتروتسكى .

من جديد ، يعالج هذا الخطّ العام للمحاججة الميتافيزيقيّة علاقة الإقتصاد بالسياسة و البنية التحتيّة بالبناء الفوقيّ ورغم وجود بعض " التماسك " فيه ، فلو جرى تطبيقه لكان قاد إلى هيمنة **البرجوازية** على كلّ من القاعدة الإقتصاديّة و البناء الفوقيّ . بسخرية ، لعلّ هذا الخطّ يبحث عن تعويض الصيغة المبدئيّة التحريفيّة (ملكيّة الدولة ، إضافة إلى الدور القيادي المؤسّساتي للحزب ، **تضمن** أو **تساوى** الإشتراكيّة) . بصيغة أخرى : الديمقراطيّة الجماهيريّة ، حسب النموذج الصارم لكمونة باريس زيادة على أن المقاربة " الماركسيّة – اللينينية التقليديّة " للإقتصاد الإشتراكي هي أساس الحيلولة دون إعادة تركيز الرأسماليّة . و لا واحدة من هتين الصيغتين " أفضل " من الأخرى فكلاهما خاطئتين .

لجميع هذه الأسباب التى ناقشنا سابقا ، سيؤدّى التخلّى عن الدور القيادي المؤسّساتى للحزب إلى إعادة تركيز الرأسماليّة بالضبط بقدر التأكيد على أنّ هذا الدور القياديّ المؤسّساتي سيضمن بذاته و فى حدّ ذاته عدم إعادة تركيز الرأسماليّة ، بغضّ النظر عن خطّ الحزب فى علاقة بالتناقضات الماديّة الواقعيّة التى تواجهها دكتاتوريّة البروليتاريا ، فى كلّ من البلد المعنيّ و عالميّا . هنا من الهام التذكير بما قيل آنفا: إذا لم يلعب الحزب مثل هذا الدور القياديّ المؤسّساتى فإنّ بعض القوى الأخرى ، فى الواقع زمر برجوازية ستكون فاعلة و ستجعل حكم **البرجوازية** مؤسّساتيا . و يعود هذا إلى التناقضات الكامنة فى المجتمع الإشتراكيّ و فى ظلّ هذه الأنواع من الظروف ، من غير الممكن للمؤسّسات الشكليّة لكمونة باريس أن تطبّق بحذافرها و إن تمّ ذلك ، مثلما قال ماو ، فإنّ ذلك سيفسح مجالا واسعا جدّا أمام البرجوازيّة التى ستصير المهيمنة فيها و ستهيمن على المجتمع بأسره .

لنمضى إلى تلخيص الوثيقة لما تسمّيه " النقد النافذ " الذى وجّهته روزا لكسمبورغ لدكتاتوريّة البروليتاريا فى الإتّحاد السوفياتيّ (الجزء السادس) . حسب لكسمبورغ ، كان البلاشفة مخطئين بالأساس نظرا لأنّهم مثل كوتسكى " يعارضون الديمقراطيّة بالدكتاتوريّة " . و تجادل لوكسمبورغ بأنّ موقف البلاشفة " إبتعد كثيرا عن السياسة الإشتراكيّة الحقيقيّة " (تقول فعلا إنّ البلاشفة " يقفون إلى جانب الدكتاتوريّة فى معارضة الديمقراطيّة و من ثمّ إلى جانب دكتاتوريّة حفنة من الناس ، أي ، إلى جانب **دكتاتورية على النمط البرجوازيّ** " (لكسمبورغ مثلما ذكرتها وثيقة اللجنة ، الفقرة 6-1 / الأعمال المختارة جزء 2 ، مسبيرو ، الطبعة الفرنسيّة ، صفحة 87 و التشديد مضاف) إلاّ أنّها مرّة أخرى " نظرة كلاسيكيّة " للبرجوازيّة الصغيرة التى تقف فى منتصف الطريق بين البرجوازيّة و البروليتاريا و ترى فى دكتاتوريّة كلّ منهما إخضاع لمصلحة البرجوازيّة الصغيرة إلى مصالح الطبقة الحاكمة و لكنّها **لا** تعرف **الإختلاف الجوهريّ** بين هتين الدكتاتوريّتين .

و تستطرد وثيقة اللجنة تقديمها " النقد النافذ " للكسمبورغ كالآتى ذكره :

" لاحظت أنّ نموذج دكتاتوريّة البروليتاريا الذى تمّ إرساؤه فى ظلّ قيادة لينين و تروتسكي ، إثر ثورة أكتوبر ، كان يحاول فعليّا القضاء على الديمقراطيّة فى حدّ ذاتها بإسم " الطبيعة الثقيلة للأجهزة الإنتخابيّة الديمقراطيّة "... " من الأكيد أنّ لكلّ مؤسّسة ديمقراطيّة حدودها و نواقصها وهي أشياء تتقاسمها دون شكّ مع كلّ المؤسّسات الإنسانيّة . لكن العلاج الذى قد وجده تروتسكي و لينين ، القضاء على الديمقراطيّة فى حدّ ذاتها ، أسوء من المرض الذى من المفترض أن يداويه : لأنّه يوقف المنبع الحيّ عينه الذى منه هو فقط يمكن أن يتأتّى تصحيح كلّ النواقص الملازمة للمؤسّسات الإجتماعيّة . و هكذا المنبع هو الحياة السياسيّة النشيطة و الفعّالة و غير المقيّدة لأوسع جماهير الشعب ". و معارضة إدّعاء لينين بأنّ النظام السوفياتيّ للديمقراطيّة البروليتاريّة أفضل ألف مرّة من الديمقراطيّة البرجوازيّة ، قيّمت [لوكسمبورغ] الوضع فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا التى مارسها البلاشفة و إذن " عوض الأجهزة التمثيليّة التى أفرزتها الإنتخابات الشعبيّة العامة ، فرض لينين و تروتسكي السوفياتات بإعتبارها الممثّلة الحقيقيّة الوحيدة للجماهير الكادحة. لكن بقمع الحياة السياسيّة فى البلاد كافة ، تشلّ بالضرورة الحياة فى السوفياتات . إذ بدون إنتخابات عامة و حرّية لا محدودة للصحافة و الإجتماع و بدون صراع آراء حرّ ، تموت الحياة فى كلّ مؤسّسة شعبيّة و يصبح شكل الحياة تجريديّا فقط و تبقى البيروقراطيّة العامل

الفعّال الوحيد فيها . و تدخل الحياة العامة فى سبات عميق تدريجيّا و مجموعة من القادة الحزبيّين ذوى الطاقة التى لا تنضب و الخبرة اللامتناهية يقودون و يحكمون ". (فقرات 6-2 و 6-4 ،" **مختارات روزا لكسبمورغ** " ، مسبيرو ، صفحات 82 و 85 ، الطبعة الفرنسية)

هذا خطّ إشتراكيّ – ديمقراطيّ يعرض (رغم محاولة لكسمبورغ تمييز موقفها عن الديمقراطيّة البرجوازيّة)على نحو تام أنّ مثل هذا الموقف يتطابق مع النظرة البرجوازيّة الديمقراطيّة . كانت جماهير الشعب فى الإتّحاد السوفياتيّ حينذاك بخاصة (فى السنوات الأولى من الجمهوريّة السوفياتيّة) بالتأكيد تساهم بنشاط و حيويّة و بوعي فى الحياة السياسيّة ، على مستوى أوسع و أعمق من أيّة مساهمة شهدها التاريخ إلى ذلك الحين . و حجّة لكسمبورغ ليست بايّ حال تفنيدا لتقييم لينين بأنّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، كما طبّقت فى الجمهوريّة السوفياتيّة ، " ألف مرّة أكثر ديمقراطيّة " (بالنسبة لجماهير الشعب) من أيّة دولة ديمقراطيّة برجوازيّة . المحاججة بصيغة أخرى ، مثلما تفعل لكسمبورغ ، و إعلان أنّ البلاشفة كانوا يبحثون عن خنق النشاط السياسيّ للجماهير و هياكل الشكلانيّة الديمقراطيّة البرجوازيّة و تماثل بين " الديمقراطيّة فى حدّ ذاتها " و الديمقراطيّة الممارسة وفق مبادئ الديمقراطيّة البرجوازيّة . و هذا بالضبط ما تفعله لكسمبورغ بتأكيدها على " الأجهزة الممثّلة التى أفرزتها الإنتخابات الشعبيّة العامة " (فى تعارض ، ليلاحظ ذلك ، مع " السوفياتات بإعتبارها الممثّلة الحقيقيّة الوحيدة للجماهير الكادحة ") و بندائها من أجل حرّية " لامحدودة " للصحافة و الإجتماع .

و تذهب وثيقة اللجنة حتّى أبعد من ذلك لتقول إنّ " العيب الأساسيّ للنظام السوفياتيّ " (لنلاحظ جيّدا " العيب الأساسيّ ") " كشفته روزا على النحو التالي : " حرّية فقط لأنصار الحكومة ، فقط لأعضاء حزب واحد (مهما كانوا كثيفيّ العدد) ليست حرّية . الحرّية هي دائما ،على الأقلّ حرّية الشخص الذى يفكّر بصفة مغايرة ." (فقرة 6-3 ، **مختارات** ، نفس المصدر السابق صفحة 82-83)

أوّلا ، إنّه لتشويه و إفتراء أن يقال ثمّة حرّية فقط لأولئك الذين ناصروا الحكومة و البلاشفة . حقيقيّ (و صحيح) أنّه وقع قمع القوى المعادية للثورة و خاصّة حين إنتفضت مسلّحة ضد الحكومة السوفياتيّة . فثمّة ، مثلا ، الحدث الشهير لإنتفاضة كرونشتاد التى فيها ، مثلما إعترف لينين بصراحة ، شاركت جماهير ، لكن ، كما عبّر عن ذلك ، قبل أن تصير مؤامرات جنرالات الحراس البيض القدامى (أي جنرالات الجيش القديم المعادى للثورة الذى كان قد خاض حربا أهليّة ضد النظام البروليتاريّ) مؤامرات مفضوحة فى علاقة بأحداث كرونشتاد مثلما حصل فى ما يتعلّق بالروابط الإمبرياليّة مع هؤلاء الجنرالات الحراس البيض . لقد غدا جليّا أنّ إنتفاضة كرونشتاد كانت تمثّل محاولة للإطاحة بالنظام البروليتاريّ و إعادة النظام القديم . لذا ، من الطبيعيّ و من الصحيح أن يقع قمع الناس المشاركين فى مثل هذه الإنتفاضات الرجعية (" **المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) 8 مارس** " ، الأعمال الكاملة ، المجلد 32 ، صفحات 183-185) .

بيد أنّه هنالك كثيرا من النقد الموجّه للحكومة و الحزب " تمّ السماح به ". هذا واضح جدّا ، ضمن أشياء أخرى ، من قراءة كتابات لينين و خطبه فى تلك السنوات من حياة الجمهوريّة السوفياتيّة الجديدة . فهو يتحدّث عن أنّهم يوجدون فى جوّ برجوازيّ صغير و أنّ عليهم أن يتعلّموا كيف يجدون شكلا ما من التسوية مع الشريحة البرجوازية الصغيرة و بوجه خاص مع الفلاّحين دون أن يعرّضوا للخطر المصالح الأساسيّة للبروليتاريا . إنّه يناقش كلّ المشكل من وجهة نظر تاريخيّة (كيف يمكننا أن تصادروا أملاك البرجوازيّة الكبرى و الإقطاعيّين الكبار بسرعة نسبيّا و تحطّموا مقاومتهم عندما تكونون قد إفتككنا السلطة لكن عليكم أن تطبّقوا سياسة طويلة الأمد من التعايش و الصراع مع كلّ المنتجين الصغار و عموما مع البرجوازيّة الصغيرة) ، كما وضع ذلك ، علينا فى آن معا أن نعيش مع البرجوازية الصغيرة و أن نغيّر ظروفها الماديّة و نظرتها إلى العالم كجزء من التقدّم نحو إلغاء الإختلافات الطبقيّة (مثل هذا النقاش يمكن أن تجدوه فى " **مرض اليساريّة الطفوليّ فى الشيوعيّة** " الذى كُتب فى السنوات الأولى من الجمهورية السوفياتية) . لذا توضّح كتابات لينين و خطبه لتلك السنوات بما فى ذلك ، عرضيّا بعض المستشهد به بطريقة مشوّهة فى وثيقة اللجنة ذاتها ، توضّح غاية الوضوح المقاربة اللينينيّة الأساسيّة و أنّ الأمر بالنسبة له ليس توجّه أنّه يتعيّن أن نقمع كلّ إنسان يقوم بنقد الحكومة و البلاشفة و أن ننكر عليه حقوقه السياسيّة .

عوض الإمساك الجيّد بما كان قاله لينين حيال هذه التناقضات المعقّدة ، تنظر وثيقة اللجنة إلى نقد روزا لكسمبورغ المضلّل بإعتباره مرشدا لها . الكثير ممّا هو خاطئ فى هذا النقد و توجّهه الكامن يكشفه موقف لكسمبورغ القائل بأنّ الحرّية " دائما

على الأقلّ حرّية الشخص الذى يفكّر بصفة مغايرة " . و هذا مرتبط طبعا بنداء لكسمبورغ بحرّية " لامحدودة " للصحافة و الإجتماع إلخ وهو أمر يتّفق مع الديمقراطيّة البرجوازيّة الكلاسيكيّة التى تحدّد الحرّية فى حقوق الأقلّية ضد " إستبداد الأغلبيّة ". مثلا ، يشبه هذا و إلى درجة كبيرة صيغ أناس مثل جون ستوارت ميل و آلاكسيس دى توكفيل فى كتاباتهم حول الديمقراطيّة و الحرّية الفرديّة . و إجابة على هذا ينبغى طرح سؤال : فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا من الذى " يفكّر بصفة مغايرة " ، قبل كلّ شيء ، إن لم تكن البرجوازيّة و المعادين للثورة ؟ و لست بصدد المفاكهة : " النهاية المنطقيّة لمنطق " لكسمبورغ هنا هي أنّه يجب ، قبل كلّ شيء ، منحهم الحرّية و الحقوق السياسيّة التامة . و حالئذ أين هي دكتاتوريّة البروليتاريا ؟ (7)

من المنير جدّا أن نقارن مواقف روزا لكسمبورغ الخاصة بمفهوم الحرّية " دائما على الأقلّ " و المواقف العميقة لماوتسى تونغ حول ما تمثّله حرّية الشعب الكادح أو حقوقه الجوهريّة فى المجتمع الإشتراكيّ : حقّ توجيه المجتمع و حقّ أن يكون متحكّما فى الإقتصاد و حقّ التحكّم فى القوى المعادية التى تسعى إلى إعادة تركيز الرأسماليّة و حقّ قمعها و حقّ ممارسة حكمها فى كافة مجالات البناء الفوقيّ . و كلّ شيء يتأتّى من هذه الحرّية أو هذه الحقوق الجوهريّة ، مثلما ناقشها ماو . و الذى تقدّم يمثّل شيئا أعمق و أصحّ بكثير من مفهوم لكسمبورغ للحرّية (فى الواقع ، يناقض الشكلانيّة الديمقراطيّة للكسمبورغ) . إنّه يلمس عمق الموضوع : " أن تتحكّم كتلة ما فى كلّ الأجهزة و كل المؤسسات يؤثّر بصفة هائلة على مسألة ضمان حقوق الشعب . **إن كان الماركسيون – اللينينيون هم الذين يتحكّمون ، فإنّ حقوق الغالبيّة العظمى ستكون مضمونة** . و إن كان اليمينيّون أو الإنتهازيّون اليمينيّون هم الذين يتحكّمون ، فإنّ هذه الأجهزة و المؤسّسات يمكن أن تتغيّر نوعيّا وحقوق الشعب فى علاقة بها لن تكون مضمونة. بإختصار، ينبغى على الشعب أن يكون له حقّ تسيير البناء الفوقي". (ماو تسى تونغ ، " **ماو و بناء الإشتراكية** " نشر سوي ، سلسلة سياسة ، صفحة 96 ، التشديد مضاف، الطبعة الفرنسية).

هنا يقدّم ماو ،شأنه شأن لينين من قبله ، النظرة الصحيحة ، الماديّة و الجدليّة للعلاقة بين ممارسة الجماهير لدكتاتوريّة البروليتاريا و قيادة طليعتها الشيوعيّة .

و لنمرّ إلى النقطة الموالية التى تحتاج منّا أن نتفحّصها عن كثب . ورد فى وثيقة اللجنة :

" غير أنّه بالرغم من كلّ هذه الإختراقات العظيمة ، يمكن أن نرى الآن أنّ دكتاتوريّة الديمقراطيّة الجديدة الشعبيّة التى تركّزت بالضبط بعد إنتصار الثورة فى الصين و دكتاتوريّة البروليتريا التى تلت لم يحقّقا أيّ تقدّم هام ، نسبة للإطار الأساسيّ الذى طوّره لينين و ستالين . " (فقرة 7-2)

و عليه و بإعتبار روح وثيقة اللجنة و تهجّمها ، لا يمكن للمرء إلّا أن يردّ : " شكرا لله ! " . و الآن يتعين أن يكون جليّا أنّ " التقدّم الهام " الذى يجده مؤلّفو هذه الوثيقة غائبا هو فى الواقع التخلّى عن دكتاتوريّة البروليتاريا و تبنّى نماذج معتمدة على " النقد النافذ " لأناس مثل لكسمبورغ و كشفها ل " العيب الأساسيّ للنظام السوفياتيّ " فى إنطلاقها من الشكلانيّة الديمقراطيّة البرجوازيّة ، بدلا منها .

و لنستمرّ مع صيغة أخرى فى هذه الوثيقة :

" إنّ المشاكل الأساسيّة التى واجهها الإتّحاد السوفياتيّ فى ظلّ لينين و ستالين ، تحديدا غياب نظام سياسيّ فيه يمكن للشعب أن يشارك و يؤكّد مباشرة إرادته السياسيّة و مشركة وسائل الإنتاج المفضية للمركزيّة و البيروقراطيّة المصاحبة لكافة النظام ، قد ظهرت كلّها فى الصين أيضا . و من ثمّ ، بدأت فى الصين ، نفس سيرورة إعادة تركيز الرأسماليّة التى قد وصلت بعدُ مرحلة متقدّمة فى الإتّحاد السوفياتي ."(فقرة 7-3)

4/ الصراع الطبقيّ فى ظلّ الإشتراكيّة و أشكال الحكم الجماهيريّ :

بحكم أنّنا قد تحدّثنا من قبل عدّة مرّات و من زوايا مختلفة عن التحليل الجوهريّ الخاطئ لهذه الوثيقة للنظام السياسيّ و علاقته بالنظام الإقتصاديّ فى الإتّحاد السوفياتيّ (و المجتمع الإشتراكيّ عموما) ، فإنّنى سألفت النظر هنا إلى نقطة

فحسب " و من هنا " فى الجملة الأخيرة أعلاه . تمثّل " و من هنا " هذه مواصلة المعالجة المثاليّة و الميتافيزيقيّة للعلاقة بين الإقتصاد و السياسة التى أشرنا إليها فى ما سبق و بوجه خاص فى نقد التحليل المقلوب لوثيقة اللجنة لقاعدة إعادة تركيز الرأسماليّة .

و بالفعل ، تعبير آخر عن المثاليّة نجده منعكسا فى إستعمال " و من هنا " فالمقصود هنا أنّ إعادة تركيز الرأسماليّة نتجت فى المقام الأوّل عن التوجّه و السياسات الغالطة للثوريّين . فى الصين و كذلك فى الإتّحاد السوفياتي ، بينما كان فى الواقع ، خطر إعادة تركيز الرأسماليّة متجذّرا فى التناقضات الكامنة المميّزة للإشتراكيّة كمرحلة إنتقاليّة من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة ، عالميّا ، و إنتصار أتباع الطريق الرأسماليّ كان إفرازا للصراع الطبقيّ فى كلّ من البلدان الإشتراكيّة ذاتها وعالميّا. وجهة نظر وثيقة اللجنة حيال هذه المسألة الحاسمة تكرار لإدّعاءات أيّامنا هذه الصارخة حول " فشل " الشيوعيّة، عوض الإقرار بأنّ ما قد حصل فى الإتحّاد السوفياتي و الصين يمثّل ، فى جوهره ، هزائما ألحقتها البرجوازيّة العالميّة بهما ، على نطاق عالميّ و أنّ أخطاء الثوريّين كانت ثانويّة و بالأساس أخطاء فى التعامل مع المشكل و الأخطار الواقعيّة جدّا التى تسبّبت فيها ، فى المقام الأوّل ، الإمبرياليّة و موقعها الذى لا يزال مهيمنا فى العالم (8). من منظور الماديّة التاريخيّة ، ليست هذه الهزائم و بخاصة فى المراحل الأولى من النزاع بين الثورة البروليتاريّة و الثورة المعادية للبرجوازيّة ، ليست مذهلة فالمسألة هي التعلّم من كلّ مثل هذه الهزائم (التعلّم الجيّد للدروس **الواقعية**) من أجل القدرة مرّة فمرّة على تحويل النكسات المؤقّتة إلى إختراقات جديدة و حتّى إختراقات أكبر و للتقدّم عبر سير المعركة التاريخيّة الدائرة إلى الإنتصار النهائي .

لكن هذا لا يمكن إنجازه إذا لم تُفهم الشروط الواقعيّة للصراع و إذا فرض فهم مثاليّ على الواقع ، مثلما تفرض وثيقة اللجنة فى التالي : " و فى الواقع ، كان ماو يقترب من لبّ المشكل حين حدّد مجالات الصراع فى البناء الفوقيّ و فى علاقات الإنتاج .علاوة على ذلك ، أقرّ بأنّ السلطة السياسيّة لم تكن بأيدى الطبقة العاملة و جماهير الشعب الكادح الأخرى . هنا حدّد جوهر المسألة ألا وهو كيفيّة إعادة السلطة السياسيّة إلى أيدى الشعب . ". (فقرة 7-4)

خاطئ ! أقرّ ماو و قال إنّ أجزاء هامة من البناء الفوقيّ لم تكن بأيدى الجماهير و ناشد هذه الأخيرة أن تفتكّ من جديد **تلك الأجزاء من السلطة** التى إستولى عليها أتباع الطريق الرأسماليّ . غير أنّه لم يقل قط إنّ أتباع الطريق الرأسماليّ هؤلاء إستولوا على السلطة العليا و إنّ السلطة السياسيّة على المجتمع بأسره لم تكن بأيدى الثوريّين . و قد كانت الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى ثورة جاءت فى وضع حيث كانت البروليتاريا تمسك بسلطة الدولة لكنّها واجهت صراع حياة أو موت كي تحول دون صعود التحريفيّة إلى السلطة و إعادة تركيز الرأسماليّة . و قد مثّلت مواصلة للثورة **فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا .**

لقد أوضح " قرار الستّة عشر نقطة " الذى نشر فى المراحل الأولى من الثورة الثقافيّة كدليل عام لخوض هذا الصراع الثوريّ ، أوضح ذلك على نحو جليّ للغاية . فهو يقول إنّ الثورة الثقافيّة البروليتارية الكبرى " تشكّل مرحلة جديدة فى تطوّر الثورة الإشتراكيّة فى بلدنا " و إنّ " على الرغم من أنّ البرجوازية قد أُسقطت ، فإنّها ما تزال تحاول إستخدام الأفكار و الثقافة و التقاليد و العادات القديمة للطبقات المستغِلّة ، بغية إفساد الجماهير و الإستيلاء على عقولها و محاولة القيام بالردّة " و إنّه ينبغى على البروليتاريا أن تجابه هذا التحدّى مجابهة مقابلة . و ما هو هدف هذه الثورة الثقافيّة ؟ الهدف ليس التعامل مع وضع حيث الجماهير لا تمسك بالسلطة السياسيّة و إنّما " هو مكافحة **و إسقاط أولئك الأشخاص ذوى السلطة الذين يسيرون فى الطريق الرأسمالي،** و نقد و إقصاء " الثقات " الأكاديميّين البرجوازيّين الرجعيّين و إيديولوجية البرجوازيّة و سائر الطبقات المستغِلّة و تحويل التربية و الأدب و الفنّ و سائر أجزاء البناء الفوقيّ التى لا توافق الأساس الإقتصاديّ الإشتراكيّ ، بحيث يسهل توطيد و تطوير النظام الإشتراكي " . (" **قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني حول الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى** " [قرار ال16 نقطة] 8 أوت 1966 . النقطة 1 من الوثيقة الثالثة ، ضمن " **تاريخ الثورة الثقافية البروليتارية فى الصين (1965-1969)** " ، جان دوبيه ، دار الطليعة ، بيروت 1971 - التشديد مضاف).

و فى نقاشات هامة مع تشانغ تشن ، فى أوج الثورة الثقافيّة (نقاشات تستشهد بها وثيقة اللجنة ، فى الواقع) يعرب ماو نفسه بوضوح عن أنّ " ثورتنا الحاليّة (الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى) هي ثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا و قد

قمنا بشنّاها بأنفسنا . ذلك أنّ **جزءا من هيكلة دكتاتورية البروليتاريا** قد تمّ الإستيلاء عليه و لم يعد بعدُ بأيدى البروليتاريا بل بأيدى البرجوازيّة . بإختصار ، كان علينا أن نقوم بالثورة " .(" **توجيه حول الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى فى شنغاي**" ضمن " **مجموعة كتابات فكر ماوتسى تونغ** " - بالأنجليزية - نشرته خدمة البحث للمنشورات المتّحدة ، أرلينغتون، فرجينيا ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة ، المجلّد الثاني ، صفحة 451 ، التسطير مضاف) .

تقوم وثيقة اللجنة هنا ب" إثنين فى واحد ". إنّها تسعى إلى أن تمزج خطّها الخاطئ رأسا بصدد " دكتاتوريّة الحزب " مع تحليل ماو المتباين نوعيّا و الصحيح **للبرجوازية فى صفوف** الحزب (أتباع الطريق الرأسمالي) و الحاجة إلى خوض صراع ضد أتباع الطريق الرأسماليّ هؤلاء و إلى مزيد تثوير الحزب ذاته كجزء من النضال الشامل للبقاء على الطريق الإشتراكيّ و مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا .(9)

إلاّ أنّ وثيقة اللجنة هذه تتابع إسقاط رؤيتها المثاليّة على الواقع . فقد صاغت هذا التقييم للثورة الثقافيّة : " كما أشار ماو ذاته، كانت الجماهير حقيقة هي التى طوّرت أشكال النضال الجديدة ، الثورة الثقافيّة التى كانت فعلا صراعا ضد هياكل البقرطة الموجودة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . و حيث أنّها كانت إنفجارا جماهيريّا عفويّا ، كانت الإنحرافات الفوضويّة التى طوّرتها طبيعيّة تماما . لكن الشيء الذى كان ينبغى القيام به هو تنظيم كلّ تلك الدروس فى نظام و شكل صراع سياسيّين جديدين يمارسان فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . بيد أنّه ، لسوء الحظّ ، لا يمكننا أن نرى أيّ تطوير إيجابيّ من هذا القبيل طوال حياة ماو ." (فقرة 7-5)

خاطئ مرّة أخرى و خاطئ بصفة مذهلة . بداية ، هذا موقف تذيّليّ وعبادة للعفويّة . بسخريّة ، هذا هو " الجانب المقلوب " (أو " الصورة المعكوسة للمرآة ") من الحجّة التى عادة ما تقدّم بأنّ كلّ ما مثّلته الثورة الثقافيّة هو صراع سلطة بين زمر نخب مع إستعمال الجماهير كبيادق . لم تكن الثورة الثقافيّة "عفويّة " فهي مثل كافة الإنجازات الثوريّة الكبيرة و بمعنى جوهريّ ، كانت من صنع الجماهير **لكن** الجماهير كانت تقودها طليعة شيوعيّة(لنتذكّر كيف قال ماو:" قمنا بشنّها بأنفسنا" مشيرا إلى مركز القيادة البروليتاريّ فى الحزب الشيوعيّ) . و دون تلك القيادة لم تكن الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى لتوجد حيث كان بالأحرى سيقضى عليها بسرعة ، إن أمكن لها أن تبزغ مطلقا و بالتأكيد ما كانت لتبلغ القمم و لتحقّق التحويلات الكبيرة التى أنجزت . فقد كانت الثورة الثقافيّة مزيجا من مبادرة الجماهير و قيادة طليعة شيوعيّة .

لا يريد واضعو وثيقة اللجنة أن يعترفوا بهذا لأنّه لا يتماشى مع خطّهم فى تحريض الجماهير **ضد** الحزب ، خطّهم المعلن أنّ قيادة الحزب أثناء دكتاتوريّة البروليتاريا ليست سوى " دكتاتورية الحزب " على الجماهير . و من هنا يأتى تأكيدهم أنّ الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى كانت " فعلا صراعا ضد هياكل البقرطة الموجودة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا " . كلاّ ، لم تكن " فعلا " كذلك . لقد كانت فعليّا ما قاله ماو أي نضالا ثوريّا هدفه هو أشخاص فى الحزب لهم سلطة **أتباع الطريق الرأسمالي** .

ولننتقل إلى كيفيّة وصف وثيقة اللجنة نقاشات ماو مع تشانغ تشن شياو فى ما يتعلّق بكمونة شنغاي . تقول الوثيقة " كما يمكن رؤية ذلك فى نقاشات ماو مع تشانغ تشن – تشاو فى ما يخصّ كمونة شنغاي ، لم تكن لديه أيّة إجابة جديدة عن المسألة الأساسيّة التى واجهتهم أثناء الثورة الثقافيّة . عوض ذلك ، عاد إلى موضوع أنّ الواجب الأساسيّ للحزب هو صيانة دكتاتوريّة البروليتاريا " . (فقرة 7-5)

هنا أخفقت الوثيقة على طول الخطّ . المسألة ليست أنّ ماو " لم تكن لديه إجابة جديدة " ، المسألة هي أنّ مؤلفو هذه الوثيقة لم " يستوعبوا " إجابة ماو . فوجهة نظر ماو بالأساس هي أنّ فى ظلّ الظروف السائدة حينذاك فى الصين و مع أخذ الوضع العالمي بنظر الإعتبار ، لم يكن شكل الكمونة الذى قد تطوّر فى غضون نهوض الثورة الثقافيّة فى شنغاي ، لم يكن شكلا مناسبا لدكتاتوريّة البروليتاريا عند تلك النقطة فهو لا يتناسب و الظروف الماديّة لا سيما و القوّة النسبيّة للطبقات المعارضة فى ظلّ الظروف المعيّنة . بصيغة أخرى ، إذا كانوا حاولوا الإبقاء **على** كمونة شنغاي (و طبّقوها عبر الصين كافة) بما فى ذلك الإنخراط الصارم بالأحرى فى نموذج كمونة باريس لسنة 1871 ، فإنّ المعادين للثورة كانوا سيستطيعون إمّا الإطاحة التامة بالحكم البروليتاريّ و إمّا أن يستعملوا شكل الكمونة و يحوّلوه إلى نقيضه ، مستخدمينه

للإستيلاء الفعليّ على السلطة من الجماهير و من ثمّ إلغاءها . مرّة أخرى ، يُعزى هذا إلى التناقضات الكامنة فى المجتمع الإشتراكيّ و إلى الوضع العالميّ .

هذا هو فحوى مقارنة ماو [لوضع كمونة شنغاي] بكمونة باريس ذاتها. لقد قال إنّه إن لم يتمّ تحطيم كمونة باريس فإنّها كانت ستصبح كمونة برجوازيّة . بكلمات أخرى ، نظرا لوضعها الواقعيّ آنذاك ، إن دامت كمونة باريس و تمّ السعي للحفاظ على دكتاتوريّة البروليتاريا على تلك الشاكلة ، فإنّ القوى البرجوازيّة كانت ستتمكّن من الغلبة من الداخل.

و يشدّد ماو بصفة معبّرة على أنّ جوهر المسألة لا يكمن فى الشكل بل فى المضمون و ينطبق هذا على تجربة الإتّحاد السوفياتي : " فى ما يخصّ شكل السلطة السياسيّة السوفياتيّة ، فإنّ لينين كان ، منذ نشأته (الشكل) مبتهجا بإعتبار أنّ السوفياتات صنعا متميّزا أنجزه العمّال و الفلاّحون و الجنود و كذلك بإعتبارها شكلا جديدا من دكتاتوريّة البروليتاريا، مع ذلك لم يتوقّع لينين حينها أنّه بالرغم من أنّ بمقدور العمّال و الفلاّحين و الجنود إستعمال ذلك الشكل من السلطة السياسيّة ، كان من الممكن أيضا أن تستعمله البرجوازيّة و يستعمله حتّى خروتشاف . و قد وقع تحويل السوفياتات الحاليّة من سوفياتات لينين إلى سوفياتات خروتشاف. (ماو، " **الكتاب الأحمر الكبير** "، صفحة 224-225، فلاماريون، باريس1975، الطبعة الفرنسية) .

هنا أيضا ، فى الواقع يقتطف مؤلّفو وثيقة اللجنة هذه الإستشهاد و لكنّهم يخفقون على طول الخطّ عندما يغضّون الطرف عن الملاحظات التاريخية العميقة لماو بإعتبارها " إرتباك ماو " ! (فقرة 7-5) ليس ماو بل مؤلّفو وثيقة اللجنة هم المرتبكون بعمق . يبدو أنّ الشكلانيّة و الأفكار و الخيالات المسبّقة الديمقراطيّة البرجوازيّة عموما أعمتهم إلى درجة أنّهم لا يفهمون حقّا أنّ ماو يلخّص الدرس الشامل القائل بأنّه طالما أنّ الطبقات و بوجه خاص البرجوازيّة ، موجودة ، فلن يوجد شكل ، فى حدّ ذاته ، يمكن أن يمثّل حاجزا غير قابل للتجاوز ضد إعادة تركيز الرأسماليّة و أنّ بإمكان البرجوازيّة أن تتغلّب على أشكال طوّرتها ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا و تستعملها لمصلحتها الذاتيّة .

هذا هو السبب الكامن وراء أنّ ماهيّة الشيء (الطرف الرئيسيّ) هو المضمون و ليس الشكل . و فهم ماو هذا ينعكس كذلك فى ملاحظته التنبئيّة ، لسوء الحظّ : " إذا تمّت الإطاحة بنا و صعدت البرجوازيّة إلى السلطة ، فإنّها لن تحتاج إلى تغيير الإسم ، بل ستواصل تسميتها بجمهورية الصين الشعبيّة . أيّة طبقة تمسك بسلطة الدولة ؟ هذه هي المسألة الجوهريّة و ليست مسألة التسمية . " (ماو ، المصدر السابق ، صفحة 226) .

تلك كانت النقاط المفاتيح التى صاغها ماو فى نقاشاته مع تشانغ تشن تشياو فقد كان يلفت الإنتباه إلى أنّ بإمكان كلّ من البرجوازيّة و البروليتاريا أن يستعملا الهياكل الشكليّة التى توجد فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا و أنّه ينبغى التركيز على المضمون **الطبقيّ**) وليس على الشكل و بصفة خاصة أكثر ، كان يقول إنّ فى ظلّ ظروف وقتذاك ، تبنّى شكل الكمونة كان سيكون فى الواقع مواتيا أكثر للبرجوازيّة منه للبروليتاريا ذلك أنّه كان **سيضعف** البروليتاريا فى ممارسها لدكتاتوريّتها و سيعزّز البرجوازيّة فى الإطاحة بتلك الدكتاتوريّة أو فى تخريبها من الداخل و تحويلها إلى نقيضها . و كجزء محوريّ فى هذا التحليل ، أكّد ماو بالخصوص على أنّه ينبغى أن توجد طليعة قياديّة . يقول ليس من المهمّ لدي إن سمّيتموها حزبا شيوعيّا أو أيّ إسم آخر ، سيظلّ لكم مركزا قياديا .

و لا يعود هذا إلى أنّ ماو كان مقرّا العزم على فرض " دكتاتورية الحزب " و إنّما أساسا بحكم كلّ الأشياء التى قيلت هنا حول التناقضات الكامنة التى تتضمّنها المرحلة الإنتقاليّة من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة عالميّا و كيف أنّ الطاقة و الحماس الثوريّين للجماهير وأنّ الصراع الطبقيّ عموما يتّخذون شكل أمواج أو لوالب و ليس شكل خطّ مستقيم . لإعادة هذه النقطة الحيويّة : ستعبّر هذه التناقضات الكامنة فى المجتمع الإشتراكيّ (و بالخصوص بين العمل الفكري و العمل اليدوي و أيضا بين المدينة و الريف و بين العمّال و الفلاّحين و تناقضات إجتماعيّة كبرى أخرى مماثلة) عن نفسها فى أنّه سيوجد **إختلاف موضوعي** بين القطاع المتقدّم من الطبقة و الطبقة ككلّ .

و هذا بدوره يعبّر عن نفسه فى أنّ نوعا أو آخر من المراكز القياديّة سيوجد و إن لم يكن مركز قيادة بروليتاريّ ، فإنّه سيكون مركز قيادة برجوازيّ ، سواء على نحو مفضوح أو تحت قناع " إشتراكيّ " . و يرتبط هذا بالنقطة الأساسيّة أنّه إذا

لم يكن خطّا صحيحا هو الذى يهيمن ، فسيكون خطّا غير صحيح هو المهيمن . و الخطّ الصحيح يتعيّن أن يُناضل من أجله و أن يطبّق **بوعي** . إذا ما أردتم أن تطوفوا **بعفويّة** ممارسين دكتاتوريّة البروليتاريا فإنّكم ستسلّمون كلّ شيء إلى البرجوازيّة . و كما قال ماو ، إلى كلّ هذا تعزى ضرورة وجود حزب كمركز قيادة . و هذا سبب من أهمّ الأسباب التى تقف وراء أنّ شكل الكمونة لن يكون ، فى ظلّ ظروف آنذاك ، عمليّا إذ أنّه كان سيضعف دكتاتوريّة البروليتاريا و يساعد البرجوازيّة فى إطاحتها التامة بدكتاتوريّة البروالبتاريا أو فى التغلّب عليها من الداخل.

إلى كلّ هذا ، تنبغى إضافة الوضع العالميّ ككلّ : ما هي المؤسّسات و الإجراءات اللازمة للتعامل مع تهديد الهجوم الإمبرياليّ و كيف يتّصل ذلك بوجود الطبقات و الصراع الطبقيّ داخل المجتمع الإشتراكيّ و كلّ التناقضات التى تحدّثنا عنها فى هذه العلاقة ؟ يعتمد نقاش ماو لهذه المسألة على فهم عميق لهذه المسائل و يمثّل إلماما عميقا بها لكن وثيقة اللجنة قد " أبعدت " كلّ هذا و طبّقت فى مقابل ذلك مقاربة شكليّة سطحيّة .

لذا ، هي مفرطة فى التبسيط و تتجنّب ماهيّة الشيء لتقول إنّ ماو " عاد إلى موضوع أنّ الواجب الأساسيّ للحزب هو صيانة دكتاتورية البروليتاريا " . يواصل ماو بوضوح الدفاع عن الدور القياديّ الشامل للحزب و لكنّه فى نفس الوقت يشدّد على أنّ الحزب ذاته يتوجّب تثويره كجزء من تثوير المجتمع برمّته . و يبيّن حتّى كيف تمّت إعادة بناء الحزب الشيوعيّ نتيجة لنهوض الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى أنّ ماو كان يكافح فى سبيل تطبيق المبادئ و الروح الجوهريّتين لكمونة باريس إلى أقصى حدّ ممكن ، بينما يقرّ بأنّه لم يكن من الممكن تطبيق عديد أشكال و سياسات الكمونة الخاصة تطبيقا صارما . و قد أعيد بناء الحزب ، من المستويات القاعديّة فصاعدا ، بطريقة مفتوحة ، من خلال إجتماعات جماهيريّة مفتوحة حيث كان الناس فى وحدات الحزب التى كان من اللازم إعادة بنائها كانوا معرّضين لنقد الجماهير و مراقبتها الشاملة . و مرّة أخرى ، كان هذا تطبيقا للمبادئ و الروح الجوهريّتين لكمونة باريس ، كان تعبيرا عن أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا كانت تمارسها **الجماهير بقيادة الحزب .**

أمّا فى ما يتّصل بالأشكال الجماهيريّة لدكتاتوريّة البروليتاريا ، فإنّ ماو ساند و نشر اللجنة الثورية كأكثر الأشكال مناسبة للقيادة فى ظلّ ظروف آنذاك (و اللّجان الثوريّة كذلك كانت ، تجب الإشارة ، جوهريّا من إبداع الجماهير بقيادة مركز القيادة البروليتاريّة فى الحزب) . و قد برز هذا الشكل أوّلا فى غضون نهوض الجماهير فى شمال شرق الصين ، و على وجه خاص ، فى إقليم هايلونغ جيانغ و ثمّ وقع تلخيص ذلك و نشره شعبيّا (و نعم ، أصبح مؤسّساتيّا) عبر المجتمع و على كافة الأصعدة . فقد كان ذلك " شيئا جديدا " بالغ الأهمّية أبدع أثناء الثورة الثقافيّة : كان ، مثلما أشرنا سابقا ، طريقة لتوحيد الجماهير مع الكوادر القيادية للحزب و الدولة فى أشكال حكم و إدارة فعليّين على كلّ مستويات المجتمع الصينيّ .

و الإستنتاج الذى تخرج به وثيقة اللجنة بشأن هذه النقطة يعكس عدم فهم كلّ هذا حيث تقول الوثيقة ببساطة : " رأي ماو الأساسيّ هو أنّ ما يهمّ ليس شكل هيكلة الدولة بل الطبقة التى تمسك بالسلطة . و يُثبت هذا أنّ تأكيد ماركس على **الشكل** الجديد للدولة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا قد نُسي تقريبا ". (فقرة 7-5 التسطير فى النص الأصلي)

" يثبت هذا " لمن !؟ إنّه لا يثبت ذلك بتاتا . مع ذلك ، مجدّدا [نصّ ماو] قد قرأه واضعو وثيقة اللجنة و حتّى إستشهدوا به لكنّهم لم يفقهوا فحواه . فبالعكس ، ما تثبته حقّا هذه التجربة هو أنّ ماو على وجه خاص قد أعار إنتباها كبيرا لهذه المسألة . بينما التشديد على ذلك الشكل ليس فى حدّ ذاته لبّ المسألة فإنّ ماو ، فى نفس الوقت ، أعار كبير الإهتمام إلى وحدة شكل و مضمون دكتاتوريّة البروليتاريا و خاصة إلى تطوير الأشكال الجديدة التى مكّنت الجماهير و بنسق متصاعد من أن تدعم حكمها للمجتمع أي ممارستها الدكتاتوريّة الشاملة على البرجوازيّة و التحكّم فى الإقتصاد الإشتراكيّ .

ألا إنّ ماو هو الذى قاد من قبل و ساند الجماهير فى إبداع الكمونات الشعبيّة الريفيّة ، فى وجه معارضة شديدة من التحريفيّين فى قيادة الحزب . و الكمونات الشعبيّة طبّقت ، و لو أنّها لم تتبع بصرامة فى كلّ شأن ، المبادئ الأساسيّة لكمونة باريس . و قد جسّدت أشكالا جديدة من الإنتاج الإشتراكيّ و العلاقات الإجتماعيّة و تحويلات جديدة فى البناء الفوقيّ إمتزجت بتقدّم أكبر فى الملكيّة العامة فى الإقتصاد و جسّدت أشكالا متقدّمة من الإدارة المستلزمة للجماهير العريضة . بصورة أعمّ ، قد لخّص ماو أيضا و نشر شعبيّا التجربة المتقدّمة فى تركيز ، فى كلّ من الصناعة و الفلاحة ، الأشكال الجديدة لعلاقات الإنتاج الإشتراكيّة الأكثر تقدّما و الطرق الجديدة لتدمير تقسيم العمل القديم و تشريك الجماهير فى التسيير

و الإدارة بينما يقع تشريك المديرين و الإداريين و العمال بالفكر **عموما** فى العمل المنتج ، إلى جانب جماهير الشعب الكادح ، و طبعا قد إتخذ كل هذا حتى قفزة أكبر إلى الأمام فى خضم الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى .

و متجاهلة هذه التجربة التاريخية الثرية ، تستمرّ وثيقة اللجنة فى شكلانتها المثاليّة . و بعد بضعة صفحات ، تعود إلى و توسّع عدم إستيعابها أو تشويهها للنقطة العميقة التى صاغها فعلا ماو (الدرس الحقيقيّ الذى يستشفّه) فى ما يتعلّق بالمسألة التاريخيّة أنّ سوفياتات لينين تحوّلت على سوفياتات خروتشاف . فى الواقع ، تحاجج الوثيقة أنّ " ماو لم يدرك أهمّية الهيكلة التنظيميّة السياسيّة الجديدة " و أنّ وفقا لماو " إكتشاف السوفياتات لم يكن ذو بال " (فقرة 8-11) .

هذا أمر لا يصدّق! مثلما قد رأينا ، هذه ليست فكرة ماو بتاتا . و إنّه لأمر ساخر يستحقّ الملاحظة أنّ قبل هذا قد حاججت وثيقة اللجنة أنّ السوفياتات ،عندما غدت فى ظلّ قيادة مؤسّساتية للحزب ، لم تمثّل شيئا مغايرا نوعيّا ، و لو أنّ لينين أكّد على أنّ السوفيتات و ليس الحزب ذاته هي التى كانت تضطلع بوظائف الحكومة وأنّ السوفياتات كانت" مؤسّسات خاصة " من " نوع جديد " (فقرات 5-7 و 5-8) . و الآن تنسب وثيقة اللجنة إلى ماو أنّ السوفياتات لم تمثّل شيئا جديدا نوعيّا فى حين أنّ ماو لا يقول أيّ شيء من هذا القبيل و يصوغ موقفا متباينا كلّيا مع ذلك .

و لننظر فى تقييم آخر فى وثيقة اللجنة للثورة الثقافيّة البروليتاريذة الكبرى : "لم يكن من الممكن للثورة الثقافيّة أن توجد إلاّ بسبب قيادة ماو و تطوّرت خارج الهيكلة السياسيّة القائمة . و بالرغم من أنّ ماو قد أشار إلى أنّ عددا آخر من الثورات الثقافيّة سيكون لازما طوال الفترة الإشتراكيّة ، فإنّه من الجليّ تماما أنّها لن تتواصل فى غياب نظام حيث تكون مثل هذه الثورات الثقافيّة مضمونة و ماو وقادة إشتراكيّون آخرون فى الصين لم يستطيعوا أن يطوّروا مثل هذا النظام أو يتصوّروه . ما حاولوا فعله هو تركيز دكتاتوريّة شاملة على البرجوازيّة ، مستخدمين ذات الهيكلة القديمة لدكتاتوريّة البروليتاريا . و تبيّن أنّ مثل هذه المقاربة أكثر سلطة ليس إلاّ و حتّى محتوى الثورة الثقافيّة المعادى للبيروقراطيّة قد تمّ تشويهه فى هذا الإطار". (فقرة 7-6)

هذه حتى مثاليّة و ميتافيزيقيّة أكبر . بإعتبار كلّ ما قيل هنا حول الطابع المتناقض للمجتمع الإشتراكيّ ، كيف يمكن أن يوجد مثل هذا " الضمان " بمعنى أيّة مؤسسات أو إجراءات بإمكانها أن " تضمن " الثورات الثقافيّة ، حتّى لا نقول نجاحها ؟ علينا أن نسأل : " تبيّن أنّ مثل هذه المقاربة اكثر سلطة ليس إلاّ " تجاه من ؟ تجاه أيّة طبقة ؟ هنا ، من جديد ، تكشف هذه الوثيقة نزعتها الثابتة للتذيّل وراء الأكثر تخلّفا و بالخصوص للعمل على إرضاء الأفكار المسبّقة الديمقراطيّة البرجوازيّة و النظرة البرجوازيّة عموما ، بما فى ذلك ، المعاداة الصريحة و الفجّة للشيوعيّة . و فى الواقع ، تتّخذ الوثيقة و بوضوح تقريبا موقف البرجوازيّة و المثقّفين البرجوازيّين الذين وُجّهت ضدّهم تلك السلطة و الذين إغتاضوا فى ظلّ تلك السلطة .

بهذا الصدد ، من المفيد إعادة تعاليق إنجلز الساخرة من الفوضويّين وهي تعاليق ممتعة تستعمل تجربة كمونة باريس كإطار مرجعيّ و تلخّص الدرس الآتي من تلك التجربة : " هل رأى هؤلاء السادة ثورة فى يوم ما ؟ إنّ الثورة هي دون شكّ سلطة ما بعدها سلطة ، الثورة هي عمل يفرض به قسم من السكّان إرادته على القسم الآخر بالبنادق ، بالحراب ، بالمدافع ، أي بوسائل لا يعلو سلطانها سلطان . و يتأتّى على الحزب الغالب أن يحافظ بالضرورة على سيادته عن طريق الخوف الذى توحيه أسلحته للرجعيّين . فلو لم تستند كمونة باريس إلى سلطان الشعب المسلّح ضد البرجوازيّة فهل كان بإمكانها أن تصمد أكثر من يوم واحد ؟ و ألا يحقّ لنا أن نلومها ، بالعكس ، لأنّها لم تلجأ لهذا السلطان إلاّ قليلا جدّا ؟ " (إنجلز ، " **بشأن السلطة** " ، ذكره لينين فى " **الدولة و الثورة** " صفحة 66 ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

و طبعا ، كان فى ذهن إنجلز بوضوح المضمون الطبقيّ لدكتاتورية البروليتاريا (لم يكن يدافع عن السلطة عموما أو بصفة مطلقة ، بل تحديدا سلطة الثورة البروليتاريّة) و سنسحب هذا على ماو و " أنصار الطريق الإشتراكيّ " الآخرين فى الصين الذين دافعوا عن و قادوا تكريس **ممارسة الجماهير لدكتاتورية البروليتاريا** على البرجوازيّة من جهة و الذين يفتّشون عن إعادة تركيز الرأسمالية ، و مدّوها بأسباب الحياة وبالأشكال [المناسبة] من الجهة الأخرى . (10)

5 / مشكلة البيروقراطيّة و دور الحزب و هياكل الدولة فى ظلّ الإشتراكيّة :

ثمّ ، تحت عنوان " الخطأ الأساسيّ " ، تعلن الوثيقة أنّها : إكتشفت أين و كيف أخطأ لينين " . لكن هذا " الإكتشاف " لا يفعل سوى تعميق " الخطأ الأساسيّ " الممتدّ على طول هذه الوثيقة و عرضها. لا تمرّ الحجج السابقة فى الوثيقة من السيئ إلى الأسوء فقط و إنّما تدخل حججا جديدة تجسد حتّى إبتعادا بديهيّا أكثر (تراجعا) عن الماركسية - اللينينية - الماوية . و نقدنا هذا لوثيقة اللجنة سيتمحور أوّلا حول هذه الحجج " الجديدة " و التى مثلما سنشاهد ، ليست البتّة جديدة فعلا .

تقول وثيقة الل م ت إنّ " فى الهيكلة السياسيّة لكمونة باريس ، لم يكن للحزب الشيوعيّ أيّ دور قياديّ " (فقرة 8-4) .

إزاء هذا ، و مرّة أخرى بأفق تاريخيّ ، ليس بوسعنا إلاّ أن نقول " شكرا لله ! " . و بهذا نقصد أنّ أيّا من القوى الأكثر تأثيرا داخل الكمونة لو كانت قد لعبت مثل هذا الدور القياديّ ، فإنّ القيادة كانت ستكون قيادة حزب لا يمثّل حقيقة البروليتاريا . و يعود هذا إلى أنّ القوى القياديّة فى الكمونة لم تكن فعلا شيوعيّة : كانت إشتراكيّة لكن لم تكن إشتراكيّة علميّة . و كانت قوى معاضة سياسيّا لماركس و إن كانت الكمونة لتدوم أكثر و إن تعزّزت قيادتها فيها ، فإنّ هذا كان سيؤدّى إلى إعادة تركيز الرأسماليّة لا محالة . من جديد ، غياب حزب طليعي شيوعيّ حقيقة مثّل **نقطة ضعف** مميتة للكمونة . و يرتبط هذا بالمسألة الجوهريّة بشأن حدود تجربة كمونة باريس و كيف أنّه من الخطإ إستعمال هذه التجربة المحدودة جدّا ضد أعظم تجربة لدكتاتوريّة البروليتاريا مذّاك (مع أنّ الثورة الروسيّة و الثورة الصينيّة قد رفعتا عاليا و طبّقتا **الروح و التوجّه الجوهريّين** الذين حدّدهما ماركس فى كمونة باريس) .

و لنتابع ، إلى موقف آخر فى وثيقة اللجنة : " غياب أيّة إشارة لدور الحزب فى المخطّط العام لدكتاتوريّة البروليتاريا مثلما شرحها لينين فى **" الدولة و الثورة "** أمر بارز أيّما بروز . يمكن أن يعود إلى هذا التأثّر بالهيكلة السياسيّة لكمونة باريس . إلاّ أنّ الحزب هنا ، عكس كمونة باريس ، سيلعب الدور الحاسم لأنّ زمن ثورة أكتوبر ، قد تطوّر بعدُ حزب كطليعة ممثّلة للمصالح الطبقيّة للبروليتاريا . و هكذا كانت هذه المسألة النظريّة الحاسمة التى وجب حلّها خلال تلك الفترة . إغفال لينين التام لهذه المسألة يعدّ هفوة جدّية أفضت إلى الخطأ الأساسيّ فى تطوير فهم دكتاتوريّة البروليتاريا . " (فقرة 8-5)

صحيح أنّ لينين فى " **الدولة و الثورة** " لم يكن يعالج مسألة دور الحزب فى دكتاتوريّة البروليتاريا . هدفه من كتابه " **الدولة و الثورة** " فى فترة ما بين ثورة فيفري 1917 الديمقراطيّة البرجوازية و ثورة أكتوبر 1917 البروليتاريّة ، كان إثبات الحاجة إلى الإطاحة العنيفة بدولة البرجوازيّة و تحطيم آلة الدولة القديمة و خلق نوع دولة جديد أيّ دكتاتوريّة البروليتاريا . و كان هذا و ليس دور الحزب فى دكتاتوريّة البروليتاريا ، المسألة النظريّة الحاسمة التى كان من اللازم تفحّصها بالضبط فى تلك اللحظة الدقيقة .

و قد كان " **الدولة و الثورة** " جدلا ضد " الإشتراكيّين " الإنتهازيّين آنذاك (و كاوتسكى كان أكثرهم " هيبة " و تأثيرا) الذين كانوا ينكرون الحاجة إلى ثورة عنيفة و دكتاتوريّة البروليتاريا و كانوا يشوّهون التعاليم الماركسيّة الأساسيّة بصدد الدولة وهي أنّها وسيلة قمع طبقيّة ظهرت مع تطوّر التناحرات الطبقيّة و سوف تضمحلّ هي ذاتها مع إزالة هذه التناحرات و الإختلافات الطبقيّة عامة عبر ثورة البروليتاريا و تحويلها الراديكاليّ للمجتمع و الدولة . فى كتابة هذا الجدال ، كان لينين ينطلق ممّا لخّصه ماركس وإنجلز من التجربة التاريخيّة الوحيدة لدكتاتوريّة البروليتاريا إلى حدّ ذلك الوقت ، كمونة باريس. و مسألة دور حزب الطليعة الشيوعيّة فى ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا لم تصبح بعدُ محور إهتمام مركّز .

لا يستبعد أنّ لينين ، على أساس تقرير إستقرائيّ من تجربة كمونة باريس (و تخصيصا عدم وجود طليعة شيوعيّة حقيقيّة فى الكمونة) يمكن أن يكون قد توصّل إلى بعض الإستنتاجات تخصّ الحاجة إلى أن يضطلع الحزب بدور طليعيّ ليس فى الإطاحة بسلطة الدولة القديمة فقط و إنّما أيضا فى إنشاء سلطة الدولة الجديدة و ممارستها . لكن إعتبار أنّ عدم قيام لينين بذلك كذلك فى " **الدولة و الثورة** " يمثّل نوعا من " هفوة جدّية " أفضت إلى " الخطأ الأساسيّ " هو مثال آخر عن التفكير المثاليّ و الميتافيزيقيّ.

مع تجربة ثورة أكتوبر ثمّ تجربة ممارسة البروليتاريا السلطة بالذات ، صارت مسألة الدور القياديّ للحزب فى مقدّمة المسائل . عند هذه النقطة ، عالج لينين بالتأكيد هذه المسالة ، فى خضم النظريّة و كذلك الممارسة ، بصفة متواصلة طوال السنوات العديدة التالية . فكانت كتاباته و خطاباته فى تلك الفترة (السنوات القليلة الأولى من دكتاتوريّة البروليتاريا فى الجمهوريّة السوفياتيّة و السنوات القليلة الأخيرة من حياة لينين) مليئة بنقاش هذه المسألة و جدال بشأن التناقضات التى تتضمّنها . و فى الواقع ، قد إستشهدت وثيقة اللجنة ببعض تلك الكتابات و الخطابات (طبعا بطريقة مشوّهة لأجل إتّهام لينين بتأييد " دكتاتورية الحزب " على الجماهير) (11) .

طريقة بروز هذه المسألة فعليّا تثبت العلاقة الحقيقيّة بين الممارسة و النظريّة و أنّ أهمّ وظيفة للنظريّة ، كما قال لينين ، هي الإنكباب على المشاكل العاجلة الراهنة ، المشاكل النظريّة الفعليّة التى تفرزها الممارسة .

و نمرّ إلى موقف آخر فى وثيقة اللجنة : " إثر إفتكاك السلطة فى أكتوبر ، صار مجلس السوفياتات الحكومة الشكليّة للسلطة السياسيّة الجديدة . لكن فى الواقع ، كان الحزب يضطلع بالدور الحاسم فى تطوير كلّ السياسات الهامة و التكتيكات من وراء الستار . و فى الحقيقة ، كان الحزب يتحكّم فى السوفياتات بالرغم من أنّ دوره الخاص فى هيكلة الدولة الجديدة لم يكن محدّدا." (فقرة 8-6)

هنا ، بصفة مزعجة ، نرى وثيقة اللجنة تستعمل الشبح المستعمل عادة من طرف البرجوازيّة أي شبح أولئك الشيوعيّين الجديرين بالإزدراء ذوى البرامج المخفيّة ! نرى أيضا أنّ هذه الوثيقة تقدّم مرّة أخرى شكلانيّتها البرجوازيّة المعهودة (متذمّرة من أنّ الهياكل الشكليّة للديمقراطيّة لم يتمّ الإنخراط فيها) . لكن الآن ، يقع هذا بإسم **معارضة** الشكلانيّة (لم تكن السوفياتات حكومة شكليّة فحسب بل أيضا كان الشيوعيّون بالفعل يتحكّمون فى الأشياء من وراء الستار) . فى الحقيقة ، لم يتم ذلك " من وراء الستار" البتّة . قبلا ، إستشهدت وثيقة اللجنة بلينين وهو يقول إنّ البلاشفة قد " أعلنوا للعالم " ضرورة دور الحزب القياديّ . المسألة هي أنّ دور الحزب **كان** يحدّد بوضوح أكثر فأكثر بإعتباره القوّة القياديّة الشاملة فى دكتاتوريّة البروليتاريا ، فى علاقة جدليّة مع الجماهير التى تمّت تعبئتها لممارسة هذه الدكتاتوريّة . هذه هي بالضبط كيفيّة تعامل لينين معها نظريّا و عمليّا و كذلك فعل ستالين ، أساسا و بوجه خاص فى البداية (لنتذكّر تعليق ماو أنّه فى البداية ، فى ظلّ قيادة ستالين ، لم يكن لديهم شيئا سوى التعويل على الجماهير و لذلك طالب ستالين بالتعبئة العامة للحزب و الجماهير ، رغم أنّهم فى ما بعد ، إثر حصولهم على بعض المكاسب بهذه الطريقة ، صاروا أقلّ تعويلا على الجماهير) .

و تتمادى وثيقة اللجنة لتقول : " هكذا ، تحت ضغط الظروف ، أمام كلّ التهديدات الخارجيّة و الداخليّة ، إضطرّ الحزب إلى لعب الدور المحوريّ ، مبعدا السوفياتات إلى الخلفيّة ". (فقرة 8-7)

و مرّة أخرى ، إنّه لإحتقار و قول خاطئ من حيث الجوهر قول إنّ السوفياتات كانت " مبعدة إلى الخلفيّة " . حتى " تحت ضغط الظروف " و مع تغيير ضروريّ فى الوزن النسبي للسوفياتات ، فى علاقة بالمؤسّسات الأخرى (ومنها على وجه الخصوص الحزب) فى تسيير المجتمع و فى الممارسة الشاملة لدكتاتوريّة البروليتاريا (مثلما ناقشنا سابقا) ، إستمرّ بعدُ التعويل على السوفياتات لتنهض بوظائف الحكومة ، فى ظلّ قيادة الحزب ، كما قال لينين . لكن هنا من الضروريّ العودة إلى مسألة تاريخيّة شاملة متعلّقة بدور السوفياتات (و المؤسّسات المشابهة و المنظّمات الجماهيريّة) فى سيرورة الثورة الإشتراكيّة و التقدّم نحو الشيوعيّة .

فى حديث له بصدد الثورة الصينيّة و على نحو خاص فى إجابة على سؤال متّصل بتشكيل السوفياتات و دورها فى الثورة (كان هذا فى 1927، فى المراحل الأولى للثورة الصينيّة) ناقش ستالين كيف أنّ السوفياتات " أجهزة الإنتفاضة ضد السلطة القائمة ، أجهزة الصراع من أجل سلطة ثوريّة جديدة ، أجهزة السلطة الثوريّة الجديدة " .(ستالين ،" **حديث مع طلبة جامعة سان يات سان** : ، 13 ماي 1927 ، المسألة الثامنة فى **"حول المعارضة "** ، بيكين ، منشورات باللغات الأجنبية – الإنجليزية – صفحة 689) . و دون التوغّل فى المسائل التكتيكيّة الخصوصيّة و بالأحرى المعقّدة التى كان ستالين يتحدّث عنها ، فى إرتباط بالثورة الصينيّة فى تلك الفترة ، ثمّة مسألة هامة و عالميّة أكثر يلمح إليها ستالين . فى تجربة الثورة البلشفيّة (و كان هذا أيضا صحيحا فى الثورة الصينيّة ، فى تلك الأوضاع التى أرسيت فيها سوفياتات) وُلدت السوفياتات أثناء سيرورة الإنتفاضة الجماهيريّة و لفترة بعد إفتكاك السلطة (12). و حافظت على نفس الديناميكيّة التى

ميّزتها فى هذه الإنتفاضة . لكن كان من الحتميّ أن تتحوّل إلى حالة لا يمكن فيها المحافظة على نفس المستوى ، فى نوع من السير " المستقيم " لفترة طويلة من الزمن .

و يرتبط هذا أيضا بالنقاط التى أوضحنا بشأن مشكل المحافظة على الطاقة و الحماس الثوريّين و كيف أنّ الصراع الطبقيّ و الإنتفاضات الجماهيريّة تتّجه حتما إلى التطوّر على شاكلة الأمواج أو بطريقة لولبيّة فى المجتمع الإشتراكيّ (و أيضا فى المجتمع الرأسماليّ). و يتّجه هذا حتما للإنعكاس فى درجة ديناميّة (أو أحيانا ، الغياب النسبيّ لدينامية) أجهزة مثل السوفياتات فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . إنّ السوفياتات فى الإتحاد السوفياتيّ يمكن فى أيّ وقت معيّن ألاّ تكون بنفس الديناميّة التى كانت عليها طوال فترة نهوض الجماهير لإفتكاك السلطة و ثمّ فى السنوات الأولى حين شرعت فى ممارسة السلطة . و هذا تعبير عن التطوّر الموضوعي على شاكلة الأمواج و ليست مسألة محاولات جديرة بالإزدراء و منحوسة من البلاشفة لتعويض دكتاتوريّة البروليتاريا بدكتاتوريّة الحزب كما تدّعى وثيقة اللجنة .

و فى تناقض مع ما تقوله هذه الوثيقة ، لم يجعل لينين مبدأ أنّ " الحزب و حسب " و ليست الجماهير ، ب" إمكانه أن يمارس الدكتاتوريّة " (فقرة 8-7) . فقد تشبّث بجدّية بكيفيّة تشريك الجماهير فى تسيير الدولة و كيفيّة مكافحة التوجّهات البيروقراطيّة التى تتعارض مع هذا . و مرّة أخرى ، كانت كتاباته فى السنوات القليلة الأخيرة من حياته مليئة بالتشبّث بهذه المسألة بينما كان ، فى نفس الوقت ، مضطرّا إلى الإعتراف بأنّ بيروقراطيّة من نوع أو آخر لا يمكن القضاء عليها ، لزمن طويل آتٍ.

إحدى أهمّ الطرق التى قاد بها لينين النضال ضد البيروقراطيّة و إتّجاه الحزب الشيوعيّ كحزب فى السلطة إلى التحوّل إلى حزب فاسد كانت الحملة الموجّهة إلى تطهير الحزب من الوصوليّين لا سيما الذين إلتحقوا بالحزب لمّا تمّ تعزيز السلطة و كان الحزب يضطلع بدور قياديّ فى المؤسّسات الإجتماعيّة و فى الحياة الإقتصاديّة و السياسيّة للبلاد . و أكّد لينين على أنّه على الحزب و بخاصة الآن و قد بات القوّة القياديّة للبروليتاريا فى السلطة ، أن يواصل تشكيل ذاته من الذين إلتحقوا به منتظرين التضحية الذاتيّة و مستعدّين لها فى سبيل مصالح البروليتاريا . ففى 1921 ، فى فترة ما بعد الحرب الأهليّة المظفّرة ضد الرجعيّين المحلّيين مع عدد من القوى الإمبرياليّة ، قال لينين ما يلى حيال تطهير الحزب : " تطوّر تطهير الحزب بصفة بديهيّة إلى مسألة جدّية و بالغة الأهمّية ، فى بعض الأماكن يُطهّر الحزب بالأساس بإعانة تجربة و مقترحات العمّال غير الحزبيّين ، و هذه المقترحات و ممثّلي الجماهير غير الحزبيّة تلقى الإهتمام بالإعتبار الذى تستحقه . هذا هو الشيء الأثمن و الأهمّ . إذا نجحنا فعلا فى تطهير حزبنا من الأعلى إلى الأسفل **بهذه الطريقة** ، دون إستثناءات ، سيكون حقّا كسبا عظيما للثورة .

... ينبغى للحزب أن يتطهّر من الذين فقدوا العلاقة بالجماهير (حتّى لا نتحدّث ، طبعا ، عن الذين يشوّهون سمعة الحزب فى أعين الجماهير) . و من الطبيعيّ أنّه يتعيّن علينا ألاّ نخضع كلّ شيء لرأي الجماهير لأنّ الجماهير كذلك ، أحيانا (و بخاصة زمن التعب و الإنهاك الإستثنائيّين الناجمين عن الضيق و الألم المفرطين) تستسلم للمشاعر التى ليست بأيّة حال متقدّمة . بيد أنّه فى تقييم الأشخاص و فى الموقف السلبيّ للذين قد " ألصقوا " أنفسهم بنا لمآرب ذاتية و للذين صاروا " مفوّضين مغرورين " و " بيروقراطيين " ، فإنّ مقترحات الجماهير غير الحزبيّة و فى عديد الحالات ، الجماهير الفلاحيّة غير الحزبيّة ، ذات قيمة إلى أبعد الحدود . ذلك أنّ للجماهير الكادحة حسّ مرهف يسمح لها بالتفريق بين الشيوعيّين الشرفاء و المخلصين من جهة و أولئك الذين يثيرون إشمئزاز الناس المتحصّلين على خبزهم بعرق جبينهم و غير المتمتّعين بأيّة إمتيازات و ليس عليهم أيّ " قميص".

بغية تطهير الحزب ، من الهام جدّا أخذ مقترحات الشعب الكادح غير الحزبيّ بعين الإعتبار . و ستكون لذلك نتائج عظيمة . سيجعل الحزب طليعة أشدّ قوّة بكثير للطبقة العاملة ممّا كان عليه قبل ، سيجعل منه طليعة أقوى لها صلة وثيقة بالطبقة و أقدر على القيادة نحو الإنتصار عبر صعوبات و أخطار جمّة ". (لينين " **تطهير الحزب** " ، الأعمال الكاملة ، المجلد 31، صفحة 33 ، التسطير فى النص الأصليّ ؛ الطبعة الفرنسية لدار التقدم ، موسكو)

مثل هذه التطهيرات للحزب و إجراءات أخرى ضد البقرطة التى إتّخذت فى ظلّ قيادة لينين لم تستطع و لم تكن لتستطيع ، بحدّ ذاتها ، أن تحلّ المشكلة . فلم تحلّ التناقضات الكامنة التى تفرز البيروقراطية و الوصوليّة فى صفوف موظّفى الحزب

و الدولة و سواهما . لكن هذه السياسات تبيّن دون مجال للخطأ تصميم لينين على مكافحة مثل تلك الوصوليّة و البيروقراطيّة و أيّة نزعة لتحويل الحزب و الدولة إلى نقيضها أي وسائل دكتاتوريّة على الجماهير .

كان هذا المشكل يتطلّب إبداعات جديدة ، وسائلا و مناهجا جديدة للصراع و الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى فى الصين مثّلت مثل هذا الإبداع الجديد ، مثل هذه الوسائل و المناهج الجديدة للصراع الثوريّ ، فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا. لكن ، كما قال ماو ، لم تكن ثورة ثقافيّة واحدة لتحلّ كلّ المشاكل . و لم تكن كذلك لتقضي على الطابع الموضوعيّ للصراع الطبقيّ و الإنتفاضات الجماهيريّة ، الذين يتطوّرون على شاكلة أمواج . و مثلما عبّر عن ذلك ماو ، ينبغى إنجاز عديد الثورات الثقافيّة على الطريق الموصل للتحقيق النهائيّ للشيوعيّة . و مع ذلك ، لا يمكن أن توجد ثورات كافة الوقت . فى أثناء هذه الأوقات ، عندما لا تكون ثورة ثقافيّة ممكنة ، لا بدّ من الكفاح ضد النزعات البيروقراطيّة و ما هو جوهريّ أكثر ، لا بدّ من أن توجد وسائل تعبئة النشاط الواعي للجماهير إلى أقصى درجة ممكنة . لكن لا شيء من هذا يمكن أن يقدّم ضمانا مدرّعا بالحديد ضد إعادة تركيز الرأسماليّة أو أن يغيّر من أنّه ستوجد فترات لا يكون فيها " التوتّر " الثوريّ و مبادرة الجماهير فى أعلى نقطة ، حتّى فى المجتمع الإشتراكيّ .

و فى إرتباط بهذا ، تأتى محوريّة مقاربة الحزب كقوّة قياديّة لدكتاتورية البروليتاريا ، لمسألة تعارض الآراء و تصادمها فى كلّ من داخل صفوف الحزب و فى المجتمع بعامة . فى " **نهاية / بداية** " و فى عدد من الأعمال الأخرى ، إتّباعا لخطى ماو ، قد أكّدت على أهمّية السماح بهذه الأشياء و حتى بتشجيعها فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا كمبدأ عام . إلاّ أنه ، فى نفس الوقت ، يتوجّب الإقرار بأنّ هذه المسألة أيضا لا يمكن أن تعالج بصورة مجرّدة و شكليّة ، حسب نوع من الفهم الديمقراطيّ " النقيّ " أو " غير الطبقي " و ستكون متأثّرا كذلك بصورة حاسمة بالظروف الواقعيّة و بالأخصّ بالعلاقات الطبقيّة و الصراع الطبقيّ ، فى كلّ من المجتمع الإشتراكيّ و عالميّا .

و أحيانا ، سيكون من الممكن (سيتطابق مع مصالح البروليتاريا) " الإنفتاح الواسع " بمعنى مثل هذا النقاش و التصادم إلخ و على الحزب ألاّ يتذبذب فى إستغلال مثل هذه الفرص ل " الإنفتاح الواسع " و فى أوقات أخرى ، سيكون من الضروري " رصّ الصفوف " أكثر و خوض الصراع الإيديولوجيّ و النقاش و ما إلى ذلك بطريقة محدّدة أكثر و على الحزب كذلك ألاّ يتذبذب فى تبنّى **هذه** المقاربة حينما تتطلّبها الظروف الملموسة . و مع ذلك ، من خلال كلّ هذا ، ينبغى أن يكون المبدأ القائد هو أنّ الأشكال التى يترتّب إيجادها فى كلّ من داخل الحزب و فى صفوف الجماهير الواسعة من أجل النقاش و التصادم و الصراع الإيديولوجيّ و ما إلى ذلك ، أشكالا مناسبة للظروف و تتماشى و مصالح البروليتاريا فى وضع معيّن ، و يتعيّن إستغلال كلّ فرصة ل " الإنفتاح الواسع " إلى أقصى درجة ممكنة تنسجم مع مصالح البروليتاريا أي مع ممارسة الجماهير لدكتاتوريّة البروليتاريا و مواصلة الثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا بقيادة الحزب الشيوعيّ الطليعيّ .

و يجب القيام بهذا حتّى و إن إتّجه إلى تضمّن المخاطرة بالكثير و تكرارا إفساد النظام المركّز فى ظلّ الإشتراكيّة و يجب القيام به بطريقة لا تقوّى بل تضعف إعادة تركيز قاعدة القديم أيّ النظام الرأسماليّ . و يعود بنا هذا إلى " الجانب الإيجابيّ للتناقضات غير المحلولة فى ظلّ الإشتراكيّة " و المبدأ المرتبط بهذا ألا وهو :

" ينبغى على الحزب فى المجتمع الإشتراكيّ أن يعمل كطليعة ليس بمعنى كونه حزبا فى السلطة و حسب بل أيضا بمعنى مشاركته النشيطة فى و قيادة (مُطلقا العنان فعليّا و كاسبا قيادة) النضال الجماهيريّ فى معارضة مظاهر **الوضع الراهن** التى تكون ، فى أيّ وقت معيّن ، قد صارت حاجزا أمام مزيد تثوير المجتمع و التى تقف فى تعارض مع القوى الثوريّة الجديدة التى تتقدّم . بإختصار ، ينبغى على الحزب أن يكون حزبا فى السلطة و طليعة النضال الثوريّ ضد أيّ أجزاء من السلطة تقف فى وجه التحرّر التام " (أفاكيان ، " ملاحظة ختامية " ، مجلة " **الثورة** " ، نهاية 1990 ، صفحة 46 ، التسطير فى النص الأصليّ) .

و يشمل كلّ هذا مسائلا عميقة من اللازم معالجتها لكن من جهة أخرى ، لا بدّ من تناولها بجدّية من وجهة نظر الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة و تلخيص التجربة التاريخيّة لدكتاتورية البروليتاريا و ليس على أساس نبذ هذا و البحث عن " إجابات

بسيطة " تحرّض الجماهير ضد الحزب بما هو بصراحة طريقة كلاسيكيّة معادية للشيوعيّة . و ما يؤكد عليه " **بيان الحركة الأمميّة الثوريّة "** [1984 – المترجم] يكتسى أهمّية بالغة على ضوء الأحداث العالمية الحديثة :

" لقد شكّل تقييم الخبرة التاريخيّة فى حدّ ذاته دوما موضوع جدالا كبيرا فى الصراع الطبقيّ فمنذ هزيمة كومونة باريس لم يتوقّف الإنتهازيّون و التحريفيّون عن إستغلال هزائم البروليتاريا و نواقصها بغاية قلب الخطأ و الصواب و خلط المسائل الثانويّة بالمسائل الرئيسيّة و التوصّل إلى إستنتاج مفاده أنّ " البروليتاريا ما كان عليها أن تحمل السلاح ". و كثيرا ما كان بروز ظروف جديدة تعلّة للإرتداد عن المبادئ الجوهريّة الماركسيّة ، مع إدّعاء إضفاء التجديد عليها . و من جهة أخرى، فإنّه ليس بأقلّ خطأ و بأقلّ ضررا كذلك التخلّى عن الروح النقديّة الماركسيّة و عدم الإهتمام بتقييم نواقص البروليتاريا إلى جانب تقييم نجاحاتها و الإعتقاد بأنّه يكفى تماما الإستمرار فى الدفاع أو التمسّك بمواقف كنّا نتصوّر سابقا أنّها صحيحة فمثل هذه الطريقة تجعل الماركسيّة - اللينينيّة - الماويّة جافة و هشّة غير قادرة على التصدّى لضربات العدوّ و عاجزة عن تحقيق أيّ تقدّم جديد فى الصرع الطبقيّ و فى الواقع تخنق مثل تلك الطريقة الروح الثوريّة الماركسيّة – اللينينيّة .

لقد بيّن التاريخ فعلا أنّ التجديدات الحقيقيّة للماركسيّة (على عكس التشويهات التحريفيّة) إنّما كانت متّصلة إتّصالا وثيقا بمعارك ضارية للدفاع عن المبادئ الجوهريّة للماركسية - اللينينية - الماوية و تدعيمها . و لنستشهد بمثالين يدلاّن على هذه الحقيقة التاريخيّة : نضال لينين المزدوج ضد أولئك التحريفيّين المكشوفين و ضد من كانوا مثل كاوتسكى يعارضون الثورة زاعمين الإرتكاز على " أرثودكسيّة ماركسيّة " و أيضا النضال الكبير الذى خاضه ماو تسى تونغ ضد التحريفيّين المعاصرين و إرتدادهم عن تجربة بناء الإشتراكيّة فى الإتّحاد السوفياتي فى عهد لينين و ستالين وهو النضال الذى خاضه فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه بنقد شامل و علميّ لجذور التحريفيّة .

و علينا اليوم أن نعالج المسائل و المشاكل الشائكة التى يطرحها تاريخ الحركة الشيوعيّة العالميّة حسب طريقة مماثلة . "

(**" بيان الحركة الأمميّة الثوريّة "** ، صفحة 5 بالأنجليزيّة / و أنظرو أيضا ترجمة البيان بأكمله ضمن كتاب شادي الشماوي ، **" علم الثورة البروليتارية العالمية : الماركسيةّ – اللينينيّة – الماويّة "** بمكتبة الحوار المتمدّن) .

و لسوء الحظّ ، تبتعد وثيقة اللجنةعن كلّ هذه المقاربة الصحيحة و تمضى فى معارضتها . و فى تأكيدها على " خطوتان عمليّتان إتّخذتهما كمونة باريس " ، نظام سياسيّ عمل من خلال موظّفى سلطة قابلين للعزل و تعويض الجيش القائم بالشعب المسلّح " و فى إدّعاء التعميق إنطلاقا من هذا الأفق نحو " ديناميّة " السلطة السياسيّة (فقرتا 8-9و 8-10) تسقط هذه الوثيقة على نحو أشمل فى موقف برجوازيّ . إذ تبتدأ بهذا التشخيص لطبيعة الدولة : " فى مجتمع طبقيّ ، تمسك الطبقة السائدة سلطة سياسيّة مدّعية أنّها تمثّل المجتمع كافة . و هذا يعكس تناقضا بين الإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة و إرادة المجتمع ككلّ . لأجل حلّ هذا التناقض ، تمركزت السلطة فى هيكلة الدولة و تستخدمها الطبقة الحاكمة على أنّها سلطتها التنفيذيّة . لذا ، هذه المركزة للإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة بإسم الإرادة السياسيّة للمجتمع بأسره ، فى الشكل الملموس للدولة ، بالأخصّ فى قوّتها المسلحة هي ميزة من ميزات السلطة السياسيّة التى وجدت إلى الآن فى المجتمع الطبقيّ . " (فقرة 8-10، خط التشديد مضاف)

هذا تشخيص خاطئ للتناقضات المتضمّنة و تشخيص خاطئ لجوهر المسألة . فإستخدام الطبقة السائدة للسطة السياسيّة لا يهدف جوهريّا أو أساسا إلى حلّ " التناقض بين الإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة و إرادة المجتمع ككلّ " . أساسا و جوهريّا، يهدف إلى التعامل مع التناقض (**التناحريّ**) بين تلك الطبقة السائدة **و الطبقة (أو الطبقات) التى عليها يجب أن تمارس الدكتاتورية** بغرض المحافظة على موقعها المسيطر فى المجتمع . وهذا متجذّر ليس فى نزاع مجرّد " للإرادات السياسيّة " بل فى الظروف الكامنة أي نزاع المصالح الطبقيّة المتناسب مع نوع من علاقات الإنتاج الماديّة المحدّدة . و مثلما لخّص ريموند لوتا بصورة واضحة المعالم :

" الدولة هيكلة إجتماعية موضوعية تحدّد ميزتها ليس بالجذور الطبقيّة للموظّفين القياديّين بل **بالتقسيم الإجتماعي للعمل الذى هي إمتداد له و علاقات الإنتاج التى عليها فى نهاية المطاف أن تخدمها و تعيد إنتاجها** ".

(ريموند لوتا " حقائق الإمبريالية الإشتراكية مقابل دغما الواقعيّة الساخرة : ديناميكيّة تشكيل الرأسمال السوفياتيّ " ضمن " **الإتحاد السوفياتي : إشتراكي أم إمبريالية إشتراكية ؟** " الجزء 2 : المسألة متّصلة ، شيكاغو ، منشورات الحزب الشيوعي الثوري، 1983 ، صفحة 41 ، خط التشديد مضاف) .

وفى تناقض مع هذا ، عرض وثيقة اللجنة لهذه المسألة بالتركيز على " التناقض بين الإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة و إرادة المجتمع ككلّ : هو عرض مثاليّ يؤدّى إلى إتجاه حجب **الطبيعة الطبقيّة** للدولة (و مثلما سنرى ، هذا هو بالضبط الإتّجاه الذى يقود هذه الوثيقة) . و تتابع الوثيقة عرضها كما يلى :

" إنّ البروليتاريا تهدف إلى القطع قطيعة نوعيّة مع هذه الهيكلة . و بالتالى عليها أن تشرع فى سيرورة تجعل من المجتمع بأسره قادراعلى أن يبتلع إبتلاعا معاكسا هذه السلطة الممركزة . وتعويض الجيش القائم بالشعب المسلّح هو خطوة ملموسة أوّليّة فى هذا الإتّجاه . بيد أنّه فى غياب نظام إقتصاديّ و سياسيّ و إجتماعيّ كامل يضمن هذا الإبتلاع المعاكس ، لن يفي هذا وحده بالغرض . فى السيرورة كلّها ، يتحتّم أن تخلق ظروف و هياكل لكي تتمكّن الإرادة (السياسيّة) للمجتمع بأسره من أن تعبّر عن نفسها و أن تتحقّق مباشرة دون وساطة الدولة . حينها فقط تستطيع البروليتاريا أن تبلغ غايتها ألا وهي مجتمع حيث تضمحلّ الدولة . إذا لم تتمكّن البروليتاريا من أن تتقدّم بمثل هذا النظام السياسيّ البديل ، فلن تقدر على إحداث قطيعة نوعيّة مع النظام البرجوازيّ القائم ." (فقرة 8-10)

نبدأ بالجزء الأخير هنا فنقول ليس هذا سوى مواصلة ل" قلب " مثاليّ و ميتافيزيقيّ للعلاقة بين الإقتصاد و السياسة و كذلك تطبيق للميتافيزيقا و المثاليّة على السياسة ذاتها و بالأخص الدولة . إنّه يتجنّب المسألة الحاسمة ، مسألة **تحويل القاعدة الإقتصادية** بمعنى إنجاز " قطيعة نوعيّة مع النظام الرأسماليّ القائم " . فهو يفصل مسألة " تتقدّم بمثل هذا النظام السياسي البديل " عن القاعدة الإقتصاديّة أو على الأقلّ لا يأخذ بعين الإعتبار مسألة تحويل القاعدة الإقتصاديّة و كيف يتفاعل ذلك مع خلق نوع دولة جديد سيقود بدوره إلى إضمحلال الدولة . بصفة عابرة ، تشير إلى " نظام إقتصاديّ و سياسيّ و إجتماعيّ كامل يضمن هذا الإبتلاع المعاكس " لكنّها بعد ذلك ، تولى الإنتباه الرئيسيّ و الأهمّ إلى مسألة النظام السياسيّ عوض التشديد على الظروف الماديّة القائمة و نقاش النظام السياسيّ فى هذا الإطار ، فى علاقة جدليّة بالظروف الإقتصاديّة القائمة و الحاسمة فى آخر المطاف .

أمّا بالنسبة لصيغتها أنّ " فى السيرورة كلّها ، يتحتمّ أن تخلق ظروف و هياكل لكي تتمكّن الإرادة (السياسيّة) للمجتمع بأسره أن تعبّر عن نفسها و أن تتحقّق مباشرة دون وساطة الدولة " فهي تلغى من الصورة شيئا حاسما للغاية سيميّز هذه " السيرورة كلّها " و حصرا وجود الطبقات و الصراع الطبقيّ ، وفوق كل شيء التناقض التناحريّ و الصراع بين البروليتاريا و البرجوازيّة و أيضا التناقض و الصراع بين العمّال و الفلاّحين ، و بين الشعب الكادح و المثقّفين و تناقضات إجتماعيّة أخرى تعكس التناقضات الطبقيّة أو تتضمّن بذور التناقض الطبقيّ و حتّى التناحر الطبقيّ .

صحيح أنّ مع **تحقيق الشيوعيّة** بمعنى التحويل الثوريّ لكلّ من القاعدة الإقتصاديّة و البناء الفوقيّ و النظام السياسيّ و الإداريّ الذى سيوجد حينذاك ، سيتمّ فعلا التعبير عن إرادة المجتمع بأسره و لو **ليس** دون تناقضات . مع ذلك ، لا يمكن لسيرورة تحقيق الشيوعيّة أن يجرى تصوّرها كما لو أنّها تحدث ليس عبر ثورة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا لتحلّ التناقضات الإجتماعيّة و النزاعات الطبقيّة العميقة و إنّما عبر تطوّر خطّي و تطوّريّ تقريبا فى هياكل تعبّر عن " الإرادة السياسيّة للمجتمع بأسره " " الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع باسره " (فقرة 10-3).

ثمّ يقال لنا " أخفق كلّ نظام دكتاتوريّة البروليتاريا الذى تمّ تطبيقه إلى حدّ الآن ، إبتداء من لينين وصولا إلى ماو " (فقرة 8-11) لأنّه لم يقدّم فهم وثيقة اللجنة (" نظام سياسي بديل " و لم يعمل وفق رؤية هذه الوثيقة لكيفيّة بلوغ إضمحلال الدولة (أو " الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره ".) . أمام هذا ، مرّة أخرى ، يمكننا قول " شكرا لله ! " .
فى الحقيقة إن حاول " كلّ " نظام دكتاتوريّة البروليتاريا الذى تمّ تطبيقه إلى حدّ الآن " أن يمارس خطّ وثيقة اللجنة هذه فإنّ دكتاتوريّة البروليتاريا هذه كانت ستضعف و ستجرى الإطاحة بها بأكبر سرعة ممّا حدث و كانت البروليتاريا العالميّة ستفقد تجربة تاريخيّة عامة غنيّة بالدروس **الحقيقيّة** . و بإمكاننا أن نضيف أنّنا نرغب فى أن تكون دكتاتوريّة البروليتاريا هذه قد " أخفقت " فى إمتحان وثيقة اللجنة حتّى بصفة شاملة أكثر ، أو لنضع ذلك بوجه إيجابيّ ، نرغب فى أن تكون قد

نجحت ليس إلى المدى الذى فعلت فى الحيلولة دون صعود البرجوازيّة إلى السلطة فحسب ، بل نجحت أبعد من ذلك و إلى يومنا هذا .

و لنؤكد ثانية و نشدّد من جديد على النقطة الحاسمة و الإختلاف الحاسم بين الماركسية – اللينينية – الماوية و الخطّ الإشتراكيّ الديمقراطيّ لوثيقة اللجنة حيال مسألة الدولة و دكتاتوريّة البروليتاريا بالأخصّ : **تتصرّف هذه الوثيقة كما لو أنّ الشيء الأساسيّ فى التقدّم نحو الشيوعيّة ، حين التوصل إلى دكتاتوريّة البروليتاريا ، هو توسيع الديمقراطيّة ، الديمقراطيّة الشكليّة . فى الحقيقة ، الشيء الأساسيّ هو الصراع الطبقيّ ، هذه هي العلاقة المفتاح ، مثلما أوضح ماو .**

يمكن لصيغة التى تشبه نوعا ما ، ظاهريّا ، ما تقوله وثيقة اللجنة حول " الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره " أن نجدها لدى ماركس و إنجلز (و لينين) إلاّ أنّ الوثيقة تغفل (أو ترفض) الجوهر : تظهر الدولة على أساس إنقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة و توجد كأداة طبقة (الطبقة المسيطرة إقتصاديّا) فى قمع طبقات أخرى : إنّها أداة دكتاتوريّة طبقيّة . لقد أوضح هذا إنجلز بتعابير لا لبس فيها و بصفة جليّة جدّا و تماما فى **" أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة "** ، " و هكذا فالدولة لم توجد منذ الأزل . فقد وجدت مجتمعات كانت فى غنى عن الدولة و لم تكن لديها أيّة فكرة عن الدولة و سلطة الدولة . و عندما بلغ التطوّر الإقتصاديّ درجة معيّنة إقترنت بالضرورة بإنقسام المجتمع إلى طبقات ، غدت الدولة بحكم هذا الإنقسام أمرا ضروريّا ". (إنجلز ، **" أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة "** ، صفحة 229 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة ، و ذكره لينين فى **" الدولة و الثورة "** صفحة 16 ، دار التقدم ، موسكو ، الطبعة العربيّة) . و الدولة أينما وُجدت و أيّما شكل حكم إتّخذت ، هي " من حيث جوهر الأمر ، آلة لقمع الطبقة المستثمَرة ، المظلومة " . (نفس المصدر السابق **" أصل ..."** ، صفحة 233)

ليست " للمجتمع بأسره " " إرادة سياسيّة " و بالتأكيد لا فى مجتمع طبقيّ . يمكن قول إنّ للطبقات " إرادة سياسيّة " و مجدّدا ، تمارس الطبقة السائدة سلطة الدولة (الدكتاتوريّة) لأجل التعامل مع التناقض بين " الإرادة السياسيّة " (أو بصفة أكثر جوهريّة المصلحة الطبقيّة الموضوعيّة) للطبقة السائدة من جهة و الإرادة السياسيّة للطبقات التى تستغلّها و تضطهدها من جهة ثانية . هنا نقطة أساسيّة يجب إبرازها وهي أنّ التعبير الأكثر كثافة عن سلطة الدولة هو القوى المسلّحة للدولة **و** أنّه طالما وُجدت دولة (أو بعبارة أخرى ، طالما بقي المجتمع منقسما إلى طبقات) فإنّ القوى المسلّحة **ستمثّل طبقة أو أخرى .** لا يمكن لمثل هذه القوى المسلّحة أن تمثّل " الشعب بأسره " أو " المجتمع بأسره " دون تفريق طبقيّ . فى ظلّ ظروف الإشتراكيّة (التى ليست مجتمعا طبقيّا فحسب بل أيضا مجتمعا متميّزا بالإنقسامات الطبقيّة **التناحريّة**) نداءات إلغاء الجيش القائم (كامل ساعات الدوام ، المحترف) و تعويضه بتسليح " الشعب باسره " يساوى النداء إلى إلغاء دكتاتوريّة البروليتاريا .

و من جديد ، مردّ هذا أنّ التناقضات الجوهريّة المميّزة للمجتمع الإشتراكيّ كمرحلة إنتقاليّة بين الرأسماليّة و الشيوعيّة تشكّل قاعدة ماديّة لإستمرار وجود الطبقات و بالخصوص للتجدّد المستمرّ للبرجوازيّة و التوالد المستمرّ للبرجوازيّة الجديدة ، ضمن كلّ من موظّفى الحزب و جهاز الدولة و ضمن صفوف الشعب عامة . فى هذا الوضع إلغاء الجيش القائم **تحت قيادة حزب** البروليتاريا (**حزبها الشيوعي الطليعي الوحيد**) (13) و تعويضه بتسليح " الشعب بأسره " سيفضى فى الواقع ، إلى تطوّر قوّات مسلّحة **مختلفة ممثّلة الطبقات المغايرة** و منها البرجوازيّة . و هذا ما سيكون عليه الحال حتّى إذا كانت الطبقات المطاح بها و مسانديها (المفضوحين) قد أقصيت من مقولة " الشعب بأسره " الذى يجب تسليحه عوضا عن جيش الدولة البروليتاريّة القائم . ستتقوّض القوّات المسلحة البروليتاريّة و ستضعف . و قوّة و منها القوّة المسلّحة و القوى الطبقيّة الأخرى و منها القوى البرجوازيّة الهادفة إلى إعادة تركيز الرأسماليّة ستتعزّز حقّا ، فى مثل هذا الوضع و سيكون مستحيلا على البروليتاريا أن تحافظ على سلطة الدولة و تواصل التقدّم نحو الشيوعيّة . و من الممكن رؤية هذا على أنّه تماما الحال حين نبقى فى ذهننا أنّ المعادين للثورة " المحلّيين " سيبحثون بصفة ثابتة عن التحالفات مع القوى الإمبرياليّة الأجنبيّة و دول رجعيّة أخرى . و هكذا إلغاء القوى المسلّحة العاملة كامل ساعات الدوام و ذات التدريب العالي التابعة لدولة البروليتاريا سيشلّها على نحو مهلك فى المعركة ضد العدوان الإمبرياليّ و ضد قوى إعادة تركيز الرأسماليّة داخل المجتمع الإشتراكيّ ذاته .

و لا يعنى هذا طبعا أنّه من غير الهام تسليح الجماهير الواسعة فى ظلّ الإشتراكيّة و أنّ بالإمكان التعويل على الجيش القائم وحده لصيانة حكم البروليتاريا . و بالفعل ، فى كلّ من وجهة نظر مكافحة الهجمات المسلّحة للمعادين للثورة (و العدوان الإمبريالي) **و** وجهة نظر إنجاز التحويل الثوريّ نحو إلغاء الإنقسامات الطبقيّة (و معها الدولة) ، من الضروريّ و الحيويّ إيجاد وضع تكون فيه الجماهير الواسعة " مسلّحة " و أكثر من ذلك ، منظّمة و مدرّبة فى مليشيات شعبيّة واسعة، إلى جانب جيش دولة البروليتاريا القائم (إلى حدّ الوقت الذى **يمكن** للجيش القائم أن يُلغى) .

لكن المسألة المصيريّة فى ما يتعلّق بالجيش القائم و أيضا فى ما يتعلّق بالمليشيا الشعبيّة هي ما إذا كانت البنادق بأيدى الجماهير **فى الواقع الفعلي و ليس فقط شكليا**. و تتوقّف هذه المسألة على طبيعة القيادة التى تمارس فى الجيش القائم و المليشيا . و تبعا لذلك ، تجد طبيعة القيادة هذه تعبيرها المكثّف فى **الخطّ** ، فى كلّ من الخطّ الإيديولوجيّ و السياسيّ فى تعبيره العام و كذلك فى تعبيره السياسيّ الملموس . و يتضمّن هذا العلاقات بين القوّات المسلّحة (و من ضمنها المليشيا) و العلاقات بين هذه القوات المسلّحة و مبادئ القتال و العقيدة و سواها ممّا ينجرّ عن ذلك .

فى كلّ هذا ، إنّه لأمر مصيريّ أن يتمّ الإقرار بالإختلافات الطبقيّة فى صفوف الشعب و التأكيد على الدور القياديّ للبروليتاريا و حزبها الطليعيّ كما يتكثّف فى خطّه و سياساته . و هذا (هذا التطبيق المتماسك لهذه المقاربة و الصراع المستمرّ المتمحور حول الخطّ) هو الأمر المصيريّ فى تحديد ما إذا كانت القوّات المسلّحة للدولة البروليتاريّة تمثّل السلطة المسلّحة للجماهير العاملة وفق المصالح الثوريّة للبروليتاريا أم لا .

6/ تصفية التحليل الطبقيّ بإسم معارضة " الإختزاليّة الطبقيّة " :

بوضوح هذه هي وجهة نظر وثيقة اللجنة التى تطمس الطبيعة الطبقيّة للدولة. و فى الحقيقة ، يشمل تحليلها للدولة و لسيرورة إضمحلالها (" الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره ") تشويها جوهريّا فى ما يتّصل لا بالدولة البروليتارية فحسب بل بالدولة **البرجوازية** أيضا . تحت عنوان " الدكتاتورية البرجوازيّة و الديمقراطيّة البروليتاريّة " يمدّونا بهذا التقييم (مجدّدا) : " لا بدّ من مزيد البحث فى مثل هذا الإنحراف الأساسيّ . يمكننا أن نحصل على بعض المفاتيح لفهم المشكل إن حاولنا النظر فى كيفيّة تحليل لينين للديمقراطيّة البرجوازيّة و كيف سعى لتعويضها بدكتاتوريّة البروليتاريا . كان مطلق الصحّة من جانب لينين أن يقيّم أنّ كلّ الأشكال المختلفة للدول البرجوازيّة تمثّل حتما دكتاتوريّة البرجوازيّة و أنّ الأشكال المختلفة الممكنة لدولة البروليتاريا الإنتقاليّة تمثّل بالأساس دكتاتوريّة البروليتاريا. بيد أنّ هذا المظهر من الدكتاتوريّة يمثّل جزءا أساسيّا فقط و ليس الكلّ . دولة ديمقراطيّة برجوازيّة تعالج مسألة هامة فى المجتمع الإنسانيّ ، التناقض بين الفرد و المجتمع . لكن دولة فاشيّة برجوازيّة لا تولى إهتماما لمعالجة ذلك التناقض على نفس المستوى ، حتّى و إن كانت كلتاهما دكتاتوريّتين برجوازيّتين بالأساس. لأوّل مرّة فى تاريخ المجتمع الإنسانيّ ، تعترف الديمقراطيّة البرجوازيّة بالفرد ككيان سياسيّ و تعطيه دورا فى النظام السياسيّ ، و لو شكليّا . و يكمن ضعف هذه الديمقراطيّة البرجوازيّة فى أنّها ترتكز على حكم الملكيّة الخاصة التى بواسطتها تضمن دكتاتوريّة البرجوازيّة . عندئذ لا تصبح المساواة التى تعلنها شكليّة فحسب ، بل زائفة أيضا . " (14)

قبل كلّ شيء ، نقد الديمقراطيّة البرجوازية بلغة " يكمن ضعف " ، مثلما تفعل وثيقة اللجنة هذه فى حدّ ذاته أمر موحى جدّا! لكن أبعد من ذلك ، من غير الدقيق و من الخطإ أن نقول ببساطة إنّ الديمقراطيّة البرجوازيّة " تعتمد على حكم الملكية الخاصة " . إنّها معتمدة على حكم الملكيّة **البرجوازيّة** . يمكن أن يبدو هذا نقطة صغيرة و حتى تافهة (و فى ظروف أخرى يمكن أن تكون كذلك) إلاّ أنّه فى إطار محاولة وثيقة اللجنة أن تطمس الأساس الطبقيّ و طبيعة الديمقراطيّة البرجوازيّة ، من الضروريّ التأكيد على هذه النقطة و تقصّى أبعد معانيها المتضمّنة . و الملكيّة البرجوازيّة تشمل فى جوهرها إستغلال البرجوازيّة للبروليتاريا . و قد شدّد ماركس و إنجلز على هذه النقطة بالذات فى **" بيان الحزب الشيوعي "** .

لقد بيّنا أنّ " الملكيّة الخاصة فى الوقت الحاضر ، أي الملكيّة البرجوازيّة ، هي آخر و أكمل تعبير عن أسلوب الإنتاج و التملّك ، المبنيّ على تناقضات الطبقات و إستثمار بعض الناس لبعضهم الآخر " . و أكدّا على أنّه ، بالنسبة للشيوعيّين ، " إلغاء الملكيّة الخاصة يعنى إلغاء هذه العلاقات و الظروف ، يجب فهم ذلك ، بهذا المعني ". (**" بيان الحزب الشيوعي "** ماركس و إنجلز ، **مختارات** ، الجزء الأوّل ، صفحة 64 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

إنّ الملكيّة الخاصة لا تشمل عموما بالضرورة هذا التناحر الطبقيّ . كمقولة عامة ، تتضمّن الملكيّة الخاصة مواد إستهلاك فرديّ و ليس ملكيّة خاصة لوسائل الإنتاج فقط . الأولى (مواد الإستهلاك الفرديّ) لا تشمل فى حدّ ذاتها علاقات إستغلال و لذلك التملّك الشخصيّ (الفردي) لوسائل الإنتاج لا يشمل بالضرورة مثل هذه العلاقات كذلك (مثلا ، الأرض الفلاحيّة التى يملكها و يعمل بها فلاّح فرد) . و مثلما أوضح ماركس و إنجلز ، إنّها ملكيّة خاصة **برجوازية** (إلى جانب علاقات ملكيّة تناحريّة أخرى ، مثل الإقطاعيّة و العبوديّة) تشمل علاقات الإستغلال و التناحرات الطبقيّة هذه و بينما تهدف الشيوعيّة إلى إلغاء كلّ الملكيّة الخاصة لوسائل الإنتاج وفى الواقع ، كلّ الإنتاج السلعيّ ، فإنّها ترسم خطّ تمايز جليّ بين مختلف أنواع الملكيّة الخاصة . (15) مجرّد إستعمال التشخيص العام " الملكيّة الخاصة " هنا (مجّرد القول بأنّ الديمقراطيّة البرجوازية " تعتمد على حكم الملكيّة الخاصة ") هو إعانة على حجب التناقض التناحريّ فى المجتمع الرأسماليّ وهو تناحر ، كما هو معلوم ، يكتمه أيضا المظهر الشكليّ للعلاقة بين البروليتاريا و البرجوازيّة فى الإنتاج الرأسماليّ (يبدو علاقة مرتكزة على التبادل المتساوي للأجور مقابل قوّة العمل بينما هي ، فى الواقع ، علاقة إستغلال) .

صيحة التهليل المفضوح للديمقراطيّة البرجوازيّة فى وثيقة اللجنة ملفتة جدّا للنظر . (" لأوّل مرّة فى تاريخ المجتمع الإنسانيّ تعترف الديمقراطيّة البرجوازيّة بالفرد ككيان سياسيّ و تعطيه دورا فى النظام السياسيّ ، و لو شكليّا " . تعترف وثيقة اللجنة (و" لو شكليّا ") بأنّ طابع كافة الدول البرجوازيّة هذا كدكتاتوريات هو جوهر المسألة ، غير أنّها ، بعد ذلك ، و مطبقة منهجها الإنتقائيّ ، تجعل من هذا الجوهر غير جوهريّ . إنّها تركز على " التناقض بين الفرد و المجتمع " و بالفعل ، تضع هذا على نفس مستوى (أو حقيقة ، فوق) المسألة الجوهريّة وهي أنّ كل أشكال الدول البرجوازيّة هي دكتاتوريات . ولنتفحّص هذا بصورة أدقّ .

فى الحقيقة ، كلّ الدول ، و ليست الدولة الديمقراطيّة البرجوازيّة فحسب ، تتعامل بشكل أو آخر ليس مع الطبقات فقط بل أيضا مع الأشخاص . فى هذه العلاقة ، من المهمّ ، التذكير بالنقطة السابقة حول كيف أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا ذاتها تشمل مظهرا من الإكراه حتّى تجاه أشخاص من ضمن الجماهير الذين ، جماعيّا ، يمارسون تلك الدكتاتوريّة . كلّ الدول (كلّ الدكتاتوريّات) تدافع عن المصالح العامة للطبقة الحاكمة ، قبل كلّ شيء و أساسا ضد الطبقات المناقضة تناحريّا للطبقة الحاكمة و أيضا ضد المصالح الذاتيّة لأعضاء من الطبقة الحاكمة كلّما و بقدر ما يصبح هؤلاء فى نزاع مع المصالح العامة للطبقة الحاكمة .

من الصحيح أنّ الديمقراطيّة البرجوازيّة تنادى بحقوق الأفراد بطرق جديدة و مختلفة عن أشكال الدول السابقة إلاّ أنه ، مجدّدا ، ينبغى التأكيد على تحليل إنجلز أنّ الدولة نشأت مع ظهور التناحرات الطبقيّة و أنّ **كلّ الدول** ، جوهريّا ، هي أداة " قمع طبقيّ " ينطبق بنفس القدر على الدولة الديمقراطيّة البرجوازيّة مثلما ينطبق على أيّة دولة أخرى . و مع ذلك ، تحاول وثيقة اللجنة بشكل بيّن أن تفصل العلاقة بين الفرد و الدولة فى المجتمع الديمقراطيّ البرجوازي عن العلاقات الطبقيّة و الدكتاتوريّة الطبقيّة . و هكذا يقال لنا إنّ لينين " بالموازنة بين الديمقراطيّة البرجوازيّة و الدولة البرجوازيّة ، قد أهمل الجانب غير الطبقيّ للديمقراطيّة و المنعكس فى الديمقراطيّة البرجوازيّة . الإعتراف بالدور السياسيّ للفرد فى النظام السياسيّ للمجتمع هو واقعيّا ، تقدّم تاريخيّ فى التعامل مع التناقض غير الطبقيّ بين الفرد و المجتمع . " (فقرة 9-2)

فى عرض " **كيف حوّل كاوتسكى ماركس إلى ليبراليّ مبتذل** " (كيف حاول كاوتسكى أن يظهر أنّ ماركس لم يعن حقّا ذلك حين تحدّث عن **دكتاتوريّة** البروليتاريا لأنّ ذلك سيكون خرقا للديمقراطيّة !) قدّم لينين هذه الملاحظة الهامة : " إذا رأينا إلى أساس هذه الظاهرة الفلسفيّ ، تبيّن لنا أنّها تقتصر على إحلال الإختياريّة و السفسطائية محلّ الديالكتيك " .

(" **الثورة البروليتاريّة و المرتدّ كاوتسكي** " ، صفحة 8 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

التعويض المبتذل للماديّة الديالكتيكيّة بالإنقائية و السفسطائيّة يوجد فى محاولة وثيقة اللجنة الفصل بين الأفراد و الطبقات الإجتماعيّة التى هم جزء منها فى المجتمع الطبقيّ : أن يُعطى طابع " ثنائيّ " للدولة البرجوازيّة و التناقضات التى تتعامل معها ، أن يُؤكد على "الجانب غير الطبقيّ " للدولة الديمقراطيّة البرجوازيّة .

فى آخر معركة كبرى لهم ضد دنك سياو بينغ و آخرين من أتباع الطريق الرأسمالي فى الصين ، أظهر ماو و رفاقه كيف أنّ دنك سياو بينغ و زمرته حاججوا أنّه كان من الضروريّ إيلاء إهتمام ليس للثورة فحسب ، بل **أيضا** للإنتاج و أنّ القوانين و الأنظمة فى المؤسّسات لم تتناول العلاقات بين الناس فى الإنتاج (العلاقات الطبقيّة) فقط ، **بل** كذلك تناولت العلاقات بين الناس و الطبيعة فى سيرورة الإنتاج (" تناقض غير طبقيّ ") . و أشار الثوريّون فى الصين إلى أنّ العلاقة(التناقض) بين الناس و الطبيعة فى الإنتاج لا يمكن فصلها بهذه الطريقة عن علاقات الناس بعضهم ببعض فى سيرورة الإنتاج (علاقات الإنتاج فى المجتمع الطبقيّ ، العلاقات الطبقيّة) . فقد فضحوا إنتقائيّة التحريفيّين كمحاولة لفرض قوانين و أنظمة ذات مضمون طبقيّ **برجوازي** تحت قناع " التناقض غير الطبقيّ " و كمحاولة لمعارضة خطّ ماو فى " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " بخطّ خنق الثورة بتعلّة زيادة الإنتاج .

تُطبّق وثيقة اللجنة نفس اللون من الإنتقائيّة بحجّتها أنّ دولة الديمقراطيّة البرجوازيّة ليست وسيلة قمع طبقيّ فقط ، بل **أيضا** لها " جانب غير طبقيّ ". كُنهُ حقيقة هذه الحجّة يعادل إنكار أو تزييف المسألة المحوريّة أنّ الدولة **الديمقراطيّة** البرجوازيّة تعنى الديمقراطية **فقط** بالنسبة **للبرجوازيّة** و أنها تعنى **الدكتاتوريّة** على البروليتاريا و جماهير الشعب . هذا و الحديث عن " التقدّم التاريخيّ " للديمقراطيّة البرجوازيّة فى " التعامل مع التناقض غير الطبقيّ بين الفرد و المجتمع " مفاده نسيان إحدى التعاليم الجوهريّة فى الماركسيّة : فى مجتمع طبقيّ ، الأفراد هم ، بأكثر جوهريّة و بصفة حاسمة ، أعضاء طبقات و حتّى " إرادتهم " الفرديّة هي نتيجة ظروفهم الإجتماعيّة و موقعهم الطبقيّ و ليست بعض الجوهر الفرديّ المستقلّ عن العلاقات الإجتماعيّة .(16)

لكي نبيّن حتّى أكثر كُنه المسألة هنا و حتّى نكشف بصفة أشمل القاعدة الطبقيّة (المظاهر الطبقيّة و المصالح الممثّلة) لمعالجة وثيقة اللجنة لدولة الديمقراطيّة البرجوازيّة و علاقتها بالأشخاص و كذلك بالطبقات ، من الجدير بالإهتمام إعادة تفحّص بعض الفقرات الهامة من الأعمال الماركسيّة الكبرى التى تنير هذا الشأن . أوّلا ، هاكم التالى من لدى إنجلز و فيه يكشف المضمون الطبقيّ للمدّعاة " المبادئ العالميّة " للثورة البرجوازيّة :

" إنّ الرجال العظام الذين أناروا الرؤوس فى فرنسا من أجل الثورة التى كانت تقترب ، كانوا أيضا ثوريّين للغاية . فلم يقرّوا بأيّ سلطة خارجيّة . و خضع الدين ، و الطبيعة ، و المجتمع ، و نظام الدولة - وكلّ شيء ، لأقسى ما يكون من الإنتقاد ، و إضطرّ كلّ شيء إلى المثول أمام محكمة العقل لكي يبرّر وجوده أو لكي يزول من الوجود ...

و الآن بزغت الشمس للمرّة الأولى و قامت سيادة العقل فإنّ الأوهام و الجور و الإمتيازات و الإضطهاد ، كلّ ذلك يجب أن يخلّى المكان من الآن وصاعدا للحقيقة الخالدة ، و العدالة الخالدة ، و المساواة النابعة من الطبيعة نفسها ، و حقوق الإنسان الراسخة .

إلاّ أّننا نعرف اليوم أنّ سيادة العقل هذه لم تكن سوى سيادة البرجوازيّة المصوّرة بصورة المثال الأعلى و أنّ العدالة الخالدة تجسّدت فى العدالة البرجوازيّة ، و أنّ المساواة تلخّصت فى المساواة المدنيّة أمام القانون ، و أن الملكيّة البرجوازيّة ... أعلنت أوّل حقّ من حقوق الإنسان ، و أنّ دولة العقل (العقل الإجتماعيّ الذى وضعه روسو) قد رأت النور بشكل جمهوريّة ديمقراطية برجوازيّة ، و لم يكن بالإمكان أن يحدث ذلك على غير هذا الشكل ، فإنّ كبار مفكّرى القرن الثامن عشر ، شأنهم شأن جميع أسلافهم ، لم يكن بوسعهم تخطّى الحدود التى فرضها عليهم عصرهم " .

(إنجلز ، " **الإشتراكية الطوباوية و الإشتراكية العلمية** "، صفحات 38-39-40، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

ثم إليكم التالي من لدن ماركس الذى وصفه ب " المبدأ القائد لدراساتي ":

" إنّ الناس أثناء الإنتاج الإجتماعيّ لمعيشتهم ، يقيمون فيما بينهم علاقات معيّنة ضروريّة مستقلّة عن إرادتهم . و تطابق علاقات الإنتاج هذه ما يؤلف البناء الإقتصادي للمجتمع ، أي الأساس الواقعي الذى يقوم عليه بناء فوقيّ حقوقيّ و سياسيّ و تطابقه كذلك أشكال معيّنة من الوعي الإجتماعيّ . إنّ أسلوب إنتاج الحياة الماديّة يكيّف تفاعل الحياة الإجتماعيّ و السياسيّ و الفكريّ بصورة عامة . فليس إدراك الناس هو الذى يحدّد معيشتهم ، بل على العكس من ذلك معيشتهم

الإجتماعيّة هي التى تحدّد إدراكهم " (ماركس ،" **مساهمة فى نقد الإقتصاد السياسي"** ، ذكره ستالين فى " المادية الديالكتيكيّة و الماديّة التاريخيّة " ، صفحة 68-69 المكتبة الإشتراكية ، دار دمشق للطباعة و النشر) .

و فى الختام ، هاكم التالى من عند لينين :

" إنّ كلّ واحد يعرف أنّ الجماهير تنقسم إلى طبقات ... و أنّ الطبقات فى العادة ، و فى أغلبيّة الحالات ، و على الأقلّ فى البلدان المتمدّنة المعاصرة ، تقودها الأحزاب السياسيّة ، و أنّ الأحزاب السياسيّة كقاعدة عامة ، تدار من قبل جماعات ثابتة نسبيّا من الأشخاص الأكثر سمعة و نفوذا و تجربة ، ممّن إنتخبوا للمناصب الأكثر مسؤوليّة ، و يدعون بالزعماء . تلك كلّها بديهيات أبجديّة ، إنّ كلّ ذلك بسيط و واضح ". (لينين ، " **مرض " اليساريّة " الطفوليّ فى الشيوعيّة** " ، الفصل الخامس ، صفحة 456 من المجلد 9 من " **المختارات فى 10 أجزاء** " ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

النقطة الأساسيّة الموحدة هنا هي أنّ أصحاب وجهة النظر التى تناسب و يُحدّدها العالم البرجوازيّ و النظرة البرجوازيّة إلى العالم (و هذا ينسحب كذلك على الديمقراطيّين البرجوازيين) غير قادرين على أن يدركوا إدراكا صحيحا الواقع الماديّ الجوهريّ الذى يحدّد مضمون مجتمع معيّن و مؤسّساته و أفكاره . و لا يقدرون أن يفهموا الأساس الكامن و الطبيعة الطبقيّة الفعليّة للديمقراطيّة البرجوازيّة و مفاهيم الحرّية و الشخصيّة و ما إلى ذلك من المفاهيم الديمقراطيّة البرجوازيّة فضلا عن عدم قدرتهم على أن يستوعبوا على الوجه الصحيح المضمون الفعليّ للديمقراطية **البروليتارية** و الدكتاتوريّة البروليتاريّة . إنّهم لا يستطيعون أن يفهموا حقّا العلاقات بين الطبقات المختلفة ، و بين الأشخاص و الطبقات و بين الطبقات فى حدّ ذاتها و قياداتها الإيديولوجيّة و السياسيّة (الأحزاب) .

فى محاولتها عقلنة تحليلها " غير الطبقيّ" (أو تحليل " المظاهر غير الطبقية ") ، تستشهد بمقطع (أو بأكثر تحديد ، بجزء من مقطع) من الفصل الأوّل من " **الإيديولوجيا الألمانية** " لماركس و إنجلز:

" فى أثناء التطوّر التاريخي ...يظهر إختلاف داخل حياة كلّ فرد فى ما يتّصل به كذات و حياته و فى ما يتّصل بتبعيّته لنوع من قطاع العمل و الظروف الخاصة بهذا القطاع " (ماركس و إنجلز " **الإيديولوجيا الألمانية** " المنشورات الإجتماعية ، باريس 1972، صفحة 115 ، الطبعة الفرنسيّة).

هذا هو المقطع كما إستشهدت به وثيقة اللجنة (فقرة 13-4) (وهو كلّ ما يذكرون) ينقصه بالضبط جزء . إذا نظرنا فى كلّ المقطع المعنيّ ، نرى أنّ ما وقع تناسيه يجعل واضحا أنّ ما يقصده ماركس و إنجلز متعارض مع ما تعنيه وثيقة اللجنة . فماركس و إنجلز يضعان بجلاء فكرة أنّ الشخصيّة فى المجتمع الطبقيّ ، تتشكّل داخل العلاقات الطبقيّة و تتحدّد بها . لنضرب مثلا ، بالضبط فى الجملة الموالية للتى ذكرت فى وثيقة اللجنة ، يقول ماركس و إنجلز هذا : " لا ينبغى أن يُفهم من هذا أنّ صاحب الريع أو الرأسماليّ ، مثلا ، يكفّون عن كونهم أفراد ، لكن شخصيّتهم مرهونة بالعلاقات الطبقيّة المحدّدة تماما و لا يبرز هذا الإختلاف إلاّ فى تعارض مع طبقة أخرى و لا يبرز لهم هم أنفسهم إلاّ يوم يفلسون " .

(ماركس و إنجلز ، " **الإيديولوجيا الألمانية** " المنشورات الإجتماعية ، باريس 1972 ، صفحة 116، الطبعة الفرنسيّة) .

فى الواقع ، ما يلفت ماركس و إنجلز الإنتباه إليه هنا ليس أنّه ثمّة " جانب غير طبقي " ل" حياة الأفراد " فى المجتمع الطبقيّ ، و لعلّهما بالأخصّ ،**بل** إلى أنّ هناك تناقض فى أنّهم يوجدون و يقومون بعملهم كأفراد منفصلين مع أنّ دورهم فى الإنتاج و دورهم فى المجتمع ككلّ تكيّفه و تحدّده سيروة الإنتاج الإجتماعيّ العام بتقسيمه للعمل . فى المجتمع الطبقيّ ، يوحد عملهم (و وجودهم بأسره) الإنتاج و التبادل السلعيّين و بالأساس أكثر سيرورة مراكمة رأس المال . و يتابع ماركس و إنجلز ليصيغا على أساس ذلك ، فى حديثهم بالخصوص عن مسألة الحرّية الفرديّة و كيف أنّه لاسيما فى ظلّ الرأسماليّة و فوق كلّ شيء بالنسبة للبروليتاريا ، الظاهر (الحرّية الفرديّة) فى نزاع مع الجوهر (الإضطهاد و الإستغلال الطبقيّين . هنا ، فى هذا المقطع الأطول من العمل المعنيّ ، عرض لكيفيّة صياغتهم هذه النقطة : " فى نظام [الملكيّة] (و حتّى فى قبيلة) يظلّ هذا مختفيا ، مثلا ، النبيل يبقى دائما نبيلا و العاميّ دائما عاميّا ، بغضّ النظر عن علاقاته الأخرى ، إنّها ميزة ملازمة لشخصيّته. الإختلاف بين الفرد الشخصيّ و الفرد كعضو من طبقة ، و الظروف الطارئة للفرد لا يظهران إلاّ مع

الطبقة التى هي نفسها وليدة البرجوازيّة . فقط المزاحمة و الصراع بين الأفراد هما اللذان يسفران و يطوّران هذا الطابع الطارئ . و بالتالي ، فى **التصوّر يبدو** الأفراد أكثر حرّية تحت السيطرة البرجوازيّة من ذى قبل لأنّ ظروف وجودهم تبدو طارئة أمّا **فى الواقع** ، فإنّهم **طبعا أقلّ حرّية** لأنّهم أكثر إرتهانا بعنف موضوعيّ . إنّ الإختلاف عن نظام [الملكيّة] يبرز بوجه خاص فى التناحر بين البرجوازيّة و البروليتاريا " (نفس المصدر السابق ، خطّ التسطير مضاف) .

فى "**الغرندريس** "، يتوسّع ماركس فى هذا أكثر واضعا ملاحظة مجدية للغاية بإعتبارها عرضا للموقف و النظرة التى تقدّمها وثيقة اللجنة هذه : " فى النظام النقديّ ، فى نظام تبادل متطوّر (و هذا المظهر يستهوى الديمقراطيّين) ، يقع تحطيم و تقطيع الروابط الفرديّة مثلها مثل الإختلافات فى الدم و فى التربية و هكذا (و لو أنّ هذه الروابط لا تكفّ عن أن تظهر كعلاقات فرديّة) . يبدو الأفراد و كأنّهم مستقلّون (إستقلال محض خيال يمكن تسميته بالضبط عدم إكتراث) ، يبدو و كـأنّهم يتواجهون بحرّية و ضمن هذه الحرّية ، يبدو و كأنّهم يقومون بمبادلات ،غير أنّهم لا يبدون كذلك إلاّ بالنسبة للذى يغضّ النظر عن الظروف القائمة التى فيها يدخل هؤلاء الأفراد فى تواصل (وهذه الظروف هي أيضا مستقلّة عن الأفراد و لئن كانت هذه الظروف إفرازا للمجتمع فإنّها تبدو ظروفا طبيعيّة أي لا يملكون التحكّم فيها ... بيد أنّ فحصا أدقّ لهذه الظروف ، لهذه العلاقات الخارجيّة يثبت عدم إمكانيّة تخطّى هذه الظروف جميعها بالنسبة لأفراد طبقة إلخ ، دون القضاء عليها " . (ماركس " **أعمال إقتصاد** 2 ، فصل حول النقد / المال ، صفحة 216-217 ، مكتبة بلاپياد ، باريس ، الطبعة الفرنسية)

ولنبحث إلى أين ينتهى مؤلّفو وثيقة اللجنة بتشويههم للموقف الماركسيّ بشأن علاقة الأفراد و الطبقات و بتأكيدهم على " الجانب غير الطبقيّ " لدولة الديمقراطيّة البرجوازيّة " و" التناقض غير الطبقيّ بين الفرد و المجتمع " . و إثر ذلك بقليل، يتطوّر هذا إلى نقد شامل لما يعتبر " نزعة سائدة فى الخطّ الذى إتّبعه الشيوعيّون منذ لينين فصاعدا ." تحديدا :

" ... نزعة الإختزاليّة الطبقيّة . و نقصد بهذا تحليل المجتمع فقط بلغة الطبقات و الصراع الطبقيّ و من ذلك إهمال الجوانب غير الطبقيّة فى الظاهرة المعقّدة للمجتمع . نظرة لينين الإحاديّة الجانب إلى فهم تعقيدات دكتاتوريّة البروليتاريا و إهماله الكلّي للحاجة إلى تطوير نظام سياسيّ يجب أن تعزى إلى هذه المقاربة الإختزاليّة الطبقيّة التى لا تزال مهيمنة إلى حدّ كبير داخل الحركة الشيوعيّة كلّها ." (فقرة 9-6)

هذا جزم لافت للنظر! فضلا عن كلّ ما قيل فى دحض هذه الوثيقة بشأن نظريّة و ممارسة لينين الفعليّين فى قيادة دكتاتوريّة البروليتاريا ، هل نسي واضعو هذه الوثيقة أنّ لينين هو الذى كتب حرفيّا مجلّدات بصدد حقّ الشعوب فى تقرير مصيرها ، موبّخا أناسا مثل روزا لكسمبورغ ضمن آخرين كانوا ينزعون إلى تصفية المسألة الوطنية و إلى تقليص إضطهاد الجماهير فى الأمم المهيمن عليها إلى مجّرد مسألة إستغلال طبقيّ ، بأضيق معنى الكلمة ؟ إن كان لمفهوم " الإختزاليّة الطبقيّة " هذا من معنى شرعيّ ، فإنّه سيحيل على هذا النوع من النزعة الإقتصادويّة الشائعة و نقصد النزعة إلى تقليص كلّ تناقض إلى أضيق تعبير عن العلاقات بين العمّال و الرأسماليّين . و لم يكن أحد يقاتل متماسكا و مصمّما و بالذات ضدّ هذا النوع من النزعة مثلما فعل لينين . إلاّ أنّ ، فى خوض الصراع ضد النزعة الإقتصادويّة من كافة الألوان ، قام لينين بذلك من وجهة نظر طبقة محدّدة أي البروليتاريا . و هذا هو بيت القصيد . ما يشير إليه مؤلّفو وثيقة اللجنة ، حين يستحضرون شبح " الإختزاليّة الطبقيّة " ، ليس فى الحقيقة شيئا آخر سوى التحليل الطبقيّ الماركسيّ . إنّهم يعبّرون عن تعارضهم مع الموقف الذى صاغه ماو وهو أنّ " فى المجتمع الطبقيّ ، يعيش كلّ إنسان كفرد من أفراد طبقة معيّنة ، و يحمل كلّ نوع من أنواع التفكير دون إستثناء طابع طبقة معيّنة ". (ماو ، " **فى الممارسة العملية** "، الأعمال المختارة ، المجلّد الأوّل ، صفحة 433، دار النشر باللغات الأجنبيّة ، بيكين ، الطبعة العربية). (17)

و توضيحا لذلك ، بإمكاننا أن نذكر المثال الذى إستخدمه ماو نفسه فى " **أحاديث فى ندوة الأدب و الفنّ بيانان** " حيث تحدّث عن المفهوم الذى كان يقدّمه بعض الفنّانين ألا وهو مفهوم " حبّ البشريّة " . يقول إنّ فى الواقع الملموس ، فى مجتمع منقسم إلى طبقات ، رغم أنّه يمكن لأناس أن يتحدّثوا عن حبّ البشريّة ، فإنّه من غير الممكن حبّ كلّ من المضطهِدين و المضطهَدين . سواء أردنا أم لم نرد فعلينا أن نختار إلى أيّ جانب سنكون . و من ناحية ثانية ، سيكون كّل هذا محدّدا جوهريّا بالعلاقات الطبقيّة فى كلّ مجتمع طبقي . يمكن ل " حبّ البشريّة " أن يبدو ،لا سيما من منظور برجوازيّ صغير ، دون طابع طبقيّ (أو يسمو على العلاقات الطبقيّة و يتعامل مع " تناقض غير طبقيّ ") لكن ، فى

الواقع ، سيجد تعبيره على الدوام ، فى آخر المطاف ، بلغة طبقيّة (طالما أنّ المجتمع منقسم إلى طبقات) . و التأكيد على هذا الفهم ليس " إختزاليّة طبقيّة " و إنّما هو ماديّة ماركسيّة .

لكن و نحن نتابع مفهوم وثيقة اللجنة عينه (" الإختزاليّة الطبقيّة ") ، لا بدّ من أن نقول إنّ كلّ الأشياء فى المجتمع و بينما لا تعبّر عن نفسها بالضرورة توّا و مباشرة بلغة طبقيّة ، فإنّها جميعا " قابلة للإختزال " إلى لغة طبقيّة فى آخر التحليل . مثلا ، حين قال ماو فى موقفه سنة 1968 مساندا نضال الشعب الأفروأمريكي ، إنّ التناقض بين جماهير شعب السود و الطبقة الحاكمة فى الولايات المتّحدة هو ، فى آخر التحليل ، تناقض سيحلّ ، فى آخر المطاف ، عبر الثورة البروليتاريّة . أن نقول بصفة عامة أكثر إنّ النضال الوطني هو فى آخر التحليل ، مسألة صراع طبقيّ لا يعنى أنّه ليست للمسألة الوطنية ديناميّتها الخاصة بها و إنّما يعنى فى الجوهر و فى الواقع ، أنّها محدّدة بالعلاقات الطبقيّة الأساسيّة و ستجد حلّها الأخير عبر حلّ الصراع الطبقيّ مع الإنتصار النهائيّ للبروليتاريا على البرجوازيّة و تحقيق الشيوعيّة ،عالميّا و يعنى أنّ الطبقات المختلفة ، فى كلّ الأمم المضطهِدة و فى الأمم المضطهَدة ، ستكون لها وجهات نظر متباينة إزاء المسألة الوطنية و كذلك إزاء أيّة مسألة أخرى .

عند هذه النقطة ، يتعيّن أن يكون بيّنا كيف أن معارضة وثيقة اللجنة " الإختزاليّة الطبقيّة " هو فعلا مطلب برجوازيّ صغير يهدف إلى " التحرّر" من المنهج الماركسيّ فى التحليل الطبقي و النظرة و المنهج البروليتاريّين العامّين إلى العالم ، إنّه مطلب يتطابق مع الرغبة فى " التحرّر" من البروليتاريا و دكتاتوريّتها فى العالم الحقيقيّ ، و فى نبذ التجربة التاريخيّة العامة لدكتاتوريّة البروليتاريا (" منذ لينين فصاعدا ") . هنا نفاذ بصيرة ماركس التالى وثيق الصلة بالموضوع . معلّقا تعليقا له شأنه على شكل من أشكال الإشتراكيّة الديمقراطيّة البرجوازيّة الصغيرة و إن فى إطار مختلف و فى شكل مختلف نوعا ما ، دافع أيضا عن أنّ " تحويل المجتمع بطريقة ديمقراطيّة و لكن ضمن حدود البرجوازيّة الصغيرة " و يستطرد ماركس ليقول: " غير أنّه لا يجوز للمرء أن يكوّن فكرة ضيّقة الأفق تزعم أنّ البرجوازيّة الصغيرة ترغب ، من حيث المبدأ، فى تحقيق مصلحتها الطبقيّة الأنانيّة . إنّها تعتقد بالعكس أنّ الشروط الخاصة لإنعتاقها هي فى الوقت ذاته الشروط **العامة** التى لا يمكن إنقاذ المجتمع العصريّ و تفادى النضال الطبقيّ فيه إلاّ ضمن نطاقها . كذلك لا يجوز للمرء أن يتصوّر أنّ ممثّلى الديمقراطيّة هم جميعا بالفعل من أصحاب الحوانيت أو مدافعون متحمّسون عن أصحاب الحوانيت .لأنّهم بحسب تعليمهم و وضعهم الفرديّ قد يكونون بعيدين عن ذلك بعد السماء عن الأرض . إنّ ما يجعلهم ممثّلين للبرجوازيّة الصغيرة هو أنّهم عاجزون عن أن يتعدّوا فى تفكيرهم النطاق الذى لا تتعدّاه حياة البرجوازيّين الصغار ، و إنّهم يتوصّلون بالتالي ، نظريّا ، إلى القضايا و الحلول ذاتها التى تساق البرجوازيّة الصغيرة إليها عمليّا بدافع مصلحتها الماديّة و وضعها الإجتماعيّ . هذه ، بصورة عامة ، هي العلاقة بين **الممثّلين السياسيّين و الفكريّين** لطبقة من الطبقات و بين الطبقة التى يمثّلونها...

بيد أنّ الديمقراطي ، لأنّه يمثّل البرجوازية الصغيرة ، **أيّ طبقة إنتقاليّة** تتمثّل فيها مصالح طبقتين بصورة متبادلة ، يتصوّر لهذا السبب أنّه فوق التناحر الطبقيّ بصورة عامة. و الديمقراطيّون يسلّمون بأنّهم يواجهون طبقة ذات إمتيازات و لكنّهم هم، مع سائر فئات الأمّة ، يشكّلون **الشعب** . و لذلك ليست بهم من حاجة ، عندما يوشك صراع على النشوب ، لأن يتفحّصوا مصالح الطبقات المختلفة و مواقفها." (ماركس : " **18 برومايِر لويس بونابرت** " ضمن : ماركس و إنجلز، " **مختارات** " الجزء الأوّل ، صفحات 176 ، 176-177، 180 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة) .

<u>7 / تقييم التجربة التاريخيّة :</u>

متفحّصة ، من وجهة نظرها ، كلّ تاريخ الإشتراكيّة إلى حدّ الآن تستخلص وثيقة اللجنة هذا الإستنتاج : " بينما ندافع عن المجهود البطوليّ لخلق مجتمع جديد و الأشياء الجديدة التى ظهرت من خلال الإشتراكيّة (أشياء قد لعبت دورا إيجابيّا فى صنع التاريخ) مهمّتنا الخاصة كشيوعيّين هي أن نصبّ إهتمامنا على أخطائنا و أن نصحّحها و ليست أن نبرّرها بإسم الحدود التاريخية " (فقرة 9-6).

ردّا على هذا الكلام ، لدينا نقاط ثلاث :

1- فى الواقع ، كشيوعيّين مهمّتنا الأساسيّة ، لا سيما فى الظروف الملموسة ليومنا هذا ، هي أن نرفع عاليا و أن ندافع ليس عن " المجهود البطوليّ لخلق مجتمع جديد " بل أيضا عن المكتسبات التاريخيّة الكبرى لدكتاتوريّة البروليتاريا فى خلقها فعلا لمجتمع جديد راديكاليّا ، االأوّل فى الإتّحاد السوفياتيّ و ثمّ دُفع هذا حتّى إلى قمم عظيمة إبّان الثورة الصينيّة و الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى . فى نفس الوقت ، و على هذا الأساس ، من واجبنا كذلك أن ننقد بدون رحمة و بنفاذ أخطاءنا الفعليّة و أن نبحث وسائل تجنّب هذه الأخطاء فى المستقبل و عموما تقليص الأخطاء إلى أبعد درجة ممكنة .

فى هذا الباب ، ينبغى أن نقول بصراحة إنّه من غير المتساوق منطقيّا ، حتّى لا نقول منافق بالنسبة لوثيقة اللجنة أن تتحدّث عن رفع راية " الأشياء الجديدة التى ظهرت خلال الإشتراكيّة (أشياء لعبت دورا إيجابيّا فى صنع التاريخ) " بينما تؤكد ، فى الوقت ذاته ، على أنّ " منذ لينين فصاعدا " كان الخطّ الأساسيّ و الممارسة الأساسيّة للحركة الشيوعيّة العالميّة فى ما يخصّ المسألة الأكثر حسما ، مسألة سلطة دولة البروليتاريا ، كان جوهريّا متصدّعا و أنّه تمّ ، بعد سنوات قليلة فقط إثر ثورة أكتوبر ، تنصيب " دكتاتورية الحزب " . كي نكون متماسكين أي متماسكين ماركسيّا ، الإستخلاص الضروريّ الذى يتعيّن الخروج به إنطلاقا من مثل هذا التحليل هو **لم يوجد قطّ** أيّ تحويل إشتراكيّ فى تلك المجتمعات ذلك أنّه كيف يمكن لماركسيّ أن يفكّر أنّ مثل هذا التحويل التاريخيّ العالميّ (و الإشتراكيّة و لو أنّها ليست بعد مجتمعا دون طبقات ، مع ذلك تمثّل تحوّلا تاريخيّا عالميّا) يمكن أن يتحقّق ليس عن طريق الحزب القائد و بالتعويل على الجماهير بل بفرض دكتاتوريّة الحزب عليها ؟! منظور إليها من هذه الزاوية ، سوف نجد القليل جدّا ، إن لم نقل لا شيء ، من " الأشياء الجديدة " و بالأخصّ أشياء جديدة **إشتراكية** ترفع عاليا .

2- فى ما يتعلّق بأخطائنا ، أوّل شيء يترتّب علينا فعله هو القيام بتقييم صحيح لما **كانت (و ما لم تكن)** و على **ذلك** الأساس البحث فى جذورها ، الجذور الموضوعيّة و الذاتيّة ، تلك التى هي نتاج حدود تاريخيّة و تلك التى هي نتاج ميزان قوى طبقيّ غير مناسب و تلك التى نجمت عن أخطاء فى النظرة و المنهج و فى الإستراتيجيا السياسيّة و فى السياسات .

3- لقد أخفقت وثيقة اللجنة هذه فى التقييم السديد و فى تلخيص الدروس من كلّ من التقدّم الكبير و الأخطاء الفعليّة المتّصلة بالتجربة التاريخيّة . و هذا ليس بالأمر العرضيّ : من غير الممكن أن نحلّل بصفة صحيحة الأخطاء دون تقييم سديد للمكتسبات و العكس بالعكس. (وهذا مرتبط بالنقطة الجوهريّة للتوجّه
المشدّد عليها فى مقطع " **بيان الحركة الأممية الثورية** " المذكور سابقا و الذى يشير إلى كيف أنّ تلخيص التجربة التاريخيّة هو ذاته مجال صراع طبقيّ حاد و صلة نقد هذه التجربة بالتطوير الخلاّق الحقيقيّ للماركسيّة) لسوء الحظّ ، مع ذلك ، تتخلّى وثيقة اللجنة عن المبادئ الأساسيّة للماركسيّة .

8/ المركزيّة و اللامركزيّة و إضمحلال الدولة :

و مثلما مرّ بنا ، يعدّ الموقف غير الصائب حيال دور الحزب لا سيما فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا محوريّ فى تخلّى وثيقة اللجنة عن هذه المبادئ . و تذهب الوثيقة فعلا إلى حدّ التأكيد على " شجّع لينين نزعة متواصلة أخرى إزاء الدور المحوريّ للحزب فى دكتاتوريّة البروليتاريا هي التفكير المهيمن داخل الحركة الشيوعيّة و الذى يعتبر أنّ الحزب يحدّد كلّ شيء فى علاقة بالثورة الإجتماعيّة ". (فقرة 9-7)

أن ينسب مثل هذا الموقف إلى لينين هو تحدّى صارخ للواقع بما فى ذلك لممارسة لينين كقائد لثورة أكتوبر و الحركة الشيوعيّة العالميّة و مساهماته فى النظريّة الماركسيّة . لكن أن يُنسب هذا الموقف لماو هو أمر فظيع بصفه خاصة فماو هو الذى بلور فهم أنّ الجماهير هي صانعة التاريخ وأنّ الشعب و الشعب وحده هو القوّة المحرّكة فى صنع التاريخ العالميّ و ماو هو الذى صاغ هذا التعبير النظريّ المكثّف و قد طبّقه بتماسك فى الممارسة ، فى الصراع من أجل إفتكاك السلطة و من أجل ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا و من أجل خوض الصراع الثوريّ فى إتّجاه الشيوعيّة . بمثل هذه النظرة المشوّهة لما كان فعلا " تفكيرا مهيمنا " فى ممارسة الحركة الشيوعيّة العالمية ، ليس غريبا أنّ وثيقة اللجنة و بينما تدافع " من جهة " عن الدور القياديّ للطليعة الشيوعيّة ، بسرعة تشرع فى إنكار الدور القياديّ " من جهة ثانية " و فى الجوهر .

و يغدو هذا حتّى أوضح مع مرور الوثيقة إلى ما تسمّيه " توجّها جديدا " . مع ذلك ، ليس بالغريب أنّ هذا التوجه " الجديد " أبعد ما يكون عن الجدّة : إنّه بالأحرى مفهوم شائع معلوم جيّدا عند صنف من " الإشتراكيّين " البرجوازيّين الصغار أو البرجوازيّين . و حيث أنّه مشترك لدي مثل هذه المفاهيم ، فإنّ هذا " التوجّه الجديد " مؤسّس بصلابة على المثاليّة . تؤكد مواصلة إهمال أو رفض التناقضات الحقيقيّة جدّا داخل المجتمع الإشتراكيّ و عالميّا و التى هي القاعدة الأساس فى بعض النواحي الهامة للتجربة التاريخيّة الفعليّة لدكتاتورية البروليتاريا و بسبب تباينها مع ما تنبّأ به ماركس إنطلاقا من تجربة كمونة باريس التى لم تعمّر طويلا و المحدودة جدّا ، تؤكد أنّه : " لا بدّ لفهم جديد نوعيّا للسلطة السياسيّة للبروليتاريا أن يُشكّل نقطة الإنطلاق . و لا بدّ أن يعكس مفهوم ماركس لكمونة باريس بإعتبارها إبتلاعا معاكسا لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره . إذ لا يتعيّن على الدولة البروليتاريّة أن تكون دولة مشابهة لدولة البرجوازيّة أو لدولة الإشتراكيّة التى طبّقها إلى الآن الشيوعيّون و التى ركّزت كلّ السلطة فى هيكلة دولة ممركزة عليها أن تكون نظاما سياسيّا فيه تكفّ الدولة عن أن تكون دولة بالشروع فى سيرورة إبتلاع معاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع من خلال سيرورة لامركزة السلطة السياسيّة ، هادفة إلى بلوغ مرحلة حيث الإرادة (السياسيّة) للمجتمع بأسره يمكن أن تعبّر عن ذاتها و أن تتحقّق مباشرة دون وساطة الدولة . مثل هذا النظام لا يستطيع أن يتطوّر إلاّ بإنجاز المشركة الحقيقيّة لوسائل الإنتاج و الذى يمكن بدوره أن يُضمن عبر نظام سياسيّ يضمن الديمقراطيّة البروليتاريّة . و لا بدّ لهذا النظام الإشتراكيّ الذى فيه تكون القاعدة الإقتصاديّة الممشركة و النظام السياسيّ الديمقراطيّ البروليتاريّ مظهران متكاملان ،لا بدّ له أن يبقى على قيد الحياة بذاته ، ليصير نظاما إجتماعيّا يقبله و يطبّقه الشعب باسره ، فى ظلّ قيادة البروليتاريا . " (فقرة 10-3)

لنلاحظ المعادلة : مركزية – سيئة ، لا مركزية – جيّدة . من جديد ، يعكس هذا المقت البرجوازيّ الصغير الكلاسيكيّ لحكم البروليتاريا من خلال دولتها القويّة الممركزة و تحكّمها الممركز فى الإقتصاد . فى الواقع ، تدعو هذه الوثيقة إلى إلغاء **دولة** البروليتاريا حالما تكون البروليتاريا قد دعّمت حكمها و مشركت الملكيّة و إلى تعويض هذه الدولة بنظام سياسيّ ديمقراطيّ غير دولتيّ .

فى واقع الأمر ، لا يساوى إضمحلال الدولة إلغاء الهيكلة الإداريّة الممركزة فمثل هذه الهيكلة ستكون ضروريّة فى المجتمع الشيوعيّ و لو أنّ هنالك ، حتّى و إن قورن بالمجتمع الإشتراكيّ ، ستوجد هيكلة من نوع جديد راديكاليّا. و زيادة على ذلك ، لا تجد سيرورة إضمحلال الدولة (سيرورة " الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره ") تعبيرها الأكثر أهمّية فى إضعاف جهاز الدولة الممركز و تعويضه بالمؤسّسات السياسيّة غير الممركزة . فى جوهرها ، تشمل هذه السيرورة تشريك الجماهير الواسعة (و فى الأخير الشعب قاطبة) فى تسيير المجتمع ، فى **كلّ** من المستويات المركزيّة و المحلّية كجزء من النضال الشامل لتجاوز التقسيم بين العمل الفكريّ و العمل اليدوي و كلّ تقسيمات العمل الإضطهاديّة و ما يرتبط بها من عدم مساواة فى المجتمع كلّه .

لكن لنبحث بصفة أعمق مسألة المركزية – اللامركزية و النظرة المشوّهة لوثيقة اللجنة لها . فى الحقيقة ، ما يُقترح مع " التوجّه الجديد " هو الخطّ الفوضوي النقاباتيّ القديم ذاته الذى نقده لينين : خطّ يقدّم اللامركزيّة **ضد** سلطة الدولة الممركزة و تحكّم الدولة البروليتاريّة فى الإقتصاد وهو خطّ يتعامل معهما بإعتبارهما بالأساس تناحريين عوض إدراك العلاقة الجدليّة غير التناحريّة بينهما . فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، دون جهاز دولة مركزيّ قويّ تحكمه الممركز فى الإقتصاد ، فإنّ اللامركزيّة لن تؤدّى إلاّ إلى وضع نزاع محليّ و مصالح ذاتيّة و ستشجّع على المزاحمة الرأسماليّة و تساهم فى إعادة تركيز النظام الرأسماليّ . فى العالم الحقيقيّ ، من المستحيل على البروليتاريا أن تمارس دكتاتوريّة على العدوّ **أو** أن تمارس الديمقراطيّة فى صفوف الشعب ، و كذلك من المستحيل عليها أن تكون المتحكّمة فى الإقتصاد **دون** مثل هذه المركزيّة القويّة . دون مثل هذه المركزيّة لا وسيلة لصيانة إقتصاد إشتراكيّ مندمج وموحّد ، بالإعتماد على تطوّر مخطّط و متناسب فى خدمة المصالح الثوريّة للبروليتاريا و لا وسيلة لأوسع مصالح البروليتاريا كطبقة أن تترجم إلى خطوط و سياسات تقود المجتمع برمّته.

هذا من جهة و من جهة أخرى ، المركزيّة دون التعويل على الجماهير و إفساح مجال واسع أمام المبادرة على النطاق المحلّي و القاعديّ ستؤدى أيضا إلى إعادة تركيز الرأسماليّة فى شكل (على الأقلّ فى البداية) رأسماليّة دولة . لهذا أكّد ماو على أنّ فى صياغة مخطّطات الإقتصاد الإشتراكيّ و أيضا ، فى تطبيق هذه المخطّطات ، مثلما فى كلّ شيء آخر ، من اللازم تطبيق الخطّ الجماهيريّ و من اللازم التعويل تعويلا أساسيّا على النشاط الواعي للجماهير . و ملخّصا التجربة

الرائدة فى تحقيق خطّ " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " فى الصين الإشتراكيّة ، يشير رايموند لوتا إلى أنّ " نظام التخطيط الصيني خوّل صنع القرار للسلط السياسيّة المحلّية و هذا فى إنسجام مع القيادة السياسيّة الموحّدة و الأشكال الجديدة للتسيير الإشتراكيّ طوّر الممارسة الجماعيّة لتحكم البروليتاريا فى زمام الأمور . و قد بيّن الثوريّون الصينيّون إمكانية مزج النظام و التجربة الخلاّقة و التحكّم الممركز و المبادرة المحلّية و التوازن و الإختراقات و تنسيق الإقتصاد مع الحملات السياسيّة الجماهيريّة . و قد وضعوا السياسات الثوريّة فى قيادة تطوّر الإقتصاد . إنّ هذا النموذج يمثّل قفزة نوعيّة فى نظريّة و ممارسة التخطيط الإشتراكيّ....

لخّص ماو أنّ التحكّم فوق الحدّ من الأعلى إلى الأسفل (العاموديّ) فى الإقتصاد خنق المبادرة الشعبيّة . و لم يكن مثل هذا النظام من التخطيط ليعطي النشاط التام للقدرات المحلّية و ليسمح لها بالإستعمال الخلّاق للموارد المحلّية . كذلك كان يضعف القيادة الموحّدة للإقتصاد ككلّ بما أنّه لم تكن توجد طريقة يمكن بها لإقتصاد معقّد و متنوّع أن يُسيّر على قاعدة الطلبات المفصّلة من الأعلى ، مهما كانت المعلومات الإحصائيّة كاملة و مهما يمكن أن تكون حسابات الأسعار ...

و هكذا جرى تطبيق سياسة توفير مجال أرحب للسلط المحلّية فى وحدة جدليّة مع القيادة المركزيّة الموحدة و التخطيط الموحّد . و كان على المبادرة المحلّية أن تدفع إلى تعزيز و ليس إلى إضعاف القيادة الممركزة و التخطيط الموحّد . **لكن الأسّ الحقيقي لهذا النظام الضامن للمصالح العامة و الملبّى لكافة حاجيات الثورة هو أساس سياسي و إيديولوجي .** و حاسمة فى هذا كانت ممارسة " الخط الجماهيريّ " لضمان أن يُطبّق التخطيط فى إنسجام مع مصالح الجماهير و على أساس إستنهاضها " (لوتا ، " **نظريّة و ممارسة التخطيط الماويّ : دفاعا عن إشتراكية قابلة للتطبيق و ملهمة** ". – دراسة ستنشر فى العدد القادم ، عدد 62 من مجلّة " **الثورة** "، خطّ التسطير فى النصّ الأصليّ) .

9/ إن لم تكن الطليعة هي التى تقود فمن سيقود ؟

بما مرّ بنا فى أذهاننا ، لنعد إلى صياغة فى " التوجّه الجديد " لوثيقة اللجنة : " لا بدّ لهذا النظام الإشتراكيّ الذى فيه تكون القاعدة الإقتصاديّة الممشركة و النظام السياسيّ الديمقراطيّ البروليتاري مظهران متكاملان ، لا بدّ له أن يبقى على قيد الحياة بذاته ليصير نظاما إجتماعيّا يقبله و يطبّقه الشعب بأسره فى ظلّ قيادة البروليتاريا " .

هنا ينبغى التساؤل : ما المقصود بهذا " الشعب بأسره " ؟ هل يشمل أو لا يشمل المستغِلين الذين تمّت الإطاحة بهم ؟ و ماذا عن المستغِلين المولودين الجدد الذين يظهرون داخل المجتمع الإشتراكيّ نفسه ؟ و ماذا عن العناصر الفاسدة من ضمن الشعب الكادح نفسه بما أنّه ليس بإمكان أيّ إنسان عاقل أن ينكر أنّ فى المجتمع الإشتراكيّ سيوجد مثل أولئك العناصر ؟ ما أن يُقبل بأنّه تلزم ممارسة الدكتاتوريّة على هذه المجموعات حتّى نرجع إلى أنّ " نظاما إجتماعيّا يقبله و يطبّقه الشعب بأسره " لا يمكن أن يُقام توّا أو على المدى القصير دون صراع طبقيّ طويل الأمد و أحيانا ضار جدّا و بالفعل دون التحويل الشامل للقاعدة الإقتصاديّة و للبناء الفوقيّ للمجتمع و فوق ذلك للعالم برمّته .

فى هذا الإطار ، ما الذى يمكن أن يعني " أن يبقى على قيد الحياة بذاته " ؟ هل يعنى أن " الشعب بأسره " إذا قرّر أنّه لا يرغب فى هذا النظام ، ينبغى التخلّى عنه إلى وقت آخر فى المستقبل حين "ربّما سيقرّر " الشعب بأسره " أنّه بعد كلّ شيء ، يريد هذا النظام ثانية ، على الأقلّ لفترة ؟ عبثية مثل هذا المفهوم الذى يرتبط بعبثيّة الفهم من الجنس الخروتشوفي غير الطبقيّ ل " الشعب بأسره " يتوجّب أن تكون بارزة بيسر .

حسنا ، لكن يُقال إنّ هذا " الشعب بأسره " ينبغى أن يطبّق هذا النظام " الإشتراكيّ" " فى ظلّ قيادة البروليتاريا ". إلاّ أنّ هنا تقع وثيقة اللجنة فى تناقض منطقيّ من صنيعها . فوفق منطقها الذاتيّ ، يمكن أن نتساءل و سؤالنا شرعيّ : من أعطى البروليتاريا "حقّ " فرض قيادتها ؟ من وجهة نظر هذا " الشعب بأسره " ، لماذا لا يعتبر هذا سيّئا مثلما هي سيّئة " دكتاتورية الحزب " المفزعة ؟ بيد أنّه حتّى إذا تمّ القبول بقيادة البروليتاريا هذه ، **كيف** ستمارس هذه القيادة فعليّا ، مؤسّساتيا أم " خارج مؤسّساتيا " و ما هي الوسائل و الآليات التى ستستعمل لأجل ذلك و التى لن تعيدكم فعلا إلى نفس الوضع القديم حيث **طليعة** البروليتاريا تنهض بالدور القياديّ ؟

فى الحقيقة ، مرّة أخرى ، ذات منطق هذه الوثيقة سيقود إلى إستنتاج أنّه لا يجب أن توجد أيّة طليعة ، على الأقلّ أيّة طليعة **بروليتارية** . و فضلا عن ذلك ، ستؤدّى أيضا إلى إستنتاج أنّ لا أحد ، لا طبقات إجتماعيّة أو قوى يتعيّن إستبعادها من " الشعب بأسره " لأنّه من يعطى أيّة مجموعة " حقّ " تركيز نفسها حاكمة على من يمكن أن يُشمل ب " الشعب بأسره " . هنالك طبعا إجابة على هذا ، لكن لا يمكن أن تقدّمها لنا النظرة الديمقراطيّة البرجوازيّة التى تقود وثيقة اللجنة هذه.

فى هذه النقطة ، يبدو أنّ وثيقة اللجنة تقبل بضرورة قيادة حزب طليعي لتحقيق الإطاحة بسلطة الدولة القديمة و تحطيم جهاز الدولة القديمة و ثمّ " تركيز النظام السياسيّ الجديد " (فقرة 10-4) . و إلى ذلك ، " سيكون على حزب البروليتاريا الطليعي أن ينهض بالدور القياديّ إلى أن يشرع النظام السياسيّ الجديد فى العمل بفعاليّة ، بإتمام مشركة وسائل الإنتاج ثمّ توطيد السلطة فى أيدى الطبقات الحاكمة الجديدة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا . و حالما يتمّ التوصّل إلى هذا ، على الحزب الشيوعيّ أن يتخلّى عن تحكمه الإحتكاريّ فى التحويل الثوريّ و أن يسمح للنظام بأن يسير بذاته . فى ظلّ نظام الديمقراطيّة البروليتاريّة ، فعاليّة النظام الجديد سيقبلها الشعب أو يرفضها عبر سيرورة ديمقراطيّة مفتوحة فيها يكون الشعب باسره مساهما بحرّية عبر منظماته السياسيّة الخاصة أو بطرق أخرى . " (نفس المصدر السابق)

و من جديد ، تتورّط الوثيقة فى كلّ أنواع التناقضات المنطقيّة من صنعها .

أوّلا ، حول مسألة الإطاحة العنيفة بالنظام القديم و دور الحزب الطليعيّ فى هذا ، مثلما أُشير إلى ذلك فى بداية هذا النقد ، عند إستخلاص بعض الإستنتاجات العامة فى ما يخصّ وثيقة اللجنة : موقف هذه الوثيقة إزاء ما يُسمّى دكتاتوريّة الحزب مرتبط على نحو لا مفرّ منه بموقف أنّ الإطاحة العنيفة و بالأخصّ الإطاحة التى يقودها حزب طليعيّ ، هي كذلك غالطة بما أنّها نخبويّة و قسريّة ليس ضد البرجوازيّة فحسب ، بل أيضا ضد جماهير الشعب التى يمكن ، فى البداية على الأقلّ ، ألاّ توافق الحزب الطليعيّ بشأن الحاجة إلى القيام بهذه الإطاحة العنيفة . ألا يجب تقديم هذه المسألة (مسألة الإطاحة أم لا بالنظام السياسيّ القديم) إلى تصويت " الشعب بأسره " ؟ أم لعلّه يجب أن تقدّم إلى تصويت " الشعب بأسره" مع إستثناء الطبقة الحاكمة القديمة و الذين يقفون (بوضوح) إلى جانبها ؟ لكن عندئذ ، ثانية ، ستواجهون مشكلا مربكا ألا وهو من سيقرّر ، لمن سيكون " حقّ " التقرير ، من بالضبط ينبغى أن يشمله و من ينبغى أن يُستبعد من صفوف " الشعب بأسره " ؟ بسرعة ، هذا النوع من الإنشغال بالديمقراطيّة الشكليّة سيسحق أيّ توجّه نحو الإطاحة بالنظام !

و يمكن لهذا أن يبدو بمثابة كاريكاتور لموقف وثيقة اللجنة ، غير أنّه ليس كذلك . ليس عرضيّا أن خطّ خروتشاف حول " دولة الشعب بأسره " كان جزءا من حزمة تحتوى كذلك على " التحوّل السلميّ إلى الإشتراكيّة ". و أوجه الشبه تتجسّد أيضا فى ما يتعلّق بالخطّ و المنطق اللذان يقودان وثيقة اللجنة هذه . إذا جرى الإستمرار فى هذا الخطّ و المنطق فلن يمرّ وقت طويل حتّى يقع أيضا تبنّى مفضوح نسبيّا لنوع من " التحوّل السلميّ " .

و بالعودة إلى مسألة متى و تبعا لأيّة مقاييس سيتحدّد أنّه ينبغى على الحزب أن يكفّ عن لعب دور قياديّ فى المجتمع الجديد ، نصطدم بتناقض آخر من التناقضات المنطقيّة التى غدت الآن مألوفة فى وثيقة اللجنة . من الذى سيحدّد متى " يشرع النظام السياسيّ الجديد فى العمل بفعاليّة " و بخاصة متى يكون تعزيز " السلطة فى أيدى الطبقات الحاكمة الجديدة فى ظلّ قيادة البروليتاريا " قد تحقّق على نحو كافى و أنّ على الحزب أن يتخلّى عن هذا الدور ؟ هل أنّ الحزب هو الذى يحدّد هذا ؟ لكن هذا تناقض فى حدّ ذاته إذ كيف يمكن **للحزب** أن يقرّر **عوض الجماهير** أنّ لا حاجة لهم بعدُ إلى الدور القياديّ المؤسساتيّ للحزب ؟ حسنا ، إذا لم يكن الحزب هو الذى يقرّر هذا ، فإذن من و بأيّة وسائل يقرّر هذا ، هل أنّ الشعب يصوّت على هذا ؟ لكن بالتالي من يقرّر متى يتعيّن القيام بمثل هذا التصويت ، من ينظّم مثل هذا التصويت ، من يحدّد قوانينه و هكذا و هكذا ؟ سخف هذه الأسئلة إنعكاس للمثاليّة الكامنة فى الخطّ بأكمله الذى تتقدّم به وثيقة اللجنة .

و نعود إلى المظهر الإقتصاديّ ، ما من بلد إشتراكيّ حتّى اليوم شهد أيّ شيء قريب من المشركة التامة للملكيّة و بالتأكيد ليس بالمعنى الذى تحدّث عنه ماركس فى " **نقد برنامج غوتا** "(حيث تصوّر كلّ الملكيّة ملكيّة المجتمع بأسره) . و توحى التجربة بأنّ من المرجّح أن تمضي فترة طويلة قبل بلوغ مثل هذه المشركة الكاملة. ففى كلّ من الإتّحاد السوفياتيّ والصين ، حين كانا إشتراكيّان ، يعدّ عدم تقدّم الأشياء بعدُ إلى مرحلة حيث كلّ وسائل الإنتاج تكون ملكا للشعب بأسره ، يعدّ أكبر سبب فى إستمرار لعب السلع و معها قانون القيمة دورا هاما ، إن لم يكن هو الضابط العام ، فى الإقتصاد . فى الصين ،

ظلّت الملكيّة الجماعيّة لمجموعات الفلاّحين أوسع شكل من أشكال الملكيّة ، مع بقاء فرق الإنتاج الصغير نسبيّا أهمّ وحدة محاسبة إقتصاديّة . ماو و تشانغ تشن تشياو من بعده حدّدا هذا كتناقض هام طويل الأمد متّصل إتّصالا لا ينفصم ، وثيقا بوجود الطبقات و الصراع الطبقيّ و التوالد المستمرّ للبرجوازيّة فى ظلّ الإشتراكيّة . و عليه ، قول إنّ على الحزب أن يتراجع عن دوره الطليعيّ المؤسّساتي عندما تتمّ سيرورة المشركة ، دون معالجة المسائل الحيويّة مثل هذه ، هو إنعكاس آخر ، أكثر جدّية ، لمثاليّة وثيقة اللجنة .

المسألة هي أنّ بالضبط بسبب التناقضات العميقة كتلك و إنعكاسها على البناء الفوقيّ ، سيكون على الحزب أن يستمرّ فى لعب الدور القياديّ لفترة طويلة (بالفعل طوال كامل الفترة التاريخيّة للمرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة التى تتميّز بمثل تلك التناقضات) . و **كي يلعب فعليّا هذا الدور على النحو الصحيح** ، فى إرتباط سليم بالجماهير ، **ينبغى على هذا الدور القياديّ أن يكون مؤسّساتيّا .** و مثلما أشرتُ إلى ذلك آنفا ، إذا لم يكن الحال كذلك ، إذا بفعل التناقضات الفعلية التى لا تزال قويّة ، بالضرورة ستسيطر بعض المجموعات الأخرى على صنع القرار ، على أنّها ستكون زمرا برجوازيّة من هذا الرهط أو ذاك .

10/ أيّ نوع من الحزب ، أيّ نوع من الثورة ؟

فى تعارض مع هذا الفهم ، يدافع " التوجّه الجديد " الذى تتصوّره وثيقة اللجنة عن أنّ الحزب حتّى عندما يتعيّن أن يواصل الإضطلاع بالدور الطليعيّ ، ف " ينبغى أن يفرض سلطته سياسيّا فقط عبر الهياكل التى ينتخبها الشعب " و علاوة على ذلك ، ينبغى على الحزب أن يعمل ك " حزب مفتوح " و أن يكون " ديمقراطياً جدّا سامحا حتّى بالتكّتلات إلخ... كمسألة مبدئيّة " (فقرة 10-5) . و عندئذ ، حالما يكون عمل النظام السياسيّ و الإقتصاديّ الجديد قد تطوّر وفق المبادئ التى قدّمت فى هذه الوثيقة ، على الحزب " أن يتخلّى رسميّا عن إحتكاره للسلطة " و " حقّه فى الحكم ينبغى أن يقوم بصرامة على المناصرة الإنتخابيّة المكتسبة بأرضيّته ، بالضبط مثل أيّة أرضيّة أخرى " (فقرة 10-9) .

و هذا حتّى أكثر مثاليّة . إنّه مجرّد لعب بالثورة الإشتراكيّة ، إن كان حتّى ذلك . يمكن لهذا أن يكون حزبا مناسبا لمجتمع إشتراكيّ موجود فى العالم المتخيّل الرومنسيّ حيث لا وجود لمحاصرة إمبرياليّة و لا أرضيّة تولّد بإستمرار البرجوازيّة داخل المجتمع الإشتراكيّ ذاته و لا إختلافات إجتماعيّة هامة و تناقضات طبقيّة فى صفوف الشعب نفسه ، و لا تأثيرا إيديولوجيّا للطبقات المستغِلّة و ما إلى ذلك . بيد أنّه من الواضح أنّه لا صلة لهذا الحزب الثوريّ الذى لا بدّ أن يعمل كطليعة صراع طبقيّ مصمّم ، فى كلّ من داخل البلاد و عالميّا ، ضد عدوّ لا تزال لديه بعد قاعدة قويّة عالميّا و حتّى داخل المجتمع الإشتراكيّ ذاته ، لديه بعض الظروف الماديّة القويّة تعمل فى صالحه . (18)

يمكن أن يبدو " ديمقراطيّا جدّا " الحديث عن " حزب مفتوح " يقبل بالتكتّلات داخله كمسألة مبدئيّة و هلمجرا . لكن فى الواقع ، يمثّل هذا وصفة لا غير لحزب متعدّد " المراكز " لا أحد منها سيكون قادرا على تمثيل المصالح الثوريّة للبروليتاريا لا سيما فى فترات الصراع الطبقيّ الحاد ، حزب سيتفسّخ إلى تكتليّة برجوازيّة . كلّ هذا ، بالفعل ، " ديمقراطيّ جدّا " (إنّه ديمقراطي **برجوازيّ** جدّا) و " المبدأ " المتضمّن هنا هو المبدأ البرجوازيّ (19).

و يتعيّن التذكير بكيف أنّ تجربة الحزب البلشفيّ فى قيادة ثورة أكتوبر والدولة السوفياتيّة التى أنشأتها شملت ، كمظهر هام، القطع مع تأثير الإشتراكيّة الديمقراطيّة التى تجسّدت بأكثر جلاء فى حزب كاوتسكى الإشتراكيّ الديمقراطيّ الألمانيّ . و إنتهت هذه السيرورة إلى قطيعة تامة متمحورة حول الحرب العالميّة الأولى وهو منعرج حاد فيه غالبيّة الأحزاب فى الأمميّة الثانية التي مرّت من الكمّية إلى النوعيّة فى التفسّخ إلى الإنتهازيّة بينما ، من جهة أخرى ، مرّ البلاشفة أيضا من الكمّية إلى النوعيّة فى القطيعة مع النزعات الخاطئة التى طالما كان لها تأرجح هام داخل الحركة الإشتراكيّة العالميّة . و أحدّ مرتكزات تلك القطيعة كانت حصرا مسألة الحزب .

و مثلما هو معلوم ، من أجل الإعداد ثمّ قيادة ثورة أكتوبر ، كان على البلاشفة بقيادة لينين أن يخوضوا معركة ضارية كي يركّزوا و يصونوا طراز الحزب الطليعيّ الضروريّ لمهام الثورة البروليتاريّة . و إثر إفتكاك السلطة ، كان على البلاشفة ، من جديد ، أن يقوموا بقفزة أخرى ، أبعد فى فهم و تحقيق حزب طليعيّ يمكن أن يقود الصراع المتواصل . و تعبير هام لهذا

كان حظر الكتل داخل الحزب . من الصحيح أنّه بينما كان يمكن أن ينظر إلى هذا ، فى البداية ، كإجراء مؤقت فى التعاطي مع وضع صعب بصفة خاصة ، فى أعقاب الحرب الأهليّة ، فإنّه كان حينذاك تطبيق عام أكثر و طويل المدى . و كان هذا صحيحا.

تحتاج الأحزاب الشيوعيّة الحقيقيّة ، الطلائع الحقيقيّة للثورة البروليتاريّة ، إلى أن تجادل وجهات النظر المتعارضة و أن تخوض صراعا إيديولوجيّا نشيطا داخل صفوفها ذاتها ، لكنّها تحتاج إلى جانب ذلك ، إلى إنجاز هذا عبر الهيكلة التنظيمية الموحّدة للحزب و ليس عبر تشكيل كتل منظّمة ، لكلّ منها أرضيّة مختلفة و طاقم قادتها و ما إلى ذلك . إنّ خرق الإنضباط الجديّ و النشاط التكتّلي داخل البلاشفة كاد أن يقتل إنتفاضة أكتوبر (كميناف و زينوفياف اللذان لم يوافقا على الإنتفاضة ، أو على الأقلّ ، على توقيت الإنتفاضة ، قد كشفا علانيّة عن مخطّطات الإنتفاضة ، مع النتائج المميتة المتينة الإرتباط بذلك) و إن لم تكن الكتل قد حظرت لمّا حظرت (سنة 1921) ، لقتلت الجمهوريّة السوفياتيّة الجديدة و لحالت دون بناء الإشتراكيّة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا .(20)

بالخطّ الذى قدّمته وثيقة اللجنة بصدد طبيعة الحزب و دروه فى ظلّ الإشتراكيّة ، كيف ستقدر البروليتاريا على ممارسة قيادتها (بالفعل دكتاتوريّتها الشاملة) فى البناء الفوقيّ ، بما فى ذلك المجالات المحوريّة كالثقافة ؟ أي نوع من الثقافة ممثّلا لأيّة طبقة سيسيطر على المرحلة فى هذا النوع من الوضع ؟ من الجدير بالتذكير أنّ نقاش لماذا كانت الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى مطلقة الضرورة و أتت فى أنسب وقت ، أشار ماو إلى أنّه حتّى بعد إفتكاك السلطة و إلى حدّ زمن الثورة الثقافية ، ظلّت الثقافة و التربية عموما تحت سيطرة البرجوازيّة (التحريفيّين بالأخصّ) . لقد تطلّب إفتكاك التحكّم فى تلك المجالات المحوريّة التى كانت بأيدى التحريفيّين و مُباشرة تحويلها تحويلا راديكالياً ، تطلّب صراعا هاما . و سيكون من المثاليّة القصوى التفكير بأن خطّا بروليتاريّا سيسيطر فى ميدان الثقافة (أو البناء الفوقي عامة) على أساس **العفويّة** و دون دور قياديّ منظّم و شامل للحزب ، حزب واحد موحّد على قاعدة خطّ واحد و ليس حزبا منقسما إلى كتل و تفسده التكتّلية . فى غياب مثل هذه القيادة ، سيكون البناء الفوقيّ ، فى الواقع ، تسيطر عليه البرجوازيّة و هذا بدوره سيعنى أن العلاقات الرأسماليّة ستصبح مسيطرة على القاعدة الإقتصاديّة و أن الرأسماليّة ستجرى إعادة تركيزها فى المجتمع بكامله . (21)

11 / النموذج الإنتخابيّ البرجوازيّ مقابل قيادة الجماهير لإعادة صياغة العالم :

نعم ، صحيح ، من واجب الحزب ألاّ يعوّل على موقعه فى السلطة ، من واجبه أن يعوّل على الجماهير ، إلاّ أنّ هذا لا يعنى أنّه عليه أن ينحطّ إلى العمل مثل أيّ حزب إشتراكيّ ديمقراطيّ ، متذيّلا للجماهير و مقلّصا دوره فى إطار و تخوم الإنغماس فى سياسة ديمقراطيّة برجوازيّة من أجل التصويت ، متنازلا عن مسؤوليّته فى العمل كطليعة و **قيادة** فعليّة للجماهير فى **الثورة** .

الآن ، يتعيّن أن تكون رؤية وثيقة اللجنة لسير " النظام الديمقراطيّ البروليتاريّ " ، واقعيّا ، غير متباينة نوعيّا مع النظام الديمقراطيّ البرجوازيّ الكلاسيكيّ ." نموذجه " حيث " حقّ " الحزب الشيوعي فى " الحكم " " يقوم بصرامة على المناصرة الإنتخابيّة المكتسبة بأرضيّته بالضبط مثل أيّة أرضية أخرى " سيترجم ، فى أفضل الأحوال ، إلى وضع حيث مراكز السلطة المتنافسة المؤلّفة حول الأرضيات المختلفة ستتنافس على أصوات الجماهير . و نتيجة هذا (ثانية ، فى أفضل الأحوال) ستكون نوعا من الحكومة " الإئتلافيّة " ، فيها " الإشتراكيّون " و " الشيوعيّون " من شتّى الألوان سيرتبطون معا مع ممثّلى إتّجاهات " ديمقراطيّة " متنوّعة أخرى برجوازيّة و برجوازيّة صغيرة مفضوحة أكثر و فيها المصالح الجوهريّة للجماهير " ستتعرّض للخطر " و لن ينجز أيّ تحويل راديكاليّ للمجتمع (و أية محاولة فى هذا سيجرى محوها بسرعة و بقساوة من طرف الحكومة " الإئتلافيّة ") . ألم توجد بما فيه الكفاية تجربة (و بالفعل فوق الحدّ !) لتزودنا بالبيانات التوضيحيّة لهذا . (22)

مفهوم أنّ هذا النوع من السيرورة الإنتخابيّة ، بطريقة ما ، سيفرز التعبير عن " الإرادة السياسيّة " للجماهير ليس بإمكانه إلاّ أن يثير شخير ضاحك ساخر من لدى إمرء تعوّد بأيّة حال على هذا النوع من السيرورة الإنتخابية و لا يشكو من " فقدان

الذاكرة السياسيّة " . إنّه مفهوم يمكن أن يعتقد فيه فقط الناس الذين يأخذون الديمقراطيّة البرجوازيّة باكثر جدّية من البرجوازيّة عينها و الذين لم يتعلّموا أو " نسوا " أنّ مثل هذه الديمقراطيّة ، و سيرورتها الإنتخابيّة ، أداة تخدم ممارسة البرجوازيّة للدكتاتوريّة على الجماهير . و لا يعنى هذا أنّه لا وجود لدور شرعيّ للإنتخابات فى المجتمع الإشتراكيّ ، بل يعنى أنّ مثل هذا الدور ينبغى أن يعتمد على معرفة أنّ السيرورة الشكليّة للإنتخابات لا يمكن أن تمثّل أعلى تعبير أو أكثره جوهريّة عن " الإرادة السياسيّة " للجماهير و أنّ الإنتخابات لا يمكن أن تكون سوى جزء تابع للسيرورة العامة التى عبرها يعبّر عن تلك " الإرادة السياسيّة " و أن الإنتخابات ، شأنها شأن أي شيئ آخر فى المجتمع الطبقي ، ستتحدّد و تتشكل بالعلاقات الطبقية الأساسية و أنّ الإنتخابات فى المجتمع الإشتراكيّ لا بدّ أن تعكس و تخدم ممارسة البروليتاريا للسلطة السياسيّة و الدور القياديّ لحزبها .

فى تعارض مع هذا ، ينطبق التشخيص التاليّ لدور الإنتخابات فى المجتمع البرجوازيّ كذلك على السيرورة الإنتخابيّة الديمقراطيّة (البرجوازيّة) التى تتصوّرها وثيقة اللجنة بالنظر إلى رؤيتها للمجتمع " الإشتراكيّ " و " نظامها الديمقراطيّ البروليتاريّ " :

" هذه السيرورة الإنتخابيّة عينها تنزع إلى تغطية العلاقات الطبقيّة الأساسيّة (و التناحرات الطبقيّة) فى المجتمع وتُستغل لإعطاء تعبير شكليّ و مؤسّساتيّ للمشاركة السياسيّة للأفراد المتفرّقين فى تأبيد الوضع القائم . فهذه السيرورة لا تحوّل الناس إلى أشخاص متفرّقين فحسب و إنّما ، فى نفس الوقت ، تحولّهم إلى موقف سلبيّ سياسيّا و تحدّد جوهر السياسة بمثل هذه السلبيّة المتفرّقة بما أنّ كلّ إنسان ، بصفة فرديّة ، فى عزلة عن أيّ شخص آخر ، يعطى تأييده لهذا الخيار أو ذاك و **هذه الخيارات جميعا** قد صاغتها و قدّمتها سلطة نشيطة قائمة على الجماهير المتفرّقة من " المواطنين " ". (أفاكيان ، " **الديمقراطية : أليس بوسعنا إنجاز ما أفضل؟** " صفحة 70 ، التسطير فى النص الأصلي) .

عبر وثيقة اللجنة ، نعثر على عديد الإشارات إلى " الإرادة السياسيّة " للشعب و للبروليتاريا . لكن لا نعثر فى أيّ مكان فى هذه الوثيقة على فهم (واقعيّا هذا الفهم هو نبذ) أنّ لا طريقة لتحقيق ، و أبعد من ذلك ، لا طريقة حتّى لتحديد " الإرادة السياسيّة " للبروليتاريا و الجماهير إلاّ عبر الدور القياديّ للحزب ، عبر ممارسته للخطّ الجماهيريّ و تطبيقه للإيديولوجيا و الخط السياسيّ الشيوعيّين عموما .

حقيقة ، مثلما قد رأينا ، تضع وثيقة اللجنة بإستمرار الدور الطليعيّ للحزب **ضد** النشاط الواعيّ للجماهير . يتّضح هذا بصفة بيّنة فى إدعائها أنّه حالما يكون قد تمّ إلغاء الجيش القائم و تعويضه بتسليح الشعب بأسره و حالما يتحوّل الحزب و " دوره الطليعيّ " إلى حزب يتنافس من أجل أصوات إنتخابيّة على أساس أرضيّته (" بالضبط مثل أيّة أرضيّة أخرى ") ثم " **بخلاف أشكال دكتاتوريّة البروليتاريا التى مورست حتّى اليوم** ، فى الهيكلة السياسيّة الجديدة ، سيضطلع الشعب وهو ماسك بالسلطة الحقيقيّة بين يديه ، و ماسك أيضا بالأسلحة بين يديه ، سيضطلع بدور نشيط للغاية فى كلّ الحياة السياسيّة للمجتمع و من ثمّ سيكون أفضل ضمان ضد إعادة تركيز الرأسماليّة و كذلك ضامنا لأفضل ظروف إستعادة السلطة إذا حدثت إعادة تركيز الرأسمالية " (فقرة 10-9 خط التشديد مضاف) .

هذا موقف مذهل للغاية ! مثلا ، كيف يمكن لأناس يعرفون عن كثب الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى أن يبرّروا أنّ الجماهير فى الصين لم تكن " تضطلع بدور نشيط للغاية فى كلّ الحياة السياسيّة للمجتمع " فى كلّ من الجانب العام و الجانب الخاص ، فى مقاتلة إعادة تركيز التحريفيّة والرأسماليّة ؟ إذا عقدنا مقارنة بين الثورة الثقافيّة و " الإنتفاضات الديمقراطيّة " (البرجوازيّة) الحديثة فى الصين ، بإمكاننا أن نقول دون أدنى ظلّ للشكّ ، إن النشاط الواعي و المبادرة الثوريّة الواعية طبقيّا لجماهير الشعب الصينيّ قد عبّرا عن نفسهما " مليون مرّة أفضل " إبّان الثورة الثقافيّة . و لهذا كلّ الصلة بأنّه إبّان الثورة الثقافيّة ، كانت للجماهير قيادة طليعة شيوعيّة ، بينما ليس للصراع الحديث هذه القيادة . (23) فى هذا الصراع الحديث ، وُجدت عوامل إيجابيّة و قوى تقدّمية و حتّى ثوريّة مشاركة فقد وجدت تعبيرات مفتوحة عن إحترام لماو و مساندة لخطّه و وُجدت مقارنات عُقدت بوضوح بين ماو ورفاقه الثوريّين من جهة و حكّام يومنا هذا التحريفيّين الفاسدين من جهة أخرى . بيد أنّه ، مع كلّ هذا ، و بمعنى عام ، فإنّ القوى و الخطوط التى إحتلّت الموقع القياديّ داخل الإنتفاضة الجماهيريّة مثّلت مصالح البرجوازيّة .

و من المفيد هنا إعادة التذكير بالتالى بصدد دور الحزب اللينينيّ و علاقته بالجماهير الذين يطبّقهما بعد إفتكاك السلطة و أثناء المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة بقدرما يطبّقها فى الصراع من أجل إفتكاك السلطة :

" صاغ لينين هذه المبادئ و طبّقها بالقفز أبعد ممّا كان قد صاغه ماركس و **إنجلز** و أيضا بالقطيعة مع المعرفة المتعارف عليها و الممارسة فى الحركة الماركسيّة ، إلّا أنّه قام بذلك إنطلاقا من قاعدة مبدأ ماركسيّ أساسيّ ، بتبنّى منهجها الأساسيّ و فى إنسجام تام مع روحها الثوريّة و النقديّة . أن ترفع تجربة كمونة باريس التى مُنيت بهزيمة (فى جانب منها ، و لو كان جزئية ، بسبب غياب حزب من الطراز اللينينيّ) او الأمميّة الثانية التى إنحطّت إلى أداة كلّية للإمبريالية ، فى تعارض مع تلك المبادئ هو تفكير مقلوب ظهرا لبطن و مواجهة متخلّفة ، حتّى نقول ذلك بلطف . أن يُناقش أنّ إنحطاط الثورة الروسيّة يمكن أن يعود بالذات إلى طبيعة الحزب اللينينيّ نفسه و دوره هو ، قبل كلّ شيء ، متناقض مع الوقائع و هروب من المشاكل الجوهريّة فضلا عن ذلك . حجّة لينين فى " **ما العمل ؟** " أنّه بقدر ما يكون الحزب عالي التنظيم و المركزة بقدر ما يكون تنظيما طليعيّا حقيقيّا للثوريّين ، بقدر ما سيكون دور الجماهير و مبادرتها فى النضال الثوريّ عظيمان ، حجّة لينين هذه أثبتت بقوّة فى الثورة الروسيّة ذاتها و أيضا فى كلّ الثورات البروليتاريّة . لم تحدث فى أيّ مكان كان مثل هذه الثورة دون مثل هذا الحزب و لم يحدث فى أيّ مكان كان أن ساهم غياب مثل هذا الحزب فى تحرير مبادرة جماهير المضطهَدين فى **نضال ثوري واعى .** و لا يساوى نقاش أنّ طليعة ، حزب لينينيّ يمكن أن ينحطّ ، يمكن أن يتحوّل إلى جهاز إضطهاديّ للجماهير و لذلك من الأفضل عدم إمتلاك مثل هذا الحزب ، عدا نقاش أنّه لا يجب أو توجد أيّة ثورة فى المصاف الأوّل ، و لن يلغي هذا التناقضات التى تجعل من هذا الحزب ضروريّا أي الظروف الماديّة و الإيديولوجيّة التى ينبغى تحويلها ، بقيادة مثل هذا الحزب لأجل إلغاء الإختلافات الطبقيّة و معها فى النهاية ، إلغاء الحاجة إلى حزب طليعيّ ".

(أفاكيان ، " **من أجل حصاد التنانين** " ، شيكاغو ، 1983 ، صفحة 84 ، خط التشديد فى النص الأصلي) .

12 / المركزيّة الديمقراطيّة و صراع الخطّين و الحفاظ على الطليعة على الطريق الثوريّ :

تتقدّم وثيقة اللجنة فى نقاشها حول الحزب متبنّية " مبدأ المركزيّة الديمقراطيّة " الذى طوّره لينين و طبّقه " كمبدأ تنظيميّ للأحزاب الشيوعيّة ". (فقرة 11-2) و تدافع عن المركزيّة الديمقراطيّة ، نظريّا ، من جهة ، غير أنّها ، من جهة أخرى، تتقدّم لتجادل بأنّ تنفيذه عمليّا صار ، فى آخر الأمر ، نزعة مغالاة فى التوكيد على المركزيّة بالفعل لإقصاء الديمقراطيّة (كان هذا هو الحال ، تبعا للوثيقة ، خاصة إثر حظر الكتل فى الحزب البلشفيّ و ثمّ بات هذا مبدأ تبنّته عامة الأحزاب الشيوعيّة) . و لم يجد هذا تعبيرا نظريّا عنه فى " المفهوم العام للحزب الشيوعيّ ذى الوحدة الصمّاء الذى قدّمه ستالين و الذى ترسّخ أثناء كلّ فترة الكومنترن و بعدها " (فقرة 11-4) فقط و إنّما حتّى " محاولات ماو تطوير صراع الخطّين داخل الحزب " التى تعدّ " خطوة نحو إعادة تركيز أسلوب عمل المركزيّة الديمقراطيّة التى مارسها لينين بطريقة منهجيّة أكثر " لم تحدث فعليّا أي تحسّن جوهريّ لأنّ ماو لم يقطع مع التوجّه المحدّد ، أوّلا ، مع حظر الكتل و ثمّ مع التجربة العامة لقيادة ستالين للإتّحاد السوفياتيّ و للكومنترن . هكذا واقعيّا ، لم يقطع صراع الخطّين إلخ إلاّ بعض الخطوات الصغيرة فى التصحيح داخل الإطار العام المركّز قبلا ". (فقرة 11-5) و معارضة هذا ، تحاجج وثيقة اللجنة أنّ من الضروريّ " إعادة تفحّص شامل لمفهوم الحزب و دوره فى السيرورة التاريخيّة لبناء الإشتراكيّة و الشيوعيّة " .(فقرة 11-7)

لقد رأينا بعدُ إلى مدى هام النظرية الأساسيّة لوثيقة اللجنة التى هي نظريّة مفهوم الحزب و دوره لكن يجدر بنا أن نبحث كيف أنّ هذه الوثيقة و تحت عنوان " حلّ لغز الحزب الشيوعيّ " تتقدّم بخطّ نسبيّ و براغماتيّ " حيال هذه المسألة . يبدأ هذا بموقف أنّ " دور الحزب الشيوعيّ كطليعة البروليتاريا ينبغى أن يخضع للإختبار و التدليل عليه فى مضمار سيرورة التاريخ " و أنّ الحزب الشيوعيّ فقط عندما " يدرك أنّه دائما موضوع إختبار الواقع التاريخيّ ، بإمكانه أن يصل إلى تعقيدات الواقع ثمّ بإمكانه أن يدرك أنه لا يخضع لأيّة سلطة إلاّ سلطة الطبقة العاملة و الشعب أو سلطة التاريخ " (فقرة 12-1) . و تتمادى الوثيقة فى نقاش " الفرق بين حزب يقود الثورة لإفتكاك السلطة و حزب يحتكر السلطة " : فى الحال الأولى " يفرض الإطار عينه على الحزب أن يكون ناقدا لذاته و أن يصحّح خطّه و ممارسته و يطوّرهما بإستمرار بغية تعبئة الجماهير لأجل الثورة " بينما " فى الحال الثاني ، يعمل ضغط الظروف فى الإتّجاه المعاكس " .(فقرة 12-1)

لمست وثيقة اللجنة بعض المسائل الحقيقيّة و العميقة هنا ، و يمكن أن يبدو أنّها عالجتها بطريقة صحيحة ، جدليّة إلاّ أنّه ، لسوء الحظّ ، مرّة أخرى ، ليس الأمر كذلك . قبل كلّ شيء ، ينبغى الإشارة إلى أنّه بينما يواجه حزب ليس فى السلطة الحاجة إلى أن يكون ناقدا ذاتيّا لنفسه و أن يطبّق الخطّ الجماهيريّ و بذلك يطوّر بإستمرار خطّه و قدرته " على تعبئة الجماهير لأجل الثورة " ، فإنّ هذا سيعبّر عن نفسه كإلزام للحزب **فقط طالما يبقى حزبا ثوريّا ، فقط طالما يبقى على نهج قيادة الجماهير من أجل الإطاحة بالنظام القديم و التقدّم بالنضال نحو هدف الشيوعيّة .** بصيغة أخرى ، عند أيّة نقطة يمكن للحزب ، عوض إستخدام النقد الذاتيّ و تلخيص خطّه و ممارسته بصورة نقديّة و تطويرهما فى نهج ثوريّ أكثر ، يمكن له أن يقوم بالعكس بالضبط ، يمكن له التخلّى عن الطريق الثوريّ و بذلك يلغى الحاجة إلى النقد الذاتيّ و التصحيح بصفة مستمرّة لخطّه و ممارسته و تطوّرهما بغية تعبئة الجماهير من أجل الثورة ؟

و من العسير قول إنّ هذا نقطة تافهة أو صغيرة . فقد أهملت وثيقة اللجنة هنا الضغوطات الحقيقيّة جدّا و القويّة التى تمارس على الأحزاب التى تواجه مهمّة قيادة النضال فى سبيل الإطاحة بالنظام القديم ، وهي ضغوطات تدفع للتخلّى عن ذلك النضال و للإنحطاط إلى أحزاب تحريفيّة و إصلاحيّة . و تدلّ التجربة التاريخيّة على أنّ مقاومة هذه الضغوطات و البقاء على الطريق الثوريّ أمر صعب للغاية و يقتضى نضالا شاقا.

هذا من ناحية و من ناحية أخرى ، بالنسبة للأحزاب فى السلطة ، بينما من الصحيح أنّ هنالك ضغط حقيقيّ فى الإتّجاه الذى تشير إليه وثيقة اللجنة (فى إتّجاه عدم التطبيق النظاميّ للخطّ الجماهيريّ و عدم التلخيص النقديّ للخطّ و الممارسة) ليس الأمر أنّ مثل هذه الأحزاب تنزع تقريبا إلى الإنحطاط حالما تصل إلى السلطة (و خاصة إذا كانت " تحتكر السلطة " كما تضع ذلك وثيقة اللجنة) . فى هذه الحال أو تلك ، ما تسقطه وثيقة اللجنة من المعادلة (أو على الأقلّ ، تخفق فى التركيز عليه كأمر حاسم) هو تحديدا الصراع الإيديولوجيّ داخل الحزب حول المسائل المحوريّة للخطّ ، ومنها بصفة جوهريّة أكثر ، مسألة الهدف النهائيّ الذى يصبو إليه الحزب و التى يجب بالفعل أن تحدّد غايته نفسها كحزب ، **و** كيف يمكن لأهداف الحزب و سياساته الأكثر راهنيّة أن ترتبط بالهدف النهائيّ و تخدمه ؟

من الصعب أن تكون مسألة عرضيّة مسألة أنّ تحطّ وثيقة اللجنة من أهمّية صراع الخطّين فى صفوف الحزب ، معلنة أنّ أعظم مساهمة لماو محدودة و ناقصة . حقّا ، بالتأكيد على الأهمّية الحاسمة للصراع فى صفوف الحزب بين الخطّين الماركسيّ و التحريفيّ (و الطريقين الإشتراكيّ و الرأسماليّ) ، أشار ماو إلى وسيلة مفتاح للكفاح ضد نزعة الحزب لا سيما الحزب فى السلطة ، إلى الإنحطاط إلى حزب تحريفيّ . و جزء من الأساس الذى بني عليه ماو مساهمته هذه كان تحديدا نقده للفهم غير الجدليّ " للحزب ذى الوحدة الصمّاء " (مثلا ، تعليق ماو بأنّ " الحديث طوال الوقت عن الوحدة الصمّاء و عدم الحديث عن الصراع ليس ماركسية - لينينية " (إستوارد شرام ، " **ماو يتحدّث إلى الشعب** " صفحة 101 ، نشر الصحافة الجامعية الفرنسية ، سنة 1977).

و أقرّ ماو بأنّه ، موضوعيّا ، ستوجد نزعات مختلفة داخل الحزب (عاكسة القوى المختلفة و فى الأخير ، المصالح الطبقيّة المختلفة) و داخل المجتمع ككلّ و أنّ وحدة الحزب لا يمكن أن تكون إلاّ نسبيّة و ليست مطلقة و لن تكون ساكنة بل ديناميكيّة تتطوّر عبر سيرورة من وحدة – صراع – وحدة . لكن ما يجب إدراكه بالأساس (و ما يبيّن الإختلاف الأساسيّ بين خطّ ماو و خطّ وثيقة اللجنة) هو أنّ ماو لم يضع ضرورة الصراع داخل الحزب **ضد** حاجة الحزب لأن يكون متّحدا بصرامة حول **خطّ واحد و على أساس من ذلك ،** ينهض بالدور القياديّ (المؤسّساتيّ) فى المجتمع الإشتراكيّ إلى أن يتمّ تحقيق الشيوعيّة . (24)

لم يفحص قضيّة الصراع فى صفوف الحزب من وجهة نظر الكتلويّة البرجوازيّة أو الفوضويّة البرجوازيّة الصغيرة . إنّه أقرّ بأنّ فى المجتمع المتميّز بالتناقض الطبقيّ و الصراع الطبقيّ ستعنى التكتّلات المنظّمة داخل الحزب حتما الكتلويّة البرجوازيّة . فمثل هذه الكتل ستمزّق ليس وحدة نشاط الحزب فحسب و إنّما أيضا (وما هو أساسيّ فى القدرة على قيادتها) قدرته على التعلّم منها . و التكتّلات لا تكسر سلسلة **سلطة** الحزب فحسب بل تكسر كذلك و حتّى بأكثر جوهريّة سلسلة **معرفته** أي تدفّق الأفكار من الجماهير ، من خلال المستويات القاعديّة للحزب ، إلى قيادة الحزب . بإختصار ، إنّها تحطّم قدرة الحزب على الإضطلاع بدوره كطليعة للبرولتاريا فى نضالها الثوريّ قبل إفتكاك السلطة و بعده .

و كلّ هذا يُفسّر لماذا فى حين كان ماو يُشدّد على الحاجة إلى صراع الخطّين داخل الحزب و أهمّيته الحاسمة ، كان يؤكّد على مبادئ ثلاث : مارسوا الماركسيّة ،لا التحريفيّة ؛ و إعملوا من أجل الوحدة ،لا من أجل الإنشقاق ؛ و كونوا صرحاء و لا تكيدوا و لا تتآمروا . و عليه أكّد ماو على أنّه بينما من اللازم تثوير الحزب الشيوعيّ ذاته بإستمرار ، فى الوقت نفسه، على الحزب أن يمارس القيادة فى كلّ شيء.

و يهدف خطّ ماو إلى الإبقاء على الحزب على الطريق الثوريّ و دعم دوره كطليعة ثوريّة . و فى تعارض مع هذا ، سيحوّل خطّ اللجنة الحزب إلى حزب إصلاحيّ ، حزب غائص فى وحل النسبيّة و متذيّلا للجماهير و مكيّفا خطّه ليُأقلم المبدأ مع الظروف الآنيّة . و ينكشف هذا من موقف وثيقة اللجنة القائل بأنّ " المصلحة الطبقيّة البروليتاريّة ذاتها ، فى ظرف معيّن ، نسبيّة جدّا ، ومتغيّرة تبعا للواقع المتغيّر ، مع أنّ المصلحة النهائية للطبقة العاملة ، مصلحة بناء الشيوعيّة، تظلّ هدفا بعيد المدى ". (فقرة 12-1) و هذا خاطئ بالأساس فالمصلحة **الطبقيّة البروليتارية** لا تتغيّر على النحو الذى تقدّمه اللجنة فيمكن لتكتيكات خصوصيّة أو حتّى إستراتيجيّات و سياسات خصوصيّة و حتّى برامج أن تتغيّر على هذا النحو بيد أنّ المصلحة الطبقيّة للبروليتاريا لا تتغيّر.

يمكن للإختلاف هنا أن يبدو مجرّد إختلاف فى دلالة لفظ (بما آن الوثيقة تقول إنّ " الشيوعيّة تظلّ هدفا بعيد المدى ") غير أنّه بفصل هذا الهدف البعيد المدى عن " المصلحة الطبقيّة البروليتارية ذاتها ، فى ظرف معيّن " و إعلان أنّ الأخيرة " نسبيّة جدّا " تفتح وثيقة اللجنة الباب على مصراعيه أمام السماح بأن يكون أيّ شيء (ايّة سياسة خصوصية إلخ) من مصلحة البروليتاريا طالما يصاحب بموقف عام حيال الهدف النهائيّ ، الشيوعيّة . صياغة وثيقة اللجنة الخاصة بالمصلحة الطبقيّة هي صياغة " إثنين فى واحد "إذ أنّها تمزج بصورة إنتقائيّة **المصلحة الطبقيّة** للبروليتاريا مع السياسات الخصوصيّة إلخ فى أيّ وقت معيّن . الفهم الصحيح ، الجدليّ هو أنّ المصلحة الطبقيّة للبروليتاريا لا تتغيّر ، بل يمكن أن تعبّر عن ذاتها ، فى أيّ وقت معيّن ، فى سياسات خصوصيّة إلخ يمكن أن تتبدّل و تتبدّل فعلا .

المسألة ، من جديد ، هي أنّ ، فى وقت معيّن و فى كلّ الأوقات ، كلّ شيء (كلّ السياسات و البرامج و الإستراتيجيات و التكتيكات) ينبغى أن يتماشى مع الهدف النهائيّ ، الشيوعيّة كمبدأ رائد و ينبغى أن يعمل (ليس لفظيّا فقط ، بل فعليّا) كجزء من الجسر المؤدّى من الحاضر إلى المستقبل الشيوعيّ . **ثمّة تماثل أساسيّ بين مصالح البروليتاريا عند أيّة نقطة معيّنة و مصالحها العامة فى تحقيق الشيوعيّة و ينبغى أن ينعكس هذا التماثل فى الوحدة بين سياسات الحزب فى أيّ وقت معيّن و الخطّ الأساسيّ للتقدّم بالنضال الثوريّ فى سبيل تحقيق الشيوعيّة .** هذه الوحدة هي التى تكسرها وثيقة اللجنة بإنتقائيّتها و نسبيّتها و براغماتيّتها .

و بحكم نظرتها العامة ، لا نستغرب من وثيقة اللجنة أن ترى الحاجة إلى حزب شيوعيّ مبادئه التنظيميّة تنسجم مع الأهداف الثوريّة و الإيديولوجيّة الثوريّة و يعبّر عنها و تسمح للحزب بالإضطلاع بدوره الطليعيّ من خلال النضال الطويل و غير المسبوق ضد عدوّ طبقيّ قويّ و يائس ، عدوّ يصير يأسه و تصميمه على إلحاق الهزيمة بالثورة البروليتاريّة حتّى أكبر عندما يكون قد تمّت الإطاحة به و يمكن له أن يدرك خطر إضمحلاله التاريخيّ . الحزب الذى تتصوّره وثيقة اللجنة "منزوع اللغز" بقدر ما هو " منزوع الثوريّة " . و هذا يتطابق مع المفهوم غير الثوريّ و الإشتراكيّ الديمقراطيّ " للإشتراكيّة و الشيوعيّة " الذى و للأسف ، يميّز وثيقة اللجنة من البداية إلى النهاية .

خاتمة : رفع التحدّى أم التنكّر للثورة ؟

إلى هذا الحدّ ، تفحّصنا الأطروحات و الحجج الأساسيّة لوثيقة اللجنة و المسألة التى تطرح نفسها مرّة أخرى هي : أيّة نهاية سيقود إليها هذا الخطّ أولئك الذين يستمرّون فى إتّباعه؟ فى نهاية الوثيقة إيّاها، حيث تتطرّق إلى" بعض المسائل الإضافيّة " تضحى أوسع معانى خطّها و يضحى منهجها بديهيّا . هنالك على وجه الخصوص نزعة تطبيق المفهوم العام لمواجهة " الإختزاليّة الطبقيّة " و التركيز على " الجوانب غير الطبقيّة " لطائفة كبيرة من المسائل الإجتماعيّة الهامة . و هكذا ، من البيّن أنّ التراجع عن المبادئ و الطرق الأساسيّة للماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة حاصل على طول الخطّ .

و هذا التراجع لا يتجسّد فى مواقف سياسيّة هامة فحسب ، بل يتجسّد أيضا فى لغة المسائل الكبرى للخطّ الإيديولوجيّ. فقبل نهاية وثيقة اللجنة ، فى خضم نقاش للموقف الخاص تجاه الأخطاء و كذلك تجاه مساهمات قادة البروليتاريا العالميّة ، نعثر على الموقف التالي : " حتى إبّان التجربة الغنيّة للثورة الصينيّة ، لم تؤخذ بعين الإعتبار إلاّ مساهمات ماو فى إثراء الماركسيّة ". (فقرة 12-2)

ردّا على هذا ، ينبغى أن نؤكّد على أنّ المسألة ليست مسألة ماو كفرد أو مسألة سلطته كقائد بمعنى مجرّد (أو **شكليّ**) و ليست المسألة مسألة أنّ ماو لم يقترف قط أخطاء أو أنّ أخطاءه لا يتعيّن تلخيصها . ألا إنّ المسألة هي أنّ خطّ ماو الإيديولوجيّ و السياسيّ يمثّل تعبيرا علميّا مكثّفا عن التجربة الغنيّة فى كلّ من الصين و عالميّا فهو يمثّل تطبيق النظريّة الشيوعيّة على هذه التجربة و تطوير الإيديولوجيا إلى مرحلة جديدة . وعدم إدراك هذا (أو بأكثر تحديد ، التراجع عن الإقرار بهذا) بإسم التركيز بصفة إحاديّة الجانب على مساهمات السلطة القيادية هو ، مرة أخرى ، إنتقائيّة . فى تعارض مع الماديّة الجدليّة ، هذا مثاليّة و ميتافيزيقا تخرق العلاقة بين الممارسة و النظريّة كتعبير مكثّف عن الممارسة . إنّها نظريّة نسبيّة تفتح بوّابة القناة إلى الحجة النسبيّة العامة بانّ أيّة فكرة جيّدة شأنها شأن أيّة فكرة أخرى . و هذا تعبير آخر عن النظرة العامة البرجوازيّة الصغيرة التى تبنّتها وثيقة اللجنة .

ما جدّ هنا هو شيء يشبه إلى حدّ كبير ما وصفه لينين فى " **إفلاس الأمميّة الثانية** " حيث أدّى منعرج كبير فى الأحداث العالميّة إلى إرتباك و تقريبا رعب و إلى تدافع نحو التنكّر للمبادئ التى تبدو فجأة حملا ثقيلا أكثر منها نعمة فى ممارسة توجّه الإذعان إلى عفويّة الجماهير و خاصة الإذعان للأفكار المسبّقة البرجوازيّة الصغيرة و الخيالات الديمقراطيّة ، تذيّلا للبرجوازيّة . قبل أن يقدر " رجل الشارع " أن يقتنع ربّما بالأخصّ حول الإتحاد السوفياتي : " بأنّ ذلك ليس شيوعيّة حقيقيّة " ، ينظر الآن نفس "رجل الشارع " هذا إلى نُصب لينين يتداعى مع تداعى الإتّحاد السوفياتي و تتعزّز لديه النظرة (البرجوازيّة المنتشرة) " العفويّة " بأنّ " الشيوعيّة ما عادت مفيدة أبدا حتّى على أرض الثورة الشيوعية الأولى " .

هذا الضرب من التذيّل للقوى و الأحاسيس المتخلّفة جرى عرضه بقوّة ، من جديد ، فى نهاية وثيقة اللجنة . ففى الفقرة الختاميّة يقال لنا : " لمّا وضع شعب البلدان الإشتراكيّة سابقا الإستراتيجيا الشيوعيّة لإحتكار الحزب للسلطة على إمتداد كلّ المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة على رصيف التاريخ ، لا يمكن للشيوعيّين أن يبقوا مسرورين بعزاء أنّ هذا **إفراز** للتفكير المتخلّف ضمن الشعب. بالعكس، تدلّ هذه التجارب مرّة فمرّة على التعاليم الماركسيّة بأنّ الشعب وحده هو صانع التاريخ. " (فقرة 14-2)

قبل كلّ شيء ، إنّها لمبالغة كبيرة قول إنّ " الشعب " فى تلك البلدان قد وضع مبدأ الدور القياديّ المؤسّساتي للحزب الشيوعيّ " على رصيف التاريخ " . بالنسبة للصين مثلا (وهو مثال من الصعب ألا يكون هاما) من أبعد ما يكون إعتبار أنّ الجماهير دافعت بصفة متّسقة عن الموقف الذى تنسبه لها وثيقة اللجنة : من البيّن الجليّ أنّ هنالك الكثيرين الذين لهم فهم حقيقيّ للغاية للإختلاف النوعيّ بين الحزب الشيوعيّ في ظلّ ماو و " الحزب الشيوعيّ " الفاسد فى ظلّ دنك و الذين لهم إحترام عميق للأوّل و لا شيئ سوى الإحتقار للثاني و ذلك كذلك لا سيما إذا تحدّثنا عن **جماهير العمّال و الفلاّحين** .

أمّا بالنسبة للإتّحاد السوفياتيّ ، فبينما يوجد عدد من الناس (العمّال القدماء بالأخصّ) الذين لهم فهم عام بأنّ هنالك إختلافات هامة بين البلاد فى ظلّ قيادة ستالين و الوضع مذّاك (و الذين يفضّلون بقوّة الأوّل نسبة إلى الثاني ، لعديد الأسباب) ، من الصواب قول إنّ الإتّحاد السوفياتيّ (و فى " بلدان إشتراكيّة سابقا " أخرى ، كانت جزء من الكتلة السوفياتيّة) قليلون هم الناس الذين قد **سمعوا حتّى أبدا** تقديما منهجيّا للتحليل الماويّ لسيرورة إعادة تركيز الرأسماليّة و لطبيعة الطبقات الحاكمة . و بالتحديد هذا هو التحليل العلميّ المطلوب ، لكن عوض القيام بتحليل مادي لما قد حدث فى تلك البلدان (بما فى ذلك **تحليل طبقيّ** لمختلف القوى و الخطوط المعنيّة) ، تجعل وثيقة اللجنة من عبادة إرتباك و تخلّف قطاعات من الشعب فى علاقة بأحداث هناك " تدلّ تلك التجارب ، مرّة فمرة ، على التعاليم الماركسيّة بأنّ الشعب وحده هوصانع التاريخ ".

و هذا نفسه يشبه حال لو أنّ لينين ـ عند إندلاع الحرب العالميّة الأولى ، حين إكتسحت موجة من القوميّة الشوفينيّة كلّ روسيا ، لو أعلن لينين أنّ الشعور و المظاهر الشوفينية لجماهير الشعب الروسيّ ، بيان حيّ عن " تعاليم ماركس بان

الشعب وحده هو صانع التاريخ " ! فعلا ، منطق وثيقة اللجنة هنا يساوى قول إنّه مهما فكّرت الجماهير (وعلى وجه خاص الجماهير الوسطيّة و حتّى المتخلّفة ، تلك المتأثّرة بصفة كبيرة بنظرة البرجوازية و دعايتها) فى أيّ وقت معيّن ، هي تعبير عن المصالح الحقيقيّة و الأسمى للجماهير . هذا مماثل بصفة قريبة للصيغة التحريفيّة التى نقدها لينين بشدّة : المطلوب هو أيّ شيء ممكن ، و ما هو ممكن هو أيّ شيء يحدث فى وقت معيّن . هذا ليس توجّها أو طريقة لقيادة الجماهير فى كسر القيود (ومنها بصورة من الأهمّية بمكان القيود **الفكريّة**) للنظام القديم و فى خلق عالم جديد عبر نضال ثوريّ . إنّه لوصفة للتذيّل ببؤس للجماهير و لقيادتها فى دائرة بإتّباع مؤخرّتها و دون حتّى الكسر التحرّريّ لتلك القيود .

لقد تمّ التعبير عن مسائل حقيقيّة و عميقة بصفة مكثّفة فى علاقة بالأحداث الحديثة فى البلدان التحريفيّة (السابقة) . و الأجوبة تكمن فى التعمّق و جعل حتّى أصلب إعتماد المرء على الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة و على **ذلك الأساس** ، بجسارة و بمقاربة علميّة و بلا رحمة ، تفحّص التجربة التاريخيّة للحركة الشيوعيّة العالميّة . إلاّ أنّنا ، مرّة أخرى ، نرى فى وثيقة اللجنة إجابة مختلفة ، هي نبذ تام للماركسيّة - اللينينيّة – الماويّة ، ل " المفاهيم الأساسيّة التى رفعنا رايتها إلى الآن " .

و من الهام التذكير هنا بشيء هام يصفه لينين فى " **إفلاس الأممية الثانية** " وهو كيف أنّ مثل هذه القفزة بإتّجاه الإنتهازيّة لا تتأتّى " من لا مكان " بل هي تفجّر لبعض النزعات الخاطئة التى كانت تتطوّر طوال فترة طويلة (يستعمل لينين تشبيه الغليان الذى ينفجر فى النهاية) . و كيما ناخذ مظهرا هاما من هذا ، فإنّ الخطّ الذى يمرّر عبر وثيقة اللجنة مرتبط بالتذيّل للقوميّة التى ميّزت لبعض الوقت خطّ اللجنة و بخاصة تعبيرها فى مفهوم " مجموعة من الثورات الديمقراطيّة الجديدة " تنجزها بصفة منفصلة كلّ أمّة داخل (ما هو الآن) الهند (و أنّ هذا يمثّل طريق الثورة الديمقراطيّة الجديدة و محتواها فى الهند) (25) .

واضعو وثيقة اللجنة المركزيّة لإعادة التنظيم ، الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي – اللينيني) يقولون إنّ اللجنة ، فى صياغتها لخطّها بصدد المسألة القوميّة ، واجهت مشكلة " الإختزالية الطبقية "، " بالرغم من أنّنا قد حلّلنا مشكل معارضة الصراع الطبقيّ بالصراع القوميّ ، لم نُدرك بعدُ الجوانب غير الطبقيّة للمسألة القوميّة بسبب مقاربتنا نحن الإختزاليّة الطبقيّة " (فقرة 13-2) . لكنّهم الآن " يدركون خطورة الهزيمة التى لحقت بالحركة الشيوعيّة نظرا لغياب فهم جدليّ للمظهرين الطبقيّ و غير الطبقيّ المتضمّنين فى تطوير نظام سياسيّ و إقتصاديّ أثناء المرحلة الإنتقاليّة و الإشتراكيّة " .

و هكذا يرون الحاجة إلى نضال منظّم أكثر ضد " التجلّيات الملموسة لهذه المقاربة الإختزاليّة الطبقيّة " (نفس المصدر السابق) لأجل أن يكونوا فى موقع تطبيق أكثر صرامة لنظرتهم و منهجهم المكتشفين حديثا حول المسألة القوميّة و عدد من المسائل الهامة الأخرى.

بصيغة أخرى ، هنالك ترابط بين المواقف الخاطئة للجنة إزاء عدد من المسائل . ثمّة ، دون شكّ عدد من العناصر المهمّة المثارة فى حركة اللجنة إلى الوراء و تحليل كلّ جذور و تطوّر هذا خارج عن إطار هذه المقالة . بيد أنّ فى سيرورة تبنّى الموقف الخاطئ تجاه العلاقة بين المسألة القوميّة و الثورة العامة الديمقراطيّة الجديدة فى الهند (و كذلك حول مسائل مفاتيح أخرى) شرعت اللجنة تبتعد عن وجهة النظر الطبقيّة للبروليتاريا و تتّخذ وجهة النظر الطبقيّة للبرجوازيّة الصغيرة ، بما فى ذلك فى التذيّل للقوى القوميّة المختلفة ضمن الأمم المضطهَدة فى الهند . وجهة النظر البرجوازيّة الصغيرة هذه ، مع نزعتها لمقاومة أيّة قوّة حاكمة شديدة المركزة (بغضّ النظر عن ما إذا كانت تلك القوّة تمثّل البروليتاريا أو الطبقات الرجعيّة) ساهما بدورهما فى نبذ " الفهم الماركسيّ – اللينينيّ ، التقليديّ " للتجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا (" من زمن لينين فصاعدا ") بجهاز دولتها الممركز بقوّة ضرورةَ و الدرو القياديّ المؤسّساتيّ للحزب الشيوعيّ الطليعيّ. و بدورها ، هذه القفزة نحو التنكّر إلى مبادئ الماركسيّة – اللينينيّة – الماويّة تجاه مثل هذه المسألة المصيريّة تتّجه نحو القيادة إلى (وهي بعد تقود إلى) تطبيق نظرة و منهج خاطئين و إلى تبنّى مواقف غالطة متّصلة بمجموعة كبيرة من المسائل الهامة .

مؤلّفو وثيقة اللجنة يرسمون فى الواقع بأنفسهم الصلة بين مواقفهم السياسيّة الغالطة . إنّهم يكشفون بانفسهم المسألة المصيريّة ألا وهي مسألة النظرة و المنهج الذين يربطان تلك المواقف الخاطئة : التخلّى عن وجهة النظر الطبقيّة للبروليتاريا و التخلّى عن التحليل الطبقيّ الماركسيّ (واقعيّا الماديّة الماركسيّة عامة) بإسم معارضة " الإختزاليّة الطبقية "

مع هذه الوثيقة " **حول الديمقراطيّة البروليتاريّة** " قد تراجع مؤلّفوها إلى موقف أنّه فعلا من غير الممكن أو المرغوب فيه أن يُتجاوز الأفق الضيّق للحقّ البرجوازيّ (حتّى الديمقراطيّة الشكليّة البرجوازيّة) . جوابهم على سؤال : أليس بوسعنا أن ننجز أفضل من ذلك ؟ هو ليس بوسعنا . رغم كلّ تصريحاتهم أو نواياهم عن الدفاع عن الهدف النهائيّ الشيوعيّ ، فإنّهم قد تراجعوا إلى " الموضوع الكلاسيكيّ " ليس للبرجوازيّة غير المقنعة بل أيضا للإشتراكيّين البرجوازيّين الذين ينشدون نفس الأغنية القديمة البالية إذ هم إلتحقوا بكورال الذين يدّعون ، حتّى بصوت أعلى هذه الأيّام ، إنّنا لا نستطيع و لا ينبغى أن نتحرّك إلى أبعد من مرحلة تاريخ الإنسانيّة حيث يبقى المجتمع منقسما إلى طبقات و متميّزا بالتناحرات الإجتماعيّة .

لئن حاولوا ذلك أو لم يحاولا ، فإنّ موقفهم سيحكم على الجماهير بوضع لا يمكنها فيه أن تنهض و تطيح بالنظام القديم و لا يمكنها أن تمارس الدكتاتوريّة على الطبقات المستغِلّة و لا يمكنها أن تنجز ثورة فى ظلّ هذه الدكتاتوريّة فى إتّجاه الهدف النهائيّ للشيوعيّة .

ستدرك الجماهير فى ظلّ هيمنة نظام إستغلال طبقيّ و نظام سياسيّ برجوازيّ يتوافق معه حيث ، كما وضع ذلك ماركس ، لها فرصة الإختيار ، كلّ بضعة أعوام أيّة مجموعة من المستغِلّين ستحكمها و ستضطهدها . هذا هو منطق التنكّر للتجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا فى المجتمع الإشتراكيّ و الدروس الفعليّة التى على الشيوعيّين أن يستشفّوها منها و منطق تعويضها بمطالب ديمقراطيّة خياليّة غير ممكنة و غير مرغوب فيها فى ظلّ ظروف الإشتراكيّة و غير ضروريّة (و بمعنى عميق مستحيلة كذلك) مع تحقيق المجتمع الشيوعيّ عالميّا .

قصدى أو هدفى هنا ليس محاولة بحث كلّ الروابط بين الخطّ الإنتهازيّ التام النضج كلّيا الذى تمثّله وثيقة اللجنة هذه بشأن دكتاتوريّة البروليتاريا و نزعات خاطئة أخرى قد ميّزت هذه اللجنة . إهتمامي إنصبّ على فضح هذا الخطّ الإنتهازيّ التام النضج الذى يمثّل تعبيرا مكثّفا عن نظرة و منهج و خطّ سياسيّ خاطئين . و مثلما جرى الإفصاح عن ذلك فى بداية هذا النقد لوثيقة اللجنة المركزيّة لإعادة التنظيم ، الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي – اللينيني) ، أملى هو أن يساعد هذا النقد رفاق اللجنة **ذاتهم** على تولّى نقد شامل لهذه الوثيقة و نبذها و فى السيرورة إعادة تفحّص مواقف أخرى إتّخذتها اللجنة للوقوف على أين و بأيّة طرق قد ساهمت هذه المواقف ، على الأقلّ ، فى جوانب من النظرة و المنهج و الخط السياسيّ الخاطئين .

<u>الهوامش :</u>

1/ وثيقة اللجنة هذه قد نشرت ، فى الواقع ، فى ديسمبر 1990 ، قبل أحداث الإنقلاب / الانقلاب المضاد فى الإتّحاد السوفياتيّ فى صائفة 1991 التى أفرزت تخلّى حتّى أعمق عن أيّ إدّعاء لل" شيوعيّة " من طرف الذين فى السلطة هناك و أفرزت أيضا مظاهرات جماهيريّة ذات طابع واضح العداء للشيوعيّة . و كما سوف نرى ، حيث أنّ الوثيقة ذاتها تتخلّى عن كامل إرث الثورة البروليتاريّة و البناء الإشتراكيّ ، منذ الثورة السوفياتيّة في أكتوبر 1917 مرورا بالثورة الصينيّة وصولا إلى الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى ، و حيث أنّ من البيّن أنّ أحداث السنوات القليلة الفارطة فى الإتّحاد السوفياتيّ و الصين ، حتّى قبل هذا الحدث الإنقلاب / الإنقلاب المضاد ، كانت الدافع المباشر وراء هذا التراجع الراديكاليّ من جانب المسؤولين عن وثيقة اللجنة هذه ، فإنّه من المعقول ، لسوء الحظّ ، أن نعتبر أمرا مفروغا منه أنّ هذه الأحداث الأكثر جدّة ستستخدم لمزيد عقلنة هذا التراجع فى أذهان الذين يواصلون قبول إدّعاءاتها.

2/ عبر هذا النقد لوثيقة اللجنة الذى أتحدّث فيه عن كيفيّة التنكّر ل " كلّ التجربة التاريخيّة لدكتاتوريّة البروليتاريا " ، أشير بالخصوص إلى التجربة التى بدأت مع الثورة السوفياتيّة فى أكتوبر 1917 . بينما تدّعى وثيقة اللجنة الإعتراف ببعض

مكاسب هذه التجربة التاريخيّة ، من الواضح من دراسة هذه الوثيقة أنّها (حتّى بكلماتها هي و دون إعتبار للمعاني المتضمّنة المنطقيّة لموقفها) تنظر إلى كلّ هذه التجربة على أنّها متصدّعة بالأساس و تؤكّد أنّه يتعيّن تبنّى توجّه مختلف كلّيا. و ينبغى أيضا أن نقول إنّ بوضع تجربة الكمونة المحدودة فى تعارض مع تجربة دكتاتوريّة البروليتاريا مذّاك ، عوض الإعتراف بالوحدة الأساسيّة بينها و التأكيد عليها ، فى الحقيقة تنبذ وثيقة اللجنة هذه الروح و الدروس الجوهريّة لكمونة باريس نفسها .

3/ ليس الواقع أنّ المليشيات قد تمّ القضاء عليها جميعها فى ظلّ الحكم التحريفيّ ، بالأحرى ، هي أيضا وقع تحويلها إلى جزء من الجهاز القمعيّ للبرجوازيّة ، مساعدا للجيش النظاميّ القائم ، خادما سلطة التحريفيّين ضد الجماهير .

4/ دور السوفياتات و المؤسّسات الثوريّة و المنظّمات الجماهيريّة بصفة عامة أكثر ، فى علاقة بالسيرورة الأوسع و الأطول أمدا للتحويل الإشتراكيّ للمجتمع ، مسألة هامة و معقّدة جدّا . إنّها مسألة سأعود إليها فى ما بعد ، فى مزيد الإجابة على حجج وثيقة اللجنة حول كيف كانت السوفياتات "مبعدة إلى الخلفيّة " .

5/ فى حقيقة الأمر ، أعضاء الحزب الشيوعيّ الصينيّ الذين يعدّون بالملايين و الملايين و يضمّون نسبة مائويّة عالية جدّا من العمّال و الفلاّحين كان لهم هذا الحقّ الشكليّ في التصويت بإبعاد ماو من وظيفته . بأكثر تحديد ، كان لهم حقّ إنتخاب مفوّضين لمؤتمر الحزب و هؤلاء المفوضّين الذين إنتخبوا اللجنة المركزيّة للحزب كان لهم حقّ رفض إنتخاب ماو إلى اللجنة المركزيّة . كونهم لم يفعلوا ذلك و لماذا لم يفعلوا ذلك مثّل تعبيرا آخر ، من عديد الزوايا ، للمسألة الأساسية هنا : ليس الشكل بل المضمون الإجتماعيّ (الطبقيّ) ، المتجذّر فى التناقضات الماديّة المتضمّنة هو لبّ المسألة.

6/ فى الواقع ، " نظريّة قوى الإنتاج " (و الماديّة الميكانيكيّة عموما) فى النهاية مثاليّة فى حدّ ذاتها ، إنّها تفصل ميتافيزيقيّا المادّة عن الوعي . فهي لا تدرك الطريقة (كما وضع ماو ذلك) التى بها يمكن للمادة أن تتحوّل إلى وعي **و** الوعي إلى مادة . هكذا ، لا تفهم على الوجه الصحيح الأساس الماديّ لكلّ الأفكار و **لا** تفهم كيف يمكن للأفكار أن تتحوّل إلى قوّة ماديّة ضخمة .

7/ من المهمّ ملاحظة موقف لينين تجاه لكسمبورغ التى كانت له معها إختلافات شتّى جدّية فى الرأي لعديد السنوات الطوال، قبل ثورة أكتوبر و بعدها . فبينما وجّه كثيرا من النقد الحاد لمواقف لكسمبورغ و منهجها ، صارعها لينين كرفيقة فى المعسكر الثوريّ . و وثيقة اللجنة ذاتها تعلن أنّ لكسمبورغ كانت فى السجن عندما قامت ببعض نقدها للحكومة السوفياتيّة الجديدة ، و أنّها " بعد الخروج من السجن و الحصول على معلومات مباشرة عن الوضع فى روسيا تراجعت عن بعض النقد و سكتت عن البعض الآخر . لقد أدركت صعوبة السماح بحرّية غير محدودة للأعداء " (فقرة 6-6). لكن ، لسوء الحظّ، لا تزال الوثيقة تؤكّد على الدفاع عن نقد لكسمبورغ ، بالأخصّ نقدها لمسألة الديمقراطيّة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا و تجعله جزءا متمّما لهجومها الشامل على دكتاتوريّة البروليتاريا فى الإتّحاد السوفياتي (و فى الصين أيضا) .

8/ لمزيد نقاش هذه النقطة الهامة ، راجعوا : أفاكيان ، " **نهاية مرحلة - بداية مرحلة جديدة** " ، مجلة " **الثورة** "عدد 60 ، نهاية 1990 ، شيكاغو ، باب ، " هزيمة الصين ، البعد العالمي " ، صفحات 9-11). [هذا العمل بات متوفّرا على الأنترنت بموقع www.revcom.us – المترجم].

9/ فى الحقيقة خطّ وثيقة اللجنة هنا هو فى وحدة بالأساس مع الخطّ الإنتهازيّ " اليساريّ " الذى برز فى أثناء الثورة الثقافيّة ، الخطّ الذى أعلن أنّ جميع قيادة الحزب و الدولة (بإستثناء ماو و بعض الآخرين) كانوا تحريفيّين و من ثمّ كان من الضروريّ " الشكّ فى الكلّ " و حتى " الإطاحة بالكلّ ". لو ساد هذا الخطّ قيادة الثورة الثقافية ، كان سيخربها و يرسّخ يد التحريفيّين الحقيقيّين بقيادة ليو تشاوتشى و دنك سياو بينغ ، و فى الواقع ، شجّع مركز القيادة التحريفيّ الذى كانوا يقودون أو على أيّة حال إستعمل هذا الخطّ " اليساريّ " فى محاولة لحرف الثورة الثقافيّة عن مسارها .

10/ هنا يبدو من الضروريّ أن نكرّر مرّة أخرى أنّ إنجلز (بمعيّة ماركس) لم يتوقّع المسار الفعليّ الذى ستتّبعه الثورة البروليتاريّة و الوضع الفعليّ الذى ستواجهه الدكتاتوريّات البروليتاريّة التى وجدت إلى الآن . فى إرتباط بهذا ، لم يتوقّع طول أمد و تعقيد سيرورة الإنتقال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة .
و يحيلنا هذا على تصريح إنجلز (المستشهد به سلفا فى وثيقة اللجنة) أنّ غياب مركزة و سلطة قويّة بما فيه الكفاية كان مميتا لكمونة باريس و أنّ ، من جهة أخرى ، **حالما تكون قد إنتصرت** بإمكانك أن تفعل بهذه السلطة ما تشاء " (إنجلز ذكرته وثيقة اللجنة ، النقطة المحوريّة هي التوصّل إلى وضع فيه " تكون قد إنتصرت " (فيه إنتصار البروليتاريا قد ضُمن برسوخ و بصفة نهائيّة بحيث لم تعد توجد بعدُ حاجة إلى مركزة وسلطة قويّتين (" بإمكانك أن تفعل بهذه السلطة ما تشاء ") يمكن فقط أن يكون حصيلة صراع طبقيّ طويل الأمد ، فى كلّ من داخل المجتمع الإشتراكيّ و عالميّا ، و فى الأثناء ، ينبغى الدفاع عن هذا الحكم و السلطة الممركزين و ممارستهما بثبات ... بالتعويل على الجماهير، مع قيادة الطليعة الشيوعيّة . إنّ **هذه** المركزة و السلطة هي التى تنبذها وثيقة اللجنة .

11/ يمكن أن يحاجج أنّ الأمر عينه (حتّى فى كتاباته التى لم تنشر إلاّ إثر وفاته) أنّ لينين لم يخض فى هذه المسألة بايّة طريقة منظّمة إلى ما بعد ثورة أكتوبر هو صفعة ضد الإتّهام بأنّ لينين قد قصد منذ البدء أن يؤسّس " دكتاتورية الحزب " و إضافة إلى ذلك ، أنّ هناك خيط ناظم من " **ما العمل** ؟ "إلى " دكتاتورية الحزب " هذه (حجة عادة ما يستعملها الإشتراكيّون الديمقراطيّون و الأرهاط المماثلة).

12/ فى الثورة الصينيّة ، يُشير هذا إلى إفتكاك السلطة فى أجزاء من البلاد قبل إفتكاك السلطة فى البلاد جميعها بكثير.

13/ يمكن أن يطرح سؤال : لماذا لم يُستطع تعويض الجيش القائم تحت قيادة الحزب ، بتنظيم الجماهير الواسعة فى مليشيات ، كذلك تحت قيادة الحزب ؟ أسباب عدم التمكّن إلى الآن ، فى المجتمع الإشتراكيّ ، ببساطة من إحلال مثل هذه المليشيات **محلّ** (عوضا عن ، جنبا إلى جنب مع) الجيش القائم (و بعد تقييم عام للظروف الضروريّة لخطوة من هذا القبيل) قد نوقشت فى ما مرّ بنا . إلاّ أنّه تعيّن أن نلاحظ أنّ النقطة التى قد شدّدت عليها هنا أي الدور القياديّ للحزب فى القوى المسلحّة (الجيش القائم و المليشيا) هي تحديدا ما يجب أن تعارضه وثيقة اللجنة . ما هو الأمر الأكثر دلالة على " دكتاتورية الحزب " من أمر أنّها تمارس القيادة على القوّات المسلحة ؟ مثل هذه القيادة يجب أن تعني ، وفق منطق وثيقة اللجنة ، أنّ الحزب يحتكر القوّات المسلحة وهي التعبير المكثّف للسلطة السياسيّة . بديهيّا ، تتناقض هذه النظرة بحدّة مع ما قيل هنا فى هذا النقد لوثيقة اللجنة بصدد دور القيادة فى القوّات المسلحة و كيف يرتبط هذا بالمسألة الجوهريّة للجماهير المدافعة عن المصالح الثوريّة للبروليتاريا .

14/ من الضروريّ التعليق على هذه الصياغة " شكليّة فحسب ، بل زائفة أيضا " . " زائفة " و " شكليّة " لا يمكن فصلهما على هذا النحو هنا . بما أن " المساواة المدّعاة " من طرف الديمقراطية البرجوازية شكليّة ولا يمكن أن تكون سوى شكليّة، لا يمكنها أن تتجنّب أيضا مظهرا من كونها " زائفة " . غير أنّها ، من جهة أخرى ، ليست "زائفة " كلّيا أي تحتوى مظهرا من المساواة الحقيقيّة . المسألة المركزيّة ، المسألة العميقة التى تشدّد عليها الماركسيّة هي أنّ **كلّ** مساواة ، حتّى تلك الموجودة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، هي فى نفس الوقت **لا**مساواة . و فضلا عن ذلك ، المساواة ، مثل الديمقراطيّة ، تعكس وضعا فيه لا تزال توجد تناقضات طبقيّة ، و فى الواقع ، المساواة بمظهرها من اللامساواة ، تتضمّن بذرة التقسيم الطبقيّ حتّى حينها ، تتراءى ، فى مظهرها الشكليّ ، أنّها لا تسمح بأيّ إختلاف طبقيّ .

15/ هذا النقد لوثيقة اللجنة كُتب كجزء من كتاب " **ماتت الشيوعية الزائفة ... عاشت الشيوعية الحقيقية !** " . و هنا من الجدير تكرار هامش مثبت فى جزء مختلف من الكتاب : كما نؤكّد على ذلك هنا ، فإنّ هدف الثورة الشيوعيّة هو القضاء على كافة علاقات الملكيّة التى تسمح للبعض بأن يستغلوا الآخرين و ليس " منع الناس من أن تكون لهم ملكيّة خاصة " كما يدّعى بريجنسكي . هذا من ناحية و من ناحية ثانية ،ف ى المرحلة الإنتقاليّة إلى الشيوعيّة (و بشكل تام فى المجتمع الشيوعيّ) سيجرى التوصّل إلى مشركة عديد الأشياء التى هي فى المجتمع الحاليّ ملكيّة شخصيّة (وملكية عائلية) أو تُستهلك بصفة شخصيّة (أو فى إطار العائلة الفرديّة) بدرجات متفاوتة و سوف تستهلك فى إطار ممشرك . مثال ذلك هو الأكل : الآن ، يقع إعداده و إستهلاكه بصورة شخصيّة أو فى إطار العائلة وهو فرض على المرأة . عموما بالقضاء على الإنتاج السلعيّ و التبادل السلعيّ سيمكن الحصول مباشرة ، دون واسطة المال (و لا سلع أخرى معادلة) ، حسب الحاجة ،

على أشياء فى المجتمع الحاليّ ، ينبغى إقتناؤها كسلع يمكن إستهلاكها (الأكل و مواد أخرى ذات ضرورة أوّلية و إستهلاك شخصيّ) . و فى هذا الإطار حيث لا توجد لا سلع و لا مال ، و لو أنّه سيوجد نوع من الممتلكات الشخصيّة (بوجه خاص مواد إستهلاك شخصيّة) ، لن تصل أبدا إلى أن تكون أكثر من ممتلكات شخصيّة ذلك أنّها لن تكون مصدرا كامنا للثروة التى يمكن تحويلها إلى رأس مال على أساس إستغلال آخرين .

16/ لعلّ من الضروريّ الإشارة إلى أنّ إنجلز " جانب " مسألة إرادة الفرد فى رسالته سنة 1890 إلى بلوخ (ماركس و إنجلز : " **الرسائل المختارة** " بيكين ، منشورات باللغات الأجنبية ، صفحة 75-78 ، الطبعة الإنجليزية) فيها كان غرضه أن " يوازن " التشديد الساحق الذى قد إضطّر هو و ماركس إلى وضعه على الدور الضمنيّ للقوى (المنتجة) الماديّة فى تحديد التطوّر الإجتماعيّ الإنسانيّ . فى هذه الرسالة ، إنتهى إنجلز إلى وصف النزعات فى المجتمع كصدام إرادات فرديّة لا تحصى هي فى آخر المطاف محدّدة بقوى ماديّة متضمّنة . هذا وصف ينحو نحو التخلّى عن ، أو " الوضع جانبا " ، العامل الأساسيّ أنّ الأفراد و " الإرادات الفرديّة " تتشكّل بالموقع الإجتماعيّ للأفراد – و فى المجتمع الطبقيّ ، يعنى هذا ، قبل كلّ شيء ، موقعهم الطبقيّ . غير أنّ هذه النزعة الخاصة فى هذه الرسالة الخاصة لا تغيّر أمر أنّ إنجلز و الماركسيّة عموما ، يعترفان بالدورالحاسم للطبقات و الصراع الطبقيّ (منذ أن ظهرت الطبقات لأوّل مرّة) وهو أمر واضح فى " **بيان الحزب الشيوعيّ** " و أعمال ماركسيّة أخرى لا تحصى .

17/ من هذا لا يجب أن يفهم أنّه ثمّة علاقة واحد لواحد فى كلّ الحالات بين الموقع الطبقيّ لشخص و طريقته فى التفكير . لسبب واحد . هنالك مسألة أنّ الأفكار السائدة فى المجتمع ، كما أشار ماركس و إنجلز ، هي أفكار الطبقة المهيمنة و هذه الأفكار تتّجه نحو ممارسة **تأثير** كبير على تفكير حتّى أعضاء الطبقات المضطهَدة . إلى ذلك ، إنّه مبدأ رئيسيّ فى الماركسية هو أنّه بالنسبة للماديّة **الجدليّة** تمارس الأفكار التى نهضت على أساس الواقع الماديّ ، تمارس بدورها تأثيرا و أيّما تأثير على الواقع الماديّ و أنّ ، بهذه الطريقة ، للأفكار لا سيما الأفكار الصحيحة سلطة قويّة فى التأثير على الناس بشكل واسع فى المجتمع (يفسّر هذا ، على سبيل المثال ، لماذا يتّخذ بعض الناس ، بالأخصّ منهم المثقّفون ، من ضمن البرجوازيّة او البرجوازيّة الصغيرة نظرة البروليتاريا و يلتحقون بنضالها الثوريّ). إلاّ أنّه مع كلّ هذا يبقى صحيحا أنّ هنالك فى آخر التحليل ، متحدّثين عن جماهير الشعب ، تناسب عام بين موقعها الطبقيّ و نظرتها . وبصورة أعمّ ، تبقى حقيقة عميقة ، كما وضع ذلك ماو ، أنّ " فى المجتمع الطبقيّ ، يعيش كلّ إنسان كفرد من أفراد طبقة معيّنة و يحمل كلّ نوع من أنواع التفكير دون إستثناء طابع طبقة معيّنة ".

18/ لا يفوت وثيقة اللجنة تماما أن تشير إلى الصراع الطبقيّ هنا إذ تقول إنّ نظام الديمقراطيّة البروليتارية الذى يُؤيّد " سينبغى عليه أن يزيد التطوّر" (" بما أن ّالإشتراكية نفسها هي مرحلة تحويل ثوريّ ") و إنّ " مسألة مثل هذه التغيّرات فى الهياكل السياسيّة – الإجتماعيّة – الإقتصاديّة ستكون هي ذاتها موضوع صراع طبقيّ . (المصدر السابق) . غير أنّ هذا المفهوم المبهم لل"صراع الطبقيّ " جزء من نظرة وثيقة اللجنة المثاليّة لل"مجتمع الإشتراكيّ " ، فيها لا يأخذ الأساس الماديّ لوجود البرجوازيّة و قوّتها بعين الإعتبار بجدية (و حتّى لا يفهم بطريقة صحيحة) . لا يمكن لهذا " الصراع الطبقي " إلاّ أن يكون مثاليّا بقدر ما هي مثاليّة "الإشتراكيّة " التى تحلم بها هذه الوثيقة . إنّه لا يمتّ بصلة للصراع الطبقيّ الحقيقيّ و الحاسم الذى لا بّد أن يجري خوضه كعلاقة مفتاح عبر المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة . وهو لا يساعد على الحديث عن " صراع طبقيّ " و " فترة من التحويل الثوريّ " فى إطار تكون فيه طبيعة هذه " الفترة من التحويل الثوريّ " مشوّهة ، و أساس و محوريّة التناقض الطبقيّ و الصراع الطبقيّ عبر هذه الفترة غير مفهومين و مشوّهين .

19/ إحدى أهمّ تجلّيات المبدأ البرجوازيّ المعني هنا هي معالجة الأفكار و منها خطوط و " أرضيّات " الأحزاب السياسيّة على أنّها سلع عليها أن تجد قيمتها فى " سوق الأفكار" (و البرجوازيّة الصغيرة حسّاسة على وجه خاص لهذا الخيال الذى سيسود فعلا فى عملية " السوق الحرّة " للمساواة) .هنالك إخفاق أساسيّ فى معرفة أنّ كُنه السوق الرأسماليّ بصفة خاصة هو الهيمنة الطبقيّة و الإستغلال .

20/ بينما من الممكن أن يكون واقعيّا أنّ خيانة كاميناف و زينوفياف المعادية للثورة فى هذا الوضع من الحياة أو الموت سياسيّا (و حرفيّا) لم تترتّب عن مشاركتهما فى تكتّل منظّم (و على ايّة حال لم يكن لُيستطاع الحيلولة دون ذلك ببساطة بإجراء تنظيميّ لحظر التكتّلات) و مع ذلك ، كانت نشاطاتهما ذات طابع تكتّلى واضح : النشاط وفق خطّهما و إنضباطهما

الخاص فى تعارض مع خطّ الحزب و إنضباطه . و كأمر واقع ، بقدر ما يكون وجود الكتل تاما و قائما بقدر ما سيضعف حتّى بأكثر جوهريّة وحدة إرادة الحزب و نشاطه و يجعله غير قادر على لعب دور طليعيّ ، دور قيادة الجماهير فى النضال الثوريّ ، أوّلا ، لإنجاز إفتكاك السلطة و إرساء دكتاتوريّة البروليتاريا الخاصّة بها ثمّ لإنجاز الثورة فى ظلّ تلك الدكتاتوريّة .

كي نستقصي هذه المسألة على نحو أشمل ، من الجدير إعادة تفحّص الظروف الخاصة التى أدّت إلى خطر الكتل فى الحزب البلشفي فى 1921. فالبلاشفة واجهوا تحدّى إعادة إحياء إقتصاد خربته الحرب و شهد حينها إنهيارا ، و تحدّى إعادة الروابط المفاتيح مع السكّان (بالأخصّ فى الريف) و ترسيخ تنظيمهم و كان ذلك وسط إضطراب إجتماعيّ و سخط سياسيّ (حتّى ضمن الطبقة العاملة المدينيّة) و تذبذب ضمن الشريحة الوسطى . لقد أحرزوا الإنتصار فى الحرب الأهليّة ومع ذلك كان مصير الثورة عالقا فى الميزان . كان لزاما عليهم أن يواجهوا مهاما جديدة و تعديلات سياسيّة كبرى كان الواقع يتطلّبها (و كانت السياسة الإقتصاديّة الجديدة التعبير المنهجيّ عن تلك الضرورة) و كان لزاما عليهم تطوير خبرات جديدة لا سيما فى إدارة الإقتصاد . و كان الردّ بطريقة ملائمة على تحدّيات الوضع الجديد يستدعى حزبا موحّدا و راسخ العزم ، مع ذلك كان الحزب نفسه و لم يكن له إلاّ أن يكون متأثّرا بكفاح و ثوران فترة الحرب الأهليّة السابقة . و كان صراع بين خطّين محتدما حول الطريق إلى الأمام . وهو أمر حتميّ . لكن المتابعة الناجحة لذلك الصراع عقّدها المشكل المتفاقم للتكتّليّة .

كانت عديد المجموعات المعارضة تتنظّم حول أرضيّات مستقلّة ، ضاغطة على جدول أعمال الحزب ليناقش مسائلا ثانويّة و واضعة الإنخراط فى أرضيّتها هي الخاصة فوق الإنضباط الحزبيّ . لقد إعتنى لينين بهذا الخطر الحقيقيّ لإنشقاق فى الحزب فى ذلك الوقت الحاسم و إعتنى بضرورة الليبراليّة فى المسائل الإقتصاديّة و ليس بالإعجاب بالنزعات الديمقراطيّة البرجوازيّة فى الحزب . كانت كذلك حقيقة أنّ العناصر التكتّلية أينما و متى كانت قادرة على القيام بذلك ، بحثت عن تنفيذ برنامجها هي الخاص (على سبيل المثال ، سعى أتباع تروتسكي إلى تطبيق برنامجهم لعسكرة النقابات وهو سياسة مشؤومة كانت ستغذّى إضعاف المعنويّات داخل النقابات و عدم الثقة تجاه الحزب داخل المجتمع برمّته ، بالضبط فى الوقت الذى كانت فيه الحاجة إلى إعادة ترسيخ الثقة الشعبيّة فى الثورة فى وضع إستثنائيّ) . إنضمام عديد الشبان و الأعضاء الثوريّين الذين ليست لهم تجربة إلى الحزب ، إلى جانب المناشفة السابقين و الإشتراكيّين الثوريّين الذين لم تتمّ تربيتهم من جديد إلخ خلق أرضيّة خصبة للتنظّم التكتّلى داخل الحزب .

و لئن بقيت دون مراقبة ، كانت التكتّلية ستجعل التوصّل إلى قرارات الحزب و تطبيقها أمرا أصعب و كانت ستضعف وحدة الحزب و تفسح مجالا أوسع للسياسات الخاطئة كي تثبّت ، بإختصار كانت ستضعف أسس الحكم البروليتاريّ . إلى ذلك ، بالضبط لأنّ البلاشفة كانوا حينذاك حزبا **فى السلطة** ، إتّخذت التكتليّة بُعدا جديدا و مهدّدا . و كان بمقدور أعداء الثورة من الداخل و الخارج ، مثلما حصل ، أن يراهنوا على و أن يستفيدوا من التآمر التكتّلي و العمل **من خلال** المجموعات القريبة من السلطة حتّى يحقّقوا مآربهم ، بينما وفّر تكاثر المجموعات المنظّمة حول أرضيّاتها هي الخاصة للأعداء داخل الثورة مجالا أوسع للمناورة و التنظّم .

فى حين كانت الظروف الخاصة التى أدّت إلى حظر التكتّلات فى الحزب الشيوعيّ سنة 1921 ظروف أزمة حادة بالنسبة للدولة البروليتاريّة الجديدة و حزبها القائد و فى حين يوفّر وجود التكتّلات داخل الحزب **فى السلطة** قاعدة قويّة للقوى المعادية للثورة ، داخل البلاد الإشتراكيّ و خارجه ، لإضعاف الدولة الإشتراكيّة و حتّى الإطاحة بها و تدميرها من الداخل و تحويلها إلى نقيضها ، فإنّ الأمر يشمل عديد المبادئ العامة . يوضّح تاريخ الحزب البلشفي أنّه حتّى قبل إفتكاك السلطة ، كان البلاشفة بعدُ يحتاجون إلى القطيعة بصفة تامة أكثر مع الخطّ التنظيمي الذى ساد الأحزاب الإشتراكيّة للأمميّة الثانية وهو خطّ سمح بالتكتّلات إلخ داخل الحزب . كان هذا خطا نبع من نظرة و برنامج الأغلبيّة (و الأكثر تأثيرا) الإصلاحيّة المتنامية لتلك الأحزاب (خطا لم يكن ينزع نحو قيادة الجماهير للإطاحة بآلة الدولة البرجوازيّة القائمة و تحطيمها و تركيزآلة دولة جديدة ، دولة بروليتاريّة). حظر التكتّلات فى الحزب البلشفيّ سنة 1921 (و أبعد من ذلك ، تثبيته كمبدأ تنظيميّ جوهريّ للأحزاب **الشيوعيّة**) يمثّل دفعا للممارسة و المبدأ التنظيميّ بصفة تامة أكثر إلى صفّ الحاجيات الموضوعيّة للنضال الثوريّ البروليتاريّ أكان ذلك قبل إفتكاك السلطة أم بعده .

و سنعود ، فى ما بعد ، إلى مسألة التكتّلات داخل الحزب ، عند نقاش الأقسام الأخيرة من وثيقة اللجنة .

21/ فى كتيّب " **ثلاثة صراعات كبرى على الجبهة الفلسفيّة الصينيذة** " ، يلاحظ أنّ ماو حذّر من " إذا لم نشيّد إقتصادا إشتراكيّا ... ستصبح دكتاتوريتنا البروليتاريّة دكتاتوريّة برجوازيّة ، دكتاتوريّة رجعيّة ، فاشيّة " (" **ثلاثة صراعات كبرى على الجبهة الفلسفية الصينية** " بيكين ، منشورات باللغات الأجنبية 1973 ، صفحة 13، الطبعة الإنجليزية / و ضمن كتاب " **ماو يتحدّث إلى الشعب** " صفحة 158 ، نشر الصحافة الجامعية باريس 1974 ، الطبعة الفرنسية) . و جانب آخر للمسألة هو إذا لم تمارس البروليتاريا فعلا دكتاتوريّة شاملة على البرجوازية فى البناء الفوقيّ و من ضمنه مجالات الإيديولوجيا و الثقافة ، لن تتمكّن من تشييد إقتصاد إشتراكيّ و البقاء على الطريق الإشتراكيّ . إنّ خطّ وثيقة اللجنة هو صدى (و بالفعل " الوجه الآخر ") لخطّ ليو تشاوتشى و أتباعه فلسفيّا الذين ، بعد إفتكاك السلطة السياسيّة عبر الصين كافة ، دافعوا عن فترة طويلة فيها سيكون طابع الإقتصاد رأسماليّ – إشتراكي " مركّب " و البناء الفوقيّ سيخدم كلاّ من القطاع الإشتراكيّ و القطاع الرأسماليّ و " سيخدم كذلك البرجوازيّة " (المصدر السابق ، صفحة 16). فخطّ وثيقة اللجنة يصل إلى نفس الموقع " من الجانب الآخر " : سيقوّض ممارسة البروليتاريا للدكتاتوريّة الشاملة فى البناء الفوقيّ و يخلق وضعا حيث ، نظريّا ، " تتقاسم السلطة " على البناء الفوقيّ قوى طبقيّة مختلفة و فى الواقع ، سيعنى هذا البناء الفوقيّ " المركّب " طبعا أنّ البرجوازيّة "ركّبت "(" إبتلعت ") البروليتاريا و إفتكّت الإشراف على البناء الفوقيّ برمّته و حوّلت المجتمع على صورتها ، إلى الوراء نحو الرأسماليّة .

22/ من الهزائم التى لحقت بالأحزاب الإشتراكيّة و الشيوعيّة التى سقطت فى البرلمانيّة البرجوازيّة و/ أو ركّزت جهودها على المشاركة فى حكومات " إئتلافيّة " مع قوى برجوازيّة مختلفة ، و لعلّها الأكثر دراميّة و تراجيديّة ، هي تجربة الحزب الشيوعي الأندونيسي فى أواسط الستّينات . ذلك أنّ تلك الهزيمة تضمّنت مذبحة راح ضحيّتها مئات الآلاف من الشيوعيّين (و أندونيسيين آخرين) و هلك القسم الأعظم من الحزب الشيوعيّ القويّ على أيدى الرجعيّين . و مردّ ذلك إلى أن الحزب الأندونيسي قد ركّز بصفة متصاعدة على عمله البرلمانيّ و أشكال أخرى من النضال القانونيّ فقد عوّل بصفة متصاعدة على نجاحاته و مواقفه البرلمانيّة فى الحكومة الإئتلافيّة (التى كان على رأسها البرجوازيّ الوطني سوكرنو) و نتيجة لذلك كان غير مستعدّ للإنقلاب المعاديّ للثورة الذى نفّذه الجيش الأندونيسيّ (بقيادة سوهرتو) ليس بمساندة و إدارة خلفيّة من س أي أي الولايات المتّحدة الأمريكيّة فحسب ، بل كذلك بمشاركتها النشيطة . (" **وثيقة تاريخية : نقد ذاتيّ للحزب الشيوعي الأندونيسيّ** " فى مجلّة " **الثورة** " ، عدد 55 ، 1987) . و بالرغم من أنّ حكومة سوكرنو لم تكن ، طبعا ، تمثّل دكتاتوريّة البروليتاريا ، يبقى أنّ هنالك تشابه بين وضع الحزب الشيوعي الأندونيسي فى تلك الحكومة " الوطنيّة " و الموقف الذى سيكون لحزب شيوعيّ إذا حاول تكريس الخطّ الذى تؤيّده وثيقة اللجنة إزاء الكيفيّة اللازمة لعمل حزب فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . و مثلما قد أشرنا سيجد حزب من هذا الطراز نفسه بالفعل فى حكومة " إئتلافيّة " فيها لن يكون فى مستطاعه أن يمارس وحده القيادة و فى الواقع ، لن يكون فى مستطاعه أن يمارس اية قيادة البتّة. سيكون الحزب و الجماهير الثوريّة عموما عُرضة إلى أقصى حدّ للسقوط بأيدى الأعداء عبر إنقلاب رجعيّ (و المذابح التى ستصاحبه) .
هنا ، مرّة إضافية ، مسألة حاسمة هي أن نعترف ، حتّى بغضّ النظر عن الطبقة الحاكمة المطاح بها ، بأنّ " الشعب بأسره " ، فى ظلّ ظروف المجتمع الإشتراكي ، يعنى عديد الطبقات (حتى القوى البرجوازيّة الوليدة الجديدة) و " تسليح الشعب بأسره " سيعنى حقّا تطوير عديد المعسكرات المسلّحة المختلفة ضمن الشعب ، بما فى ذلك قوّات مسلّحة فعليّا تحت إمرة قيادة برجوازيّة مضادة للثورة .

23/ زيادة على ذلك ، تتعين ملاحظة أنّ إطلاق العنان للجماهير إبّان الثورة الثقافيّة البروليتاريّة الكبرى كان ممكنا كذلك لأنه وقع فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، بينما قد سحقت دولة **برجوازيّة** ، دكتاتوريّة برجوازيّة أحداث 1989.

24/ فى خطاب " **فى ندوة عمل** " فى 1962 ، قال ماو : " تنظيم التكتّلات السرّية ممنوع . إنّنا لا نخشى المعارضة الواضحة ، نخشى فحسب مجموعات المعارضة السرّية ". (" **ماو يتحدث إلى الشعب** " ، نشر الصحافة الجامعية باريس 1974 ، الطبعة الفرنسية) . عند قراءة المقطع بتمامه الذى يظهر فيه هذا التصريح و آخذين الروح الكلّية لملاحظات ماو ، نتبيّن بوضوح أنّه يؤكّد على نوع معيّن من توجّه الترحيب بالصراع الإيديولوجيّ ، إذا كان يدار بطريقة واضحة و صريحة و حين يتحدّث عن عدم خشية المجموعات المعارضة غير السّرية ، فإنّه يعنى شيئا مختلفا عن التكتّلات المنظّمة بوحدتها و إنضباطها الداخليّين الخاصين بها ، عاملين داخل الحزب الشيوعيّ فى تناقض مع خطّ الحزب و إنضباطه . بالأحرى ،

يبدو أنّه يتحدّث عن مجموعات أناس سيندمجون ، على الأقلّ شكليّا ، ليصوغوا موقفا تجاه مسائل معيّنة . يؤكد ماو أنّه " على الأعضاء القياديّين داخل الحزب أن يشجّعوا الديمقراطيّة و أن يدعوا الناس يعبّرون عن آراءهم ". (المصدر السابق) و فى نفس الوقت ، يؤكّد على أنّ هذا ينبغى أن يحصل على أساس أن " يحترم [أعضاء الحزب] الإنضباط الحزبيّ وأن تخضع الأقليّة للأغلبيّة و أن يخضع الحزب جميعه إلى المركز ". (المصدر السابق) بصيغة أخرى ، من الواجب إحترام الإنضباط و صيانة الوحدة (إنضباط الحزب و وحدته و ليس إنضباط التكتّلات و وحدتها) ، هذا ما يجب أن يدافع عنه الناس ، حتّى عندما يمكن أن يكونوا مختلفين مع خطّ الحزب أو سياسة حزبيّة خاصة سائدين . هكذا ، يقول ماو " طالما أنّهم لم يخرقوا الإنضباط و طالما أنّهم لا يقومون بنشاطات تكتّلية سرّية ، علينا دائما أن نسمح لهم بالتكلّم و حتّى إن كانوا يقولون أشياء خاطئة ، يتعيّن علينا ألاّ نعاقبهم . إذا تحدّث أناس بأشياء غالطة يمكن نقدهم ، لكن يتعيّن علينا أن نستعمل الحجّة و المنطق لإقناعهم ". (المصدر السابق ، صفحة 172)

و كلّ هذا يرتبط بمبدأ حاسم آخر شدّد عليه ماو : " كثيرا ما يثبت أنّ أفكار الأقلّية صحيحة ... فى البداية لا توجد الحقيقة بين أيدى غالبيّة الناس ، بل بين أيدى أقلّية " (المصدر السابق ، صفحة 173) . لكن ، من جديد ، فهم الحقيقة و كسب الناس إلى الحقيقة لن يخدمه (سيقوّضه) وجود التكتّلات داخل الحزب . و لهذا السبب كانت ممارسة الحزب الشيوعيّ الصينيّ ، فى ظلّ قيادة ماو ، تناضل من أجل وضع فيه جدال و صراع إيديولوجيّ حيويّين و قويّين عبر الحزب (و فى المجتمع ككلّ) ، و لكن ليس من أجل القبول بالتكتّلات المنظّمة داخل الحزب (على الأقلّ ليس بطريقة تامة و مؤسّساتية و " مستمرّة ") .

و الأمر الأساسيّ هو أنّ التكتّلات المنظّمة ستفضى إلى التكتّل (الذى سيفضى إلى وضع حيث يضع المنخرطون فى تلك التكتّلات خطّ و " وحدة " تكتّلهم فوق خطّ و " وحدة " الحزب . فى بعض الحالات الإستثنائيّة ، لما إستولت على قيادة الحزب عناصر إنتهازيّة تفرض خطاً معاديا للثورة ، لم يكن من الصحيح التخلّى عن الحزب ببساطة و فى الحال لمثل تلك القيادة و محاولة تشكيل حزب جديد . يمكن أن يكون بالتالي من الضروريّ تنظيم تكتّل **ثوريّ** لخوض صراع لإلحاق الهزيمة بالخطّ و القيادة الإنتهازيّين و إعادة تركيز الحزب على الأساس الثوريّ . غير أنّه بعد فترة من الزمن ، يجب على هذا النضال أن يُحل بصيغة أو بأخرى ، سواء بإنتصار الخطّ الثوريّ و إعادة تركيز الحزب على أساس ثوريّ او بإنتصار تام للقيادة و الخطّ الإنتهازيّين . و فى الحال الأخير ، سيكون إذن من الضروريّ القطع مع مثل ذلك الحزب و بناء حزب **جديد** على قاعدة مبادئ ثوريّة و خطّ ماركسيّ- لينينيّ – ماويّ ، إيديولوجيّا و سياسيّا و تنظيميّا .

25/ مع أنّ المسألة القوميّة فى الهند مسألة شائكة و تتطلّب دراسة دقيقة ، بمستطاعنا القول إنّ خطّ اللجنة يبتعد عن الفهم اللينينيّ الأساسيّ للمسألة القوميّة فى العصر الإمبريالي كجزء من الثورة البروليتاريّة العالميّة ، و التوجّه اللينينيّ فى الدفاع عن حقّ تقرير المصير للأمم المضطهَدة ، لكن فى نفس الوقت (بخاصة فى ما يتّصل بأمم داخل دولة واحدة) الكفاح من أجل خوض نضال ثوريّ موحّد و من أجل تركيز دولة ثوريّة موحّدة ، واحدة على أوسع منطقة ممكنة ، على أساس المساواة بين الأممّ(و ضمنها ، من جديد ، حقّ تقرير المصير). و يتجاوز خطّ اللجنة الدفاع عن حقّ تقرير المصير فى مثل هذه الظروف و يشجّع فعليّا على الإنفصال ، حتّى إلى حدّ التشديد على الحركات الثوريّة المنفصلة و الثورات الديمقراطيّة الجديدة المنفصلة ، لكل أمّة من الأمم المضطهَدة . لو وُضع مثل هذا الخطّ موضع الممارسة ، ستكون النتيجة أنّ البروليتاريا فى الدولة الهنديّة (التى يمكن و ينبغى أن يقع توحيدها من خلال الدور الطليعيّ لحزب واحد متعدّد القوميات وذلك ليضطلع بالدور القياديّ فى ثورة ديمقراطيّة جديدة شاملة) ستنقسم عوضا عن ذلك ، تبعا لخطوط قوميّة و فى الواقع، ستكون تابعة للقوى و البرامج الطبقيّة غير البروليتاريّة داخل كلّ أمة على حدة . هنا نرى ، مرّة أخرى ، مثل يوضح أنّ موقف اللجنة يتخلّى عن موقف (نظرة و مصالح) البروليتاريا و يتّخذ موقفا برجوازيّا صغيرا فى هذا الموضوع ، متذيّلا للقوى البرجوازيّة (و طبقات إستغلاليّة أخرى) داخل تلك الأمم المضطهَدة فى الدولة الهنديّة . ///

ملحق جدال

" الديمقراطية :
أكثر من أيّ زمن مضى بوسعنا و يجب علينا إنجاز أفضل من ذلك "

حول الديمقراطة البروليتارية

(اللجنة المركزية لإعادة تنظيم الحزب الشيوعي الهندي (الماركسيّ – اللينينيّ))

هذه وثيقة مسودّة نشرت فى ديسمبر 1990، كُتبت تحت إشراف ك . فينو ، الأمين العام للجنة القياديّة لعموم الهند ، اللجنة المركزيّة لإعادة تنظيم الحزب الشيوعيّ الهندى (الماركسي- اللينيني).

1 / المقدّمة :

1-1 / إنّ الموجة الحديثة من الإنتفاضات الديمقراطيّة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا مثل تلك التى حصلت بالصين و الإتّحاد السوفياتيّ و تلك التى حصلت فى أوروبا الشرقيّة ، قد طرحت عديد المسائل و التحدّيات أمام شيوعيّى العالم بأسره . فإنعكاسات تلك التطوّرات لا تقتصر على الحركة الشيوعيّة بل رجّت بعنف كلّ المجال السياسيّ على مستوى الكوكب . و ليس بإمكان الشيوعيّين و لا غير الشيوعيّين و لا المعادين للشيوعيين أن يقفوا بعيدا . و تمّ طرح المسائل من نواحي مختلفة و تمّ تقديم الأجوبة من زوايا مختلفة . و قد أدرك الشيوعيّون عمق هذه المشاكل و إكتشفوا الأجوبة المناسبة . و بمثل هذه المقاربة تهتدى هذه الدراسة .

2-1 / لقد رحّب الماركسيّون- اللينينيّون عموما و عبر العالم بالموجة الجديدة من التمرّدات و الإنتفاضات الديمقراطيّة ضد الأنظمة الفاشيّة للبلدان الإشتراكيّة سابقا . و قد قيّم الماركسيّون – اللنينيّون منذ زمن ، أنّ النظام الإجتماعيّ فى تلك البلدان الإشتراكيّة سابقا قد إنحطّ إلى الرأسماليّة . من هنا ، فُهمت هذه الإنتفاضات كتعبير عن الأزمة الحادة التى يواجهها هذا الشكل الخاص من الرأسماليّة . بينما رحّبت القوى الماركسيّة - اللينينيّة بنضالات الشعوب ، فإنّها قد حذّرتها [حذّرت الشعوب] أنّ الديمقراطيّة البرجوازيّة أو الرأسماليّة المفضوحة ليست هي الحلّ . و جرت مناشدتها أن تواصل النضال فى سبيل شيوعيّة حقيقيّة . و قد تمّ الترحيب بمحاولات ماو التى أدّت إلى الثورة الثقافية بإعتبارها نموذجا بديلا وجب التعويل عليه و تطويره.

3-1 / من زاوية الفهم الماركسي – اللينيني التقليديّ لإعادة تركيز الرأسماليّة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا ، فإنّ ذلك الفهم غير كافى . فقد حوّل أتباع الطريق الرأسماليّ فى الأحزاب الشيوعيّة الحاكمة لهذه البلدان ، حوّلوا الإقتصاد الإشتراكي الناشئ إلى إقتصاد رأسماليّ بتشجيع ، عوض تحديد ، الحقّ البرجوازي و بالتعويل على الحوافز الماديّة لرفع الإنتاج . و أدّت الرأسماليّة البيروقراطيّة الناجمة عن ذلك إلى الأزمة الحاليّة فى كلّ تلك البلدان . هذا التفسير صحيح بالأساس فى علاقة بالجانب الإقتصاديّ لإعادة تركيز الرأسماليّة . إلاّ أنه غير كافى للإجابة على المسألة السياسيّة الرئيسيّة التى تطرحها الجماهير فى تلك البلدان . فمطلبها الأهمّ هو تفكيك النظام السياسيّ القائم الذى يصون الإحتكار للحزب الشيوعيّ . و قد أشار الماركسيّون – اللينينيّون على نحو صحيح إلى أنّ تلك الأحزاب ليست شيوعيّة و أنّ النظام السياسيّ هناك يمثّل دكتاتوريّة البرجوازيّة الجديدة ، الإشتراكيّة الفاشيّة . غير أنّه فى ما يتعلّق بجماهير تلك البلدان ، لا وجود لإختلاف بين

الهياكل الأساسيّة لهذا النظام السياسيّ الإشتراكيّ الفاشيّ و تلك التى وُجدت قبلا حين كانت إشتراكيّة . حتّى فى الصين حيث أفرزت الثورة الثقافيّة وضعا سياسيّا جديدا ، فإنّ هيكلة الدولة فى ظلّ دنك لا تختلف جوهريّا عن الهيكلة التى وُجدت سابقا. و الفرق يكمن أساسا فى المحتوى ، فى من يقود الدولة ، الماركسيّين – اللينينيّين أم التحريفيّين . غير أنّ الشعب غير قادر على رؤية أيّ إختلاف نوعيّ فى هياكل النظام السياسيّ و لو أنّه يستطيع أن يُقرّ بالتغييرات فى الظروف الحياتيّة . لهذا مجرّد نداء لإعادة تركيز الإشتراكيّة و دكتاتوريّة بروليتاريّة حقيقيّة لن يكون كافيا .

4-1 / ينسب التحريفيّون فى ظّل قيادة غرباتشاف مسؤوليّة الأزمة العامة لرأسماليّتهم البيروقراطيّة إلى الإنحرافات التى قام بها ستالين . مستعملين غطاء أخطاء ستالين ، يبرّرون التغيّرات الجوهريّة التى أدخلها غورباشاف بغير تحفّظ و يحاول حاليّا أن يحلّ الأزمة الداخليّة التى تواجهها الرأسماليّة البيروقراطيّة بإدخال الطرق الرأسماليّة الغربيّة بصفة تامة و بوضوح ، على كلّ من المستوى الإقتصاديّ و السياسيّ . و هذا يجعل أكثر حدّة التناقض فى صفوف الحزب الحاكم و النظام السياسيّ للإتّحاد السوفياتيّ و بين البرجوازيّة القديمة المتمترسة جيّدا داخل النظام و البرجوازيّة الجديدة فى ظلذ قيادة غرباتشاف الذى يريد أن يفكّك النظام البيروقراطيّ المتفسّخ . إلى الآن ، كان غرباتشاف قادرا على المناورة بذكاء و على الإبقاء على قيادته للسيرورة ، رغم أنّ الصراعات القوميّة الصاعدة فى مختلف الأمم تتّجه نحو تحطيم النظام الإمبرياليّ الممركز الذى هو على رأسه.

5-1 / إنّ إعادة الهيكلة الداخليّة التى شرعت فيها بريسترويكا غرباتشاف إمتدّت لتشمل المجال العالميّ مؤدّية إلى تصادم بين الكتلتين الإمبرياليّتين بقيادة الولايات المتّحدة و الإتّحاد السوفياتيّ . و تترافق مع هذا سيرورة من إعادة إصطفاف القوى الإقتصاديّة و السياسيّة على المستوى العالميّ . و مع إدراكه لضعف النظام البيروقراطيّ داخل البلاد ، يدرك غرباتشاف كذلك ضعف نظام الإمبرياليّة الإشتراكيّة الإستعماريّ الجديد الذى يجري الحفاظ عليه جوهريّا عبر مناورات على مستوى دولة لدولة شانه شأن مبادرة غرباتشاف للتواطئ ، متصوّرا سيرورة من الإستيعاب التدريجيّ للإمبرياليّة الإشتراكيّة السوفياتيّة ضمن هذه الهيكلة الإستعماريّة الجديدة . و بالنسبة للوقت الراهن ، سيستمرّ النزاع حول التحكّم فى موارد العالم ، على مستوى أدنى .

6-1 / إلى الآن ، لم ينته الصراع بين البرجوازيّة البيروقراطيّة و البرجوازيّة الجديدة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا ، رغم أنّ البرجوازيّة الجديدة قد كسبت إنتصارات حاسمة فى بلدان شرق أوروبا. و مع أنّ غرباتشاف ، ممثّل البرجوازيّة الجديدة فى الإتّحاد السوفياتيّ ، فى القيادة ، فإنّ البرجوازيّة البيروقراطيّة القويّة داخل الحزب و الجيش لم تقبل بعدُ بهزيمتها . و إمكانية أن يقوموا بإنقلاب لا يكمن إستبعادها . إلاّ أن ذلك لا يمكن أن يصدّ التقلّب الحاليّ للتجنيح التام و الواضح لإعادة تركيز الرأسماليّة الذى قد بلغ الآن المرحلة النهائية فى تلك البلدان . فى الصين ، قد نجحت البرجوازيّة البيروقراطيّة فى الإستمرار فى السلطة إثر القمع العنيف لتمرّد الشعب ضد النظام الإشتراكيّ الفاشيّ و إثر إلحاق الهزيمة بالبرجوازيّة الجديدة داخل الحزب و الجيش ، على الأقلّ مؤقّتا . لكن الإشتراكيّين الفاشيّين فى الصين لن يقدروا على الإستمرار لمدّة طويلة نظرا إلى أن تمرّد الشعب فى تصاعد . و يمكن لهذا حتّى أن يتّخذ أبعادا جديدة بسبب التأثير القويّ للثورة الثقافيّة التى قادها ماو ، و الذى قد عُبّر عنه فى الإنتفاضة الشعبيّة الأخيرة هناك . إنّ البرجوزيّات البيروقراطيّة فى ألبانيا و فتنام و كوريا الشماليّة و كوبا كذلك تلازم بنادقها رغم أنّ الإضطراب الاجتماعيّ يتطوّر هناك أيضا . و الإطاحة بالإشتراكيّين الفاشيّين فى تلك البلدان غير مستبعدة هي الأخرى .

7-1 / ما تسمّى بالأحزاب الشيوعيّة التى قد أُطيح بها فى البلدان الإشتراكيّة سابقا تتفسّخ و بعضها حتّى يختفى ، و القوى و القطاعات الباقية تستقطب حول الخطوط المشار إليها أعلاه ، خطوط مساندة إمّا للبرجوازيّة البيروقراطيّة و إمّا للبرجوازية الجديدة . و الإستقطاب نفسه يتّسع ليشمل الأحزاب التحريفيّة للبلدان الأخرى أيضا . ففى الهند ، يساند الحزب الشيوعي الهندي رسميّا خطّ غورباتشاف البرجوازيّ الجديد و لو أنّ بعض العناصر الأخرى موجودة كذلك كقوّة صغيرة. و من جهة أخرى ، عارض الحزب الشيوعيّ الهندى (الماركسيّ) رسميّا المواقف الأخيرة لغورباتشاف ، بينما يعاضد عموما القطاعات البرجوازيّة البيروقراطيّة فى الحزب السوفياتيّ و كذلك فى الحزب الصينيّ . إلاّ أنّه نُقل أنّ فى الحزب الشيوعيّ الهندي (الماركسيّ) ثمّة أيضا عناصر نشيطة تساند خطّ غرباتشاف . و يحدث كذلك إستقطاب فى بعض القوى الماركسيّة - اللينينيّة المتفسّخة عالميّا ، كما بالهند ، حول تلك الخطوط.

8-1 / لقد إستعملت القوى البرجوازيّة و المعادية للشيوعيّة عبر العالم هذه التطوّرات لتذيع أنّ الشيوعيّة قد ماتت . حتّى و إن كانت القوى الماركسيّة ـ اللينينيّة تبثّ أنّ ما كان موجودا فى كلّ تلك البلدان الإشتراكيّة سابقا لم يكن إشتراكيّة بل إشتراكية فاشيّة ، فالواقع أنّ الشعب لم يكن مقتنعا تماما أو لم يكن قابلا لهذه النظرة فى حدّ ذاتها . لذا قد كانت البرجوازيّة ناجحة فى تصوير الإطاحة بالإشتراكيّة الفاشيّة أو بأزمتها كهزيمة للإشتراكيّة و الشيوعيّة . طبعا ، تدرك البرجوازيّة أنّ الأزمة التى تواجهها دولة الرأسماليّة الإحتكاريّة و الإشتراكيّة الفاشيّة ستبتلعها هي أيضا . لكنّهم قد إستطاعوا أن يحجبوا ذلك بسبب التراجع الذى مُنيت به الحركة الشيوعيّة . فى ظلّ هذه الظروف ، حتّى ضمن الناس الذين يتموقعون إلى جانب الإشتراكيّة عموما ، أخذت بعدُ شكوك و خشية حول قابليّة الإشتراكيّة للتطبيق تشقّ طريقها إلى أفكارهم .

9-1 / فى هذا الوضع ، من مهام الشيوعيّين الحقيقيّين النظر إلى الوراء و تحديد الجذور المتسبّبة فى هذا المشكل الذى تواجهه الحركة الشيوعيّة . دون الإجابة على المسائل الجوهريّة التى ظهرت أمامنا ، ليس بإمكان أيّ تنظيم شيوعيّ أن يتقدّم فى ممارسته الخاصة . لئن بقيت مثل هذه المسائل الجوهريّة دون إجابات لزمن طويل ، فإنّها ستُحبط الكوادر و تضعف التنظيم . بناء عليه ، ينبغى لحلّ هذه المشاكل أو على الأقلّ محاولات حلّها أن يُتّخذ كمهمّة سياسيّة ملحّة . بهذه الروح ، نناشد كلّ الشيوعيّين الحقيقيّين أن يعيدوا تفحّص تاريخ الحركة الشيوعيّة بأسره و المفاهيم الأساسيّة التى رفعنا عاليا إلى الآن كي تكون لنا صورة واضحة عن دكتاتوريّة البروليتاريا مثلما جرى تطبيقها إلى يومنا هذا .

2/ دكتاتوريّة البروليتاريا :

1-2 / مفهوم دكتاتوريّة البروليتاريا محوريّ فى المخطط الماركسيّ للثورة البروليتارية و البناء الإشتراكيّ و التقدّم نحو الشيوعيّة . منذ أن تقدّم ماركس و إنجلز بهذا المفهوم بطريقة واضحة المعالم ، إرتبط التطوّر العام للحركة الشيوعيّة بصفة متلازمة مع الممارسة المعتمدة لهذا المفهوم . لذا علينا أن نتفحّص ظهور و تطوّر هذا المفهوم و تطبيقه أثناء مراحله المختلفة .

2-2 / لنبدأ من الموقف الواضح المعالم الذى صاغه ماركس بصدد هذا الموضوع : " و فيما يخصذنى ليس لى فضل إكتشاف وجود الطبقات فى المجتمع المعاصر و لا فضل إكتشاف النضال فيما بينها . فقد سبقنى بوقت طويل مؤرّخون برجوازيّون بسطوا التطوّر التاريخيّ لهذا النضال بين الطبقات و إقتصاديّون برجوازيّون بسطوا تركيب الطبقات الإقتصاديّ و إنّ الجديد الذى أعطيته يتلخّص فى إقامة البرهان على ما يأتى :

1- إنّ وجود الطبقات لا يقترن إلاّ بمراحل تاريخيّة معيّنة من تطوّر الإنتاج ،
2- إنّ النضال الطبقيّ يفضى بالضرورة إلى دكتاتوريّة البروليتاريا ،
3- إن هذه الدكتاتوريّة لا تعنى غير الإنتقال إلى القضاء على كلّ الطبقات و إلى المجتمع الخالي من الطبقات " .

(ماركس و إنجلز ، " **بصدد الثّورة الإشتراكية** " صفحة 114 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

3-2 / إلى جانب هذا التوضيح ، قد لخّص ماركس تجربة الثورات الأوروبية (سنوات 1848-1851) مستخلصا هذا الإستنتاج : " إنّ جميع الإنقلابات أكملت هذه الآلة بدلا من أن تحطّمها " (ضمن " **18 برومير لويس بونابارت** ، ماركس و إنجلز ، " **مختارات** " ، المجلّد 1 ، صفحة 253، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة) و هكذا أوضح أنّ على الثورة البروليتاريّة أن تهشّم آلة الدولة القائمة . و إثر أكثر التجارب أهمّية ، كمونة باريس ، فى مقدّمة " **بيان الحزب الشيوعي** " المؤرّخة فى 24 جوان 1872 ، أقرّ ماركس و إنجلز بأنّ برنامج " **بيان الحزب الشيوعي** " قد شاخ فى بعض نقاطه حيث " قد برهنت اكومونة بصورة خاصة أنّ " الطبقة العاملة لا يمكنها أن تكتفي بالإستيلاء على جهاز الدولة القائم و إستخدامه فى غاياتها الخاصة ".

(ماركس و إنجلز ، "**مختارات** " المجلد 1 ، الصفحة 40) .

3- ماركس و كمونة باريس :

3-1 / قدّمت كمونة باريس إجابة على المسألة الأهمّ : بماذا ستُعوّض آلة الدولة المهشّمة ؟ فى المسودّة الأولى ل " **الحرب الأهلية فى فرنسا** " ، عبّر ماركس بشكل جميل عن فهمه للكمونة :" إنّها إبتلاع معاكس لسلطة الدولة من قبل المجتمع ، حين تحل محلّ القوى التى تخضع المجتمع و تستعبده قواه الحيّة بالذات ، إنّها إنتقال السلطة إلى الجماهير الشعبيّة بالذات التى تنشئ قوّتها بالذات عوضا عن قوّة إضطهادها المنظّمة ، إنّها الشكل السياسيّ لتحرّرها الإجتماعيّ ، الشكل الذى يحلّ محلّ قّوة المجتمع الإصطناعيّة (التى يستحوذ عليها مضطهدوها) (قوّتها بالذات المعارضة لهم و المنظّمة ضدهم أيضا) التى يستعملها أعداؤها لأجل إضطهادها . هذا الشكل كان بسيطا ، مثل كلّ عظيم ".

(ماركس و إنجلز ، " **بصدد الثورة الإشتراكية** " ، صفحة 204 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية) .

3-2 / فى النسخة النهائية من " **الحرب الأهليّة فى فرنسا** " ، لاحظ أنّ عملها كان على هذا النحو :

" كان لكمونة باريس أن تغدو ، بلا شكّ، نموذجا لجميع المراكز الصناعيّة الكبرى فى فرنسا . و لو إستقرّ نظام الكمونة فى باريس و المراكز ، لتنازلت الحكومة المتمركزة القديمة عن مكانها لإدارة المنتجين الذاتيّة فى الأقاليم أيضا . و قد جاء بوضوح فى موجز التنظيم القوميّ الذى لم يتوفّر للكمونة الوقت لوضعه بتفصيل أكبر ، أنّ الكمونة يجب أن تصير الشكل السياسيّ حتىّ لأصغر قرية ، أنّ الجيش الدائم يجب الإستعاضة عنه فى الدوائر الريفيّة أيضا بميليشيا شعبيّة تكون هذه الخدمة فيها قصيرة للغاية ... و الوظائف و لكن المهمّة جدّا ، التى كانت ستظلّ فى يد الحكومة المركزيّة لم تكن لتلغى - و مثل هذا الزعم كان تزويرا عن عمد – بل كان يجب نقلها إلى موظّفى الكمونة ، أي إلى موظّفين ذوى مسؤوليّة محدّدة تحديدا دقيقا . و وحدة الأمّة لم تكن لتفصم بل بالعكس كانت ستنظّم عن طريق البناء الكمونيّ . و كان لوحدة الأمّة أن تصبح حقيقة بتدمير سلطة الدولة التى كانت تدّعى بأنّها تجسيدا لتلك الوحدة ، و لكنّها كانت ترغب فى أن تكون مستقلّة عن الأمّة ، مستعيلة عليها . أمّا فى الواقع فلم تكن سلطة الدولة هذه إلاّ بمثابة الزائدة الطفيليّة على جسم الأمّة ... كانت الكمونة ، بلا شك ، فى جوهرها ذاته ، مناوئة للإستعاضة عن الحقّ الإنتخابيّ العام بالتعيين المراتبيّ " .

(ماركس ، " **الحرب الأهليّة فى فرنسا** " ، صفحة 60 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة).

3-3 / كيف وُلدت مثل هذه المؤسّسة الجديدة ؟ يشرح ماركس :

" كان أوّل مرسوم أصدرته الكمونة يقضى بإلغاء الجيش الدائم و الإستعاضة عنه بالشعب المسلّح . لقد تشكّلت الكمونة من أعضاء المجالس البلديّة الذين إختيروا بالإقتراع الشامل فى مختلف دوائر باريس . كانوا مسؤولين و كان يمكن إلغاء التفويض الممنوح لهم فى أيّ وقت كان . و كانت أكثريّتهم ، بطبيعة الحال ، من العمّال أو من ممثّلى الطبقة العاملة المعترف بهم . و كان يراد بالكمونة أن تكون لا هيئة برلمانيّة بل هيئة عاملة تتمتّع بالسلطتين التشريعيّة و التنفيذيّة فى الوقت عينه . و الشرطة التى كانت قبل ذلك الحين أداة فى يد الحكومة المركزيّة جرّدت فى الحال من جميع وظائفها السياسيّة و حوّلت إلى هيئة للكمونة مسؤولة يمكن تبديلها فى أيّ وقت كان ."

(نفس المصدر السابق ، صفحة 59)

3-4 / من كلّ هذه الإجراءات ، أوّل قرار " **إلغاء الجيش القائم و تعويضه بالشعب المسلّح " هو العمل الحاسم المفرّق بين الكمونة و كلّ الدول القديمة .** و أعلن لينين :" **هنا** يكمن جوهر الكمونة " (" البروليتاريا فى ثورتنا – نموذج الدولة الجديد " ، لينين " **حول كمونة باريس** " ، دار التقدّم ، صفحة 43، الطبعة العربية) . فى المسودّة الأولى ل " **الحرب الأهلية فى فرنسا** " ، كتب ماركس : " كان حسب الشعب أن ينظّم هذه المليشيا على الصعيد الوطني حتّى يضع حدّا للجيوش النظاميّة . و هذا هو الشرط الإقتصاديّ الأوّل لأجل جميع التحسينات الذى يقضى فورا ... هذا الخطر الدائم لإغتصاب السيادة الطبقيّة من قبل الحكومة ...و لكن هذا هو الضمانة الأكيدة دُون الهجوم الأجنبيّ ، الضمانة التى تجعل الجهاز العسكريّ الغالى التكاليف فى جميع الدول الأخرى أمرا مستحيلا بالفعل ".

(ماركس و إنجلز ، " **بصدد الثورة الإشتراكية** " ، صفحة 204 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة)

بصيغة أخرى ، إعتبر ماركس تعويض الجيش القائم بالشعب المسلّح إجراءا كان سيساعد الشعب على الإبقاء على مراقبة خطر كلّ من الإغتصاب الداخليّ و التدخل الخارجيّ . و هكذا ، لم يعبئ الشكل الكمونيّ للنظام السياسيّ ولم ينظّم الإرادة السياسيّة للجماهير الكادحة فحسب بل ضمن تعزيزها عبر قوّة مسلّحة مثّلت حقيقة هذه الإرادة (أي الشعب المسلّح) . و إعتبر ماركس أنّ " ... الكمونة تخلق وضعا عقلانيّا يمكن فيه للنضال الطبقيّ أن يمرّ عبر مختلف أطواره بأكثرعقلانيّة و إنسانيّة " .

(نفس المصدر السابق ، صفحة 207 ، خط التشديد مضاف)

3-5 / عمّرت كمونة باريس لبضعة أشهر فحسب . ملخّصا أسباب فشلها ، أشار ماركس إلى خطئين . أوّلا ، لم يمر الكمونيّون إلى الهجوم على البرجوازيّة المتراجعة. ثانيا ، سلّمت اللجنة المركزيّة سلطتها **مبكّرا جدّا** لتفسح المجال للكمونة. بعد ذلك ، أعاد إنجلز النقطة : " .. لقد كانت إرادة المركزيّة و السلطة هي التى كلّفت كمونة باريس حياتها . **حالما تكسب** يمكنك أن تفعل بهذه السلطة ما تريد ...لكن القتال يحتاج أن تكون كلّ قوّتنا متّحدة فى قبضة ... "(رسالة إلى كارلو تراقى ، " **حول كمونة باريس** " صفحة 292 ، الطبعة الإنجليزيّة ، التسطير مضاف) . هكذا ، فى نظرهما ، لا تعزى هزيمة الكمونة إلى هيكلتها الفريدة من نوعها (غياب جيش قائم ، مراكز منتخبة إلخ) . فى الحقيقة ، يمكننا أن نرى أنّهما قد دافعا دائما عن الكمونة كنموذج لدكتاتوريّة البروليتاريا . فقد حدّدا بدقّة سبب الهزيمة فى إعطاء اللجنة المركزيّة سلطتها **مبكّرا جدّا** (قبل الإنتصار) أي غياب سلطة ممركزة ضرورة لصيانة الكمونة . مع ذلك ، لم ينجز أبدا لا ماركس و لا إنجلز إعادة تفحّص مفصّلة لدروس الكمونة على ضوء الهزيمة و أبقيا على عديد المسائل دون أجوبة .

4/ لينين و سلطة الدولة البروليتارية :

1-4 / إثر كمونة باريس ، قدّمت ثورة أكتوبر فى روسيا الفرصة التاريخيّة الموالية لتجسيد مفهوم دكتاتوريّة البروليتاريا. و لا تزال التجارب النظريّة و العمليّة التى حقّقها الحزب البلشفيّ بهذا الشأن ، فى ظلّ قيادة لينين ، تمثّل مواقفا أساسيّة للحركة الشيوعيّة العالميّة حول هذه المسألة . لذلك لنتفحّص مفهوم لينين و كذلك تجارب الحزب البلشفيّ فى علاقة بتحقيق دكتاتورية البروليتاريا .

2-4 / ظهرت ، بعد ثورة أكتوبر فى روسيا ، نقاشات جدّية فى صفوف الشيوعيّين حول مسألة الدولة و الثورة . و شرع لينين فى معالجتها و سعى للإجابة على المسائل المختلفة التى برزت من زوايا مختلفة و صاغ الموقف الماركسيّ إزاء الموضوع . فكان كتاب لينين " **الدولة و الثورة** " الذى نُشر للمرّة الأولى فى أوت 1917 ، ثمرة تلك المحاولات .

3-4 / ركّز لينين كلّ تحليله على الفهم التالي للموقف الماركسيّ بصدد الدولة : " لم يتفهّم فحوى تعاليم ماركس بشأن الدولة إلاّ أولئك الذين أدركوا أنّ دكتاتوريّة الطبقة **الواحدة** ضروريّة ليس فقط لكلّ مجتمع طبقيّ بوجه عام ، ليس فقط **للبروليتاريا** التى أسقطت البرجوازيّة بل أيضا **لمرحلة تاريخيّة** كامة تفصل الرأسماليّة عن " المجتمع اللاطبقيّ " ، عن الشيوعيّة . إنّ أشكال الدول البرجوازيّة فى منتهى التنوّع ، و لكن كنهها واحد : فجميع هذه الدول هي بهذا الشكل أو ذاك و فى نهاية الأمر **دكتاتوريّة البرجوازيّة** على التأكيد . و يقينا أنّ الإنتقال من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة لا بدّ أن يعطي وفرة و تنوّعا هائلين من الأشكال السياسيّة ، و لكن فحواها ستكون لا محالة واحدة : **دكتاتوريّة البروليتاريا** ".

(لينين ،" **الدولة و الثورة** " ، صفحة 37 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة)

4-4 / فى بحر هذه الفترة المفضية إلى ثورة أكتوبر ، كان لينين يركّز حججه بالأساس على دروس كمونة باريس مثلما قيّمها ماركس و إنجلز . قد قيّم لينين الميزة الأساسيّة لكمونة باريس على هذا النحو : " يبدو أنّ الكمونة لم تستعض عن آلة الدولة المحطمة " إلاّ " بديمقراطيّة أتمّ . القضاء على الجيش النظاميّ ، مبدأ إنتخاب و سحب جميع الموظّفين . لكن هذه ال " إلّا " تعنى فى حقيقة الأمر تبديلا هائلا لنوع من مؤسّسات بنوع آخر يختلف إختلافا مبدئيّا . نحن هنا فى الحقيقة أمام حالة

من حالات " تحوّل الكمّية إلى كيفيّة " : فالديمقراطية المطبّقة بأتمّ و أوفى شكل يمكن تصوّره عموما تتحوّل من ديمقراطيّة برجوازيّة إلى ديمقراطيّة بروليتاريّة ، من (قوّة خاصة لقمع طبقة معيّنة) إلى شيء ليس الدولة بمفهومها " .

(نفس المصدر السابق ، صفحة 44)

لقد أشار لينين إلى أنّ الكمونة بينما حافظت على المؤسّسات التمثيليّة ، أمكن لها أن تتجاوز برلمانيّة الديمقراطيّة البرجوازيّة بإلغاء تقسيم العمل بين السلط التشريعيّة و التنفيذيّة

(نفس المصدر السابق ، صفحة 50)

5-4 / لقد حدّد لينين طبيعة الديمقراطيّة خلال الفترة الإنتقاليّة هكذا : " ديمقراطيّة من أجل الأكثريّة الكبرى من الشعب و قمع بالقوّة ، أي إستثناء المستثمِرين ، ظالِمي الشعب من الديمقراطيّة – هذا هو التغيّر الذى يطرأ على الديمقراطيّة أثناء **الإنتقال** من الرأسماليّة إلى الشيوعيّة ".

(نفس المصدر السابق ، صفحة 95)

و فضلا عن ذلك ، شرح أنّ العلاقة بين الديمقراطيّة و الدولة : " الديمقراطيّة هي شكل للدولة ، نوع من أنواعها . و لذا فهي ، ككلّ دولة ، إستعمال العنف حيال الناس بصورة منظّمة و دائمة . هذا من جهة ، و لكنّها من الجهة الأخرى ، تعنى الإعتراف الشكليّ بالمساواة بين المواطنين ، الإعتراف للجميع بحقّ متساو فى تحديد شكل بناء الدولة و فى إدارتها . و هذا بدوره يرتبط بكون الديمقراطيّة عند درجة معيّنة من تطوّرها ، أوّلا ، ترصّ ضد الرأسماليّة الطبقة الثوريّة ، البروليتاريا، و تمكّنها من أن تحطّم و تمحو عن وجه الأرض آلة الدولة البرجوازيّة – حتّى و لو كانت برجوازيّة جمهوريّة – و الجيش النظاميّ و الشرطة و الدواوينيّة و تستعيض عن كلّ هذا بآلة دولة **أكثر** ديمقراطيّة ، تظلّ مع ذلك آلة دولة بشخص جماهير العمّال المسلّحين ثم بإشتراك الشعب كلّه فى المليشيا . هنا " يتحوّل الكمّ إلى كيف " : **فمثل** هذه الدرجة من تطوّر الديمقراطيّة مرتبطة بالخروج من إطار المجتمع البرجوازيّ و بدء إعادة بنائه على أسس إشتراكيّة ".

(لينين ، " **الدولة و الثورة** " ، صفحة 106، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة) .

6-4 / و قد شدّد لينين متّبعا خطى إنجلز ، على نقطة أنّ " إلغاء الدولة هو إلغاء الدّيمقراطيّة : أيضا إنّ إضمحلال الدولة هو إضمحلال الديمقراطيّة ". (نفس المصدر السابق ، صفحة 87) و ربط لينين إضمحلال الديمقراطيّة بتقدّمها . قال : " الشيوعيّة وحدها هي التى تستطيع أن تعطي الديمقراطيّة كاملة حقاً ، و بمقدار ما تتكامل بمقدار ما تزول الحاجة إليها فتضمحلّ من نفسها ". (نفس المصدر السابق ، صفحة 96)

7-4 / عندما تنعدم الطبقات (أي عندما ينعدم التباين بين أعضاء المجتمع من حيث علاقتهم بوسائل الإنتاج الإجتماعيّة) ، عندئذ **فقط** " تزول الدولة ... الناس **سيعتادون** شيئا فشيئا مراعاة القواعد الأوّلية للحياة فى المجتمع ، القواعد المعروفة منذ قرون و التى كُرّرت ألوف السنين فى جميع الكتب ، سيعتادون مراعاتها دونما عنف ، دونما قسر ، دونما خضوع ، **بدون الجهاز المعدّ خصيصا** للقسر و المسمّى بالدولة ". (المصدر السابق ، صفحة 95) هكذا كان لينين يتصوّر إضمحلال الدولة و ظهور تنظيم إجتماعيّ جديد فى ظلّ الشيوعية .

8-4 / مثلما كان الشأن بالنسبة للكمونة ، دلالة الشكل السوفياتيّ للتنظيم السياسيّ رأيناها فى واقع أنّها سمحت للبروليتاريا و الجماهير الكادحة ب " أن تمسك اجهزة سلطة الدولة مباشرة بأيديها ، لأجل **أن تشكّل هي ذاتها** أجهزة الدولة هذه " .

(لينين ، **الأعمال الكاملة** ، مجلد 23 ، صفحة 326 ، الطبعة الأنجليزية)

قال لينين : " **يحتاج الشعب إلى جمهوريّة لأجل تربية الجماهير** على مناهج الديمقراطيّة . لا نحتاج إلى **التمثيليّة وفق الأشكال الديمقراطيّة فحسب بل إلى أن تشيّد الجماهير ذاتها كلّ إدارة الدولة من الأسفل إلى الأعلى** و تساهم بفعاليّة فى كلّ

من مجالات الحياة و دورها النشيط فى التسيير ". (الأعمال الكاملة ، المجلد 24 ، صفحة 181، التسطير مضاف) و متّبعا خطى ماركس ، أكّد لينين تكرارا مغزى إلغاء الجيش القائم و تعويضه بالشعب المسلّح كوسيلة لإجتذاب الجماهير إلى تسيير المجتمع و لكبح خطر إعادة تركيز الرأسماليّة .

5 / السوفياتات و ممارسة دكتاتورية البروليتاريا :

1-5 / تقدّم لينين بالبرنامج العمليّ العام لإفتكاك الطبقة العاملة للسلطة فى مقولات أفريل الشهيرة ، مع الشعار المدوّى " كلّ السلطة للسوفيات " . و قد حدّد أنّ الدولة الجديدة لن تكون جمهوريّة برلمانيّة " بل جمهوريّة سوفيات العمّال و الفلاّحين و ممثّلى الفلاحين عبر البلاد ، من أعلاها إلى أسفلها ". (الأعمال الكاملة ، المجلد 24 ، صفحة 23 ، الطبعة الإنجليزية) . و حاول لينين أن يدخل المظاهر الكبرى لسلطة الدولة البروليتاريّة التى ظهرت فى ظلّ كمونة باريس ، بإستثناء مبدأ الإقتراع العام . رغم أنّ حلّ الجيش القائم جرى قبوله مبدئيّا ، لم يكن كذلك قابلا للتطبيق.

2-5 / هذا البرنامج العام لإفتكاك السلطة أنجزه مندوبو المؤتمر الثاني لسوفيات عمّال و جنود عموم روسيا ، المنعقد فى 25-26 أكتوبر 1917: هذا المؤتمر أمسك السلطة بين يديه و أصدر قرار أنّ" كلّ السلطة فى الجهات يتعيّن أن تصبح بأيدى مندوبى سوفيات العمّال و الفلاّحين و الجنود الشيء الذى ينبغى أن يضمن النظام الثوريّ الحقيقيّ (الأعمال الكاملة ، المجلد 26 ، صفحة 247) و نقلت ملكيّة الأرض من الملاّكين العقاريّين إلى لجان الفلاّحين و تمّت صيانة حقوق الجنود بإدخال الديمقراطيّة التامة فى الجيش و تركيز تحكّم العمّال فى الإنتاج و ضمان الدعوة إلى إنعقاد المجلس التأسيسيّ فى الوقت المحدّد إلخ تمّ إقراره أيضا.

3-5 / كان النظام السياسيّ الذى كان يتطوّر بهذه الطريقة قائما على السوفيات كأجهزة سلطة سياسيّة . وقع تبنّى نظام التمثيليّة النسبيّة إلى جانب حقّ الإقالة . و برزت أزمة هامة فى النظام فى علاقة بالدعوة إلى إنعقاد المجلس التأسيسيّ الموعودة . كان هذا مطلبا و وعدا رفعه الشيوعيّون قبل الثورة و بعدها . و المجلس التأسيسيّ الذى إنتُخب بالضبط بعد الثورة ما زال يمثّل الوضع الماقبل ثوريّ . لذا لم يكن مستعدّا لقبول السلطة الجديدة للسوفيات و لجنتها التنفيذيّة المركزيّة .

4-5 / فى ظلّ هذه الظروف ، قرّر البلاشفة سحب مندوبيهم من المجلس التأسيسيّ . كان ذلك مبرّرا بمعنى أنّ سلطة السوفيات التى إنبثقت عن الثورة كانت تمثّل حقيقة الإرادة السياسيّة للغالبيّة العظمى من الشعب . و كان على هذا التغيير النوعيّ أن ينعكس فى المجلس التأسيسيّ . و فى النهاية ، حلّت اللجنة التنفيذيّة المركزيّة لسوفيات عموم روسيا المجلس التأسيسيّ من خلال مرسوم قانونيّ . مع هذا كان التغيّر فى النظام السياسيّ الجديد يصل إلى نقطة هامة . و فى الوقت ذاته ، كان يواجه تحدّيات جديدة .

5-5 / فى بيان سياسيّ عظيم ، بعد بضعة أشهر من الثورة ، حدّد لينين أنّ " **الطابع الإشتراكي للسوفيات** أي الديمقراطيّة **البروليتاريّة** ، مثلما تطبّق اليوم ، يكمن فى أنّ كلّ الشكليّات و التحديدات الإنتخابيّة البيروقراطيّة تمّ إلغاؤها – الشعب ذاته يحدّد نظام و زمن الإنتخابات وهو حرّ تماما فى إقالة أيّ إنسان يجرى إنتخابه ..." (الأعمال الكاملة ، المجلد 27 ، صفحة 272) .

6-5 / لقد حدّد المظهر الأخر للنظام الجديد " الدكتاتورية مع ذلك ، كلمة كبيرة و الكلمات الكبيرة يتعيّن ألاّ تبدّد دون إنتباه . الدكتاتوريّة هي حكم بالحديد ، حكومة ثوريّة جسورة ، خفيفة الحركة و قاسية فى القضاء على كلّ من المستغِلين و السفّاحين " (الأعمال الكاملة ، مجلد 27 ، صفحة 265) . و رداّ على إتّهام كاوتسكى بأنّ النظام السوفياتيّ دكتاتوريّ و غير ديمقراطيّ ، أكّد لينين : " دكتاتوريّة البروليتاريا الثوريّة هي حكم تمّ كسبه و الحفاظ عليه بإستعمال البروليتاريا للقوّة ضد البرجوازيّة ، حكم لا تحدّده أيّة قوانين " . (الأعمال الكاملة / المجلد 28، صفحة 236) أيضا دحض لينين حجّة كاوتسكى بأنّ الطبقات يمكنها أن تسيطر ، لا أن تحكم ، بالإشارة إلى أمثلة من التاريخ حيث الطبقات لم تسيطر فحسب بل حكمت كذلك . هنا كانت حجّة لينين معتمدة نفي الواقع ، على إفتراض أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا نظام تحكم فيه الطبقة العاملة نفسها.

5-7/ إلاّ أنّ ما كان يتطوّر كنظام سياسيّ جديد كان ينزلق تدريجيّا تحت تحكّم الحزب الشيوعيّ . و فسّر لينين الوضع على هذا النحو: " هناك أمر واقع مفاده أنّ الحزب يستوعب ، إذا جاز القول طليعة البروليتاريا ، و هذه الطليعة تطبّق دكتاتوريّة البروليتاريا . و بدون أساس كالنقابات ، يستحيل تطبيق الدكتاتوريّة ، يستحيل أداء وظائف الدولة . فإنّ أداء هذه الوظائف يجرى بواسطة جملة من مؤسّسات خاصة هي كذلك من طراز جديد ما ، أي على وجه الضبط بواسطة الجهاز السوفياتيّ ... نظام معقّد من بضع عجلات مسنّنة ... يستحيل تحقيق الدكتاتوريّة بدون بضعة " أجهزة لنقل الحركة " من الطليعة إلى جمهور الطبقة الطليعيّة ، و منها إلى جمهور الشغّيلة " . (لينين ، " **عن النقابات** " ، صفحة 405-406- 407، دار التقدّم، موسكو ، الطبعة العربية)

5-8/ علاوة على ذلك ، أعلن لينين بصرامة أنّ دور الحزب الشيوعيّ بإختصار : " إثر سنتين و نصف السنة من السلطة السوفياتيّة ، برزنا بالأمميّة الشيوعيّة و قلنا للعالم إنّ دكتاتوريّة البروليتاريا لن تعمل سوى من خلال الحزب الشيوعيّ ." (الأعمال الكاملة ، مجلد 32 ، صفحة 208، الطبعة الفرنسية) . الآن إكتملت الدائرة . إنتهى البرنامج العمليّ لتركيز دكتاتورية البروليتاريا الذى إبتدأ بشعار جذاب " كلّ السلطة للسوفيات " ، إنتهى إلى واقع أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا تمارس من خلال الحزب الشيوعيّ حيث صارت السوفياتات مجرّد دواليب فى الآلة . و حتّى إن كان نقد كاوتسكى نابع من زاوية نظر البرلمانيّة البرجوازيّة ، فى الواقع ، تبقى المسألة أنّ في الوضع العالميّ وقتذاك لم يظهر نظام سياسيّ جديد نوعيّا تُصوّر فى دكتاتوريّة بروليتاريا حقيقيّة ، لم يظهر كواقع تاريخيّ إذ ليست الطبقة و إنّما حزبها هو الذى يحكم فعلا .

5-9 / ليس الموقف الذى إتّخذه لينين فى علاقة بالحزب و بدكتاتوريّة البروليتاريا مختلفا كثيرا عن الموقف الذى تبنّاه ستالين و كرّسه . حاجج ستالين بأنّ دكتاتوريّة البروليتاريا هي " فى الأساس" دكتاتوريّة الحزب ؟ و فى ممارسة هذه الدكتاتورية ، يستعمل الحزب السوفياتات كمجرّد أجهزة لنقل الحركة ، مثل النقابات و رابطة الشباب إلخ . (" **حول مسائل اللينينية** " ، الأعمال الكاملة ، المجلد 8 ، ص 14-39 ، الطبعة الإنجليزية / و " **أسس اللينينية / حول مسائل اللينينية** "، دار الينابيع ، دمشق ،1992 ، صفحة 158-185) . إنطلاقا من هذا الموقف ، يمكن أن نرسم بيسر طبيعة سيرورة البقرطة و تقدّمها و تطوّرها و ظهور الطبقات الجديدة . فى ظلّ مثل هذه الهيكلة السياسيّة ، مثّل وضع غياب سياسة واعية فى تحديد الحقّ البرجوازيّ و التعويل المتنامي على الحوافز الماديّة لرفع الإنتاج مثّل الأساس الإقتصادي للرأسماليّة البيروقراطيّة . و حين نصل إلى مرحلة إكتشاف ماو أنّ فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ، تظهر البرجوازيّة داخل الحزب ذاته ، تكتمل الصورة .

5—10 / هنا من الهام أن نلاحظ أنّ نقد تروتسكي لستالين لا يجيب على أيّة مسألة من هذه المسائل الجوهريّة التى واجهتها دكتاتوريّة البروليتاريا . لم يُفضى نقده للبقرطة إلى أيّ فهم جوهريّ للمشاكل التى تواجه النظام السياسيّ بأسره فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . و إنّما كان ذلك النقد يدافع أيضا عن خطّ تطوير قوى الإنتاج الذى مارسه ستالين . و فى ما يتعلّق بالجدال الكبير بين ستالين و تروتسكي ، جدال بناء الإشتراكيّة فى بلد واحد ، كان الحقّ إلى جانب ستالين .

<u>6/ نقد وجّهته روزا لكسمبورغ :</u>

1-6 / فى مسودّتها التحضيريّة غير التامّة حول الثورة الروسيّة المكتوبة فى السجن ، قدّمت روزا لكسمبورغ كثيرا من النقد النافذ حول المسائل الجوهريّة المرتبطة بثورة أكتوبر . كتبت " خطأ نظريّة لينين – تروتسكي الأساسيّ هو أنّهما ، أيضا، بالضبط مثل كاوتسكى ، يعارضان الديمقراطيّة بالدكتاتوريّة . " دكتاتوريّة أم ديمقراطيّة " هي الطريقة التى طرح بها البلاشفة و كاوتسكى المسألة . الأخير بصفة طبيعيّة يحسم الأمر إلى جانب " الديمقراطيّة " ، أي ، الديمقراطيّة **البرجوازية** ، تحديدا بسبب معارضته خيار الثورة الإشتراكيّة . لينين و تروتسكى ، بالعكس ، حسما الأمر إلى جانب دكتاتوريّة حفنة من الناس ، أي ، إلى جانب دكتاتوريّة على النمط البرجوازيّ . إنّهما قطبين متناقضين على قدم المساواة ، إبتعدا كثيراعن السياسة الإشتراكيّة الحقيقيّة ..." (روزا لكسمبورغ ، " **الأعمال المختارة** " ، صفحة87 ، مسبيرو ، الطبعة الفرنسية).

2-6 / لقد لاحظت أنّ نموذج دكتاتوريّة البروليتاريا الذى تمّ إرساؤه فى ظلّ قيادة لينين و تروتسكي ، إثر ثورة أكتوبر ، كان يحاول فعليّا القضاء على الديمقراطيّة فى حدّ ذاتها بإسم " الطبيعة الثقيلة للأجهزة الإنتخابيّة الديمقراطيّة " . نقدها النافذ

طال المسألة المحوريّة التى ظهرت فى علاقة بدكتاتوريّة البروليتاريا : " من الأكيد أنّ لكلّ مؤسّسة ديمقراطيّة حدودها و نواقصها وهي أشياء تتقاسمها دون شكّ مع كلّ المؤسّسات الإنسانيّة . لكن العلاج الذى قد وجده تروتسكي و لينين ، القضاء على الديمقراطيّة فى حدّ ذاتها ، أسوء من المرض الذى من المفترض أن يداويه : لأنّه يوقف المنبع الحيّ عينه الذى منه هو فقط يمكن أن يتأتّى تصحيح كلّ النواقص الملازمة للمؤسّسات الإجتماعيّة . و هكذا المنبع هو الحياة السياسيّة النشيطة و الفعّالة و غير المقيّدة لأوسع جماهير الشعب " (نفس المصدر السابق ، صفحة 79).

3-6 / العيب الأساسيّ للنظام السوفياتيّ كشفته روزا على النحو التالي : " حرّية فقط لأنصار الحكومة ، فقط لأعضاء حزب واحد (مهما كانوا كثيفيّ العدد) ليست حرّية . الحرّية هي دائما ،على الأقلّ حرّية الشخص الذى يفكّر بصفة مغايرة و لا يعزى ذلك إلى أيّ مفهوم "عدالة " متعصّب ، بل إلى أنّ كلّ ما هو منير و حكيم و مطهّر فى الحرّية السياسيّة يتوقّف على هذا المبدأ و فعاليّته تتلاشى عندما تصبح " الحرّية " إمتيازا خاصا " (نفس المصدر السابق ، صفحة 82-83) .

4-6 / معارضة إدّعاء لينين بأنّ النظام السوفياتيّ للديمقراطيّة البروليتاريّة التى طبّقها البلاشفة هكذا : " عوض الأجهزة التمثيليّة التى أفرزتها الإنتخابات الشعبيّة العامة ، فرض لينين و تروتسكي السوفياتات بإعتبارها الممثّلة الحقيقيّة الوحيدة للجماهير الكادحة. لكن بقمع الحياة السياسيّة فى البلاد كافة ، تشلّ بالضرورة الحياة فى السوفياتات . إذ بدون إنتخابات عامة و حرّية لا محدودة للصحافة و الإجتماع و بدون صراع آراء حرّ ، تموت الحياة فى كلّ مؤسّسة شعبيّة و يصبح شكل الحياة تجريديّا فقط و تبقى البيروقراطيّة العامل الفعّال الوحيد فيها . و تدخل الحياة العامة فى سبات عميق تدريجيّا و مجموعة من القادة الحزبيّين ذوى الطاقة التى لا تنضب و الخبرة اللامتناهية يقودون و يحكمون " (المصدر السابق ، صفحة 85) .

5-6 / قدّمت روزا لكسمبورغ نقدا جادّا للمقاربة الأساسيّة للقيادة البلشفيّة : " الإعتراض الضمنيّ وراء نظريّة لينين – تروتسكي حول الدكتاتورية هو : أنّ التحويل الإشتراكيّ هو وصفة جاهزة موجودة فى جعبة الحزب الثوريّ لا تحتاج إلاّ للإخراج بقوّة . و الأمر لسوء الحظّ ، - أو ربّما لحسنه - ليس كذلك . بعيدا عن أن يكون التحويل الإشتراكيّ مجموع الوصفات الجاهزة للتطبيق ، فإن التحقيق العمليّ للإشتراكيّة كنظام إقتصاديّ و إجتماعيّ و قضائيّ هو شأن مختلف كليّا تحت سديم المستقبل أمّا ما يوفّره برنامجنا فما هو سوى إتّخاذ الإجراءات الضروريّة و الإشارات السلبيّة بالأساس فى ما يناسب ذلك " (المصدر السابق ، صفحة 83) .

6-6 / قدّمت روزا لكسمبورغ نقدا كثيرا آخر ضد السياسة البلشفيّة حول القوميّات و السياسة الفلاحيّة و المجلس التأسيسيّ إلخ . لكنّها بعد الخروج من السجن و الحصول على معلومات مباشرة عن الوضع فى روسيا ، تراجعت عن بعض النقد و سكتت عن البعض الآخر . لقد أدركت صعوبة السماح بحرّية غير محدودة للأعداء . حتّى حينها ، بعض الملاحظات التى أبدتها حول المسائل الأساسيّة مثل الديمقراطيّة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا ذات دلالة بعيدة المدى و وثيقة الصلة بالموضوع ، بينما يبقى موقفها من المسألة القوميّة [كلمة غير مقروءة] .

7/ ماو و الدولة الديمقراطيّة الجديدة و الثورة الثقافيّة :

1-7 / سعى ماو إلى تطوير صراع إيديولوجيّ و سياسيّ صحّي داخل الحزب الشيوعيّ بتطوير صراع الخطّين إلى مستوى أرقى ، ساعد على خلق جوّ جديد . و كذلك كان سعيه إلى بناء دولة ديمقراطيّة جديدة بجبهة متّحدة واسعة من طبقات مختلفة فى ظلّ قيادة الطبقة العاملة إنطلاقا من و تطويرا مطابقا للوضع المختلف فى ظرف بلاد شبه مستعمر .

2-7 / غير أنّه بالرغم من كلّ هذه الإختراقات العظيمة ، يمكن أن نرى الآن أنّ دكتاتوريّة الديمقراطيّة الجديدة الشعبيّة التى تركّزت بالضبط بعد إنتصار الثورة فى الصين و دكتاتوريّة البروليتريا التى تلت لم يحقّقا أيّ تقدّم هام ، نسبة للإطار الأساسيّ الذى طوّره لينين و ستالين . منذ أن تشكّلت دولة الديمقراطيّة الجديدة كجبهة متّحدة لقوى طبقيّة مختلفة ، كانت بعض الأحزاب السياسيّة الأخرى ـ إضافة إلى الحزب الشيوعيّ تساهم فيها أيضا . إلاّ أن كلّ هذه الأحزاب السياسيّة كانت قابلة لقيادة و سلطة الحزب الشيوعيّ . و من هنا ، بالفعل ، لم يكن الوضع مختلفا جدّا عن وضع دولة يحكمها حزب واحد . هذا سبب من أسباب كون المرور من هذه الدولة الإئتلافيّة إلى دولة دكتاتوريّة البروليتاريا حصلت بسلاسة.

3-7 / إنّ المشاكل الأساسيّة التى واجهها الإتّحاد السوفياتيّ فى ظلّ لينين و ستالين ، تحديدا غياب نظام سياسيّ فيه يمكن للشعب أن يشارك و يؤكّد مباشرة إرادته السياسيّة و مشركة وسائل الإنتاج المفضية للمركزيّة و البيروقراطيّة المصاحبة لكافة النظام ، قد ظهرت كلّها فى الصين أيضا . و من ثمّ ، بدأت فى الصين ، نفس سيرورة إعادة تركيز الرأسماليّة التى قد وصلت بعدُ مرحلة متقدّمة فى الإتّحاد السوفياتي .

4-7 / كان بإمكان ماو أن يدرك خطورة الوضع . و قد شرع فى بحوث على المستوى النظريّ و كذلك بمحاولات على المستوى العمليّ ليتهيّأ لهذا الوضع . مثّلت نظريّته حول مواصلة الصراع الطبقيّ فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا أعظم إختراق فى هذا الإتّجاه . (كان لينين قد قدّم موقف أنّ الصراع الطبقيّ سيستمرّ بأشكال مختلفة خلال مرحلة دكتاتوريّة البروليتاريا . غير أنّه لم يطوّره كما فعل ماو ، مكشتفا أشكالا جديدة من الصراع للتعامل مع هذه المسالة) . إختراقات ماو فى ما يتّصل بمسائل نظريّة أخرى كانت كذلك عميقة . و قد شخّص الموقف الإختزاليّ الإقتصاديّ لأتباع الطريق الرأسماليّ ، الذى يبرز فى شكل نظريّة قوى الإنتاج . تأكيده على الثورة فى البناء الفوقيّ مثلما فى علاقات الإنتاج إلى جانب شعاراته أثناء الثورة الثقافية و من ذلك " وضع السياسة فى مصاف القيادة " و " المسك بالصراع الطبقيّ كعلاقة مفتاح " و " القيام بالثورة و دفع الإنتاج " إلخ كانت جميعها إبتعادا عن التفكير الذى كان مسيطرا داخل الحركة الشيوعيّة العالميّة إلى حينها . و فى الواقع ، كان ماو يقترب من لبّ المشكل حين حدّد مجالات الصراع فى البناء الفوقيّ و فى علاقات الإنتاج .علاوة على ذلك ، أقرّ بأنّ السلطة السياسيّة لم تكن بأيدى الطبقة العاملة و جماهير الشعب الكادح الأخرى . هنا حدّد جوهر المسألة ألا وهو كيفيّة إعادة السلطة السياسيّة إلى أيدى الشعب .

5-7 / وقد إعترف بصراحة بأنّه لم يكن يوجد حلّ ، لم يكن يوجد جواب حاضر على المسألة . كما أشار ماو ذاته ، كانت الجماهير حقيقة هي التى طوّرت أشكال النضال الجديدة ، الثورة الثقافيّة التى كانت فعلا صراعا ضد هياكل البقرطة الموجودة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . و حيث أنّها كانت إنفجارا جماهيريّا عفويّا ، كانت الإنحرافات الفوضويّة التى طوّرتها طبيعيّة تماما . لكن الشيء الذى كان ينبغى القيام به هو تنظيم كلّ تلك الدروس فى نظام و شكل صراع سياسيّين جديدين يمارسان فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا . بيد أنّه ، لسوء الحظّ ، لا يمكننا أن نرى أيّ تطوير إيجابيّ من هذا القبيل طوال حياة ماو . و كما يمكن رؤية ذلك فى نقاشات ماو مع تشانغ تشن – تشاو فى ما يخصّ كمونة شنغاي ، لم تكن لديه أيّة إجابة جديدة عن المسألة الأساسيّة التى واجهتهم أثناء الثورة الثقافيّة . عوض ذلك ، عاد إلى موضوع أنّ الواجب الأساسيّ للحزب هو صيانة دكتاتوريّة البروليتاريا . كان هذا إنعكاسا لنفس المسألة القديمة التى كانت تؤرّق الشيوعيّين منذ الدروس المُرّة لهزيمة كمونة باريس . إرتباك ماو جليّ فى الإستشهاد التالي : " فى ما يخصّ شكل السلطة السياسيّة السوفياتيّة ، فإنّ لينين كان ، منذ نشأته (الشكل)، مبتهجا بإعتبار أنّ السوفياتات صنعا مميّزا أنجزه العمّال و الفلاّحون و الجنود و كذلك بإعتبارها شكلا جديدا من دكتاتوريّة البروليتاريا . مع ذلك ، **لم يتوقّع لينين حينها أنّه بالرغم من أنّ بمقدور العمّال و الفلاّحين و الجنود إستعمال ذلك الشكل من السلطة السياسيّة ، كان من الممكن أيضا أن تستعمله البرجوازية** و يستعمله حتّى خروتشاف و قد وقع تحويل السوفياتات الحاليّة من سوفياتات لينين إلى سوفياتات خروتشاف " . (ماو ، " **الكتاب الأحمر الكبير** " صفحة 224-225 ، الطبعة الفرنسية ، فلاماريون ، باريس1975 ، التسطير مضاف) رأي ماو الأساسيّ هو أنّ ما يهمّ ليس شكل هيكلة الدولة بل الطبقة التى تمسك بالسلطة . و يُثبت هذا أنّ تأكيد ماركس على **الشكل** الجديد للدولة فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا قد نُسي تقريبا .

6-7 / لم تستطع الثورة الثقافيّة أن تتجاوز هذا الحدّ . بالعكس ، كشفت هي عينها الحدّ ذاته . لم يكن من الممكن للثورة الثقافيّة أن توجد إلاّ بسبب قيادة ماو و تطوّرت خارج الهيكلة السياسيّة القائمة . و بالرغم من أنّ ماو قد أشار إلى أنّ عددا آخر من الثورات الثقافيّة سيكون لازما طوال الفترة الإشتراكيّة ، فإنّه من الجليّ تماما أنّها لن تتواصل فى غياب نظام حيث تكون مثل هذه الثورات الثقافيّة مضمونة و ماو وقادة إشتراكيّون آخرون فى الصين لم يستطيعوا أن يطوّروا مثل هذا النظام أو يتصوّروه . ما حاولوا فعله هو تركيز دكتاتوريّة شاملة على البرجوازيّة ، مستخدمين ذات الهيكلة القديمة لدكتاتوريّة البروليتاريا . و تبيّن أنّ مثل هذه المقاربة أكثر سلطة ليس إلاّ و حتّى محتوى الثورة الثقافيّة المعادى للبيروقراطيّة قد تمّ تشويهه فى هذا الإطار .

7-7 / مع كلّ حدودها ، فإن الثورة الثقافية قد ساعدت ، دون شكّ ، المجتمع الصينيّ على إنجاز قفزة متّصلة بتطوّره السياسيّ . بالرغم من أنّ أتباع الطريق الرأسمالي تمكّنوا من الإستيلاء على السلطة السياسيّة ، فإنّ النقاشات و البحوث

و التيّارات السياسيّة التى ظهرت فى فترة ما بعد الثورة الثقافيّة تكشف هذا الوضع بوضوح . و لو أنّ معلومات كاملة فى ما يتعلّق بكلّ تلك التطوّرات تنقصنا ، فإنّ المعلومات المتوفّرة تُثبت أنّ النقاشات العميقة حول مشاكل الإشتراكيّة و دكتاتوريّة البروليتاريا قد بدأت هناك . هذه التطوّرات تكشف كذلك كلا المظهرين الإيجابيّ و السلبيّ للثورة الثقافيّة ذاتها ، لا سيما مسألة أنّ كلّ التجربة تحدّدت فى إطار المفهوم القديم لدكتاتوريّة البروليتاريا الذى قد ثبت أنّه غير مناسب تماما لمواجهة هذه المشاكل .

8/ الخطأ الأساسيّ :

1-8 / نظرتنا الجديدة تكشف أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا التى طبّقت إلى حدّ الآن فى البلدان الإشتراكيّة سابقا منذ ثورة أكتوبر إنتهت فى جميع الحالات إلى دكتاتوريّة الحزب عوضا عن التطوّر نحو نظام حقيقيّ لدكتاتوريّة البروليتاريا ، مع أنّ ثمّة دروس إيجابيّة يجب أن تستوعبها الطبقة العاملة . كان النظام بأسره مرتكزا و تطوّر معتمدا بالأساس على مفهوم و ممارسة دكتاتورية البروليتاريا كما وضعهما لينين .

2-8 / مثلما تمّت الإشارة إلى ذلك آنفا ، كان لينين يعوّل كلّيا على تجربة كمونة باريس كما رواها و قيّمها ماركس و إنجلز لأجل تطوير مفهوم و ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا . لهذا عندما طوّر العمّال فى روسيا شكلا جديدا من التنظيم خلال ثورة 1905 ، السوفياتات ، دافع لينين عنها فى الحال كشكل تنظيميّ ممكن متطابق مع حاجيات الهيكلة المستقبليّة لدولة البروليتاريا.

3-8 / على هذه الأرضيّة ، رفع لينين الشعار الأكثر حسما فى ثورة أكتوبر " كلّ السلطة للسوفيات " . و فى مؤلّفه النظريّ الأهمّ حول الدولة ، " **الدولة و الثورة** " ، تصوّر السوفيات كأهمّ شكل للجهاز السياسيّ للبروليتاريا و القطاعات الأخرى من الشعب . تمّ تصوّر نظام سياسيّ يعمل من خلال السوفياتات كأجهزة ممثّلة للعمّال و الفلاّحين و الجنود ، كشيء مشابه لكمونة باريس .

4-8 / فى الهيكلة السياسيّة لكمونة باريس ، لم يكن للحزب الشيوعيّ أيّذ دور قياديّ . لكن بينما كان يقيّم هزيمة الكمونة ، أشار ماركس إلى أنّ اللجنة المركزيّة سلّمت السلطة للكمونة مبكّرا جدّا . و هذا يعنى أنّه كان على اللجنة المركزيّة أن تبقى بأيديها لفترة قصيرة كافة السلطة بحيث تلحق الهزيمة بالأعداء و تضمن سير الدولة البروليتاريّة الجديدة . إلاّ أنّه من غير الواضح كيف كان ماركس سينظر إلى دور الكمونة فى علاقة بهذا الدور المحوريّ للجنة المركزيّة خلال تلك الفترة الإنتقاليّة . كذلك من غير الواضح كيف كان مثل هذا الوضع سيتحوّل إلى وضع ليس فيه للحزب أيّ دور محوريّ ينهض به.

5-8 / غياب أيّة إشارة لدور الحزب فى المخطّط العام لدكتاتوريّة البروليتاريا مثلما شرحها لينين فى **" الدولة و الثورة "** أمر بارز أيّما بروز . يمكن أن يعود إلى هذا التأثّر بالهيكلة السياسيّة لكمونة باريس . إلاّ أنّ الحزب هنا ، عكس كمونة باريس ، سيلعب الدور الحاسم لأنّ زمن ثورة أكتوبر ، قد تطوّر بعدُ حزب كطليعة ممثّلة للمصالح الطبقيّة للبروليتاريا . و هكذا كانت هذه المسألة النظريّة الحاسمة التى وجب حلّها خلال تلك الفترة . إغفال لينين التام لهذه المسألة يعدّ هفوة جدّية أفضت إلى الخطأ الأساسيّ فى تطوير فهم دكتاتوريّة البروليتاريا .

6-8 / إثر إفتكاك السلطة فى أكتوبر ، صار مجلس السوفياتات الحكومة الشكليّة للسلطة السياسيّة الجديدة . لكن فى الواقع ، كان الحزب يضطلع بالدور الحاسم فى تطوير كلّ السياسات الهامة و التكتيكات من وراء الستار . و فى الحقيقة ، كان الحزب يتحكّم فى السوفياتات بالرغم من أنّ دوره الخاص فى هيكلة الدولة الجديدة لم يكن محدّدا.

7-8 / هكذا ، تحت ضغط الظروف ، أمام كلّ التهديدات الخارجيّة و الداخليّة ، إضطرّ الحزب إلى لعب الدور المحوريّ ، مبعدا السوفياتات إلى الخلفيّة . وإعترف لينين بوضوح بهذا الوضع و برّره قائلا إنّ بإمكان البروليتاريا أن تمارس دكتاتوريّتها من خلال الحزب و حسب . و من أجل تبرير هذا الدور الجديد للحزب ، أشار لينين حتّى" إلى إنحطاط الطبقة العاملة جاعلة الحكم كطبقة غير ممكن ") لينين " **عن النقابات** " ، دار التقدّم ، صفحة 40) . فضلا عن ذلك ، لم يعالج

لينين هذه المسألة كشكل خاص بروسيا و إنّما كشكل عالميّ ، جاعلا بذلك مبدأ أنّ بإمكان الحزب أن يمارس الدكتاتوريّة . من ثمّ ، قد وصل لينين إلى موقف مناقض بالضبط لموقف ماركس .

8-8 / المسألة الأساسيّة للإبتعاد عن نظام دكتاتوريّة البروليتاريا قد شخّصها ماركس حين لخّص دروس كمونة باريس : " إبتلاع معاكس لسلطة الدولة من قبل المجتمع " . غير أنّ لينين لم يتبنّى مسائل ترجمة هذا المفهوم إلى الممارسة و بهذا أنجز قطيعة نوعيّة مع الفهم القائم حتّى يومذاك للسلطة السياسيّة . و لو أنّه كان يتحدّث عن مندوبي السوفياتات بإعتبارهم موظّفى سلطة قابلين للعزل و كذلك عن خلق دولة جديدة شعبها مسلّح ، فإنّه ، فى الممارسة ، لم يتّخذ أيّة خطوات ملموسة لتحقيق ذلك . من الممكن الإشارة إلى قوّة الظروف المفروضة كعامل حال دون أيّ تقدّم فى هذا الإتّجاه . لكن لا نملك أيّة بديهيّة لإثبات أن لينين أعار أيّ إنتباه جدّي لهذه المسألة الجوهريّة ذاتها. لم يفهم ضرورة تطوير نظام سياسيّ جديد نوعيّا فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا. من جهة أخرى ، كانت محاولته كلّها تهدف إلى التوصّل إلى هذا التغيير بتغيير قيادة الدولة، من قيادة برجوازيّة إلى قيادة البروليتاريا من خلال حزبها .

9-8 / حقيقة ، ليست لهيكلة الدولة البروليتاريّة الجديدة التى تصوّرها ماركس و إنجلز صلة مع الهيكلة القائمة للدولة البرجوازيّة . و ينعكس هذا بصفة جيّدة فى موقف ماركس المستشهد به أعلاه (الإبتلاع المعاكس ...) و فى موقف إنجلز : " فالبروليتاريا تستولى على السلطة ... و تقضى على نفسها كبروليتاريا ... و معها تقضى على الدولة كدولة " . (" **ضد دوهرينغ** " ضمن ماركس و إنجلز و لينين ، " **حول المجتمع الشيوعيّ** " ، صفحة 43 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

هذه نقطة الإنطلاق [دولة تصير هي ذاتها ضمان الإبتلاع المعاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع ، دولة تكفّ عن أن تكون دولة بالمعنى التقليديّ . كيف يمكن للبروليتاريا أن تحقّق مثل هذا الهدف الذى يتضمّن تناقضات داخليّة عميقة ؟ أمامنا خطوتان عمليّتان إتّخذتهما كمونة باريس : نظام سياسيّ عمل من خلال موظّفى سلطة قابلين للعزل و تعويض الجيش القائم بالشعب المسلّح.

10-8 / لكن إذا ما أردنا فعلا أن نتوصّل إلى قطيعة نوعيّة مع الفهم القائم ، علينا أن نذهب أعمق فى ديناميّته . فى مجتمع طبقيّ ، تمسك الطبقة السائدة سلطة سياسيّة مدّعية أنّها تمثّل المجتمع كافة . و هذا يعكس تناقضا بين الإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة و إرادة المجتمع ككلّ . لأجل حلّ هذا التناقض ، تمركزت السلطة فى هيكلة الدولة و تستخدمها الطبقة الحاكمة على أنّها سلطتها التنفيذيّة . لذا ، هذه المركزة للإرادة السياسيّة للطبقة الحاكمة بإسم الإرادة السياسيّة للمجتمع بأسره ، فى الشكل الملموس للدولة ، بالأخصّ فى قوّتها المسلحة هي ميزة من ميزات السلطة السياسيّة التى وجدت إلى الآن فى المجتمع الطبقيّ .

إنّ البروليتاريا تهدف إلى القطع قطيعة نوعيّة مع هذه الهيكلة . و بالتالى عليها أن تشرع فى سيرورة تجعل من المجتمع بأسره قادراعلى أن يبتلع إبتلاعا معاكسا هذه السلطة الممركزة . وتعويض الجيش القائم بالشعب المسلّح هو خطوة ملموسة أوّليّة فى هذا الإتّجاه . بيد أنّه فى غياب نظام إقتصاديّ و سياسيّ و إجتماعيّ كامل يضمن هذا الإبتلاع المعاكس ، لن يفي هذا وحده بالغرض . فى السيرورة كلّها ، يتحتّم أن تخلق ظروف و هياكل لكي تتمكّن الإرادة (السياسيّة) للمجتمع بأسره من أن تعبّر عن نفسها و أن تتحقّق مباشرة دون وساطة الدولة . حينها فقط تستطيع البروليتاريا أن تبلغ غايتها ألا وهي مجتمع حيث تضمحلّ الدولة . إذا لم تتمكّن البروليتاريا من أن تتقدّم بمثل هذا النظام السياسيّ البديل ، فلن تقدر على إحداث قطيعة نوعيّة مع النظام البرجوازيّ القائم .

11-8 / هنا أخفق كلّ نظام دكتاتوريّة البروليتاريا الذى تمّ تطبيقه إلى حدّ الآن ، إبتداءا من لينين وصولا إلى ماو . تطوّر النظام برمّته على فكرة إفتكاك السلطة السياسيّة و المحافظة عليها من خلال هيكلة دولة ممركزة . و إضافة إلى أنّه لم يشرع فى أيّة سيرورة إبتلاع معاكس للسلطة و أفضى ، بالعكس ، إلى سلطة مركّزة أكثر . طبعا ، أثناء الثورة الثقافيّة ، سعى ماو إلى قلب القيادة غير أنّه لم يستطع أن يحدث أيّ تقدّم نوعيّ بما أنّه لم يستطع أن يخرج من الإطار الأساسيّ الذى قد توطّد بعدُ . فضلا عن ذلك ، لم يدرك ماو أهمّية الهيكلة التنظيميّة السياسيّة الجديدة . هذا ما تعكسه ملاحظاته بأنّ سوفياتات لينين أمكن بسهولة أن تتحوّل إلى سوفياتات خروتشاف قاصدا أنّ إكتشاف السوفياتات لم يكن ذو بال .

9/ الدكتاتوريّة البرجوازيّة و الديمقراطيّة البروليتاريّة :

9-1 / لا بدّ من مزيد البحث فى مثل هذا الإنحراف الأساسيّ . يمكننا أن نحصل على بعض المفاتيح لفهم المشكل إن حاولنا النظر فى كيفيّة تحليل لينين للديمقراطيّة البرجوازيّة و كيف سعى لتعويضها بدكتاتوريّة البروليتاريا . كان مطلق الصحّة من جانب لينين أن يقيّم أنّ كلّ الأشكال المختلفة للدول البرجوازيّة تمثّل حتما دكتاتوريّة البرجوازيّة و أنّ الأشكال المختلفة الممكنة لدولة البروليتاريا الإنتقاليّة تمثّل بالأساس دكتاتوريّة البروليتاريا. بيد أنّ هذا المظهر من الدكتاتوريّة يمثّل جزءا أساسيّا فقط و ليس الكلّ . دولة ديمقراطيّة برجوازيّة تعالج مسألة هامة فى المجتمع الإنسانيّ ، التناقض بين الفرد و المجتمع . لكن دولة فاشيّة برجوازيّة لا تولى إهتماما لمعالجة ذلك التناقض على نفس المستوى ، حتّى و إن كانت كلتاهما دكتاتوريّتين برجوازيّتين بالأساس. لأوّل مرّة فى تاريخ المجتمع الإنسانيّ ، تعترف الديمقراطيّة البرجوازيّة بالفرد ككيان سياسيّ و تعطيه دورا فى النظام السياسيّ ، و لو شكليّا . و يكمن ضعف هذه الديمقراطيّة البرجوازيّة فى أنّها ترتكز على حكم الملكيّة الخاصة التى بواسطتها تضمن دكتاتوريّة البرجوازيّة . عندئذ لا تصبح المساواة التى تعلنها شكليّة فحسب ، بل زائفة أيضا .

9-2 / على هذا الأساس ، أكّد لينين على نقطة : ديمقراطيّة مرتكزة على الملكيّة الخاصة أو على النضال من أجل إلغاء الملكيّة الخاصة . هنا يشدّد على مظهر الديمقراطيّة الطبقيّ المسيطر ، حكم الملكيّة الخاصة . بيد أنّه بالموازنة بين الديمقراطيّة البرجوازيّة و الدولة البرجوازيّة ، قد أهمل الجانب غير الطبقيّ للديمقراطيّة و المنعكس فى الديمقراطيّة البرجوازيّة . الإعتراف بالدور السياسيّ للفرد فى النظام السياسيّ للمجتمع هو واقعيّا ، تقدّم تاريخيّ فى التعامل مع التناقض غير الطبقيّ بين الفرد و المجتمع . و تعكس الديمقراطيّة البرجوازيّة هذا المظهر غير الطبقيّ كذلك . إنّه فعلا تطوّر فى أشكال عمل المجتمع الذى كان (و ما لبث) يحدث فى كلّ سيرورة التطوّر الإجتماعيّ فى علاقة وثيقة بتطوّر الصراع الطبقي . و إن تحدّث لينين عن المساواة الشكليّة المنعكسة فى الديمقراطيّة البرجوازيّة و طبيعتها التمثيليّة فإنّه لا يميّز بين المظاهر الطبقيّة المسيطرة و المظاهر غير الطبقيّة للديمقراطيّة . و من ثمّ ، إنتهى إلى حلّ تعويض دكتاتوريّة البرجوازيّة بدكتاتوريّة البروليتاريا بقلب دكتاتوريّة الأقلّية على الأغلبيّة إلى دكتاتوريّة الأغلبيّة على الأقليّة . بالتالى لا يتطلب الأمر قطيعة نوعيّة مع الهيكلة القديمة . فى الأخير ، تفضى الهيكلة القديمة التى تركز السلطة بأيدى قيادة الدولة إلى ظهور و ترسيخ طبقة حاكمة جديدة ضمن الطبقة العاملة و صفوف و قيادة حزبها عينه .

9-3 / لن يحصل تطوّرالديمقراطيّة البرجوازيّة بالقلب البسيط لدكتاتوريّة الأقلّية على الأغلبيّة فإلغاء الملكيّة الخاصة و مشركة وسائل الإنتاج هي بالتأكيد خطوات حاسمة لتركيز نظام الديمقراطيّة البروليتاريّة أو دكتاتوريّة البروليتاريا الحقيقيّة . لكن مثلما رأينا آنفا إنطلاقا من تجربة البلدان الإشتراكيّة سابقا ، مجرّد المشركة القانونيّة لوسائل الإنتاج لن تحلّ هذا المشكل بل ستخلق ظروفا ملموسة لمزيد مركزة السلطة السياسيّة حيث أنّ جميع وسائل الإنتاج تتركز بأيدى كيان واحد. إذن ، لا يمكن للمشركة الحقيقيّة للإقتصاد وهي عامل أساسيّ للديمقراطيّة البروليتاريّة أن تتحقّق إلاّ من خلال نظام سياسيّ فعّال بمستطاعه أن يضمن الديمقراطيّة الحقيقيّة دون مركزة للسلطة السياسيّة بضمان تحقّق السلطة الحقيقيّة للشعب مباشرة . حينئذ ، مشركة وسائل الإنتاج و تطوير نظام بروليتاريّ يضمن الديمقراطيّة البروليتاريّة أمران جوهريّان ، مظهران متكاملان للنظام الإشتراكيّ الذى من اللازم أن يكون قادرا على البقاء على قيد الحياة بذاته .

9-4 / لن يجري تجاوز الديمقراطيّة البرجوازيّة إلاّ بالمرور عبر هذه المرحلة الإنتقاليّة من الديمقراطيّة البروليتاريّة التى ستخلق شكلا جديدا من التنظيم الإجتماعيّ فى الشيوعيّة . و هنا سيزيد من تطوّر المظهر غير الطبقيّ لسير الديمقراطيّة ، خالقا ظروفا مناسبة لتطوّر شامل للفرد ، و إن كان ضمن العلاقة التناقضيّة بين الفرد و المجتمع .

9-5 / إنّ الديمقراطيّة البروليتاريّة هي بالأساس دكتاتوريّة بروليتاريّة بمعنى أنّ المصلحة الطبقيّة للبروليتاريا ، مصلحة تحرير نفسها من خلال تحرير الإنسانيّة جمعاء هي المطمح و أنّها تتحقّق عبر هذا النظام . و النظام الإقتصاديّ و السياسيّ المتصوّر أعلاه يضمن التوصّل لمثل هذا الهدف . فمثل هذا النظام الإجتماعيّ ليس بإمكانه أن يوجد و يبقى على قيد الحياة إلاّ إذا قبلته غالبيّة الشعب و صانته بإعتباره نظامها . إذن دور الحزب الشيوعي فى السيرورة الكلّية سيكون مختلفا بالأساس عن ذلك المعروف و المطبّق إلى حدّ الآن . ممثّلا المصالح الحقيقيّة للبروليتاريا كأكثر طبقة متقدّمة ، سيضطلع

الحزب الشيوعيّ بالتأكيد بالدور الطليعيّ فى قيادة نضال الشعب ضد النظام البرجوازيّ الرجعيّ القائم و فى تحطيمه و فى خلق النظام الديمقراطيّ البروليتاريّ الجديد و تركيزه. و سيضطلع أيضا بدور سياسيّ نشيط جدّا فى ضمان النظام السياسيّ كما يتصوّره ... (مسيّسا الشعب على طول هذه المرحلة و معبّئا إياه للدفاع عن النظام السياسيّ و لتطويره) .غير أنّ بقاء النظام الإشتراكيّ الجديد قيد الحياة لن يتوقّف على الدور الحمائيّ للحزب الشيوعيّ . و إنّما لن يبقى النظام قيد الحياة سوى بتجاوز إمتحان التاريخ .

6-9 / على ضوء هذا التقييم للسبب الأساسي لهذه الإنحرافات الخطيرة فى مفهوم و ممارسة دكتاتورية البروليتاريا ، منذ زمن لينين فصاعدا ، علينا أن ننتهي إلى إستنتاج أنّ كلّ ممارسة دكتاتوريّة البروليتاريا إلى الآن و تجربة بناء الإشتراكيّة قد تميّزت بإنحرافات جدّية . كنظام إجتماعيّ جديد ، وليد من القديم ، كانت الإشتراكيّة تتّجه نحو المعاناة من عديد الشوائب. لكن إلى جانب تلك الشوائب التى سبّبتها الظروف ، قد لعب الخطّ الذى إتّبعه الشيوعيّون من لينين فصاعدا دوره فى هذا . بينما ندافع عن المجهود البطوليّ لخلق مجتمع جديد و الأشياء الجديدة التى ظهرت خلال الإشتراكيّة (أشياء قد لعبت دورا إيجابيّا فى صنع التاريخ) مهمّتنا الخاصة كشيوعيّين هي أن نصبّ إهتمامنا على أخطائنا و أن نصحّحها و ليست أن نبرّرها بإسم الحدود التاريخيّة . متفحّصين هذه الأخطاء على ضوء الماركسيّة ، نستطيع أن نرى أنّها قد عكست فى الواقع ، إنحرافات عن النظرة البروليتاريّة للعالم . بيد أنّه فى نفس الوقت ، علينا أن نحدّد فى أيّ شكل ملموس تنعكس . يمكن تحديد نزعة سائدة كنزعة الإختزاليّة الطبقيّة . و نقصد بهذا تحليل المجتمع فقط بلغة الطبقات و الصراع الطبقيّ و من ذلك إهمال الجوانب غير الطبقيّة فى الظاهرة المعقّدة للمجتمع . نظرة لينين الإحاديّة الجانب إلى فهم تعقيدات دكتاتوريّة البروليتاريا و إهماله الكلّي للحاجة إلى تطوير نظام سياسيّ يجب أن تعزى إلى هذه المقاربة الإختزاليّة الطبقيّة التى لا تزال مهيمنة إلى حدّ كبير داخل الحركة الشيوعيّة كلّها .

7-9 / بصفة مشابهة ، شجّع لينين نزعة متواصلة أخرى إزاء الدور المحوريّ للحزب فى دكتاتوريّة البروليتاريا هي التفكير المهيمن داخل الحركة الشيوعيّة و الذى يعتبر أنّ الحزب يحدّد كلّ شيء فى علاقة بالثورة الإجتماعيّة . مقاربة ذاتيّة إحاديّة الجانب تجاه الحزب ، إعتقاد أعمى فى الحزب إلخ تترسّخ نتيجة لتلك النزعة . و طبعا ، لا يزال الدور الطليعيّ الواعي للحزب الشيوعيّ فى الثورة الإجتماعيّة مناسب و هام . لكن كيف يمكن لحزب شيوعيّ أن يضطلع بهذا الدور ؟ هل يمكن تحقيقه بفرض هيمنة بلا منازع على الحركة و المجتمع ؟ بالأحرى ، لا يمكن النهوض بهذا الدور الطليعيّ و صيانته إلاّ إذا كان للحزب الشيوعيّ فهم واقعيّ وهو قادر على إعادة تشكيل أسلوبه فى التفكير والممارسة حتّى يجعل سياساته و برامجه تتطابق مع الواقع المتغيّر أبدا . إذا لم يقع تبنّى مثل هذه المقاربة الديناميكيّة و المرنة ، فإنّ أيّ حزب سينحطّ بسهولة و سينبذه الشعب . بعد إكتشاف ماو أنّ البرجوازية الجديدة تظهر داخل الحزب الشيوعيّ ذاته ، غدت هذه المسألة ذات أهمّية قصوى .

<u>10/ الحاجة إلى توجّه جديد:</u>

1-10 / حيث لا وجود لأيّ بلد إشتراكيّ ، على القوى البروليتاريّة أن تفتكّ السلطة من جديد فى كلّ مكان . و الوضع العالميّ مواتى لذلك . فنضالات الشعوب تتصاعد فى كلّ مكان بكل قوّتها . وتتوطّد الآن و بوجه خاص بعد التواطئ بين كتلتي القوّتين الأعظم اللتين كانتا تحاولان التدخّل فى و إستعمال أيّ وكلّ نضال تحرّر وطنيّ مناهض للإمبرياليّة فى صالحها ، تتوطّد الآن نضالات الشعوب و الأمم المضطهَدَة و بصورة مباشرة أكثر ضد النظام الإمبرياليّ بأسره . تقدّم الثورة فى البيرو ، الثورة التى تقاتل بعناد ضد كلّ من الكتلتين الإمبرياليّتين ، مثال جيّد يبيّن بجلاء طبيعة القوّة الثوريّة الكامنة فى الوضع العالميّ ليومنا هذا . و عديد القوى غير الشيوعيّة و المعادية للإمبرياليّة تتقدّم كذلك على درب النضال بصورة مباشرة أكثر و دون تردّد .

2-10 / لكن إذا ما كانت هذه النضالات لتُقاد على الدرب الصحيح للتقدّم نحو الإشتراكيّة و الشيوعيّة ، فإنّ القوى البروليتاريّة يجب أن تتّجه نحو الشعب لتشرح له كيف تتصوّر مستقبل الثورة . فى إطار كلّ التطوّرات الجديدة فى البلدان الإشتراكيّة سابقا ، دون برنامج خاص للحيلولة دون إعادة تركيز الرأسماليّة و الإنحطاط الممكن للسلطة البروليتاريّة إلى إشتراكيّة فاشيّة ، من المستحيل عمليّا أن تكسب نضالات شعوب العالم على أساس عريض بإتّجاه الإشتراكية و الشيوعية. لهذا السبب بات تقديم مثل هذا البرنامج بتوجّه جديد هامّا و ملحّا إلى أقصى حدّ.

3-10 / لقد سبق وأن شرحنا فى القسمين السابقين المظاهر الأساسيّة للنظام الجديد المتصوّر فى ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا. و يمكن أن نلخّصها كما يلى : لا بدّ لفهم جديد نوعيّا للسلطة السياسيّة للبروليتاريا أن يُشكّل نقطة الإنطلاق . و لا بدّ أن يعكس مفهوم ماركس لكمونة باريس بإعتبارها إبتلاعا معاكسا لسلطة الدولة من طرف المجتمع بأسره . إذ لا يتعيّن على الدولة البروليتاريّة أن تكون دولة مشابهة لدولة البرجوازيّة أو لدولة الإشتراكيّة التى طبّقها إلى الآن الشيوعيّون و التى ركّزت كلّ السلطة فى هيكلة دولة ممركزة عليها أن تكون نظاما سياسيّا فيه تكفّ الدولة عن أن تكون دولة بالشروع فى سيرورة إبتلاع معاكس لسلطة الدولة من طرف المجتمع من خلال سيرورة لامركزة السلطة السياسيّة ، هادفة إلى بلوغ مرحلة حيث الإرادة (السياسيّة) للمجتمع بأسره يمكن أن تعبّر عن ذاتها و أن تتحقّق مباشرة دون وساطة الدولة . مثل هذا النظام لا يستطيع أن يتطوّر إلاّ بإنجاز المشركة الحقيقيّة لوسائل الإنتاج و الذى يمكن بدوره أن يُضمن عبر نظام سياسيّ يضمن الديمقراطيّة البروليتاريّة . و لا بدّ لهذا النظام الإشتراكيّ الذى فيه تكون القاعدة الإقتصاديّة الممشركة و النظام السياسيّ الديمقراطيّ البروليتاريّ مظهران متكاملان ، لا بدّ له أن يبقى على قيد الحياة بذاته ، ليصير نظاما إجتماعيّا يقبله و يطبّقه الشعب باسره ، فى ظلّ قيادة البروليتاريا .

4-10 / و ستكون المسألة الحاسمة التى واجهتها البروليتاريا فى تحقيق مثل هذا النظام فى علاقة بتطوير الخطوات الملموسة للمرحلة الإنتقاليّة . الوسائل المتبنّات لتحطيم آلة الدولة ستكون حاسمة فى علاقة بالفهم الجديد للسلطة السياسيّة . و حيث أنّ الأشكال القائمة للسلطة السياسيّة البرجوازيّة أو الرجعيّة تتركّز كلّها فى هيكلة الدولة المتمحورة حول القوى المسلّحة ، فإنّه ليس بإمكان القوى البروليتاريّة أن تحطّمها إلاّ بإستعمال القوّة . لذا سيكون على الإطاحة الثوريّة بالدولة أن تنجز بثورة عنيفة . و سيكون هذا ممكنا فقط فى ظلّ قيادة حزب بروليتاريّ طليعيّ بجيشه الشعبيّ . و على تحطيم الدولة القائمة أن يُتبَع بتركيز نظام سياسيّ جديد ، مرّة أخرى **فى ظلّ** قيادة حزب بروليتاريّ طليعيّ . هنا إحدى الخطوات الأوّلية الحاسمة ستكون تسليح الشعب كجزء من سيرورة تعويض الشعب المسلّح للجيش القائم . حاليّا ، لن نستطيع التنبؤ بأمد هذه المرحلة الإنتقاليّة . لكن بإمكاننا أن نحدّد بلا ريب مقياس تقرير أمد هذه المرحلة الإنتقاليّة . سيكون على حزب البروليتاريا الطليعي أن ينهض بالدور القياديّ إلى أن يشرع النظام السياسيّ الجديد فى العمل بفعاليّة ، بإتمام مشركة وسائل الإنتاج ثمّ توطيد السلطة فى أيدى الطبقات الحاكمة الجديدة فى ظلّ دكتاتورية البروليتاريا . و حالما يتمّ التوصّل إلى هذا ، على الحزب الشيوعيّ أن يتخلّى عن تحكمه الإحتكاريّ فى التحويل الثوريّ و أن يسمح للنظام بأن يسير بذاته . فى ظلّ نظام الديمقراطيّة البروليتاريّة ، فعاليّة النظام الجديد سيقبلها الشعب أو يرفضها عبر سيرورة ديمقراطيّة مفتوحة فيها يكون الشعب باسره مساهما بحرّية عبر منظماته السياسيّة الخاصة أو بطرق أخرى .

5-10 / أثناء هذه المرحلة الإنتقاليّة ، سيكون دور الحزب فى كلّ من تحطيم آلة الدولة و فى تركيز هيكلة سياسيّة جديدة حاسما و محوريّا . غير أنّه حتّى حينها ، إثر إفتكاك السلطة ، لا يتعيّن على الحزب أن يستخدم مباشرة السلطة ، بل ينبغى أن يفرض سلطته سياسيّا فقط عبر الهياكل التى ينتخبها الشعب . مع لعب الحزب هذا الدور الحاسم فى الإطاحة بالطبقات العدوّة ، سيتمتّع بهيبة و سلطة عظيمتين فى صفوف الشعب . و أثناء هذه المرحلة ، سيقع جذب الجماهير إلى حياة سياسيّة نشيطة على مستوى لم يُشهد له مثيل . و بالتالى ، و لو أنّ الحزب سيضطلع بالدور المحوريّ ، يجب أن يعرف الشعب تطوّر خطّه السياسيّ عبر صراع الخطيّن إلخ . و هذا يعنى أنّ على الحزب أن يعمل بالأحرى كحزب مفتوح . لا بدّ للحياة الداخليّة للحزب كذلك أن تكون ديمقراطيّة جدّا ، سامحة حتّى بالتكتّلات إلخ ... كمسألة مبدئية .

6-10 / على أجهزة السلطة أن تخضع فى تطوّرها للشعب بتحويل الجبهة المتحّدة أو منتدى مشابه آخر الذى كان يلعب دورا نشيطا فى إستنهاض الجماهير لخوض حرب ضد الأعداء إلى هيئات تمثيليّة قابلة للعزل . و على هذه الهيئات أن تمثّل الإرادة السياسيّة لغالبيّة الشعب التى إصطفّت إلى جانب الطبقة العاملة فى النضال ضد الطبقات العدوّة . و لن يتمتّع أولئك المنتمين إلى الطبقات العدوّة المطاح بها بحقّ إنتخابهم إلى مثل هيئات السلطة هذه و سوف يمنعون من الحقوق المدنيّة الأخرى كذلك ، أثناء هذه المرحلة الإنتقاليّة . و طوال هذه المرحلة ، يجب أن يكون الهدف محاولة جعل هذه الهيئات أجهزة السلطة الحقيقيّة ، مقلّصة تدريجيّا دور الحزب فى السيرورة العامة للتسيير.

7-10 / بينما يكون دور الحزب ، خلال مرحلة ما قبل الثورة رئيسيّا ، فإنّه ، بعد إفتكاك السلطة ، يصير دور القوّة ، ذلك أنّ تعبئة الإرادة السياسيّة للشعب تغدو رئيسيّة و إستعمال القوّة يتبعها . و يتعيّن على هذه التعبئة السياسيّة أن تحدث

بالأساس عبر الهيئات السياسيّة و التنظيمات الجماهيريّة و منتديات مفتوحة أخرى فى ظلّ توجيه الحزب . و إستعمال القوّة عموما من الواجب تحويله من نشاط هيئة خاصة إلى نشاط الشعب المسلّح ذاته.

8-10 / مشركة وسائل الإنتاج ينبغى إنجازها بشموليّة ، أثناء هذه المرحلة الإنتقاليّة . و كما مرّ بنا سابقا ، مجرّد المشركة القانونيّة لن تحلّ المشكل الأساسيّ. إذ ترتبط المشركة الحقيقيّة إرتباطا وثيقا بتطوير هيكل سياسيّ مناسب لجعل الشعب قادرا على تحقيق أن تكون السلطة فى يديه هو الخاصة . لذلك بتطوير سيرورة المشركة على كلّ من المستوى الإقتصاديّ و السياسيّ ، يمكن تشجيع إقتصاد ممشرك حقيقيّ.

9-10 / حالما يتطوّر سير النظام السياسيّ و الإقتصاديّ الجديد على هذه الشاكلة ، سيكون على الحزب الشيوعيّ أن يتخلّى رسميّا عن إحتكاره للسلطة . حقّه فى الحكم ينبغى أن يقوم بصرامة على المناصرة الإنتخابيّة المكتسبة بأرضيّة ، بالضبط مثل أيّة أرضيّة أخرى . ستكون الميزات الأساسيّة للهيكلة السياسيّة الجديدة حكم عبر هيئات تمثليّة لامركزيّة ، قابلة للعزل و ضمان لكلّ الحقوق الديمقراطيّة بما فى ذلك الإقتراع العام و إلغاء الجيش القائم إلخ و شرعيّته ستستمدّ من صيانة و تطوير النظام الإشتراكيّ المفضى إلى الشيوعيّة . و حيث أنّ الإشتراكيّة نفسها فترة من التحويل الثوريّ ، فإنّه لا بدّ للنظام نفسه أن يتطوّر إلى مدى أبعد . مسألة مثل هذه التغيّرات فى الهيكلة السياسيّة – الإجتماعيّة – الإقتصاديّة ستكون هي ذاتها مسألة صراع طبقيّ . و يجب على الحزب الشيوعيّ أن ينهض بدوره الطليعيّ فى قيادة هذا الصراع الطبقيّ بتسييس الجماهير و تعبئتها على أساس خطّ صحيح . لكن بخلاف أشكال دكتاتوريّة البروليتاريا التى مُورست حتّى اليوم ، فى الهيكلة السياسيّة الجديدة ، سيضطلع الشعب و هو يمسك بالسلطة الحقيقيّة بين يديه و يمسك أيضا بالأسلحة بين يديه ، سيضطلع بدور نشيط للغاية فى كلّ من الحياة السياسيّة للمجتمع و من ثمّ سيكون أفضل ضمان ضد إعادة تركيز الرأسماليّة و كذلك ضامنا لأفضل ظروف إستعادة السلطة إذا ما حدثت إعادة تركيز الرأسماليّة .

11 / دور الحزب الشيوعيّ و عمله :

1-11 / لنرى الآن ما سيكون دور الحزب فى هذا المخطّط الجديد للأشياء . لقد حدّد لينين الحزب الشيوعيّ بالطليعة المنظّمة للبروليتاريا من أجل قيادة الطبقة العاملة و القطاعات الأخرى من الشعب فى الإفتكاك الثوريّ للسلطة السياسيّة . يمكننا أن نلاحظ ، هنا أيضا ، تأثير دروس كمونة باريس .

2-11 / لا يزال مبدأ المركزيّة الديمقراطيّة الذى طوّره لينين و طبّقه لا يزال المبدأ الأكثر فعاليّة و تقدّما فى عمل أيّ تنظيم إجتماعيّ . و الإنضباط الحديديّ للحزب المتصوّر فى هذا النظام ضروريّ لتنظيم يخوض حربا ثوريّة ضد قوى عدوّة أقوى . و فى ما يخصّ سير هذا النظام ، قدّم لينين أفضل نموذج للربط الجدليّ بين السير الديمقراطيّ داخل التنظيم ، قبل إتّخاذ القرار النهائيّ ثمّ تنفيذ القرار بصفة ممركزة . إن لم تُضمن هذه الديمقراطيّة الداخليّة ، يمكن للنظام بأسره أن ينحطّ بسهولة إلى مركزيّة تسلّطيّة و يحدث هذا عادة لأنّ التنظيمات الثوريّة تواجه أحيانا ظهور أوضاع فيها يجب للديمقراطيّة أن تتقلّص . لكن إذا لم يكن هذا منحصرا بصرامة فى مثل هذه الظروف الخاصة و لم تضمن الديمقراطيّة الداخليّة كمبدأ أساسيّ ، تكون إمكانيّة إنحراف واردة جدّا هناك . و هذا أكبر نقيصة فى نظام المركزيّة الديمقراطيّة .

3-11 / تدلّ الممارسة فى ظلّ لينين على أنّه ثمّة جوّ حرّ و منعش داخل التنظيم للتعبير عن النظرات و الآراء المختلفة و لنقاش الإختلافات . فى وضع ما بعد الثورة ، تمّ السماح لمجموعات أن تعمل بوضوح و حتّى أن تنشر موادها الخاصة بصفة مستقلّة . غير أنّه فى إطار تصاعد المحاولات المعادية للثورة ، قرّر المؤتمر العاشر للحزب (فى 1921) و بتوجيه من لينين أن يحظر مثل تلك التكتّلات و عملها المستقلّ . و لو أنّه من الممكن رؤية ذلك كقرار إستثنائيّ فى وضع إستثنائيّ ، فإنّ المقاربة المعتمدة فى حلّ المؤتمر و طبيعته تدلّ على أنّه تمّ التوصّل إلى هذا القرار على قاعدة مبدأ الوحدة . فقد صرّح قرار المؤتمر العاشر للحزب حول وحدة الحزب : " يعلن المؤتمر حلّ جميع الكتل بلا إستثناء ، التى تشكّلت على أساس هذا المنهج أو ذاك (أي كتلة " المعارضة العمّالية " و كتلة " المركزيّة الديمقراطيّة " إلخ) و يأمر بحلّها فورا . إنّ الإمتناع عن تنفيذ هذا القرار الذى إتّخذه المؤتمر يجب أن يستتبع الفصل الأكيد و الفوريّ من الحزب (لينين ، " **ضد الجمود العقائدي و الإنعزالية فى الحركة العمّالية** " ، صفحة 180 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربيّة) . و شرح القرار نفسه المقاربة تجاه هذه المسألة : " حول هذه المسألة ، ينبغى للدّعاية ، من جهة ، أن توضّح بصورة مفصّلة ما

ينطوى عليه التكتّل من ضرر و خطر من وجهة نظر وحدة الحزب و تحقيق وحدة إرادة طليعة البروليتاريا ، و ينبغى لها من جهة أخرى ، أن توضح خصائص أحدث الأساليب التكتيكية التى يلجأ إليها أعداء سلطة السوفيات " (نفس المصدر السابق ، صفحة 179).

11-4 / فى ما بعد ، إرتكز المفهوم العام للحزب الشيوعيّ ذى الوحدة الصمّاء ، الذى قدّمه ستالين و الذى ترسّخ أثناء كّل فترة الكومنترن و ما بعدها ، إرتكز على قرار المؤتمر العاشر ذاك . و أفرزت هذه الوحدة الصمّاء جوّا حيث جرى التشديد فيه دائما على المركزيّة بينما جرى التقليل من شأن الديمقراطيّة أو إهمالها . تصريح ستالين الواضح بأنّ دكتاتوريّة البروليتاريا فى جوهرها " دكتاتوريّة الحزب " وطّد هذا التوجّه . و كلّ معارضة للقيادة أمكن قمعها بإستعمال آلة الدولة بإسم تركيز هذه " الدكتاتوريّة ".

11-5 / محاولات ماو تطوير صراع الخطّين داخل الحزب يعدّ خطوة نحو إعادة تركيز أسلوب عمل المركزيّة الديمقراطيّة التى مارسها لينين ، بطريقة منهجيّة أكثر . و أمكن لماو أن يقدّم كذلك مسالة صحّة الخطّ الإيديولوجيّ و السياسيّ كعامل محدّد فى ترسيخ القيادة الصحيحة للحزب . لكن نظرا لأنّ ماو لم ينقد بصفة جليّة المفاهيم أعلاه ، و اقعيّا لم يُمثّل صراع الخطّين إلخ إلاّ بعض الخطوات الصغيرة فى التصحيح داخل الإطار العام المركّز قبلا .

11-6 / تقديس الحزب و الموقف الدينيّ تجاهه الناشئ عن ذلك تطوّر على ضوء المفاهيم إيّاها ، و مفاهيم السلطة الثوريّة التى وضعها ستالين بتحديد مفهوم اللينينيّة و ترسيخ سلطة لينين ، وطّدا الإنعكاسات السلبيّة فى هذا الورع الدينيّ . و كلّ رؤى معارضي السلطة القائمة كانت تعتبر خارج الموضوع بل و محرّمة بالنسبة للشيوعيّين . و على سبيل المثال لا الحصر، فى حين أنّها كانت تنقد أفكارهم ، لم يفكّر أيّ أحد فى ضرورة تفحّص ما إذا كانت أيّة أفكار قدّمها كاوتسكى و روزا لكسمبورغ و تروتسكي و بوخارين صحيحة و جديرة بالإعتبار . مع أنّ أسلوب ماو فى صراع الخطّين الواضح عبر النقاش المفتوح و الجدالات خلق جوّا جديدا ، يمكن أن نرى أنّ مفهوم السلطة الثوريّة حتّى أثناء الثورة الثقافيّة ، ظهر بطريقة قويّة أكثر و من جديد قلّص الجوّ الديمقراطيّ . و إكتسبت عبادة الشخصيّة كتابعة لمفهوم السلطة الثوريّة أبعادا خطيرة أثناء الثورة الثقافيّة ،لا سيما بإقتراح من لين بياو . تجربتنا الذاتيّة فى الحزب الشيوعيّ الهندي (الماركسيّ – اللينينيّ) فى ما يخصّ نتائج مفهوم السلطة الثوريّة للرفيق شارو ماجوندار تعتبر مثالا بهذا الشأن.

11- 7 / بعدما قد وصلنا إلى مرحلة إكتشاف ماو أنّ ظهور البرجوازيّة داخل الحزب الشيوعيّ هي أهمّ خطر تواجهه دكتاتوريّة البروليتاريا ، حان الوقت لإعادة تفحّص كلّ هذه التجربة فى علاقة بدكتاتوريّة البروليتاريا و دور الحزب فيها ، لا سيما فى إطار نهوض الشعب فى تمرّد ضدّ المدّعاة أحزاب شيوعيّة التى كانت تحكمه بإسم دكتاتوريّة البروليتاريا . فالكلام المضلّل لن ينقذ الوضع . إعادة تفحّص شامل لمفهوم الحزب الشيوعيّ و دوره فى السيرورة التاريخيّة لبناء الإشتراكيّة و الشيوعيّة هو حاجة ملّحة . عوض جعل الحزب المركز الكليّ للسلطة السياسيّة يجب تطوير هيكلة تنظيميّة و مقاربة للحزب تتماشيان مع هدف الطبقة العاملة فى إلغاء الطبقات عينها . هنا نقترح بعض الخطوات .

12 / حلّ لغز الحزب الشيوعيّ :

12-1 / دور الحزب الشيوعيّ كطليعة للبروليتاريا ينبغى أن يخضع للإختبار و التدليل عليه فى مضمار السيرورة التاريخيّة . و ينبغى كذلك الحكم على أنّه يخدم المصلحة الطبقيّة للبروليتاريا أو لا بتفحّص ما إذا كانت برامجه و سياساته تتطابق مع الواقع المتغيّر جاعلة إيّاه قادرا على قيادة الصراع الطبقيّ للطبقة العاملة و القطاعات الشعبيّة الأخرى فى ظرف معيّن . إنّ المصلحة الطبقيّة للبروليتاريا ذاتها ، فى ظرف معيّن ، نسبيّة جدّا ، متغيّرة تبعا للواقع المتغيّر ، مع أنّ المصلحة النهائيّة للطبقة العاملة ، مصلحة بناء الشيوعيّة ، تظلّ هدفا بعيد المدى فى ظرف معيّن ، مهام ثورة محدّدة ، أو مرحلتها ، يمكن تحديدها لكن هذا فى حدّ ذاته سيكون موضوع تغيّر و تعديل ، و لو أنّ النظرة الأساسيّة للبروليتاريا حول تلك المرحلة الثوريّة المحدّدة ستبقى ثابتة . فقط حين يدرك حزب شيوعيّ موقعه الدقيق فى هذا الإتجاه ، حين يدرك أنّه دائما موضوع إختبار الواقع التاريخيّ ، بإمكانه أن يصل إلى تعقيدات الواقع . ثم بإمكانه أن يدرك أنّه لا يخضع لأيّة سلطة إلاّ سلطة الطبقة العاملة و الشعب أو سلطة التاريخ . ليس بإمكانه إلاّ أن يخدم الشعب . هنا نستطيع أن نلاحظ فرقا بين حزب يقود الثورة لإفتكاك السلطة و حزب يحتكر السلطة . فى الحال الأوّل ، يفرض الإطار عينه على الحزب أن يكون ناقدا لذاته

و أن يصحّح خطّه و ممارسته و يطوّرهما بإستمرار بغية تعبئة الجماهير لأجل الثورة . لكن ، فى الحال الثاني ، يعمل ضغط الظروف فى الإتّجاه المعاكس . و عندما يقرن هذا بعبادة الحزب ، فإنّ الإنحطاط لن يكون بعيدا .

2-12 / نبذ مفهوم السلطة الثوريّة :

إنّ الماركسيّة فلسفة و علم متطوّرين أبدا. لها إمكانيّة إستيعاب غزارة المعرفة التى تنتجها ما لا تحصى من البحوث الإنسانيّة . و صحيح أنّ قيادة الحركة الثوريّة الحقيقيّة يمكن أن تساهم أكثر بكثير من أيّ إنسان آخر في ذلك . إلاّ أنّ المساهمات فى الماركسيّة إذا ما كانت محصورة فى مثل تلك الشخصيّات فى فترات معيّنة ، فإنّها ستقلّص الماركسيّة إلى حدّ كبير . و أثناء فترة سلطة ستالين ، تبيّنت تماما النتيجة السلبيّة لمثل هذه السياسة . و حتّى إبّان التجربة الغنيّة للثورة الصينيّة ، لم تؤخذ بعين الإعتبار إلاّ مساهمات ماو فى إثراء الماركسيّة . فضلا عن ذلك ، مثلما هو الحال فى ما يتّصل بستالين ، بينما نرفض الإعتراف بمساهمة أيّ إنسان آخر سوى السلطة و عموما نرفض الإعتراف بأيّ خطإ إقترفته تلك السلطة . حتّى القوى الماركسيّة ـ اللينينيّة ، و نحن منها ، حاولت الدفاع عن أخطاء ستالين بالمحاججة بأنّ نيّته كانت خدمة المصلحة البروليتاريّة . كنّا ننسى أنّ مثل هذه الحجّة معادية للماركسيّة بكلّ معنى الكلمة ، لأنّ الماركسيّة تعلّمنا أن نقيّم صحّة أيّة سياسة ليس على أساس النيّة الذاتيّة لصاحبها ، بل على أساس النتائج الفعليّة . لقد خلق مفهوم السلطة الثوريّة نوعا من الطاعة العمياء أو نوعا من الورع الدينيّ ضمن الأتباع . دون تحطيم هذا الورع الدينيّ ، ليس بإمكان الماركسيّة أن تعيد تركيز طابعها العلميّ الحيويّ و القويّ .

3-12 / إعادة التشكيل المستمرّ لأسلوب التفكير و العمل :

بناءا على المقاربة أعلاه ، يجب القيام بإعادة تشكيل شاملة لأسلوب التفكير و العمل عبر التنظيم . و قد شرعنا بعدُ فى معالجة مسألة إعادة تشكيل أسلوب التفكير و العمل و طوّرنا بعض المفاهيم و الممارسة أيضا فى ذلك الإتّجاه . و علينا مزيد تطويرها و تطوير حتّى الإكتشافات إيّاها أيضا .

<u>13 / بعض المسائل الإضافيّة :</u>

1-13 / يجب إعتبار التقييم أعلاه لتجارب الماضى و المقترحات المقدّمة كحلول نظريّة و عمليّة للأزمة التى تواجهها الحركة الشيوعيّة خطوات أولى فقط فى هذا المنحى . مظهر هام تمّ إسقاطه هنا هو تحليل الأساس الفلسفيّ للإنحرافات التى سقطت فيها الحركة الشيوعيّة و خطوات إصلاحها . المسألة هامة و حيويّة للغاية بالنسبة للحركة الشيوعيّة الحقيقيّة . مع أنّ هناك مقاربة فلسفيّة متماسكة وراء تحليلنا و بحوثنا كتيّار تحتيّ ، فإنّ علينا أن نشرع فى دراسة هذا الموضوع بصفة خاصة و شاملة الشيء الذى لم نحاوله هنا .

2-13 / فى تحليلنا أعلاه ، قد شخّصنا توجّها وُجد لزمن طويل داخل الحركة الشيوعيّة جميعها ، توجّه الإختزاليّة الطبقيّة . فى الواقع ، خلال السنوات القليلة الماضية ، لما كنّا نُطوّر الخطّ الجديد ، كنّا نواجه هذه المشكلة المرّة تلو المرّة . بالرغم من أنّنا قد عالجنا مشكل معارضة الصراع الطبقيّ بالصراع القوميّ ، لم ندرك بعدُ الجوانب غير الطبقيّة للمسألة القوميّة بسبب مقاربتنا نحن الإختزاليّة الطبقيّة . و بينما قطعنا مع المقاربة الآليّة حول مسألة المرأة و مسألة الطوائف ، إعترفنا بالمظهر غير الطبقيّ المتّصل بهذه المسائل . إلى الآن ، لم نبدأ فى صراع ضد توجّه الإختزاليّة الطبقية المتخندق جيّدا فى تفكيرنا . لذلك ، فى هذه المجالات المعيّنة ، نواجه كذلك عوائقا جدّية لا يمكن تجاوزها إلاّ لماّ نشرح حقيقة فى صراع ضد التجلّيات الملموسة لهذه المقاربة الإختزاليّة الطبقيّة . و الآن ندرك أهمّية المظهر غير الطبقيّ لعلاقة الفرد / المجتمع ، فى إرتباط بمهمّة تطوير الديمقراطيّة البروليتاريّة . أيضا ، ندرك خطورة الهزيمة التى لحقت بالحركة الشيوعيّة نظرا لغياب فهم جدليّ للمظهرين الطبقيّ و غير الطبقيّ المتضمّنين فى تطوير نظام سياسيّ و إقتصاديّ أثناء المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة .

3-13 / فى هذه العلاقة ، ثمّة مسألة هامة أخرى لم نقم بنقاشها إلى حدّ الآن . إنّ الماركسيّة تواجه تحدّيا نظريّا جدّيا من طرف الحركة البيئيّة التى برزت و تطوّرت عبر العالم كافة . أزمة نظام الإنتاج الرأسماليّ تُعرض فى شكل مستقلّ مظلم

للإنسانية جمعاء و لهذا الكوكب بالذات . فالبيئيّون يطرحون المسألة الوثيقة الصلة بالموضوع ألا وهي أنّ الإشتراكية لم تستطع أن تنتج أيّ نموذج بديل آخر من قوى الإنتاج سوى تطوير قوى الإنتاج التى قد ورثتها عن الرأسماليّة و هكذا يبيّنون طريقة تجاوز هذه الأزمة . أثناء الثورة الثقافيّة ، قد أجاب ماو عن هذه المسألة و لو من زاوية مختلفة . فقد فضح الطابع الرجعيّ لنظريّة قوى الإنتاج التى كانت مهيمنة إلى درجة كبيرة داخل الحركة الشيوعيّة كلّها ، لا سيما خلال فترة البناء الإشتراكيّ و ركّز وجهة التغيير الثوريّ المعتمد على الثورة فى علاقات الإنتاج . بالتأكيد على الحاجة إلى حلّ التناقض بين المدينة و الريف ، أدخل مفهوما مختلفا لتطوير قوى الإنتاج نفسها . و فى الواقع ، وفّر ذلك القاعدة النظريّة لأسلوب إنتاج بديل فى ظلّ الإشتراكيّة . و أثناء الثورة الثقافيّة ، تحققت أيضا عديد الإختراقات على المستوى العلميّ . و طبعا ما كان ذلك سوى بداية . مسائل أخرى ينبغى أن تعالج فى هذا المضمار .

4-13 / و قد أدركنا الطبيعة المعقّدة لعلاقة الفرد/ المجتمع ، المطلوب منّا هو مزيد تعميق فهمنا للإختلافات و العلاقات المتبادلة بين الفرد الطبقيّ و الفرد غير الطبقيّ . لقد أشار ماركس من قبل إلى هذا التقسيم بين الفرد الذاتيّ و الفرد الطبقيّ . قال ماركس : " ... فى أثناء التطوّر التاريخيّ ... يظهر إختلاف داخل حياة كلّ فرد فى ما يتّصل به كذات و حياته فى ما يتّصل بتبعيّته لنوع من قطاع العمل و الظروف الخاصة بهذا القطاع " (ماركس و إنجلز ، " **الإيديولوجيا الألمانية** "، صفحة 115 ، المنشورات الإجتماعيّة ، باريس 1972 ، الطبعة الفرنسية) . لكن هذه المسألة لم تؤخذ بعين الإعتبار فى ما بعد . فى علاقة بهذا التناقض فرد/ مجتمع ، تُطرح مسألة نظام القيم ذاته و الموقف الماركسيّ هو أنّه ليست هنالك قيم أبديّة و أنّ نظام قيم مختلف الفترات وثيق الصلة بالأنظمة الإجتماعيّة – الإقتصاديّة لكلّ فترة قد ثبت بعدُ بصفة لا تضاهى . بيد أنّه فى الوقت نفسه ، يجب القيام بدراسة أعمق للدور المعقّد للعلاقة المتبادلة بين الفرد الطبقيّ و الفرد غير الطبقيّ فى تشكيل أنظمة قيم كلّ فترة . علاوة على ذلك ، و نحن نناضل ضد نظام القيم السائد ، على عاتق الحركة الثوريّة تقع مسؤوليّة تطوير أنظمة قيم بديلة جديدة وفق المراحل المعيّنة للثورة . ذلك أنّ نظام القيم مرتبط إرتباطا وثيقا بديناميّة الخضمّ الثقافي الذى ينهض بدور هامّ جدّا فى البناء الإجتماعيّ ككلّ . لكن عموما ، وقع إهمال مهمّة تطويرهذا النظام القيميّ الجديد و وقع التشديد على المهام الإقتصاديّة و السياسيّة .

5-13 / فى سعينا إلى إدراك ديناميّة إعادة تركيز الرأسماليّة فى البلدان الإشتراكيّة السابقة ، قد فهمنا بوضوح دور المادية الميكانيكية التى هيمنت على كلّ التفكير التحريفيّ . و الآن ، نرى أنّ فى تاريخ الحركة الشيوعيّة كلّه ، لعبت هيمنة الماديّة الميكانيكيّة دورا هاما فى الإنحرافات التى حلّلنا سابقا . و رغم الدور الإيجابيّ الذى لعبه لينين و ماو فى إلحاق الهزيمة بتأثير الماديّة الميكانيكيّة ، فإنّ هذه الأخيرة هيمنت على الحركة ككلّ . الإختزاليّة الإقتصاديّة المنعكسة فى شكل نظريّة قوى الإنتاج و عديد الأشكال الأخرى ، و الإختزاليّة الطبقيّة المنعكسة فى إهمال المظاهر الأخرى من الديناميّة الإجتماعيّة هما التمظهران الأكبر لهذا التأثير . و لو أن ماركس و إنجلز قد إعتبرا أنّ تصفية الحساب مع الماديّة الميكانيكيّة على نفس أهمّية تصفية الحساب مع المثاليّة ، فإنّ الحركة الشيوعيّة ككلّ لم تقدر على إنجاز المهمّة مثلما كان مطلوبا . و قد أمكن للينين و ماو أن يقدّما مساهمات ذات بال فى هذا الإتّجاه لكن حالة الأشياء فى الحركة ككلّ بقيت فى غاية السلبيّة .

6-13 / مثلما أشار لينين بصفة صحيحة ، لم يعطها ماركس " منطقا بميم مشدّد عليها " . مع أنّه طبّق منهجيّة ماركس الماديّة الجدليّة على نحو جيّد فى أعماله النظريّة ، إلاّ أنّه لم يستطع أن يلخّصها فى شكل عرض منظّم للمنطق الجدليّ . كان لينين يشير إلى هذا و لينين و ماو ساهما فى أثناء محاولاتهما تطبيق الجدليّة المنسوبة إلى ماركس على الظروف الملموسة التى واجهتهما . و بالرغم من ذلك ، يمكننا أن نلاحظ أنّ الماديّة الجدليّة تبقى فى مستوى أوّليّ للغاية . و هذا التخلّف ينعكس فى التجارب الإحاديّة الجانب المتواصلة و المتكرّرة و عدم القدرة على فهم ظهور ظواهر جديدة إلخ داخل الحركة الشيوعيّة باسرها. تجربتنا الخاصة تثبت كيف أنّنا كنّا متأخّرين فى فهم الديناميّة الإجتماعيّة الواقعية لمجتمعاتنا نحن الخاصة و حتّى الآن ، نحن فى مستوى أوّليّ من إنجاز هذه المهمّة ليس إلاّ .

14 / الخاتمة :

1-14 / قدّم ماركس هذه الملاحظة الموضوعيّة المنيرة حول الثورات البروليتاريّة لأواسط القرن التاسع عشر التى كان فيها مساهما مباشرة و عن كثب :

" ... أمّا الثورات البروليتارية كتلك التى تحدث فى القرت التاسع عشر ، فهي ، بالعكس ، تنتقد ذاتها على الدوام ، و تقاطع نفسها بصورة متواصلة أثناء سيرها ، و تعود ثانية إلى ما بدا أنّها أنجزته لتبدأ فيه من جديد ، و تسخر من نواقص محاولاتها الأولى و نقاط ضعفها و تفاهاتها بإستقصاء لا رحمة فيه ، و يبدو أنّها تطرح عدوّها أرضا لا لشيء إلاّ ليتمكّن من أن يستمدّ قوّة جديدة من الأرض و ينهض ثانية أمامها وهو أشدّ عتوّا ، و تنكص المرّة تلو المرّة أمام ما تتّصف به أهدافها من ضخامة غير واضحة المعالم ، و ذلك إلى أن ينشأ وضع جديد يجعل أيّ رجوع إلى الوراء مستحيلا ..."

(" **الثامن عشر من برومايير بونابرت** " ، ماركس وإنجلز ، " **المختارات** " ، المجلّد 1 ، صفحة 143 ، دار التقدّم ، موسكو ، الطبعة العربية).

يتحدّث ماركس عن الثورات البروليتاريّة العفويّة ، بينما نحن الآن نناقش الثورات البروليتاريّة للقرن العشرين التى تقودها الطليعة الواعية للبروليتاريا ، الأحزاب الشيوعيّة . و مع ذلك ، تعطينا الملاحظة أعلاه نفاذ بصيرة أعمق فى المنهج الذى علينا تبنّيه لتقييم تجارب ثورات القرن العشرين . الآن ، نفهم أنّ هذه التجارب لا يمكن تحليلها ببساطة على مستوى النواقص الذاتيّة للأحزاب الشيوعيّة . بالأحرى ، قد تخلّصت من هذا إلى مستوى الواقع التاريخيّ لهذه الفترة . يجب فهمها و تقييمها فى فحص موضوعيّ أوسع لتاريخ الفترة . على شيوعيّي القرن العشرين أن يكونوا أكثر نشاطا و مساهمين طليعيّين فى هذه السيرورة . عليهم أن يحلّلوا " نواقص محاولاتها الأولى و نقاط ضعفها و تفاهاتها " و ينبغى أن يكرّر هذا مرّة فمرّة " إلى أن ينشأ وضع جديد يجعل أيّ رجوع إلى الوراء مستحيلا " لأنّنا نفهم أنّ طريق القيام بثورات بروليتاريّة لتحقيق الشيوعيّة يتمّ على أمد طويل و أنّ الطريق فى غاية التعرّج.

2-14 / كلّ التجارب الذاتيّة و الموضوعيّة لكافة الحركة الشيوعيّة و كذلك كلّ التجارب التاريخيّة لهذه الفترة تدلّل بصفة واسعة على أنّ المقاربة الماديّة التاريخيّة التى طوّرتها الماركسيّة هي الوسيلة الفعاّلة الوحيدة بأيدينا كي نفهم تعقيدات الديناميّة الإجتماعيّة و سيرورة التطوّر التاريخيّ . نفس الوسيلة تساعدنا على فهم نواقص الحركة الشيوعيّة ذاتها . هذه إحدى أهمّ الميزات الثوريّة للماركسيّة . التحاليل و محاولات التصحيح يجب فهمها على هذه الخلفيّة . لمّا وضع شعب البلدان الإشتراكيّة سابقا الإستراتيجيا الشيوعيّة لإحتكار الحزب للسلطة على إمتداد كلّ المرحلة الإنتقاليّة الإشتراكيّة على رصيف التاريخ ، لا يمكن للشيوعيّين أن يبقوا مسرورين بعزاء أنّ هذا **إفراز** للتفكير المتخلّف ضمن الشعب . بالعكس ، تدلّ هذه التجارب مرّة فمرّة على التعاليم الماركسيّة بأنّ الشعب وحده هو صانع التاريخ . على الشيوعيّين أن يكونوا متواضعين بحيث يتعلّموا من هذه التجربة دون أيّة محاولات لتغطية نواقصهم و أخطائهم الخاصة . عندئذ فقط يمكنهم أن يكسبوا من جديد دورهم الطليعيّ فى سيرورة التقدّم الدائب للتطوّرات التاريخيّة . و على الشيوعيّين أن يفضحوا و يهزموا بلا رحمة السمة المنتشرة فى الماركسيّة و الممارسة فى شكل دوغما عقيمة و ميّتة . فالماركسيّة فلسفة ديناميكيّة و مرشد للممارسة الثورية . مهمّتنا التاريخيّة الملحّة هي إكسابها من جديد حيويّتها و ديناميكيّتها فى سبيل إنجاز مهمّة الثورة على المستويات كافة .///

فهارس كتب شادي الشماوي

27 كتابا

متوفّرا للتنزيل من مكتبة الحوار المتمدّن

(الماوية : نظرية و ممارسة - من العدد 1 إلى العدد 27)

شكر :

و من الشكر جزيله إلى كلّ من ساهم و يساهم بشكل أو آخر فى نشر أعمالنا و نقدها نقدا بنّاء و تقديم المقترحات ... خدمة للثورة البروليتارية العالمية و لقضيّتنا و هدفنا الأسمى ، الشيوعية على المستوى العالمي .

فهرس الكتاب الأوّل :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 1 –

علم الثورة البروليتاريّة العالميّة : الماركسيّة – اللينينيّة - الماويّة

ملاحظتان لا بدّ منهما :

1- الترجمة غير رسمية .

2- الفصل الأول معتمد على ترجمة قديمة أعدّها رفاق جرى العمل على ضبطها قدر الإمكان.

فهرس الكتاب الثاني :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 2 –

عالم آخر، أفضل ضروري و ممكن ، عالم شيوعي ... فلنناضل من أجله !!!

6- الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى صراع بين الطريق الإشتراكي و الطريق الرأسمالي.

7- هزيمة الصين الإشتراكية و الدروس المستخلصة للمستقبل.

8- البناء على أساس الموجة الأولى من الثورات الإشتراكية .

خاتمة :

- هدف الماركسية هو الشيوعية.

ملاحظة : المقدّمة العامة و الخاتمة العامّة وملحق الفصل الأوّل بقلم المترجم. و نصوص الفصلين الأوّل و الثاني مقالات وردت فى "الثورة" لسان حال الحزب الشيوعي الثوري، الولايات المتحدة الأمريكية أمّا الفصل الثالث فهو محاضرة لريموند لوتا نشرت فى "الثورة " و ترجمها إلى الفرنسية و نشرها رفاق الكندا على حلقات فى " الأرسنال أكسبريس ".

فهرس الكتاب الثالث :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 3 –

لندرس الثورة الماويّة فى النيبال و نتعلّم منها

(من أهمّ وثائق فترة 1995- 2001)

فهرس الكتاب الرابع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 4 –

الثورة الماويّة فى الصين : حقائق و مكاسب و دروس

5- الفصل الرابع : من تحرير المرأة إلى إستعبادها :

1- كسر سلاسل التقاليد جميعها .

2- كيف حررت العناية الجماعية بالأطفال النساء فى الصين الماوية.

3- النساء فى الصين : السوق الحرة الرأسمالية القاتلة.

4- النساء فى الصين : عبودية السوق الحرة .

5- النساء فى الصين : منبوذات السوق الحرة .

6- الفصل الخامس : من مكاسب الثورة الماوية فى الصين :

1- المكاسب الإقتصادية و الإجتماعية فى ظل ماو.

2- المعجزات الإقتصادية للصين الماوية، حين كانت السلطة بيدي الشعب.

3- كيف قضت الثورة الماوية على الإدمان على المخدرات فى الصين.

4- كيف حررت العناية الجماعية بالأطفال النساء فى الصين الماوية.

5- كسر سلاسل التقاليد جميعها.

6- معطيات و أرقام من كتاب "25 سنة من الصين الجديدة ".

7- الفصل السادس : إلى الأمام على الطريق الذى خطّه ماو تسى تونغ

8 – خاتمة

المراجع : بإستثناء-1- نصّ "مقتطفات من وثيقة صيغت..." و " إلى الأمام...."وهي نصوص للحركة الأممية الثورية صدرت فى "عالم نربحه" و-2- "خرافات حول الماوية " للرفيق أريك سميث من كندا ، و "معطيات و أرقام من كتاب " 25 سنة من الصين الجديدة"، و-3- المقدّمة العامة و مقدّمة "حقيقة ماو تسى تونغ والثورة الشيوعية فى الصين" و مقال "من صين ماو الإشتراكية إلى صين دنك الرأسمالية..." للمترجم ،

فإن بقية الوثائق مرجعها "الثورة" جريدة الحزب الشيوعي الثوري، الولايات المتحدة الأمريكية.

فهرس الكتاب الخامس :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 5 –

الثورة الماويّة فى النيبال و صراع الخطّين صلب الحركة الأمميّة الثوريّة

1- **" ثورة النيبال : نصر عظيم أم خطر عظيم ! "** ،

الحزب الشيوعي الإيراني (الماركسي – اللينيني- الماوي).

2- **وثائق الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية :**

مقال "الثورة "عدد160 : بصدد التطورات فى النيبال و رهانات الحركة الشيوعية :

- بعض الخلفية التاريخية.
- الوضع الراهن.
- التحوّل إلى التحريفية ، جذوره وإنعكاساته.
- الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) يردّ على الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة الأمريكية عمليا و نظريا.
- سويسرا جنوب آسيا أم قاعدة إرتكاز للثورة؟
- مساومة مع التحريفية فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى قطيعة راديكالية .
- رهانات هذا الصراع و الحاجة الآن إلى تقديمه إلى العالم.

رسائل الحزب الشيوعي الثوري ،الولايات المتحدة:

1-: **فى رسالة جانفي 2009**، بعد عرض مقتضب جدا لما سبق من مراسلات و صراع منذ 2005 ، تعلم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الثوري الولايات المتحدة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي النيبالي الموحّد (الماوي) عزمها نشر الرسائل علنيا إذا لم تتصل بردّ شافي أو بسبب مقنع فى حدود منتصف فيفري2009.

2- : **رسالة أكتوبر 2005** إلى الحزب الشيوعي النيبالى (الماوي) :

- الديمقراطية : الشكل و المضمون.

- الديمقراطية الشكلية فى ظلّ الإشتراكية.

- الجمهورية الشعبية أم أشكال إنتقالية؟

- التكتيك و الإستراتيجيا.

- إقتراح يبعث على التساؤل.

- حول "المجتمع الدولي".

- النيبال و النظام الإمبريالي العالمي.

- الديمقراطية و الفئة الوسطى.

ملاحق رسالة أكتوبر 2005 :

- ملحق 1: "التطوير الخلاق للماركسية-اللينينية-الماوية ، ليس للتحريفية".

- ملحق 2 : "مزيدا من التفكير حول : الدولة الإشتراكية بما هي دولة من نوع جديد".

-3 : **رسالة 19 مارس 2008** إلى أحزاب و منظمات الحركة الأممية الثورية :

- تكتيكات مربكة تطبيقا لخطّ إيديولوجي و سياسي خاطئ.

- ما الهدف : "إعادة هيكلة الدولة " أم "تحطيمها"؟

- الديمقراطية البرجوازية و الديمقراطية الجديدة.

- الديمقراطية البرجوازية "النسبية " أم نظام الديمقراطية الجديدة ؟

- الأرض لمن يفلحها.

- حول الدستور و الحكم الطبقي.

- الممارسة الثورية.

- من يخدع من ؟

- تسليح الجماهير بالحقيقة أم نسج الإرتباك عمدا؟

- توغلياتي و توريز.

- إعادة كتابة تاريخ الحزب.

- مزيد التنكّر للحقائق التاريخية.

- البعد العالمي.

- "مزج الإثنين فى واحد " أم "إزدواج الواحد" ؟

- الدفاع عن الإنتقائية.

- جوهر المسألة - الخطّ الإيديولوجي و السياسي.

- ما هو نوع التلخيص الإيديولوجي الذى نحتاج إليه؟

رسالة نوفمبر 2008 إلى الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) و إلى كافة أحزاب و منظمات الحركة الأممية الثورية:

- المشكلة هي خطّ الحزب

- الديمقراطكية الجديدة والإشتراكية حجرين أساسيين فى الطريق نحو الشيوعية.

- معجزة الإنتخابات؟

-" دون جيش شعبي لن يكون هناك شيئ للشعب "

- جزء من إعادة بعث الشيوعية الثورية أم جزء من قبرها ؟

- تلخيص جديد أم ديمقراطية برجوازية قديمة ممجوجة ؟

- "محرّرو الإنسانية" أم مشيّدو سويسرا جديدة ؟

- صراع خطّين أم صراع " الخطوط الثلاثة" ؟

- خلاصة القول : لنقاتل من أجل إنقاذ الثورة !

3- رسالة الحزب الشيوعى النيبالى (الماوى) إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية:

1 جويلية 2006

-الإطار التاريخي.

- التجربة التاريخية و جهودنا.

- الدولة ، الديمقراطية و دكتاتورية البروليتاريا.

- الجمهورية الديمقراطية - شكل إنتقالي .

- الإستراتيجيا و التكتيك.

- الجمهورية الديمقراطية الجديدة للنيبال و الجيش .

- نقاط ملخصة.

- خاتمة

<u>4-" لنقاتل من أجل إنقاذ الثورة فى النيبال"، الشيوعيون الثوريون الألمان :.</u>

1- دور النظرية و الأخطاء الإستراتيجية التاريخية.

2- الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) و النظرة المادية للمجتمع و التاريخ.

3- الهجوم الإستراتيجي ، "حلّ سياسي" و المنهج العلمي الشيوعي.

4- مسألة الإستراتيجيا ،إتفاق السلام الشامل وإفتكاك السلطة عبر البلاد بأسرها.

5- الواقع وواقع المزج القاتل بين الإختزالية و البراجماتية.

الخاتمة.

<u>5- رسالة مفتوحة إلى الحزب الشيوعى النيبالى الموحّد (الماوى) من الحزب الشيوعى الهندي (الماوى) :</u>

1- تحديد طبيعة الدولة فى النيبال و آفاق إنهاء الثورة.

2- بصدد الحكومة الإئتلافية.

3- بصدد قواعد الإرتكاز و نزع سلاح جيش التحرير الشعبي.

4- بصدد ديمقراطية القرن الواحد و العشرين.

5- بصدد طريق الثورة فى البلدان شبه المستعمرة شبه الإقطاعية : نظرية المزج.

6- بصدد مرحلة الثورة فى النيبال.

7- بصدد فهم الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي) للتوسعية الهندية.

8- بصدد الفيدرالية السوفياتية لجنوب آسيا.

9- بصدد طريق برانشندا.

10- بصدد الأممية البروليتارية.

11- لن يتمكّن خط ثوري من إعادة تركيز نفسه و إنجاز الثورة النيبالية إلاّ عبر خوض صراع صارم ضد الخطّ الإنتهازي اليميني الذى تتبعه قيادة الحزب الشيوعي النيبالي (الماوي).

6- ملاحق :

1- حول طرد الحزب الشيوعي النيبالي (ماشال) من الحركة الأممية الثورية.

2- بعض الوثائق النيبالية المتصلة بالإنتخابات و نتائجها فى النيبال:

3- تصريحات ماويين آخرين حول النيبال:

فهرس الكتاب السادس :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 6 –

جمهوريّة إيران الإسلاميّة : مذابح للشيوعيّين و قمع و إستغلال و تجويع للشعب

فهرس الكتاب السابع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 7 –

مدخل لفهم حرب الشعب الماويّة فى الهند

فهرس الكتاب الثامن :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 8 –

تحرير المرأة من منظور علم الثورة البروليتاريّة العالميّة :

الماركسيّة –اللينينيّة – الماويّة

2- الإعداد للثورة الشيوعية مستحيل دون النضال ضد إضطهاد المرأة **!** و تحرير المرأة مستحيل دون بلوغ المجتمع الشيوعي**!**

3- مساهمات فى تغيير الواقع ثوريا.

الفصل الخامس : الثورة البروليتارية و تحرير النساء

1- الثورة البروليتارية و تحرير النساء ...

2- بيان : من أجل تحرير النساء و تحرير الإنسانية جمعاء.

فهرس الكتاب التاسع :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 9 –

المعرفة الأساسيّة لخطّ الحزب الشيوعيّ الثوريّ ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة

(من أهمّ وثائق الحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية)

فهرس الكتاب العاشر:

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 10 –

الثورة البروليتارية فى أشباه المستعمرات والمستعمرات الجديدة

و فى

البلدان الإمبريالية – تركيا و الولايات المتحدة الأمريكية

فهرس الكتاب 11 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 11 –

الماويّة تدحض الخوجيّة ومنذ 1979

1- **بإحترام و حماس ثوريين عميقين، نحيّي القائد الخالد للبروليتاريا الصينية، الرفيق ماو تسى تونغ، فى الذكرى الثالثة لوفاته! – الحزب الشيوعى التركي / الماركسي-اللينيني، جويلية 1979.**

2- **دفاعا عن فكر ماو تسى تونغ؛ وثيقة تبنّاها مؤتمر إستثنائى للحزب الشيوعى بسيلان إنعقد فى جويلية 1979 .**

(و إضافة إستثنائية: " **دحض أنور خوجا** " ؛ **ن. ساموغاتاسان، الأمين العام للحزب الشيوعي بسيلان - 1980**.)

3- "***تقييم عمل ماو تسى تونغ***"؛ **للحزب الشيوعي الثوري الشيلي**- جويلية 1979.

4-**" فى الردّ على الهجوم الدغمائى - التحريفى على فكر ماو تسى تونغ " بقلم ج. وورنار**؛ ماي 1979.

فهرس الكتاب 12 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 18 –

مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسى تونغ

مقدّمة لشادي الشماوي ناسخ الكتاب و معدّه للنشر على الأنترنت

المحتويات :

18- الوطنية و الأممية.

19- البطولة الثورية.

20- بناء بلادنا بالعمل المجد و الإقتصاد فى النفقة.

21- الإعتماد على النفس و النضال الشاق.

22- أساليب التفكير و أساليب العمل.

23- التحقيقي و الدراسة.

24- تصحيح الأفكار الخاطئة.

25- الوحدة و التضامن.

26- النظام.

27- النقد و النقد الذاتي.

28- الشيوعيون.

29- الكوادر.

30- الشباب.

31- النساء .

32- الثقافة و الفنّ.

ملحق أعدّه شادي الشماوى:

مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسى تونغ بصدد الثورة الثقافية

==

فهرس الكتاب 13 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 13 –

الماويّة تنقسم إلى إثنين

ردّ على رسالة غرّة ماي للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية .

(الحزب الشيوعي (الماوي) الأفغاني)

الفصل الخامس : تعمّق النقاش حول الخلاصة الجديدة لبوب آفاكيان (2): ردّ من المكسيك.

الخلاصة الجديدة للشيوعية و بقايا الماضى .

المنظمة الشيوعية الثورية ، المكسيك – ماي 2012

الفصل السادس : خلافات عميقة بين الحزبين الماويين الأفغاني و الإيرانى :

أ- الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسي – اللينيني – الماوى) سقط فى تيه طريق " ما بعد الماركسية – اللينينية – الماوية ".

ب- نظرة على الإختلافات بين الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسى – اللينينى – الماوي) و الحزب الشيوعى (الماوي) الأفغانى .

فهرس الكتاب 14 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 14 –

برنامج الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسى - اللينينى – الماوى) (2000)

الدولة البروليتارية : الديمقراطية و الدكتاتورية :

الدولة و الحزب :

الدولة و الإيديولوجيا :

الدولة و الدين :

الدولة و الثقافة :

الدولة و الدعاية :

الحرّية و القمع و المقاربة المتصلة بالمعارضة :

الإقتصاد الإشتراكي :

العلاقة بين البلدان الإشتراكية و الثورة العالمية :

تناقضات النظام العالمي و صورة العالم الراهن :

II / الثورة فى إيران و البرنامج الأدنى

لمحة عن إيران المعاصرة

الهيمنة الإمبريالية :

الرأسمالية البيروقراطية :

شبه الإقطاعية :

ثلاثة جبال و علاقات إنتاج مهيمنة على المجتمع :

الدولة شبه المستعمرة فى إيران :

الطبقات و موقعها فى سيرورة الثورة فى إيران

طبقات البرجوازية – الملاكين العقاريين :

البرجوازية الوسطى (أو البرجوازية الوطنية) :

البرجوازية الصغيرة المدينية :

المثقّفون :

الفلاحون :

الفلاحون الأغنياء :

الفلاّحون المتوسّطون :

الفلاحون الفقراء و الذين لا يملكون أرضا (أشباه البروليتاريا فى الريف) :

شبه البروليتاريا المدينية :

الطبقة العاملة :

بعض التناقضات الإجتماعية المفاتيح

النساء :

القوميات المضطهَدَة :

الشباب :

طبيعة الثورة و آفاقها

فى المجال السياسى :

فى المجال الإقتصادي :

فى المجال الثقافي :

الخطوات الفورية و إرساء إتجاه التغيير

بشأن العمّال :

بشأن الفلاحين :

بشأن النساء :

بشأن القوميات المضطهَدة :

بشأن التعليم :

بشأن الدين و النشاطات الدينية :

عن بعض أمراض المجتمع

البطالة :

الإدمان على المخدّرات :

البغاء :

المدن المنتفخة و اللامساواة بين الجهات :

السكن :

الوقاية الصحّية و الرعاية الطبيّة :

الجريمة و العقاب :

العلاقات العالمية :

طريق إفتكاك السلطة فى إيران

أدوات الثورة الجوهرية الثلاث : الحزب الشيوعى و الجبهة المتحدة و الجيش الشعبى :

قواعد الإرتكاز و السلطة السياسية الجديدة :

الإعداد للإنطلاق فى حرب الشعب :

نزوح سكّان الريف و نموّ المدن :

مكانة المدن فى حرب الشعب :

الأزمة الثورية عبر البلاد بأسرها :

حول إستراتيجيا الإنتفاضة المدينية :

حرب شاملة و ليست حربا محدودة :

لنتقدّم و نتجرّأ على القتال من أجل عالم جديد!

فهرس الكتاب 15 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 15 –

مقال " ضد الأفاكيانيّة " و الردود عليه

نقاش حاد و جدال ملحّ : النضال من أجل عالم مغاير راديكاليّا و النضال من أجل مقاربة علمية للواقع.

لريموند لوتا

I - إختراق حيوي : " القوّة المحرّكة للفوضى " كدیناميكية حاسمة للرأسمالية :

أ- خلفية :

ب- حفريّات فى الإقتصاد السياسي :

II - رفض معالجة طبيعة المراكمة الرأسمالية – أو لماذا " الرأسمالي تجسيد لرأس المال " : مزيدا عن المنافسة :

III - القوّة المحرّكة للفوضى و العالم الذى يخلقه رأس المال و يدمّره :

أ- الأزمة البيئية :

ب- التمدين والأحياء القصديرية :

ت- الأزمة العالمية ل2008-2009 :

IV - الرهانات : نظام لا يمكن إصلاحه ... هناك حاجة إلى الثورة :

- الهوامش :

ملحق : فهارس كتب شادي الشماوي .

فهرس الكتاب 16 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 16 –

الأساسيّ من خطابات بوب أفاكيان و كتاباته

<u>الملحق 1 : رسالة مفتوحة إلى الشيوعيين الثوريين و كلّ شخص يفكّر جدّيا فى الثورة بصدد دور بوب أفاكيان و أهمّيته.</u>

<u>الملحق 2 : فهارس كتب شادي الشماوي .</u>

===

فهرس الكتاب 17 / 2014 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 17 –

قيادات شيوعيّة ، رموز ماويّة

مقدّمة :

الفصل الأوّل : تشانغ تشنغ : الطموحات الثورية لقائدة شيوعيّة

18- لنتجرّا على أن كون مثل تشانغ تشنغ

الفصل الثاني : تحيّة حمراء لشانغ تشن – تشياو أحد أبرز قادة الثورة الثقافيّة البروليتارية الكبرى الماويين

1- التجرّأ على صعود الجبال من أجل تحرير الإنسانية (جريدة " **الثورة** ")

2- عاصفة جانفي بشنغاي (جريدة " **الثورة** ")

3- بصدد الدكتاتورية الشاملة على البرجوازية (تشانغ تشن- تشياو)

4- على رأس الجماهير و فى أقبية سجون العدوّ : مدافع لا يلين عن الشيوعية.(أخبار "**عالم نربحه** ".)

الفصل الثالث : إبراهيم كايباكايا قائد بروليتاري شيوعي ماوي

1- لن ننسى الرفيق إبراهيم كايباكايا

2- موقف حازم إلى جانب حقّ الأمّة الكردية التى تعاني من الإضطهاد القومي الوحشي فى تركيا ، فى تقرير مصيرها

3- خطّ كايباكايا هوطليعتنا – مقتطف من الماوية تحيى و تناضل ، تكسب و تواصل الكسب

4- بصدد الكمالية (مقتطف)

5- المسألة القومية فى تركيا

الفصل الرابع : شارو مازومدار أحد رموز الماوية و قائد إنطلاقة حرب الشعب فى الهند

1- خوض الصراع ضد التحريفية المعاصرة

2- لننجز الثورة الديمقراطية الشعبية بالنضال ضد التحريفية

3- ما هو مصدر التمرّد الثوري العفوي فى الهند؟

4- لنستغلّ الفرصة

5- مهامنا فى الوضع الراهن

6- لنقاتل التحريفية

7- المهمّة المركزيّة اليوم هي النضال من أجل بناء حزب ثوري حقيقي عبر النضال بلا مساومة ضد التحريفية

8- حان وقت بناء حزب ثوري

9- الثورة الديمقراطية الشعبية الهندية

10- الجبهة المتحدة و الحزب الثوري

===

فهرس الكتاب 18 / 2015 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 18 –

من ردود أنصار الخلاصة الجديدة للشيوعيّة على مقال " ضد الأفاكيانيّة " لآجيث

2- الحزب الشيوعى النيبالى – الماوي (الجديد)
و مفترق الطرق الذى تواجهه الحركة الشيوعية العالمية :

مقدّمة

الجزء الأوّل : الوضع اليوم و إدعاءات الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي

الجزء الثاني : الحركة الشيوعية العالمية و الحزب الجديد

المنعرج اليميني فى النيبال : مناسبة للغبطة لدى بعض المراكز

ملاحظات مقتضبة ختاميّة عن الحزب الشيوعي النيبالي – الماوي و الصراع صلب الحركة الأممية الثورية ، و الخلاصة الجديدة للشيوعية :

ملحق من إقتراح المترجم

الثورة النيبالية و ضرورة القطيعة الإيديولوجية و السياسية مع التحريفية .

كلمة للمترجم :

مفترق طرق حاسم : رسالة مناصر للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحزب الشيوعى النيبالى – الماوى المعاد تنظيمه .

3- الشيوعية أم القومية ؟

مقدّمة

1- موقفان متعارضان ، هدفان مختلفان و متعارضان جوهريا :

2- مواصلة تطوير علم الشيوعية أم التمسك بأخطاء الماضى و تمجيدها ؟

3- النظام الرأسمالي – الإمبريالي نظام عالمي :

4- فى البلدان المضطهَدَة : القتال من أجل بلد رأسمالي مستقلّ أم من أجل ثورة تتبع الطريق الإشتراكي كجزء من الإنتقال إلى الشيوعية العالميّة ؟

5- إدماج بلدان فى النظام الرأسمالي – الإمبريالي جعل الثورة الإشتراكية ممكنة فى البلدان الأقل تطوّرا رأسمالياً :

6- البروليتاريا : طبقة أمميّة فى الأساس أم " بصفة خاصة قوميّة شكلا و مميّزات " ؟

7- الأساس الفلسفي للأممية البروليتارية :

8- عدم قدرة القوميّة الضيّقة على تصوّر السيرورة العالميّة و تفاعلها الجدلي مع التناقضات الداخليّة للبلدان :

9- ما الذى تعلمنا إيّاه التجربة التاريخية الحقيقيّة للثورة البلشفيّة ؟

10 – هل أنّ حملة الحروب الإمبريالية محدّدة أساسا بخصوصيّات كلّ بلد ؟

11- القوميّة و الإقتصادويّة بإسم " الخصوصيّات " أم تغيير الظروف إلى أقصى درجة ممكنة للقيام بالثورة ؟

12- الأممية – العالم بأسره فى المصاف الأوّل :

13- فى البلدان الإمبريالية " نداء العزّة القوميّة " أم تطبيق الإنهزاميّة الثوريّة ؟

14- الإيديولوجيا الشيوعية فى البلدان المضطهَدَة يجب أن تكون أيضا الشيوعية و ليس القومية :

15- التغيير التاريخي – العالمي من النظام الرأسمالي – الإمبريالي إلى النظام الشيوعي العالمي :

16- الشيوعية أم القوميّة ؟

الهوامش :

4- آجيث – صورة لبقايا الماضى

I - تمهيد : طليعة المستقبل أم بقايا الماضي

II - الثورة الشيوعية و الشيوعية كعلم و مهمّة البروليتاريا ولماذا الحقيقة هي الحقيقة :

- رفض آجيث للشيوعية كعلم
- الماديّة التاريخية : نقطة محوريّة فى الماركسية
- المنهج العلمي فى كلّ من العلوم الطبيعية و الإجتماعية
- آجيث يرفض المنهج العلمي فى العلوم الإجتماعية
- آجيث وكارل بوبر

III - الموقع الطبقي و الوعي الشيوعي :

- " مجرّد المشاعر الطبقية " و الوعي الشيوعي
- دفاع آجيث عن تجسيد البروليتاريا
- مساهمة لينين الحيوية فى الوعي الشيوعي
- البروليتاريا وكنس التاريخ
- القومية أم الأممية ؟

- التبعات السلبيّة للتجسيد فى الثورات الإشتراكية السابقة

IV - هل للحقيقة طابع طبقي ؟

- " الحقيقة الطبقية " كنزعة ثانوية فى الثورة الثقافية

- آجيث و التحزّب الطبقي

V - إستهانة آجيث بالنظريّة :

- نظرة ضيّقة للممارسة و الواقع الإجتماعي

- " الممارسة المباشرة " لماركس و إنجلز لم تكن مصدر تطوّر الماركسية

- يجب على التحزّب أن يقوم على العلم

- الدروس المكلفة ل" الحقيقة السياسيّة "

VI - بعض النقاط عن الفلسفة و العلم :

- مكانة الفلسفة فى الماركسية

- آجيث يفصل بين الفلسفة و العلم

- مقاربة آجيث شبه الدينيّة للمبادئ الأساسية للماركسية

- الحقيقة المطلقة و الحقيقة النسبيّة و تقدّم المعرفة

- إلى أي مدى يمكن أن نكون متأكّدين من معرفتنا ؟

VII - الثورة الشيوعية ضرورية و ممكنة لكنّها ليست حتميّة ... ويجب إنجازها بوعي :

- ماركس و أفاكيان بصدد " الترابط المنطقي " فى التاريخ الإنساني

- الديناميكية الحقيقية للتاريخ و النظرات الخاطئة صلب الحركة الشيوعية

- الحرّية و الضرورة و تغيير الضرورة

- فهم آجيث الخاطئ للحرّية و الضرورة

- قفزة لكن ليس إلى حرّية **مطلقة**

- لا جبريّة فى الثورة

- كيف نفهم القوانين التاريخية ؟

VIII - آجيث يجد نفسه بصحبة ما بعد الحداثة و الدين :

- تقييم أفاكيان الجدلي للتنوير

- هجوم آجيث على التنوير و تشويهه لوجهات نظر أفاكيان

- عن موقف ماركس تجاه الحكم البريطاني فى الهند

- معارضة آجيث ل " الوعي العلمي "

- العلم و المعرفة التقليدية

- آجيث يسقط فى أحضان ما بعد الحداثة

- تعويض الحقيقة ب " رواية شخصية "

- نقد غير علمي للرأسمالية

- معانقة آجيث لمدرسة فرانكفورت

- آجيث و التقليد الكانطي

IX – آجيث يدافع دفاعا بشعا و معذّبا عن الدين و سلاسل التقاليد :

- وضع حجاب على إضطهاد النساء

- التذيّل للقومية و تجميل الأصولية

- أفاكيان بشأن الشريحتين اللتين " ولّى عهدهما " و الصراع الإيديولوجي مع الدين

- الإختيار بين الشريحتين اللتين " ولّى عهدهما " أم التقدّم بطريقة أخرى ؟

X - الخاتمة

فهرس الكتاب 19 / 2015 :

الماوية : نظرية و ممارسة – 19 –

نصوص عن الإنتفاضات في بلدان عربيّة من منظور الخلاصة الجديدة للشيوعيّة

الفصل الرابع : مصر و تونس و الإنتفاضات العربية : كيف وصلت إلى طريق مسدود و كيف الخروج منه - مقال من مجلّة " تمايزات " :

ملحق 1 : من المقالات الهامة الأخرى .

ملحق2 : مقال إسرائيل ، غزّة ، العراق و الإمبريالية : المشكل الحقيقي والمصالح الحقيقيّة للشعوب

ملحق 3 : فهارس كتب شادي الشماوي.

==

فهرس الكتاب 20 / 2015 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 20 –

نضال الحزب الشيوعيّ الصينيّ ضد التحريفيّة السوفياتية 1956 - 1963 :

تحليل و وثائق تاريخية

==

فهرس الكتاب 21 / 2015 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 21 –

مقدّمات عشرين كتابا عن " الماويّة : نظريّة و ممارسة "

و فى ثنايا هذا العدد 21 من " **الماوية : نظريّة و ممارسة** " ، فضلا عن المقدّمات التى ألفّنا للأعداد السابقة لهذه المجلّة ، بعض الخواتم من تأليفنا و أيضا ملاحق أردناها مكمّلة و متمّمة لمضامين الكتاب برمّته . و هذه الملاحق هي على التوالي :

الملحق 1 : قراءة فى شريط – العدو على الأبواب – ستالينغراد (Enemy at the gates)

الملحق 2 : فهارس كتب شادي الشماوي

الملحق 3 : روابط تحميل العشرين كتابا من مكتبة الحوار المتمدّن

الملحق 4 : كتابات شادى الشماوى و تواريخ نشرها بموقعه الفرعي فى الحوار المتمدّن

(لتنزيل الكتاب بأكمله نسخة بى دة أف ، عليكم بمكتبة الحوار المتمدّن)

http://www.4shared.com/file/p--2OUQsce/__-______-__.html

=====================================

فهرس الكتاب 22 / 2015 :

الماوية : نظرية و ممارسة – 22 –

المساهمات الخالدة لماو تسى تونغ

تأليف بوب أفاكيان

فهرس الكتاب :

==========

تفاصيل الفصول السبعة (إضافة من المترجم) :

فهرس الكتاب 23 / 2016 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة – 23 –

لا تعرفون ما تعتقدون أنّكم " تعرفون " ...

الثورة الشيوعيّة و الطريق الحقيقىّ للتحرير :

تاريخها و مستقبلنا

ريموند لوتا

عدد خاص من جريدة " الثورة " (عدد 323) ، 24 نوفمبر 2013

www.revcom.us

http://revcom.us/a/323/you-dont-know-what-you-think-you-know-en.html

محتويات الكتاب 23 :

- لا غرابة فى كونهم يشوّهون الشيوعية

لبوب أفاكيان

الحوار مع ريموند لوتا

الفصل الأوّل : المقدّمة

- أكاذيب الفكر التقليدي

- نحتاج إلى ثورة و عالم جديد تماما

الفصل الثانى : بزوغ الفجر – كمونة باريس

- إستخلاص ماركس الدرس الأساسي من الكمونة : نحتاج إلى سلطة دولة جديدة

الفصل الثالث : 1917 – الثورة تندلع عبر روسيا

- لينين و الدور الحيوي للقيادة الشيوعية

- نوع جديد من السلطة

- تغييرات راديكالية فى وضع النساء

- التغييرات الراديكالية : الأقلّيات القومية

- الفنون

- جوزاف ستالين

- بناء إقتصاد إشتراكي

- الصراع فى الريف

- تغيير الظروف و تغيير التفكير

- منعرج : سحق الثورة فى ألمانيا و وصول النازيين إلى السلطة

- الأخطاء و النكسات

- مسألة توجّه

- نوعان من التناقضات

- علاقة حيويّة : التقدّم بالثورة العالمية و الدفاع عن الدولة الإشتراكية

الفصل الرابع : ربع الإنسانيّة يتسلّق مرتفعات تحرير جديدة

- ولادة ثورة

- الصين عشيّة الثورة

- إستنهاض الجماهير لتغيير المجتمع بأكمله

- مسألة لم تحسم : إلى أين يتجه المجتمع ؟

- القفزة الكبرى إلى الأمام

- طريق تطوّر سليم و عقلاني

- الحقيقة حول المجاعة

الثورة الثقافيّة : أعمق تقدّم فى السير نحو تحرير الإنسان إلى الآن

- خطر الإنقلاب على الثورة

- إطلاق العنان للشباب للشروع فى الثورة الثقافيّة

- الطبيعة المتناقضة للإشتراكية

- " كانت ثورة حقيقيّة "

- النقاش الجماهيري و التعبئة الجماهيرية و النقد الجماهيري

- الأشياء الإشتراكيّة الجديدة

- " طبيعة الإنسان " و التغيير الإجتماعي

- إرسال المثقّفين إلى الريف

- أين الخطأ فى " التاريخ من خلال المذكّرات " ؟

- المعركة الكبرى الأخيرة لماو تسى تونغ

الفصل الخامس : نحو مرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

- بوب أفاكيان يتقدّم بالخلاصة الجديدة للشيوعية

- التعلّم من الثورة الثقافيّة و المضيّ أبعد منها

- العالم يحتاج إلى الخلاصة الجديدة للثورة الشيوعية

الهوامش :

المـلاحق

بحثان حول الإبستيمولوجيا :

- " لكن كيف نعرف من الذى يقول الحقيقة بشأن الشيوعية ؟ "

- ردّ قارئ لجريدة " الثورة " على " أين الخطأ فى " التاريخ من خلال المذكّرات " ؟

التاريخ الحقيقى للثورة الشيوعية

==

ملاحق إضافية من إقتراح المترجم :

الملحق 1 : لهوغو تشافيز إستراتيجيا نفطية ... لكن هل يمكن لهذا أن يقود إلى التحرير ؟

الملحق 2 : كوريا الشماليّة ليست بلدا إشتراكيّا

الملحق 3 : الإستعمار من جديد بإسم التطبيع وراء إعادة إرساء العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة و كوبا

الملحق الرابع : فهارس كتب شادى الشماوى

====================================

فهرس الكتاب 24 / 2016 :

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 24-

الصراع الطبقيّ و مواصلة الثورة في ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا :

الثورة الثقافيّة البرولتاريّة الكبرى قمّة ما بلغته الإنسانيّة فى

تقدّمها صوب الشيوعيّة

بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة الثقافيّة البروليتارية الكبرى التى ألهمت و لا تزال تُلهم عبر العالم قاطبة ملايين الشيوعيين الثوريين و الجماهير الشعبيّة التوّاقين لتحرير الإنسانيّة و تشييد عالم آخر ضروري و ممكن ، عالم شيوعي ، و مساهمة منّا فى مزيد التعريف بهذه الثورة و رفع رايتها الحمراء ، أتممنا صياغة فصول أضفناها إلى أخرى سبق نشرها لتأليف هذا الكتاب الذى ننشر اليوم.

الفصل الخامس :

الثورة الثقافية فى الصين...الفنّ والثقافة...المعارضة والصراع...والمضيّ بالثورة نحو الشيوعية (بوب أفاكيان)

خاتمة الكتاب

ملاحق (3) : 1- قرار ال16 نقطة.
2 - ماو تسى تونغ يحلّل الثورة الثقافية .
3- الرئيس ماو تسى تونغ يناقش مظاهر البيروقراطية.

المراجع الأساسية المعتمد
أدبيات إضافية متوفرة على الأنترنت

فهارس كتب شادي الشماوي

==================================

إضافات إلى الجزء الأوّل من الكتاب

(1)

Prisoners write about Bob Avakian

What People Are Saying about Bob Avakian and *BAsics*

Comments and Reviews

(2)

سيرة مخترصة لبوب أفاكيان

المزيد بصدد بوب أفاكيان

عن موقع

Revolution Newspaper | revcom.us

===================================

(3)

حول القادة و القيادة

=======================================

الجزء الثانى : عن أهمّية الخلاصة الجديدة للشيوعية

1- ما هى الخلاصة الجديدة لبوب أفاكيان؟

لينى وولف ، جريدة " الثورة " عدد 129 ، 18 ماي 2008

2- إطار نظري جديد لمرحلة جديدة من الثورة الشيوعية

مقتطفات من كتاب : **" العلم و الثورة – حول أهمّية العلم و تطبيقه على المجتمع و الخلاصة الجديدة للشيوعية و قيادة بوب أفاكيان " لأرديا سكايبراك - 2015**

3- الخلاصة الجديدة للشيوعية : التوّجه و المنهج و المقاربة الجوهريّين و العناصر الأساسيّة

بوب أفاكيان ، رئيس الحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكية - صائفة 2015

جريدة " **الثورة** " عدد 395 ، 13 جويلية 2015

3- إضافات إلى الجزء الثانى من الكتاب

(1)

ستّة قرارات صادرة عن اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة

(1 جانفي 2016 ، نشرت فى جريدة " **الثورة** " عدد 423 ، 25 جانفي 2016)

(2)

حان وقت التنظّم من أجل ثورة فعلية

رسالة من اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعى الثوري ، الولايات المتّحدة الأمريكية

(جريدة " **الثورة** " عدد 440 ، 23 ماي 2016)

(3)

مبادئ نوادى الثورة

(جريدة " **الثورة** " عدد 444 ، 20 جوان 2016)

(4)

كيف يمكننا الإنتصار – كيف يمكننا فعلا القيام بالثورة

اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الثوري ، الولايات المتحدة الأمريكية

جريدة " **الثورة** " عدد 457 ، 19 سبتمبر 2016

==

ملاحق الكتاب 25

(1)

إلى الشيوعيّين الثوريّين فى العالم و أفغانستان : قطيعتنا مع الحزب الشيوعى (الماوي) الأفغانى

مجموعة الشيوعيّين الثوريّين - أفغانستان – سبتمبر 2015

(2)

حاجة ملحّة : رفع راية الخلاصة الجديدة للشيوعية لبوب أفاكيان ،

بيان للمجموعة الشيوعيّة الثوريّة بكولمبيا ، غرّة ماي 2016

الإطار الجديد الضروري للمرحلة الجديدة للثورة !

(3)

هذا نداء إستعجالى لغرّة ماي ! لا وقت نضيّعه !

عالم مغاير جذريّا ممكن ! فقط إن رفعنا راية الخلاصة الجديدة للشيوعية !

الحزب الشيوعى الإيرانى (الماركسى – اللينينى – الماوى) - غرّة ماى 2016

(4) فهارس كتب شادي الشماوي

=======================================

=======================================

===============

فهرس الكتاب 26 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة -26-

المعرفة الأساسيّة للحزب الشيوعيّ الصينيّ (الماويّ – 1974)

IV- الخط الأساسي للحزب

الخط الأساسي هو قوام حياة الحزب

ينبغى الاعتراف تماما بالطابع المتواصل للصراع الطبقي و الصراع بين الخطين

يجب التحلّى بالرّوح الثوريّة للذهاب ضد التيّار

يجب تسوية العلاقة بين "الحبل الرئيسي " و "عقد الشبكة " بطريقة صحيحة

V- مبادئ الحزب الثلاثة حول الأشياء التى يجب القيام بها و الأشياء الثلاثة التى يجب عدم القيام بها

ممارسة الماركسية و نبذ التحريفية

العمل من أجل الوحدة و نبذ الانشقاق

التحلى بالصراحة و الاستقامة و عدم حبك المؤامرات و الدسائس

"الأشياء الثلاثة التى يجب القيام بها و الأشياء الثلاثة التى يجب عدم القيام بها " هى المبادئ الأساسية التى يجب على أعضاء الحزب احترامها

VI - القيادة الموحّدة للحزب

يجب أن يقود الحزب كلّ شيء ، هذا مبدأ أساسي فى الماركسية – اللينينيّة

القيادة الموحّدة للحزب هى بالأساس قيادة إيديولوجيا و خطّ سياسى

المسك الجيّد بالمسائل الهامة و تعزيز القيادة الموحّدة للحزب

يجب على أعضاء الحزب الشيوعى أن يخضعوا عن وعى للقيادة الموحّدة للحزب وأن يحافظوا عليها

VII - المركزية الديمقراطية فى الحزب

المركزية الديمقراطية هى المبدأ التنظيمى للحزب

المسك بالعلاقة بين القيادة الجماعية و المسؤولية الشخصيّة بطريقة صحيحة

تطوير الديمقراطية داخل الحزب و الحفاظ على الوحدة الممركزة

VIII- الإنضباط فى صفوف الحزب

الإنضباط ضمان لتطبيق الخطّ

الإحترام الواعي للإنضباط الحزبي

التطبيق الصحيح للإنضباط الحزبي

IX- أساليب عمل الحزب الثلاث العظمى

أساليب العمل الثلاث العظمى عادة جيدة فى حزبنا

أسلوب دمج النظرية بالممارسة

أسلوب الحفاظ على علاقات وثيقة مع الجماهير

أسلوب عمل ممارسة النقد و النقد الذاتى

X – تكوين خلف قضيّة الثورة البروليتاريّة

تكوين خلف قضيّة الثورة مهمّة إستراتيجيّة هامة

تكوين خلف القضيّة الثوريّة و إختيارهم فى خضمّ النضال

ليعمل الحزب كلّه لإنجاز عمل تكوين خلف للثورة على أفضل وجه

XI – مهام منظّمات الحزب القاعدية

أهمّية الدلالة التى يكتسيها تعزيز بناء منظّمات الحزب القاعدية

المهام القتالية لمنظمات الحزب القاعدية

يجب على منظّمات الحزب القياديّة أن تضمن بناءها الخاص

XII - الدور الطليعي و النموذجى لأعضاء الحزب

الدور الطليعي و النموذجى لأعضاء الحزب فى غاية الأهمية

للنهوض بالدور الطليعى و النموذجى يجب أن نتّبع " المتطّلبات الخمس "

عن وعى نعيد تشكيل نظرتنا للعالم بهدف الإنخراط فى الحزب إيديولوجيا

==

==

فهرس الكتاب 27 / 2017

الماويّة : نظريّة و ممارسة - 27 -

متابعات عالميّة و عربيّة – نظرة شيوعيّة ثوريّة (2016-2013)

5 - الحضارة الغربيّة : " الموت للمهاجرين ! "

6 - عالم من المهاجرين و الإمبريالية و الحدود : غير مقبول و غير ضروري

7 - عدد كبير من الموتى فى البحر الأبيض المتوسّط : " لم يحدث شيء "

8 - أفغانستان : عقود ثلاثة من الهجرة الجماعية

9 - إلى متى يتواصل القبول بالمجازر فى البحر ؟

10 - منظّمة أطبّاء بلا حدود تتّخذ موقفا ضد السياسة الخبيثة للإتحاد الأوروبي تجاه مواجهة العدد التاريخي المتصاعد من المهاجرين إلى عالم لا يرحّب بهم

المحور الرابع : الإنتخابات الأمريكيّة و صعود الفاشيّة وضرورة ثورة شيوعية حقيقيّة وإمكانيّتها

الإنتخابات الأمريكية 1 : مزيد الإضطهاد والجرائم ضد الإنسانيّة فى الأفق... وضرورة ثورة شيوعية حقيقيّة وإمكانيّتها

1- المرشّحون للرئاسة يصرّحون بنيّتهم إقتراف جرائم حرب

2- الولايات المتّحدة الأمريكيّة : حول صعود دونالد ترامب ... و ضرورة ثورة حقيقيّة وإمكانيّتها

3- مقاربة علميّة جدّية لما يقف وراء صعود ترامب

بعض مؤلّفات بوب أفاكيان حول كيف وصلنا إلى هذا الوضع – و إمكانية شيء أفضل بكثير

4- ردّا على ترامب : الإجهاض ليس جريمة !

5- سؤالان إلى لويس فراخان و " أمّة الإسلام "

6- لنتعمّق فى أطروحات برنى سندارس

الإنتخابات الأمريكية 2 : ترامب و كلينتون وجهان لسياسة برجوازية إمبريالية واحدة

1- سيكون إنتخاب الديمقراطيين دعما لجرائم الحرب

2- لا – ليست إمبراطوريتنا !

ردّ ثوري على خطاب هيلاري كلينتون ضد ترامب

3- لماذا لا يجب علينا أن نصفّق لحكّامنا... و لماذا من الأفضل أن يخسروا حروبهم

الإنتخابات الأمريكية 3 : نقد الشيوعيين الثوريين لمواقف الخضر و نعوم تشومسكى

1- إلى الخضر : فى ظلّ هذا النظام لا تغيّر الإنتخابات أبدا أي شيء

نحتاج إلى الإطاحة بهذا النظام و ليس إلى التصويت له

نحتاج إلى ثورة فعلية !

2- لسنا فى حاجة إلى " التصويت للأقلّ شرّا " أو إلى " التصويت لطرف ثالث "

نحن فى حاجة إلى الإطاحة بالنظام برمّته فى أقرب وقت ممكن !

الإنتخابات الأمريكية 4 : موقف الحزب الشيوعي الثوري من إنتخاب فاشيّ لعين رئيسا للولايات المتحدّة

1- وقع إنتخاب فاشيّ لعين رئيسا للولايات المتحدّة –

لا يجب أن توجد أيّة أوهام بأنّ الأمر سيكون على ما يرام . لن يكون كذلك

2- لماذا لن أصوّت فى هذه الإنتخابات و لماذا يجب أن لا تصوّتوا أنتم أيضا ... و لماذا أدافع عن حقّ السود و غيرهم من المضطهَدين فى الإنتخاب !

3- لماذا لم تكن هيلاري كلينتون قط و ليست و لا يمكنها أن تكون مدافعة عن النساء

الإنتخابات الأمريكيّة 5 : بإسم الإنسانيّة ، نرفض القبول بأمريكا فاشيّة

1- بإسم الإنسانيّة ، نرفض القبول بأمريكا فاشيّة

إنهضوا ... إلتحقوا بالشوارع ... إتّحدوا مع الناس فى كلّ مكان لبناء مقاومة بكلّ السبل الممكنة

لا تقفوا : لا تساوموا ...لا تقبلوا بالتسويات ، لا تتواطؤوا

2- كيف يسير هذا النظام الرأسمالي – الإمبريالي و لماذا يجب الإطاحة به

3- أسئلة تطرح عادة بشأن الثورة والشيوعية (فى الولايات المتّحدة الأمريكية)

الإنتخابات الأمريكية 6 : ما هي نواة فريق إدراة دونالد ترامب الفاشي ؟ و ما هي إستراتيجيّته ؟

1- مع تشكيل ترامب لفريقه الفاشيّ ، يجب ان تتعزّز المقاومة !

2- مايك بانس : مسيحي فاشيّ ضربات قلبه ليست بعيدة عن رئاسة الولايات المتحدة

3- إعادة تكليف بانون الفاشي كأكبر القادة الإستراتيجيّين لدي ترامب

4- مستشار الأمن القومي لدى ترامب : الجنرال مايك فلين – " فى حرب مع الإسلام "

5- للإشراف على وكالة المخابرات المركزيّة إختار ترامب : مايك بمبيو – داعية للتعذيب و تمزيق حكم القانون

6- المدّعى العام لترامب جاف سيشينز : فارض تفوّق البيض و التطرّف البطرياركي

7- دونالد ترامب لن " يستعيد مواطن الشغل الأمريكيّة " ...بل بإسم مواطن الشغل الأمريكيّة سيرتكب فظائعا جديدة

8- ما يعنيه فوز ترامب للنساء : خطر لا يضاهى و الحاجة إلى قدر كبير من المقاومة الجماهيريّة

9- فوز ترامب – كارثة على البيئة تتطلّب مقاومة جماهيريّة

10- ترامب يهاجم الممثّلين ويقدّم فكرة عن مقاربته للفنّ والمعارضة : لن يسمح بأي نقد

11- إلى الذين لا زالوا ينظرون إلى برنى سندارس ...

12- يقول أوباما وكلينتون " لنتجاوز الأمر " لكنّ عشرات الآلاف يتمرّدون فى الشوارع

13- دفوس السكرتيرة الجديدة لل" تعليم " : الإقتطاع من التعليم العمومي و فرض المسيحيّة الفاشيّة

المحور الخامس : نظام عالمي إمبرياليّ قابل للإنفجار

1 ـ إستفتاء فى فنيزويلا : مكيدة الولايات المتحدة و حدود مشروع هوغوتشافيز و تناقضاته

2 ـ كوريا الشمالية ـ الولايات المتحدة : من يمثّل تهديدا نوويّا حقيقيّا ؟ و ما هي خلفية النزاع ؟

3 ـ الولايات المتحدة تهدّد كوريا الشمالية : ماذا وراء النزاع ؟

الجزء الثانى : متابعات عربيّة

====================================